الفكر العسكري
عند
ليدل هارت

تأليف: بريان بوند
ترجمة: سمير كرم

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

بريان بوند

الفكر العسكري عند ليدل هارت

ترجمة : سمير كرم

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

مقـــدمة

يتعلم المؤ رخون الاكاديميون ان يتحاشوا استخدام اسم المتكلم في صيغة المفرد ، ولكن لما كان من الدوافع المهمة لهذه الدراسة ارتباط وثيق بموضوعها فربما يتعين علي ان ابدأ بأن أقول شيئا عن علاقتي بالكابتن سير بازيل ليدل هارت .

لقد كان لي حظ الالتقاء به بعيد مجيئه للعيش في « ستيتس هاوس » في قريتي - « ميد منهام » - بمنطقة باكس في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٨ . وكنت آنذاك في السنة النهائية من دراستي في اكسفورد في التاريخ الحديث ، وكنت قد اخترت بالفعل التاريخ العسكري موضوعا لتخصصي . وبمصادفة سعيدة كان آخر كتابين قرأتهما قبل ذلك اللقاء مع « الكابتن » - كما اعتدت ان اناديه بعد ذلك - هما « شبح نابليون » و « الاستراتيجية - التقرب غير المباشر » ، ولما كنت قد وجدتهما مثيرين للاهتمام للغاية فقد كان من الطبيعي ان اجد فيهما بداية طيبة لي معه . ولم يكن من شأن هذه البداية ان تكون امرا عسيرا على اي الاحوال لانه كان شغوفا بمساعدة اي طالب يبدو مبشرا بالنجاح . ولقد اظهر على التو اهتماما كبيرا بعملي ، حيث كان يكرس الوقت والانتباه والقراءة وتدوين الملاحظات على ابحاثي الاخيرة السابقة على التخرج اكثر مما تستحق ، واعطاني نسخا موقعا عليها من كتبه وسمح لي بأن استخدم مكتبته التي لا يمكن مقارنتها بمكتبة اخرى وهو امتياز افدت منه ذلك الوقت . ومع اقتراب الامتحانات النهائية اعتبراني مفرط في العمل ومقل في الطعام واعطاني خمسة جنيهات - وهو كرم مميز لشخصيته - لانفقها على تناول اللحم ، وهو مبلغ كان يكفي في العام ١٩٥٩ لشراء نصف دزينة من الوجبات على الاقل .

على ان أهم « هبة » قدمها الي بازيل في ذلك الوقت كانت تشجيعه لي على الاعتقاد بأنني قادر بما فيه الكفاية على ان اصنع مستقبلا كمؤ رخ عسكري . وكان لذلك قيمة خاصة بالنسبة الي نظرا لانني كنت اميل الى الافتقار الى الثقة بالنفس من الناحية الاكاديمية ، وكان الاساتذة الذين حاضروني في كليتي قد ثبطوا من همتي في المضي الى ابحاث الدراسات العليا . وكانت ثقته بقدرتي اكثر اهمية حتى من ذلك حينما كنت طالب دراسات عليا بدون منحة تحت الضغوط الانفعالية في مثل ذلك السن ، ومع الاحتمالات القائمة في الحصول على وظيفة حيث كان الحال في ذلك الوقت - شأن الحال الآن - ندرة المناصب الاكاديمية في التاريخ العسكري الى أقصى درجات الندرة . وقد تكبد كثيرا من المشاق لاقناعي « بالاستمرار رغم المشقات حتى النهاية » ، وفي مساعدتي على اتخاذ

الخطوة الأولى - ذات الاهمية القصوى - على السلم الاكاديمي .

وكما اشرت من قبل ، لم اكن بأي حال الشاب الوحيد الذي كلف ليدل هارت نفسه عناء مساعدته : ويظهر بعض الآخرين في معرض « الاوغاد الشبان » بالصور الموقعة في « ستيتس هاوس » . ولكنني كنت محظوظا بنوع خاص في العيش في القرية ذاتها حيث كنت استطيع ان أراه كل يوم تقريبا ، وفي أية ساعة تناسبه - احيانا من التاسعة ليلا الى الحادية عشرة قبل منتصف الليل قبل ان يعود الى جلسة اخرى من جلسات الكتابة الطويلة في ساعات الليل المتأخر . ولقد ساعدت بدوري في اعادة ترتيب مكتبه ، وبدأت (بالاشتراك مع البروفيسور جاي لوقاس) العملية الطويلة الخاصة بتصنيف ابحاثه ، التي كانت آنذاك (١٩٦١) في حالة اختلاط يفوق التخيل . كذلك فقد عملت كمساعد باحث غير رسمي له ، استخرج له المعلومات ، واقرأ الكتب التي كان انشغاله الشديد يحول دون ان يعطيها اكثر من لمحة ، واصحح كتبه الاخيرة في المراحل المختلفة من الطبع على الآلة الكاتبة وقراءة « البروفات » .

هكذا عرفت ليدل هارت واعجبت به كصديق وناصح حار العاطفة قبل ان اوجه كثيرا من تفكيري الى صحة نظرياته او الى مدى تأثيرها ، والحقيقة انني كنت ميالا الى حد كبير الى قبول تقييمه الذاتي بروح غير نقدية ، وساعد على ذلك واقع انني تخصصت لسنوات عديدة في العهد الفكتوري . الذي لم يكن له فيه باع طويل . ومن ثم فانني لم اقع في حيرة ابدا ، كما حدث لبعض اصدقائه الذين عرفوه اولا من خلال مؤلفاته ، بفعل التباين بين شخص العلم المحترف والفرد الشخصي . وقد عبر عن هذه الفكرة جيدا « رونالد ليفين » في حديث اذاعي في احدى المناسبات .

« انك لم تحصل من الكتب بالتأكيد على انطباع بالحرارة : اما هنا فإنك شعرت بأنك امام كاتب صريح ، انسان لم يسر بمعاناة الحماقات ، رجل كان يعرف عقله هو - لم تشعر حقا انك امام انسان محبوب . . . . ولكنك - بالطبع - عندما التقيت به ذهب كل ذلك عرض الحائط . وعلى الفور ادركت انك امام شخص دافىء ، كريم ، مرح ، لديه عدد هائل من الاهتمامات » .

وبالمثل كتب « مايكل هوارد » قائلا ان « عشرات ان لم يكن مئات من الطلاب والمريدين كانوا مولعين بهذا الاستاذ العنيد المحب »[1] ويشهد العدد الهائل من الملفات الضخمة التي تغطي فترة زمنية طويلة والتي تحتوي على مراسلاته ، على العبقرية التي كان يتمتع بها في الاحتفاظ بصداقاته مع اناس على درجة ملحوظة من التباين فيما بينهم .

وينبغي التأكيد بان ليدل هارت كان يستمتع بالمناقشة الفعلية والحوار سواء في الحديث او في

---

(١) « ليدل هارت : الكابتن الذي علم الجنرالات في مجلة « ليسنر » (المستمع) ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ . مايكل هاوارد « ليدل هارت » في مجلة « انكاونتر » نيسان (ابريل) ١٩٧٠ .

الكتابة . كان يحب ان يصمد الناس في المناقشة معه ، ومن تجربتي كان متسامحا بصورة ملحوظة تجاه وجهات النظر المتباينة ، بعض النظر عن سن الشخص الذي يعتنقها وعن مكانته . ولانه كان شديد الشعور بذاته بغير خجل ، فانه كان يحب ان يسجل فوزا وان يقلب طريقة تفكيره ، ولكنه كان يمكن ان يقبل « الاخفاق » فلسفيا شرط ان تراعى اللفتات الودية . كذلك تبرهن ملفات مراسلاته على انه نادرا ما قطع علاقة في ثورة غضب أو نتيجة فراغ صبر أو انعدام تسامح ، وهو ما يتناقض مع ما يمكن للمرء ان يتصوره من « الطفل المشاكس » الذي اثارت مقالاته المتغطرسة غضب بعض الجنرالات الاقل تقدمية في عشرينات هذا القرن[٢] .

ولما كان ليدل هارت مناصرا لا يكل للحكم المستقل في السعي الى الحقيقة ، فانه ربما كان مستعدا لمواجهة حقيقة . ان أشد تلاميذه ارتباطا به (لم يكن وصف « ولاء » واحدا من اوصاف المديح المفضلة لديه) كان يمكن ان يختلفوا معه حول بعض النقاط الهامة . وكنت قد اصبحت مدركا فعلا - بنوع من عدم الارتياح - في السنوات الاخيرة من حياته انني لا اتفق معه الى حد التطابق في مسائل معينة كان ذهنه قد تشبث بها بصورة لا رجعة فيها . وعلى سبيل المثال ، عند تحرير يوميات اللفتنانت جنرال سير هنري باونول[٣] Sir Henry Pownall (الذي أدى الخدمة في امانة لجنة الدفاع الامبراطورية من العام ١٩٣٣ الى العام ١٩٣٦ وكان مديرا للعمليات والمعلومات العسكرية في وزارة الحرب خلال الفترة ١٩٣٨ - ١٩٣٩) توصلت الى استنتاج بان باونول وزملاءه في الاركان العامة - وان كانوا اقل تقدما من ليدل هارت في تفكيرهم في المكننة - كانوا في معظمهم ضباطا محترفين اذكياء يتصدون لمشكلات استراتيجية ومالية عسيرة لم يشرحها الصحفي الناقد* شرحا وافيا ومعقولا . اما بالنسبة الى ليدل هارت نفسه - من الناحية الاخرى - فقد كان طابع قصر النظر ، والعرقلة ، الذي ميز الاركان العامة في الثلاثينات ، قد اصبح يشكل لديه اعتقادا راسخا ، لم يكن من المعقول ان يتوقع احد منه ان يتخلى عنه في اواخر حياته .

عندما توفي ليدل هارت فجأة في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ كنا قد بدأنا لتونا التعاون في مجلد يحتوي اقوال المفكرين العسكريين البارزين ، من صن تزو الى الوقت الحاضر[٤] . ولقد شعرت على مدى السنتين التاليتين ، او نحو ذلك ، انني متورط انفعاليا الى حد لا يسمح لي بالكتابة عنه بطريقة موضوعية ، ولكنني توصلت بعد ذلك تدريجيا الى الاستنتاج بان

---

(٢) انظر مثلا المقال الذي نشر تحت اسم مستعار مكشوف هو « بارديل » : الدراسة والتأمل ضد التجربة العملية في The Army Quarterly (فصيلة الجيش) تموز (يوليو) ١٩٢٣ .

(٣) بريان بوند (محررا) رئيس الاركان : يوميات اللفتنانت جنرال سير هنري باونول ، ١٩٣٣ - ١٩٤٤ (في مجلدين) نشر ليو كوبر ١٩٧٢ - ١٩٧٣ .

* المقصود ليدل هارت نفسه . المترجم .

(٤) توخى هذه المهمة بعد ذلك ادريان ليدل هارت ونشرت بعنوان السيف والقلم (نشر كراويل ١٩٧٦ ، وكاسيل ١٩٧٨) .

باستطاعتي ان افعل ذلك وان من شأن معرفتي الجيدة به ان تكون رصيدا في تحقيق وجهة نظر متوازنة . ولست اعرف اذا كان بالامكان اثبات صحة ذلك في سيرة شخصية لانه تقرر ان في تنفيذ ذلك عجلة شديدة . واعطيت ـ بدلا من هذا ـ تصريحا بان اكتب اول تقييم شامل لفكره العسكري ، متمتعا بحق الاطلاع دون اية قيود على اوراقه ، ولكن مع النص على انه يتعين علي الا أدرج من المعلومات المتعلقة بالسيرة الا بالقدر الضروري مطلقا لتوفير السياق لهذه الافكار . ولقد استطعت ان انفذ هذا دون شعور بان دافعا انفعاليا يتدخل في حكمي الدراسي ، حقا ان بعض القراء ربما يعتقد انني ملت بأكثر مما يجب الى الجانب الآخر حتى أتحاشى الاتهام للصداقة . ولا استطيع ان اقول الا انني لم امل عن وعي لناحية او اخرى ، انما بذلت كل جهدي لكي اكون منصفا ومحايدا : اما الى اي حد نجحت فهذا امر ينبغي ان يقرره اساسا القراء المطلعون ، اعني القراء العارفين بالسجلات والمؤلفات ايضا .

وسيتضح لمثل هؤلاء القراء ان هذه الدراسة لا تدعي كونها جامعة أو مانعة . انما الذي تفعله حقا هو اقتفاء الاثر وسط الغابة الكثيفة ـ التي لم تكتشف بعد بالفعل في اجزاء هامة منها ـ من اوراق ليدل هارت(٥) . ان ليدل هارت هو النبي المعترف به عالميا للحرب الميكانيكية أو الحرب الخاطفة blitzkrieg وبطل استراتيجية التقرب غير المباشر . ومن الشائع ايضا انه كان مهتما طوال عمره باصلاح الجيش البريطاني ، وانه حقق قدرا كبيرا من النجاح كمستشار غير رسمي لهور ـ بيليشا* Hore-Belisha عشية الحرب العالمية الثانية . ولكن ما يقال عنه اكثر من ذلك ، فقد كان يعلق اهمية اكبر على تفكيره التأملي الاكثر عمومية حول الحرب والسلام ، ويظهر هذا الجانب بصورة اضخم في سجلاته مما في مؤلفاته(٦) ، حيث يقدم افكارا قيمة كثيرة ، وفوق كل شيء فان ما يمكن تسميته « فلسفته » يبدو لي اكثر اثارة للاهتمام لامد طويل من اية نظريات او اصلاحات جزئية ترتبط باسمه . ولهذا فانني كرست ـ عامدا ـ حيزا لتطور هذه الافكار العامة وتأثيرها اكبر مما كرست ـ مثلا ـ للكتابات التكتيكية والعملياتية ، التي كانت موجهة بصفة اولية للجندي المحترف ، وان لم يكن له دون غيره .

---

(٥) جرى تبسيط كبير لعملية الاستكشاف امام الباحثين مستقبلا بفضل الدليل الجديد بالاعجاب الذي اعده ستيفن بروكس ، والذي سيساعده الفهرس الذي تتولى في الوقت الحاضر تجميعه مس باربارا كيف ومن اجل مقدمة جيدة لتاريخ السجلات وترتيبها الراهن انظر ستيفن بروكس « ليدل هارت واوراقه » في كتاب بريان بوند وايان روي (محررين) الكتاب السنوي للحرب والمجتمع ـ المجلد الثاني (نشر كروم هيلم : هولمز ومايير ١٩٧٧) ص . ١٢٩ - ١٤٠ .

* ليزلي هور ـ بيليشا (١٨٩٣ ـ ١٩٥٧) زعيم سياسي انكليزي ، ومحام وصحفي . وكان وكيلا ماليا لوزارة الخزانة (١٩٣٢ ـ ١٩٣٤) ثم وزيرا للنقل (١٩٣٤ ـ ١٩٣٧) فوزيرا للحرب (١٩٣٧ ـ ١٩٤٠) . « المترجم » .

(٦) لقد مر (ليدل هارت) « بمرحلة فلسفية » معلنة في الثلاثينات ، وربما يرجع ذلك في جانب منه الى تأثيرت . ا . لورانس (لورانس العرب : المترجم) . وكثير من تأملاته في تلك المرحلة مدرج في كتاب « افكار عن الحرب (١٩٤٤) . وهو احد اكثر كتبه تعبيرا عن ذاته اثارة للاهتمام .

وتمشيا مع تشبيهي السابق فان هذه الدراسة ستؤدي خدمة مفيدة اذا ما فتحت مساحات جديدة من الغابة لدارسين آخرين . ولا يزال من السابق لاوانه كثيرا اصدار حكم جازم بشأن مكانة ليدل هارت كمنظّر عسكري ، وليس من الواضح بعد ان تأثيره لم يعد كبيرا فهناك مجال لعديد من الابحاث المدرسية (الاسكولائية) ـ مثلا ـ عن مدى تأثير ليدل هارت ، والطبيعة المحددة لذلك التأثير ، على الجيش البريطاني وعلى جيوش اجنبية ، عن تأثيره في تشكيل الرأي العام بشأن الحرب العالمية الاولى بوجه عام ، وبشأن سير دوغلاس هيغ بوجه خاص[7] ، عن دوره كمراسل حربي لصحيفتي « ديلي تلغراف » و « التايمز » ، عن « المشاركة » بينه وبين هور ـ بيليشا ، وعن انجازه كمؤرخ . ومن شأن هذه الدراسات المتخصصة ان تكون رصيدا هائلا لمن سيتولى في النهاية كتابة سيرة حياة ليدل هارت .

تشكل الدراسة الحالية المحاولة الاولى لوضع فكر ليدل هارت العسكري في المنظور الملائم عن طريق تقصّي اصول وتطور افكاره الاساسية طوال حياته العملية كلها . ان المجلد الثاني من كتابه الخاص ذكريات ينتهي مباشرة بعيد بداية الحرب العالمية الثانية ، ولم يتم ابدا استكمال مشروع المجلد الثالث[8] . وثمة هدف هام آخر لهذه الدراسة هو البرهنة على ان اسهام ليدل هارت في فهم مشكلات الحرب والسلام المعاصرة لم يتوقف بصورة مباغتة في العام ١٩٤٠ او العام ١٩٤٥ . وذلك لانه على النقيض ـ كان من بين اكثر المحللين الاوائل للطبيعة المحتملة للحرب والصراع في العصر النووي قدرة على التنبؤ . وهو لم يتخل الا بعد العام ١٩٦٠ عمليا عن الصراع من اجل مواكبة الشؤون الجارية كخبير ، حتى يكرس وقته بصورة متزايدة للدراسات التاريخية .

ان كل من عمل في سجلات « ستيتس هاوس » سيوافقني بالتأكيد على ان ليدل هارت كان يجمع كمية مفرطة من الاوراق ، ولكنه لا بد ان يكون ممتنا في الوقت نفسه لهوسه بالاحتفاظ بكل قصاصة تحمل دليلا مكتوبا . فهكذا ـ على سبيل المثال ـ استطعت في هذه الدراسة ان اعتمد على دفاتره المدرسية ورسائله الى امه في رسم الخطوط العامة لشخصيته ونظرته العامة قبل الحرب العالمية الاولى . وتكشف رسائل اخرى وبيان غير منشور عن حملة « السوم » Somme عن صورة غير متوقعة لملازم ورمانسي محب للوطن يكيل المديح للقيادة العليا البريطانية . ومع نهاية الحرب وانشغاله في مراجعة تكتيكات المشاة تصبح المادة المتوفرة فعلا مجلدات ضخمة : مسودات مقالات ، بروفات غير مزودة بحواش للكتيبات والدفاتر المختلفة ، مراسلات مع ضباط معنيين

---

(٧) يناقش بول فوسيل افكارا هامة عن هذا الموضوع في كتابه : الحرب العظمى والذاكرة الحديثة (نشر مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٧٥)، انظر ايضا مايكل هوارد في عرضه الثاقب في الملحق الادبي لصحيفة التايمز ، ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٥ .

(٨) مقال جاي لوفاس الرائد في كتاب « تربية جيش The Education of an Army» (جامعة شيكاغو ١٩٦٤ ، كاسيل ١٩٦٥) ينتهي عند العام ١٩٤٠ ، وكذلك يفعل الفصل الذي كتبه ارفنغ م . جيبسون بعنوان « ماجينو وليدل هارت » في كتاب إ . م . ايرل (محررا) : صانعو الاستراتيجية الحديثة (نشر جامعة برنستون ١٩٤١ ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٤٤ ، واعيد نشره بلا تنقيح في العام ١٩٦٦) انظر ايضا الملحوظة البيبلوغرافية ص ٢٧٩ .

بالمسائل ذاتها المعلقة بتدريب المشاة ومع محرري صحف مختلفة ـ كلها احتفظ بها بكل مثابرة . ومع ذلك تبقى المراسلات العامة قليلة طوال العشرينات ، اساسا لانه كان يفتقر الى سكرتيرة منتظمة ، ولكن هناك استثناءات هامة قليلة ، وخاصة كولونيل ج . ت . سي . فولر ، وضابط احتياط اميركي هو الكابتن ج . م . سكاميل ، الذي درس التاريخ العسكري لفترة قصيرة في اكسفورد في العشرينات . وقد اعتاد ليدل هارت ان يستخدم مراسلاته مع ضباط اذكياء ـ ولكنهم ليسوا من الضرب ذاته من التفكير ـ كهؤلاء ، لكي يختبر ويهذب ويوضح افكاره هو . وبالتالي فقد تم الاعتماد لدرجة كبيرة على ملفاتهم لتصوير تطور تفكيره في الفترة الحرجة التي تلت العام ١٩١٨ .

ولا حاجة هنا لاكثر من رسم الخطوط العريضة لاهتماماته في اوسع معانيها . فلقد اصبح ليدل هارت ـ على العكس من غالبية معاصريه الذين بقوا على قيد الحياة الى ما بعد الكارثة (كارثة الحرب العالمية الاولى ـ المترجم) ـ مستاء استياء عميقا من النظام العسكري البريطاني ، خاصة من « مؤسسة » establishment كبار الضباط الذين كانت لهم السيطرة في وزارة الحرب . ومع ذلك فانه لم يرفض النظام ـ شأن أقلية متطرفة ـ الى حد ان يصبح معاديا للعسكريين أو رجل سلام (ربما باستثناء الفترة القصيرة في نهاية حياته) . فانه بدلا من ذلك كان بين حفنة من الرجال حاولوا ان يفكروا بهدوء في الكيفية التي وقعت بها المحنة والمذبحة ، وكيف يمكن تفاديها في المستقبل . « كانت الحرب جحيما ، ولكن الرغبة في عدم نشوبها لم تكن لتمنع وقوعها . وكان لا بد لشخص ما ان يفكر كيف ـ اذا حدثت ـ يمكن خوضها بطريقة انظف ، وعلى نحو اكثر حسما ، وفوق كل شيء بشكل اكثر ذكاء »[٩] .

ولقد تصدى لهذه المهمة الهرقلية بطريقة منهجية في العشرينات ، فابتدع اولا تكتيكات اكثر مرونة وحركية للمشاة ، وبعدها اضاف العناصر الجديدة الثورية ، من الدبابات والطائرات ، ثم وسع نطاقه ليعلن مذهبا استراتيجيا في « التقرب غير المباشر » . ولقد كانت لهذه الافكار ، وخاصة تلك التي تنطوي على الربط الوثيق بين الدبابات والطائرة لتحقيق التوغل في العمق في مناطق مؤخرة العدو والقصف الاستراتيجي لبلاده ، سمة هجومية offensive بصورة حاسمة . وعلى الرغم من ان ليدل هارت كان شغوفا بالقوات المسلحة البريطانية تتبنى هذه الافكار ، فان الوضع الدولي السلمي نسبيا في العشرينات قد اتاح له ان يطور مذاهبه في الحرب الخاطف Blitzkrieg بطريقة محايدة وعلمية الى حد ما . وكان يبدو انه يقول ان هذه هي الكيفية التي ينبغي ان تدار بها الحرب الحديثة الميكانيكية ، بغض النظر عن من يحارب من . فقد كان يمكن ان يكون بطلاه المتحاربان الازرق والاحمر* . واختفى سريعا ـ في الثلاثينات ـ هذا الجو العام « المحايد » ، واصبح من الواضح باطراد انه ايا كان من اتخذ مبادرة اسلوب الحرب الجديد ، فانه لن يكون بريطانيا .

---

(٩) مايكل هوارد في مجلة Encounter المصدر نفسه .

* على نحو الاوصاف التي تطلق على جيشين وهميين في مناورة حربية . « المترجم » .

وبدأ ليدل هارت بالتالي - في المجال العملياتي - التأكيد على تفوق « الدفاع » ، بينما حث في مجال الاستراتيجية والسياسة على مراجعة « الطريقة البريطانية في الحرب » ، التي من شأنها ان تنطوي فقط على « مسؤ ولية محدودة » تجاه القارة (الأوروبية) .

وبحلول نهاية العشرينات كان ليدل هارت قد صاغ مجموعة من المبادىء والصيغ والاحكام المسبقة ، التي ارتبطت به ، والتي افادته كمعايير بقية حياته . كانت تلك المبادىء - التي اعتنقها باقتناع مطلق - رصيدا هائلا امده بـ « مفاتيح » (وهو تشبيه اثير لديه) الى « دروس التاريخ » ، والى تفسير كل مشكلة جديدة وهي في طور النشوء . وبالاضافة الى هذا فانها اضفت جوا من البرهان العلمي واليقين على كتاباته ذات الطابع الجدالي . ونظرا لانه كان يهاجم بجسارة ، وعلى اصعدة مختلفة غالبا في وقت واحد ، من تكتيكات الفصيلة الى الاستراتيجية الشاملة ، كان من المحتوم ان يصيب الالتباس ، او حتى التناقض الذاتي السافر، بحجة في بعض الاحيان . وقد كان الحال هو ذاك بوضوح - في رايي - في الثلاثينات ، حينما كانت سمعته قد بلغت ذروتها ، الامر الذي ينطوي على مفارقة واضحة . وفي الفصلين اللذين كرستهما لهذه الحقبة فان التوثيق الاساسي اعتمد على كتب ليدل هارت نفسه ومقالاته في الصحف . ومع ذلك فان ملفات مراسلاته وملاحظاته على الاحاديث والمذكرات في تلك السنوات توفر وعاء من الضخامة بحيث كانت المشكلة التي واجهتني ماذا اترك .

وربما كانت السنوات بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ هي السنوات الاكثر غموضا فيما يتعلق بنشاطات ليدل هارت ومعتقداته ، ومع ذلك فان التوثيق مسهب ومثير للاهتمام لاقصى حد . ويمكن تجميع فكرة ما عن آرائه الخارجة على المألوف الى حد كبير في تلك الفترة من التعليقات الحربية التي راكمها معا في شكل مجلد بين العام ١٩٤٠ والعام ١٩٤٣ . ولكن هذه التعليقات تشكل قراءة طنانة بعض الشيء بالمقارنة بالمذكرات العديدة التي كتبها وروجها بين عدد كبير من الناس ، بينهم وزراء مثل ايدن ، هاليفاكس ، بيفر بروك ، ورئيس وزراء سابق مثل لويد جورج ، ورجال كنيسة مثل الاسقف بيل ، ودائرة متنوعة من اصدقائه الشخصيين . وفي هذه الفترة - كما كان الحال في فترات اخرى من حياته - فان اكثر المفاجآت اثارة للاهتمام تأتي غالبا من مراسلاته مع افراد غير مهمين نسبيا : مثل جون بروفي ، وهو كاتب كان يعمل في الحرس الوطني وايسمي وينغفيلد رشرافورد وهو مدرس تاريخ متقاعد ، وقد اثار كلاهما نقاط دفعت ليدل هارت لان يشرح بعض فرضياته الاساسية ويدافع عنها . وعلى النقيض من ذلك كان مشاهير الناس أميل الى ارسال خطابات شكر رسمية وغالبا ما كانوا يحجمون عن تكبيد انفسهم حتى هذه المشقة .

كانت السمة الاساسية في نظرة ليدل هارت اثناء الحرب العالمية الثانية هي تماسكها : فقد ظل خصما راسخا للحرب الشاملة ، وداعية لصلح يقوم على حل وسط بدلا من انتصار يمكن ان يتبين - فيما كان يعتقد - انه وهم حتى اذا امكن تحقيقه . ولقد كانت وجهة نظر ليدل هارت قبل

« دنكرك » واسعة الانتشار في البلد ، ولكن التأييد لها تهاوى بسرعة بعد ذلك . وتكشف اوراق ليدل هارت عنه كناقد مرير لتشرتشل ولكل ما كان تشرتشل يمثله ، حتى انه ادان نفسه لبقائه في عزلة طوال الفترة التي كان الاخير فيها رئيسا للوزراء .

وفي الاربعينات تغيرت العلاقات الدولية بسرعة شديدة الى حد ان اصبحت الهرطقات القديمة اصولا جديدة في غضون سنوات قليلة ، مما ادى بحلول نهاية ذلك العقد الى ان اصبح ليدل هارت في مركز قوي اتاح له ان يقول « لقد قلت لكم هذا » . لقد ادرك ، في اعقاب فشل عملية « بارباروسا » مباشرة في العام ١٩٤١ ، ان هزيمة شاملة لالمانيا النازية سوف تؤدي الى هيمنة سوفياتية في اوروبا الوسطى ، بما يعنيه ذلك من اغراء بالتوسع ضد دفاعات ضعيفة نسبيا . وسواء احب الحلفاء الغربيون ام لا ، سيتعين إحياء المانيا من جديد كحصن ضد الشيوعية . وبعبارة اكثر عمومية فان معارضته الصلبة للحرب الشاملة اصبحت هي الحكمة التقليدية بعد ان هزم هتلر فعلا ، بينما اثار ظهور الاسلحة الذرية امكانية حقيقية لابادة متبادلة لغير ما هدف ايا كان . وما كان عليه الا ان يؤكد من جديد فلسفته في الحرب المحدودة ، التي صاغها في ظروف مختلفة بعد العام ١٩١٨ ، لكي يضع نفسه مرة اخرى في طليعة الفكر التقدمي . وكان اول من ادرك ان الاسلحة النووية ابعد ما تكون عن الغاء الحروب التقليدية ، بالتالي قد تتسبب فعلا في انتشارها في المناطق من العالم غير المسلحة ذريا ، او كنتيجة لقيام الدول النووية بعمليات غير مباشرة او بالوكالة . وعلى الرغم من ذلك فان عصرا جديدا في الصراع الدولي كان يبدأ ، وفيه لم يشعر ليدل هارت بانه في حالة راحة عقلية . فهو ـ من ناحية ـ لم يكن مهتما اهتماما عميقا بنظرية الردع المعقدة ، التي بزغت لتحتوي التطورات المذهلة في التكنولوجيا العسكرية في الخمسينات وهو ـ من ناحية اخرى ـ ظل يشعر بنفور ازاء الانتشار السريع لحرب العصابات والحرب الثورية ، التي كان يشعر انها تعطي تشجيعا مفرطا للعنف المفتقر الى التمييز ، وانها ضارة دائما بالنظام المدني في المدى البعيد ، مهما كان مدى نجاحها المثير من الناحية العسكرية المحضة .

ومن المثير للفضول ان مشاعر ليدل هارت الانسانية نادرا ما كانت تجد تعبيرا صريحا عنها في كتاباته . كان شخصا مشدود الاعصاب بدرجة قصوى ، وحساسا ، ولم يكن ـ باعترافه هو نفسه ـ شجاعا للغاية في مواجهة الالم اذا الم به شخصيا يصيبه وهن الآخرين ومعاناتهم بالاكتئاب . وكان يشعر بنفور عميق من العنف في كل اشكاله ، وقد امضى فترة طويلة من حياته محاولا التأكيد بأنه اذا لم يكن بالامكان تجنب الحروب تماما ، فانها ينبغي ان تحارب بطريقة انسانية قدر الامكان ، على الاقل . ومع ذلك فانه في مؤلفاته المنشورة تظهر اللهجة الباردة الخالية من العاطفة ـ شبه العيادية (الكلينيكية) بصورة ملحة الى حد لا يشعر القارىء معه عن قرب بفظاعة كل الحروب وما تنطوي عليه من تدمير مهما كانت محدودة ومهما كانت درجة المهارة التي تدار بها .

وقد ظهرت هذه اللهجة الباردة غير الشخصية ايضا في محاضراته العامة واحاديثه الرسمية .

وقد وقع صحفي اسرائيلي في حيرة واضحة بسبب مفارقة الخبير العسكري الذي جعلته غريزته الانسانية معارضا كلية للحرب :

« انك عندما تتحدث الى ليدل هارت ، تميل الى نسيان ان الحرب تعني - اولا وقبل كل شيء .. الدم والدموع والعرق ، وانها تكون مصحوبة بانات الجرحى ، وبكاء الارامل ، واشلاء الجثث والمباني المدمرة والمدن المقصوفة بالقنابل ، والخوف والالم الكبيرين ، والعدالة التي يصيبها الخراب بأسرها بمجرد لمسة يد .

« يتحدث الكابتن عن المعارك والحروب والاسلحة الفتاكة بنوع من الهذوء الاكاديمي البارد ، كما لو كان يلقي درسا في اللغة اللاتينية . وقد بدا لي في بعض الاحيان كما لو كان يرى في كل حرب ضربا من مباراة شطرنج تلعب على رقعة عالمية ، طبقا لقواعد محددة ، يكون النصر فيها من نصيب الطرف الاكثر مهارة ، والاكثر دهاء والاكثر قوة ، كما يقول المثل الانكليزي : فليربح الرجل الافضل ! »[10] .

ولا يمكن لاي تفسير لهذا الجمود - اذا كان كذلك - الا ان يكون تفسيرا تخمينيا . فربما كان لتجربة مشاهدة الاشلاء في معركة السوم قد احدث في نفسه صدمة في وقت لم يكن فيه مهتما بالتفكير في الامر - رغم انه كان مستعدا تماما للتحدث عنه في وقت لاحق من حياته حينما كنت اعرفه . او ربما يكون قد بذل جهدا واعيا لتنحية الذكريات والمشاعر الكريهة جانبا حتى يحقق الموضوعية ككاتب تكتيكي . او - ثالثا - وهذا ما يبدو لي تفسيرا اكثر معقولية - انه لم يعتبر ببساطة ان التعبير صراحة عن انفعالات مثل الفزع او الشفقة او التعاطف - التي حفلت بها الادبيات «المناهضة للحرب» بعد العام ١٩١٨ - يتلاءم مع كتابات محترفة يكتبها ضابط نظامي . فاذا كان الامر كذلك فانه قد ظل - في هذا الصدد - اكثر تعاطفا مع نظرة الجندي المحترف منه مع نظرة الناقد المدني للحرب في ذاته .

وتعكس اوراق ليدل هارت في السنوات الاخيرة باخلاص انشغاله المتزايد بالتاريخ العسكري ، الذي تركز على تجميع المادة لدراسته العملاقة عن الحرب العالمية الثانية . ويبقى التوثيق كبير الحجم كما كان دائما ، ولكن هناك تأملا اقل فأقل في الملاحظات والمذكرات ، وتصبح المراسلات - وان تكن كثيرة - اكثر نمطية[11] . فازاء احداث كبرى - مثل الحروب العربية الاسرائيلية - يوزع رسائل متطابقة على عشرات من الاصدقاء والاتصالات المهنية . وعلاوة على

---

(١٠) معاريف ، ٢٥ آذار (مارس) ١٩٦٠ . مقابلة (تمت في اسرائيل) مع رافائيل باشان . وقد لاحظ ليدل هارت الفقرة التي اوردناها ، ولكنه لم يشر الى عدم موافقته عليها .

(١١) على حين انه يوجد - مثلا - حتى العام ١٩٥٩ ، ملف واحد على الاقل سنويا يحتوي على مذكرات وملاحظات عن محادثات ، الخ ، فان السنوات من ١٩٦٠ - ١٩٦٩ يغطيها ملف ضئيل واحد .

هذا فان ملفات المراسلات تلقي ضوءا اضافيا خافتا للغاية على مؤلفاته المنشورة بالمقارنة بالسنوات الاسبق . وهكذا فان الطالب الذي يرغب في اكتشاف وجهات نظر ليدل هارت في المشكلات الجارية ـ خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ مثلا ـ لا بد ان يلجأ مباشرة الى كتاب الدفاع عن الغرب (١٩٥٠) وكتاب ردع ام دفاع (١٩٦٠) . وانني لم اتابع دراستي فيما يتجاوز هذا التاريخ الاخير ، ولكنني اختتمتها ببحث تأثيره على الجيشين الالماني والاسرائيلي .

الفصل الأول

الخبرة التكوينية

١٩١٤ ـ ١٩٢٤

ولد بازيل هارت[1] في باريس يوم الحادي والثلاثين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٥ ولم يعش بصفة دائمة في انكلترا الى ما بعد نهاية القرن . وكان والده قسيسا من « ويزلي » عين اول ما عين في « بولوني » وبعدها قضى اربع عشرة سنة راعيا للشؤون الروحية للجاليات البروتستنتانية الانغلو- اميركية والفرنسية في باريس . اما جانب اسرته لامه ـ آل ليدل ـ فينحدرون أصلا من « ليدزويل » على الحدود السكتلندية ولكنهم استوطنوا لامد طويل في « كورنوول » ، حيث كان جد بازل الاكبر يرتبط ارتباطا وثيقا باعمال انشاء خط سكك حديد « لندن » و« الجنوب الغربي » ، واختتم حياته العملية كمساعد لمديرها العام . وكان جانب الاب ـ هارت ـ من الاسرة من المزارعين « اليوامنة »* الذين تمتد لهم جذور عميقة في المنطقة الواقعة عبر « سيفيرن غلو شستر شاير » و« هيرفورد شاير » .

في العام ١٩٠٣ استقر آل هارت في « غيلفورد » والتحق بازل بالمدرسة الابتدائية ، اولا في « إيد جيورو » وبعد ذلك ـ في سن الحادية عشرة ـ نقل الى « ولينغتون » بالقرب من « بوتني » ، حيث كان معاصرا لموريس باورا* . بعدها لحق بابن عمه « تريفور » في كلية « سان بول » . وقد اصيبت طفولة بازيل وشبابه المبكر بسلسلة امراض ولم يقدر له ابدا ان ينعم بصحة قوية موفورة . وقد ذكر في بعض مواضع من « ملاحظات من اجل سيرة ذاتية » كان قد كتبها في وقت مبكر يرجع الى الفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ـ ان امه تعهدته بالرعاية طفلا عبر سلسلة كاملة من الشكاوى الطفلية الى حد انها « كادت تفسدني وهي تقصد ان تصلب لي عودي . والحقيقة انها جعلتني رقيقا

---

(١) لم يتبن اسم « ليدل هارت » قبل العام ١٩٢١ . ومن الجدير بالملاحظة انه احتفظ بعد ان ترك الجيش برتبته العسكرية المتواضعة لاغراض ادبية وكان يوقع باسم « كابتن ب . هـ . ليدل هارت » حتى رسم فارسا في العام ١٩٦٦ ـ ومن هنا كانت اشارة بيغال آلون الى « الكابتن الذي علم الجنرالات » .

* طائفة من صغار ملاك الارض من ابناء الطبقة المتوسطة شكل منهم حرس ملكي اشتهر بالشجاعة في العام ١٧٦١ . « المترجم » .

* موريس باورا الناقد الادبي الانجليزي الشهير .

بصورة مفرطة تماما » . ولذلك فانه لم يكن معدا للصرامة التي كانت تتميز بها المدرسة الابتدائية ذات الخط الادواردي ، وقد اجتاحه الخوف في « أيدجيورو » ازاء قسوة ناظرها الدموي المزاج الحاد الطبع[٢] . وفي السنوات الاولى من عقده الثاني كان قد اصبح طويلا ونحيلا للغاية ، بصورة تتجاوز قوته ، وقد ادى هذا - الى جانب المرض - الى احباط طموح مبكر لديه بالالتحاق بالبحرية ، فقد اخفق في اجتياز الفحص الطبي في سن الثالثة عشرة .

وقد اعترف في الذكريات بانه التبس عليه امر التطور المبكر و « الميل العسكري » لديه الذي تبدى اولا في اهتمام محدود سابق لاوانه بالعاب الصبية . وبالاضافة الى الالعاب التي يصفها في الذكريات تبقى حية محاولة مهمة له في الرواية العسكرية كتبها حينما كان في حوالى الخامسة عشرة من عمره بعنوان « أكيلون أو غزو آكيلو للعالم »*[٣] . ولما كانت هذه الرواية قد كتبت في آخر الحقبة الكلاسيكية فانها تقدم دليلا مبكراً على ايمان بازيل بان التاريخ يصنعه الرجال العظام ، ولكن - على النقيض من فلسفته في الحرب فيما بعد - فان انتصارات آكيلو قد احرزت مقابل خسائر بشرية فادحة .

اهتم بازيل من صباه فصاعدا اهتماما عميقا بانواع متنوعة من الالعاب . فقد كان يلعب كرة القدم و « الكريكت » في المدرسة ، وان كان - باعترافه هو نفسه - دون ان يكون لديه استعداد طبيعي لذلك ، وكان اكثر توفيقا في لعبة التنس ، وخاصة في جامعة « كيمبردج » ، واثناء الحرب العالمية الاولى اكتشف لديه موهبة لم يعرفها من قبل للعدو لمسافات طويلة . وفي اواخر حياته لعب الشطرنج . وتنس الطاولة و « الكروكيه » باهتمام واستمتاع شديدين . وتتلاءم هذه الاهتمامات الرياضية مع حياة بازيل العلمية اللاحقة لانها تكشف عن انشغاله العميق بالتكتيك ، وميله لنقد الاداء وفي الوقت نفسه تمجيد مآثر الفرد او النجم . وقد بدت هذه السمات بعد ذلك في تغطيته الصحفية لمباريات « الركبي » ودوري التنس[٤] . ولا تزال موجودة واحدة من دفاتر مذكراته من حوالى العام ١٩١٠ حيث يصف بازيل بتفصيل مسهب التاريخ الخيالي للركبي الكندي من العام ١٩١٤ الى العام ١٩١٨ (اما لماذا الكندي بالذات فهذا لغز غامض) . يسيطر على هذه القصة بطله رولاند هاڤيرنغ لورنغ (وهو يشبه في ثلاثة ارباع سماته بطله الانكليزي الحقيقي لحقبة ما قبل العام ١٩١٤ ، ر . و . بولتون) الذي « كان متفوقا على كل لاعب آخر . . . وفاز ببطولة اللعبة لكندا وحده »[٥] في العام ١٩١٦ .

---

(٢) « ملاحظات من اجل سيرة ذاتية كتبت في ٢٠ - ١٩٢١ » . انظر ايضا ذكريات المجلد الاول (١٩٦٥) ص ٢ - ١٠ (كل الاشارات هي الى هذا المجلد ما لم يذكر غير ذلك) .

* « أكيلو » نجم العُقاب في الفلك . « المترجم »

(٣) ٧/ ١٩١٠/ ١ .

(٤) انظر مثلا ، « الكشف عن ابطال التنس » (نشر آروسميث ، لندن ، ١٩٢٦) .

(٥) ٧/ ١٩١٠/ ١ ، مذكرات من اجل سيرة ذاتية ، المصدر نفسه ، ص ٢ .

الا ان هواية بازيل هارت المسيطرة ـ شأنه شأن كثير من تلاميذ المدارس في تلك الحقبة ـ خلال الفترة ١٩١٠ ـ ١٩١٤ كانت الطيران ، الذي لم يكن احد يتنبأ آنذاك بتطبيقاته العسكرية الا بصورة عائمة . هنا وجد تناوله الملتهب الخيال مرة اخرى تعبيره في دفاتر عديدة تمتلىء بمنافسات روائية في مجال الطيران مثل الاجتماع « المختلط » الكبير الذي يبدأ في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ، والذي كان الابطال الاوائل فيه ميرديث (بريطانيا) ، بريساك وڤارڤيير (فرنسا) ، شيرو (ايطاليا) ، كارتريت (الولايات المتحدة) وكوبو (اليابان) . وقد ادخل في قصة عن الطيران كتبها في صيف العام ١٩١٣ ملحوظة لاحقة يزعم فيها انه تنبأ بدقة بعدد من التطورات في الحرب العالمية الاولى ، بما في ذلك ظهور طائرة كل اجزائها مصنوعة من المعدن وتحمل مدفعا ، ومقدمات مدرعة لحماية الطيارين . ولانه لم يكتف بالرواية الخيالية فقد اجرى مراسلات منتظمة ايضا مع رئيس تحرير مجلة The Aeroplane (الطائرة) س . ج . غراي ، الذي لم يكن فيما يبدو يعرف عمره ، ونشر عددا من رسائله وعلق عليها في مقالات رئيسية[٦] .

لست أعني ان أوحي بان عبقرية ليدل هارت العسكرية كانت واضحة بالفعل في تلك الكتابات وأوجه النشاط المبكرة لتمضية الوقت : فان كثيرا من تلاميذ المدارس آنذاك ـ كما هو الحال الآن ـ كانوا يملأون دفاتر تمارينهم بالمذكرات عن موضوعات مثل السكك الحديدية والطائرات والسفن ولعبة « الكريكت » وكرة القدم والطيور . ومع ذلك فان الدفاتر توفر فعلا مادة مبكرة دالة على حدة اهتماماته ، وميله الى نقل افكاره الى الورق ، وتناوله النقدي ، وعنايته بالتنبؤ بتطورات مستقبله ، وثقته الذاتية ـ وهي ليست الأقل اهمية بين هذه العوامل ـ البادية في ايمانه بان افكاره تستحق النشر . لقد كانت هذه الاهتمامات والاستعدادات بالتأكيد ـ في مجموعها ـ غير عادية .

في خريف العام ١٩١٣ ـ قبل وقت قصير من عيد ميلاده الثامن عشر ـ ذهب بازيل هارت الى كلية « كوربوس كريستي » « كيمبردج » لمطالعة التاريخ الحديث . ولم يعمل بجدية بالغة في دراسة الموضوعات الاجبارية ، ولكنه بدلا من ذلك كرس جانبا كبيراً من وقته لدراسة التاريخ العسكري وحل المشكلات التكتيكية . كذلك واصل هواية فترة التلمذة الخاصة بالكتابة للمجلات والصحف عن الطائرات والرياضة ، ونشر رسائل في صحف « مورننغ بوست » و « ايفننغ ستاندارد » ، و « ديلي تلغراف » و « فوتبول ايفننغ نيوز » . ونتيجة لهذا التشتت لم يحصل الا على درجة مقبول وعلامات من الدرجة الثالثة في الامتحان التمهيدي في أيار (مايو) ١٩١٤[٧] .

وتقدم احدى ملاحظات سيرته الذاتية في مفكرته اليومية بتاريخ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ مثالا مبكرا عن محاولاته المتكررة للقيام بعملية تحليل ذاتي موضوعية بصورة حادة :

---

(٦) ٧/١٩١٣/٥ ـ ٦ ، ١٢ .

« منطقي ، محب لذاتي ، متمحور على ذاتي ، عاطفي ولكن دون تظاهر ، قوة عقلية كبيرة ، لبق ودبلوماسي ، مراع للتقاليد ، على درجة معينة من فردية التفكير ، اميل الى الافراط في المنهجية ، او حتى مولع بالتفاصيل ، ميال الى ان اكون فلسفيا لا عمليا ، متوازن عقلا وقلبا بصورة معقولة ومنصفة ، مفرط في حب التفاصيل وربما اخفق في فهم الكل . . . »[8] .

بعد وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الاولى كان بازيل هارت بين آلاف الشبان الذي استجابوا لدعوة كيتشنر* للتطوع . وعلى الرغم من ان برنامج كلية « ساند هيرست » لتخريج صف الضباط خفض الى ثلاثة اشهر ، فان هذه الفترة كانت طويلة للغاية بالنسبة لبازيل ، الذي كان يشارك في وجهة النظر الشعبية القائلة بان الحرب ستكون قد انتهت بحلول عيد الميلاد . ولهذا منح رتبة مؤقتة وبدأ في التدرب مع برنامج التدريب الجامعي في اكسفورد . وكان قد التحق بالجيش متحديا معارضة ابويه على اساس ان حالته الصحية لا تسمح له . وكما ادرك معلمه « ويل سينسر » فانه كشف عن صبي مدلل من النوع الذي يوصف بانه « ابن امه » من شأن الجيش ان « يصلب عوده سواء بدنيا او من حيث الشخصية » . وسريعا ما طمأن بازيل والديه الى انه على الرغم من برنامج التدريب الجامعي كان قاسيا ومرهقا الا انه كان قادرا على احتماله[9] . والحقيقة ان اول تجربة له في حياة الجندية اسفرت عن ومضة عسكرية ملفتة للنظر ، تمثلت في « شهادة » مؤرخة ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ كان من شأنها ان تسبب له شعورا بالاستمتاع الساخر في سنوات لاحقة . فتمشيا مع احترامه لـ « السجل » ، كان احتفاظه بمثل هذه الوثيقة الصريحة ، التي تستحق ان تنقل بنصها :

« قبل الحرب كنت انا ـ بازيل هارت ـ اشتراكيا ، من انصار السلم ، مناهض للتجنيد الاجباري ، مناهض للانضباط ، مخالف لجميع انواع تقييد الدولة لحرية الفرد ، ورجلا يأمل في التدويل . لقد كنت اشعر باعجاب بالمفكرين اكثر مما للمحاربين .

اما الآن وقد درست مبادىء الحرب وتلقيت تدريبا عسكريا ورأيت آثاره على زملائي ، فهذه هي آرائي :

---

(٨) ١٣/١٩١٣/٧ .

* هوراشيو هربرت كيتشنر Kitchener (الملقب بلورد الخرطوم) ١٨٥٠ ـ ١٩١٦ . عسكري بريطاني تخرج في كلية المهندسين الملكية العسكرية ، ادى الخدمة في حملة ولزلي لانقاذ الجنرال غوردون (٨٤ ـ ١٨٨٥) ، حاكم عام في شرق السودان (١٨٨٦) سردار الجيش المصري (١٨٩٢) . غزا السودان واباد جيش المهدي في ام درمان واعاد احتلال الخرطوم (١٨٩٨) ، حاكم عام السودان (١٨٩٩) . رئيس للاركان في جنوب افريقيا (١٨٩٩) نظم القوات البريطانية لمحاربة « البوير » (١٩٠٠ ـ ١٩٠٢) ، قائد عام في الهند (١٩٠٢ ـ ١٩٠٩) ، فيلد مارشال (١٩٠٩) شارك في تنظيم القوات البريطانية المسلحة . في الفترة الاولى من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٦) ، فقد في البحر في حادث غرق الطراد « هامبشاير » (١٩١٦) « المترجم » .

(٩) ٧/ ١٩١٤/ ٢ ـ ٤ ، ليدل هارت الى امه ـ بدون تاريخ ـ انما في خريف العام ١٩١٤ كرر لها ملاحظة ويل سينسر القائلة بانه واحد من ستة سيكون تدريب الجيش مفيدا لهم بدنيا ، ومن حيث تكوين الشخصية .

(١) انني أومن (أ) بتفوق ارستقراطية الجنس (والميلاد) (ب) بتفوق الفرد .

(٢) بالخدمة العسكرية الاجبارية لانها الحياة الوحيدة الممكنة للرجل ، ولانها تظهر افضل صفات الرجولة .

(٣) لقد اكتسبت نوعا من الاحتقار لمن هم مجرد مفكرين ورجال كتب ممن لم يصلوا الى ادراك كامل لما تعني الرجولة الحقة . ان الخدمة العسكرية اذا اديرت بذكاء تظهر وتتطلب افضل الصفات الذهنية والخلقية والبدنية .

(٤) انني امجد القائد الكبير واضعه في الموضع الاسمى في قائمة الرجال العظام واعتبر انه امر يتطلب صفات عقلية ارفع من اي منحى آخر في الحياة .

(٥) انني اعتبر السلافيين ، واعني بهم روسيا الكبرى ، سيحكمون كلا من اوروبا وآسيا وستكون له سيطرة عالمية ، لكونهم الحضارة الانقى والاكثر خشونة ولكونهم يملكون انقى الصفات بين جميع الاجناس ، ولان زمن الغزو والتوسع لم ينته بعد .

(٦) الاشتراكية واشكالها استحالة ما لم تتبدل الطبيعة البشرية تبدلا جذريا .

(٧) ينبغي ان تكون هناك خدمة عسكرية اجبارية حتى تصبح لجميع الرجال فرصة الرجولة الحقة .

(٨) كثير من الافكار العسكرية الالمانية معقول جدا ، ولكنني اعارض الالمان لانني لا اعتبر النمط العقلي الالماني هو النمط القادر على تنفيذ افكارهم .

انني افضل الذكاء على التفاهة الميكانيكية والمنهجية ، ولست اعتبر ان الالمان يملكون هذا الذكاء ، واعتبر ان الروس - من كل الامم - الارجح ان يمتلكوا الذكاء والشمولية معا . واؤمن يقينا بان السلام المطلق مرهون بالرجولة الحقة ، ولكن حرب القرن العشرين مخيفة الى حد مفرط . فلو امكن ان تكون حرب بدون فظائع متفجرة فانه يكون شيء طيب . انني اعبد الذكاء ، ويبدو ان الذكاء يجد اصدق واكمل تعبير له في فن القيادة . واعتقادي بدونية النساء بالضرورة اعمق مما كان في اي وقت .

اذا ما انتهت الحرب بحلول النصح فسيكون هذا شيئا عظيما لصلابة اوروبا ورجولتها . فاذا استمرت حتى عيد الميلاد للعام ١٩١٥ فستكون تلك كارثة[١٠] .

ومثل كثيرين للغاية غيره من بقوا على قيد الحياة من « الجيل الضائع » ، تأثر بازيل هارت تأثرا عميقا طوال الباقي من حياته بتجربته في « الجبهة الغربية » . ومع ذلك فان تجربة الخط

(١٠) مذكرة مؤرخة ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ ، ١٠/١٢/١٩١٤ .

الامامي في حالته كانت قصيرة نسبيا ، لانها اقتصرت على فترتين وجيزتين في خريف وشتاء العام ١٩١٥ ، وفترة موجزة ثالثة في معركة « السوم » في تموز (يوليو) ١٩١٦ . وفي الذكريات يعترف أن الفترة الوجيزة الاولى التي قضاها بالقرب من الخط الامامي ، الى الشمال مباشرة من قطاع « السوم » ، كانت « مدخلا رقيقا الى الحرب » ، وقد لاحظ ـ في رسالة الى ابويه في ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ ـ « انها تذكر المرء اكثر ما تذكره بنزهة كبيرة » . وفي منتصف تشرين الاول (اكتوبر) داهمته حمى مفاجئة ووجد صعوبة في اقناع اطبائه بعدم اعادته الى بيته . ثم ادخلته جولته الثانية من الخدمة في وقت لاحق من ذلك الشتاء الى وحل الفلاندر Flanders في نتوء « ايبر » Ypres (بلجيكا ـ المترجم) وقضت على كل متعته . وانتهت اقامته في هذا النتوء قبل الاوان عندما اصيب بارتجاج مخي بفعل انفجار قنبلة فوق مدخل خندق سطحي كان يحتمي به . وفي هذه المرة لم يثر اي اعتراض حينما اشار الاطباء بعودته فورا الى انكلترا(١١) .

عاد الى فرنسا في ربيع العام ١٩١٦ في الوقت اللازم لهجوم « السوم » المشؤوم الذي اشترك فيه من بدايته يوم اول تموز (يوليو) (على الرغم من انه كان وقتذاك في الاحتياط) حتى يوم ١٨ تموز ، حينما اختنق بالغاز بدرجة خطيرة و « سقط ارضا » بينما كانت فصيلته تنسحب من خط القتال . وقد قدر لهذه التجربة الحادة ـ رغم قصرها ـ ان تعطي في وقت لاحق صورة لعيوب القيادة والتكتيكات العسكرية البريطانية ، ولكن العملية السيكولوجية المعقدة التي توصل بها الى نظرته النقدية عملية من الصعب توثيقها . فعلى الرغم من انه خرج من بداية الهجوم الا انه اصيب ثلاث مرات دون ان يكون جرحه بليغا . وقد ابيدت ـ عمليا ـ كتيبته ، المشاة الخفيفة التاسعة الخاصة بالملك في يوركشاير ، وهي جزء من الفرقة الحادية والعشرين ، في اليوم الاول ، الذي كلف الجيش قرابة ٦٠ الف قتيل ، وهي افدح خسارة تكبدها الجيش في يوم واحد في التاريخ البريطاني . ولم يبق في كتيبته غير ضابطين اثنين ، احدهما جريح ، بينما لم يكن قد بقي في كتيبة مجاورة لها حتى ضابط واحد . وقد تولى هارت بصفة مؤقتة قيادة هذه الكتيبة الاخيرة ، على الرغم من انه لم يكن غير ملازم اول .

أذهله التناقص بين فكرة المعركة كما صورها فنانو الحرب في الصحافة المصورة وبين الواقع . وهذا ما استذكره في الذكريات :

« بدلا من الشحنة الدرامية للقوات المبتهجة التي يصفونها ، راى المرء سلاسل رفيعة من البقع تتهادى ببزات الكاكي بطيئة وتزداد نحولا تحت وابل النار حتى تبدو بقع ضئيلة على المشهد الطبيعي » .

كذلك فقد تأثر في ذلك الوقت بالخطة والتكتيكات العملياتية الاكثر تطورا للجنرال

---

(١١) ١٩١٥/٧/ في مواضع مختلفة . الذكريات ، ص ١٣ ـ ١٨ . انظر ايضا مقال ليدل هارت « مجبر على التفكير » في كتاب ج . بانيشاس (محررا) وعد بالعظمة : حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ (نشر جون داي : كاسيل ١٩٦٨) .

رولينسون قائد الجيش الرابع في يوم ١٤ تموز (يوليو) ، وهي الخطة التي كانت تقوم على تقدم ليلي يتبعه هجوم في الفجر مسبوقا بقصف مدفعي كالاعصار يستمر دقائق قليلة فقط . وقد كفلت هذه الخطة ، التي كانت توفر عنصر المفاجأة ، « زيادة عدد الجثث المرتدية بزات رمادية عن تلك المرتدية بزات كاكي في ميدان المعركة » . وكتب هارت في الذكريات « ذلك المشهد ، وذلك التناقض ، اثرا بعمق في تفكيري العسكري في المستقبل » . ومع ذلك فانه كان يتخذ موقفا غير نقدي بالمرة ـ في ذلك الوقت واعتبر المعركة نصرا رغم الخسائر الفادحة(١٢) .

ومن المهم ان نثبت انه خلال فترة خدمة بازيل هارت الفعلية كان بدرجة كبيرة هو الضابط التقليدي للغاية ، والمحب لوطنه الى اقصى حد الذي كان ينتمي في السابق الى مدرسة عامة ، والذي كان اعجابه بالقيادة العليا يكاد يكون تزلفا . فنجده في « رسالة اخيرة اذا ما قتلت وانا اؤدي الواجب » كتبها الى والديه بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) ١٩١٦ يطلب انه يجب ، في حالة اي احتفال تذكاري ، التأكيد على انه كان ذاهبا الى الجبهة للمرة الثالثة . واضاف انه بينما يشرفه ان يموت من اجل انكلترا « اشعر انه شرف اعظم حتى من ذلك ان اموت كضابط في الجيش النظامي البريطاني » . وقبل وقت قصير من بدء معركة « السوم » وصف « هيغ » و « روبرتسون » بانهما « افضل قادتنا » وحتى في تموز ١٩١٦ وصف التنظيم العسكري البريطاني بانه « رائع » ، بينما وصف الروح القيادية وعمل الاركان بانهما « على درجة هائلة من المهارة » . وتكشف القائمة المفتقرة الى التمييز التي وضعها لـ « قادة الحرب البريطانيين العظام » عن ان ميله الصبياني لعبادة الابطال كان لا يزال حيا بدرجة كبيرة(١٣) .

بلغت مرحلة عبادة الابطال هذه أوجها في كتاب صغير ألفه وهو في فترة النقاهة في ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ بعنوان : « انطباعات عن الهجوم البريطاني الكبير على السوم » كتبها « قائد سرية شاهد ثلاثة اسابيع ونصف من هذا الهجوم » . ولا يكاد يمكن ان يكون هناك سجل اكثر شمولا من ادعاءاته في هذا الكتاب عن الروح القيادية البريطانية في الحرب العالمية الاولى ، التي قدر له ان يشجبها بقسوة متزايدة طوال بقية حياته العملية .

فنجده ـ اذا ما انتقينا نماذج قليلة ـ قد امتدح « الكمال المذهل لتنظيمنا الذي كان يفوق الالمان في روح القيادة وعمل الاركان » . كانت منطقة « السوم » قد اختيرت اختيارا جيدا للهجوم ، والاستراتيجية وضعت ببراعة . وكان سير دوغلاس هيغ « اعظم قائد انجبته بريطانيا » . « وعلى حين ان ضباط اركاننا ليسوا جميعا ممتازين ، فانه من السليم القول بأن ٩٠ في

---

(١٢) قارن وصفه المعاصر لتجاربه في معركة الـ « سوم » في رسائله الى ابويه (١٩١٦/٧/ ١٠ ـ ١٦) مع الذكريات ، ص ١٨ ـ ٢٦ . ففي رسالة الى موطنه بتاريخ ٤ تموز (يوليو) ١٩١٦ يذكر مبتهجا انه على حين كان لا يكاد يتحمل رؤية اصبع مجروح قبل الحرب ، فانه الآن يستطيع ان يتحمل مرأى الاطراف المبتورة ، الخ (١٩١٦/٧/ ١١) .

(١٣) ١٩١٥/٧/ ٩ ، ١٩١٦/٧/ ٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٣٤ . تحت توقيع « ضابط نظامي » نشر عمودا في صحيفة ديلي اكسبرس يمجد « قادة الحرب العظام » (١٩١٦/٧/ ٣٥) .

المائة من ضباط اركاننا العامة هم رجال ممتازون ، وبينهم عدد ضخم حقا من الرجال الذين يتمتعون بعبقرية حربية . . . لقد انجبنا مائة بأكملهم من قادة الصف الاول » . ونندد بالنقاد المدنيين الجهلة في شؤون الحرب الذين لم يكشفوا الا عن سطحيتهم الذهنية : « ان ضباط الاركان العامة هم وحدهم الذين يفهمون حقا قيمة اي عملية » وبصورة ألم استنتج ان :

« الحرب ، على الاقل الحرب الحديثة ، كما تشن على الجبهة الغربية فظيعة ومروعة الى حد يتجاوز كل خيال المدنيين . ومع ذلك فان لها عظمة غريبة ملهمة خاصة بها ، وهي تشرف وتظهر ما هو اسمى في شخصية الانسان ، مما لا يستطيع ان يفعله اي شيء آخر . فاذا استطاع المرء ان يزيح جانبا الآلام والتمزق المروعين، فانها تصبح أنقى مطهر للامم عرف على الاطلاق . وحتى في حالتها الراهنة ، هي افضل صاهر للشخصية والرجولة تم اختراعه ، عندما تؤخذ في جرعات صغيرة . والشيء الذي يؤسف له ، ان هذه الحرب قد اصبحت جرعة زائدة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من نواقصها وبشاعتها ، فهي فوق كل شيء حياة انسان ، بأعمق واكمل معنى الكلمة »[١٤]

ربما لا يكون من الاسراف في الظلم القول بانه لم يتخل ابدا عن الشعور الذي تعبر عنه هذه الفقرة الاخيرة ، ولكنه بذل كل جهد من اجل ان تؤخذ الحرب في المستقبل مرة اخرى « في جرعات صغيرة » .

وعلى الرغم من ان هذا الاسهام الوطني النزعة في الجهد الحربي لم ينشر ابدا ـ اذ من المثير للدهشة ان وزارة الحرب رفضت التصريح بنشره ـ فانه لم يكن بأي حال جهدا ضائعا . فقد ارسل المؤلف نسخة الى مشرفه في « كيمبردج » « جوفري بتلر » ، الذي بدوره اطلع عددا من اصدقائه عليه ، وكان بينهم « جون بوكان » ، الذي كان آنذاك في اركان قيادة هيغ ، وكان بوكان نفسه من اشد المعجبين بالقيادة العليا البريطانية ، وقد راقه المخطوط ودعا هارت للالتحاق بقسم التاريخ الذي كان يعتزم انشاءه في القيادة العامة . وقد اخفقت هذه الخطة ـ شأن غيرها كثير في الفترة الاولى من حياة ليدل هارت العملية ـ في التحقق فعلا بسبب مرض بوكان وما تلاه من نقله الى منصب مختلف في موطنه ، ولكن بوكان اثبت في وقت لاحق انه كان حلقة اتصال مفيدة للغاية . والحقيقة ان ليدل هارت اظهر من البداية الاولى نزوعا نحو استخدام كتاباته في تكوين صلات واصدقاء في مراكز نافذة . وعلى سبيل المثال ، اثناء السنتين الاخيرتين من الحرب ـ حينما كان يؤدي الخدمة كمعاون في وحدات المتطوعين في « ستراود » و « كيمردج » ـ كتب كابتن هارت (كما كان يطلق عليه آنذاك) عدة كتيبات عن تعليم وتدريب المشاة ، قام بتوزيعها على نطاق جيد في عدد من الضباط ذوي المراكز الهامة ، بمن فيهم راعيه الاول ، وربما الاهم ، جنرال سير أيفور ماكسي Sir Ivor Maxe ، الذي كان مفتشا عاما للتدريب في فرنسا اثناء الاشهر الستة الاخيرة من الحرب . ثم عين قائداً عاماً للقيادة الشمالية . ولم يكن جنرال ماكسي فقط سببا في نشر افكار

(١٤) ٧/١٩١٦/٢٢ ص . ١ و ٣٠ ـ ٣٥ ـ ٣٨ و ٤٠ و ٤٣ و ٧٦ و ٨٤ ـ ٨٥ و ٩٣ .

هارت عن تكتيكات وتدريبات المشاة على نطاق واسع في الجيش ، ووجد له وظيفة في قيادته ، بل انه ايضا فتح له منفذا في الصحافة الجادة عن طريق شقيقه ليو ماكسي ، الذي كان رئيسا لتحرير مجلة « ناشيونال ريفيو » National Review الشهرية . وفي هذه المجلة ـ وبايحاء من سير أيفور ماكسي ـ نشرت نظرية كابتن هارت التكتيكية المهمة بعنوان « رجل في الظلام » بصورة موسعة في حزيران وتموز (يونيو ويوليو) ١٩٢٠[١٥] .

ليس غرض هذه الدراسة رصد التسلسل التاريخي لحياة ليدل هارت العملية ، حيث ان هذه المهمة انجزت على نحو مثير للاعجاب في كتابه الذكريات . ويكفي ان نلاحظ هنا انه بحلول العام ١٩٢٠ كان ليدل هارت قد بدأ فعلا يصنع اسما له ، اولا كمدرب جيد للجنود غير المحترفين ثم كخبير في تكتيكات المشاة ، وخاصة على اصعدة الجماعة (حظيرة) والفصيلة والسرية[١٦] . ومع ذلك فان بقاءه طوال الوقت في الجيش النظامي الذي كان ينحدر باطراد اصبح امرا مشكوكا فيه بسبب صحته المعتلة . لقد خاض على هذه الجبهة صراعا شجاعا ، ولكنه غير مجد ، حتى العام ١٩٢٤ ، حينما سرح من الخدمة بنصف معاش .

وكما اشرت من قبل فان مديح ليدل هارت غير النقدي للقادة البريطانيين والروح القيادية البريطانية لم يكن غير مرحلة انتقالية ، فهو ـ وهذا امر لا يثير الدهشة ـ يعترف في الذكريات بانه دهش ازاء الاطراء الحماسي الذي كان قد أضفاه على هيغ وآخرين . وذهب ـ في رد على احد النقاد في مرحلة لاحقة ـ الى ان هذا المؤلف غير المنشور يبرهن على انه لم يكن لديه انحياز ضد القيادة العليا ، وانما يبرهن على ميل قوي الى ان يعزو اليها عصمة من الخطأ الى ان سقط الوهم عنه في النهاية بفضل دراسة تمت بعد الحرب لخططها وعملياتها . واشار ، في موضع آخر من الذكريات الى انه ـ على النقيض مما تخيله اناس كثيرون فيما بعد ـ لم يكن متحررا بالغريزة[١٧] .

ومع ذلك من قبيل توفير قدر اكبر من الدقة ان نتحدث عن احياء وشحذ غريزيته النقدية ، لان روح النقد لم تكن بالتأكيد جديدة انما كان قد قلمها مؤقتا حبه الرومانسي للوطن . وربما كان ورث شعورا قويا بالفضول ، ومعايير خلقية عالية ، ورغبة في التحليل ، بينما لقي ميله لوضع الآراء الاصولية (الارثوذكسية) موضع التساؤل تشجيعا من جانب استاذ غريب الاطوار لكنه

---

(١٥) ٧/ ١٩٢٠/١٧ من سير أيفور ماكسي الى ليدل هارت ٩ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ . الذكريات ص . ٢٦ ـ ٢٧ ، ٣٨ الهامش ، ٤٧ ، ٥٧ . نظرية « رجل في الظلام » الحربية ، في مجلة ناشيونال ريفيو ، حزيران ١٩٢٠ ص . ٤٧٣ ـ ٤٨٤ وتموز ١٩٢٠ ص . ص . ٦٩٣ ـ ٧٠٢ . دفع للمؤلف جنيه استرليني عن كل صفحة .

(١٦) بالاضافة الى كتيبات عن الانضباط وواجبات قائد القطاع في الهجوم ، نشر ليدل هارت في العام ١٩١٨ « تمرين المعركة والتشكيلات الهجومية مبسطة » (في ١١ صفحة) و « مناهج جديدة في تدريب المشاة » (في ٣٨ صفحة) انظر ايضا : « اطار علم التكتيكات المشاة » (١٩٢١) .

(١٧) الذكريات ، ص . ص . ٢٦ ، ٦٠ . ومع ذلك فانه وان لم يكن « متجردا بالغريزة » فانه فيما بعد كان يحب ان يؤكد على فرديته وتفرده ـ مثلا ، عن تقرير معاكس من ناظر مدرسته الابتدائية في العام ١٩١٠ اضاف : « قطب حاجبيه ازاء اسلوبي المتفرد في ادائي للعبة الكرات الخشبية (البولينغ) وتسجيلي للاهداف !! » (٨/ ١٩) .

مثير للاهتمام في كلية « سان بول » ، وهو القس الاسطوري هوراس ايلامElam .

ويستطيع المرء ـ في محاولة تقفي اثر ظهور ليدل هارت كناقد عسكري لاذع ومنيع ـ ان يقدر كيف كان من شأن اعادة فحص لتكتيكات المشاة على نحو بالغ الحدة ان يفضي به الى مراجعة مدائحه الاصيلة للقيادة ولعمل الاركان . ومع ذلك يبدو ان قوة دافعة اكبر اتت من اتجاه آخر . وقد تلخص هـذا في مذكرة كتبها في العام ١٩٢٠ او ١٩٢١ حول « كيف خففت عبادة بطـولية « الجنرالات » لدي وبدأ سقوط الوهم من خلال الاتصال الوثيق مع افضلهم ـ واكتشافي افتقارهم الى الافكار المبتكرة ـ وكيف كانوا يعتمدو ن على مبتدىء مثلي يبين لهم دروس الحرب » . وتحتوي الذكريات على امثلة عديدة لعملية سقوط الوهم هذه التي عززت تقدير ليدل هارت العالي لقدراته الذاتية . وباختصار فانه اكتشف ان ابطال زمن الحرب الذين كان معجبا بهم لم يكونوا فقط ذوي سيقان من الصلصال ، بل كانوا ايضا ذوي رؤ وس خشـبية وهـكذا تبـين ان « لـورد هورن » Lord Horne ، الذي كان من قبل يتخيله رجلا فائقا (سوبرمان) اثناء معركة « السوم » ، بليد الذهن للغاية حينما حاول بازيل ان يشرح له استخدام طاولة الرمل في وضع التعليمات للمشاة ، وذلك عندما زار « شورنكليف » في العام ١٩٢٢ . والاسوأ من هذا انه عارض ـ في وقت لاحق ـ ترقية ليدل هارت معلقا على ذلك بقوله ان « الكتابة في الموضوعات العسكرية لا تبـرر التـرقية السريعة » . وبعد سنوات قليلة جسد جنرال مونتغمري ـ ما سينغبرد في صورة مصغرة فكرة ليدل هارت عن القائد الرجعي حينما شهر في البداية بكتاب جديد للكولونيل « ج . ف . سي فوللر » Fuller ثم اعترف بعد ذلك بانه لم يكن قد قرأه ، قائلاً « لا ، انني لم اقرأ كتاب فوللر ، ولا اتوقع ان اقرأه ابدا . ان من شأنه ان يثير ضيقي فحسب »(١٩) .

واذا كانت التجربة الشخصية قد دفعت ليدل هارت نحو موقف نقدي ، فان اتجاهه النقدي قد تعزز بفضل دراساته الكثيفة الخاصة للحرب العالمية الاولى ، التي بدأها في العشرينـات ، بفضل نشر يوميات ورسائل عديدة (مثل يوميات ورسائل فيلد مارشال سير هنري ويلسون)* كشف حوادث المنازعات وانعدام الولاء التي كانت تقع بين كبار القادة . وكان من الواضح ان ليدل هارت غضب وزال عنه الوهم بفعل أوجه القصور الخلقي لدى القادة ، بالاضافة الى ما كان يعتبره عجزهم المهني .

---

(١٩) الذكريات ، ص . ١٩ . وصف ايلام في صورة رواية كومتون ماكينزي شارع الخطيئـة ، ورواية ارنسـت رايموند السيد اوليم .

* هنري متيلاند ويلسونH. M. Wilson (١٨٨١ ـ ؟) قائد عسكري بريطاني خدمَ في حرب « البوير » في جنوب افريقيا والحرب العالمية الاولى ، وكان قائدا للقوات البريطانية في مصر (١٩٣٩) وحاكما عسكريا لبرقة (١٩٤١) وقائدا في اليونان (١٩٤١) ثم في فلسطين وشرق الاردن (١٩٤١) وفي ايران ثم العراق (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣) وفي قيادة الشرق الاوسط (٤٣ ـ ١٩٤٤) وقائد اعلى للحلفاء في البحر الابيض المتوسـط (١٩٤٤) ، فيلـد مارشـال (١٩٤٤) رئيس بعثة الاركان البريطانية المشتركة في واشنطن (١٩٤٤ ـ ١٩٤٧) . « المترجم » .

وقد فقد ليدل هارت الى حد ما ـ في تحوله السريع من مادح الى ناقد لاذع ـ احساسه بالمنظور التاريخي . فقد كان يعطي وزنا غير كاف للآثار البعيدة الامد لتقليد الخضوع الدقيق من جانب الجيش البريطاني للسيطرة السياسية منذ القرن السابع عشر ، وللطابع المميز للضابط البريطاني . ولما كانت الاغلبية العظمى من مناصب الضباط الاوائل في المشاة والفرسان والترقيات حتى رتبة « ليفتنانت كولونيل » (مقدم) خاضعة للشراء حتى العام ١٨٧١ ، حتى بعد ذلك كان لا يزال دخل خاص يبلغ ٢٠٠ جنيه استرليني واكثر سنويا امرا جوهريا بالنسبة للضباط في كثير من الافواج فانه من اليسير ان نفهم السبب في ان روح الهواية كانت سائدة في بعض الجوانب . وكانت الجندية بالنسبة لعدد كبير من ضباط الافواج قبل الحرب العالمية الاولى مهنة مؤقتة للنبلاء اكثر منها حياة عملية تمتد طوال العمر . فكان هذا النوع من الضباط المؤقتين يميل الى احتقار حواجز مهنية مثل « كلية الاركان » التي كان يتعين على الطموحين اجتيازها . وربما كان ليدل هارت ـ في بعض الاحيان ـ يبالغ في تقييم النظرة العقلية النقدية لدى الضباط ـ او كان بالاحرى يتوقع اكثر مما ينبغي من الضابط المتوسط ـ على حساب صفات اخرى في الشخصية . (ومع ذلك فالنتيجة ـ وهي نتيجة يصعب للغاية مقارنتها بغيرها ـ ان نظرة ليدل هارت النقدية المفرطة الى الضباط البريطانيين فيما بين الحربين العالميتين تبدو للكاتب في الوقت الحاضر مبررة . واحدى المصاعب في طريق هذا ان النقاد الصرحاء الاذكياء المتفردين للمؤسسة العسكرية مثل ليدل هارت (واكثر منه فوللر) كانوا يميلون الى اثارة ردود الفعل « ساذجة » كذلك الذي نقلناه عن مونتغمري ـ ماسينغبرد ، وبالتالي كانوا يؤكدون فكرتهم النمطية عن القادة الرجعيين . ومن ناحية اخرى كان طابور من الضباط النظاميين الاكثر تقدمية يتبنى انتقادات ليدل هارت ـ في مجالسهم الخاصة ـ ضد رؤسائهم . وعندما يقدم كل ما يتيح عنصر التبرير الذاتي تبقى ذكريات ليدل هارت وسجلاته بمثابة عريضة اتهام قوية لذهنية جيل الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ من ضباط الجيش الكبار[٢٠] .

كرس ليدل هارت في الفترة الاخيرة من حياته وقتا وطاقة بلا نهاية لتشجيع الشبان المبشرين بمستقبل ناجح على الاحتفاظ بالمسار الذي اختاروه منذ وقت طويل ، بصرف النظر عن مدى الانتكاسات الكثيرة والمقبضة . هذه الكلمات والافعال الرقيقة كانت بغير شك من الهام تجربته الخاصة في ست سنوات او نحو ذلك بعد الحرب العالمية الاولى ، حينما كانت صحته عليلة وبدا ان حظ قد فاته[٢١] . وعلى الرغم من ان تلك السنوات قد تبدو ـ اذا نظر اليها بأثر رجعي ـ علامة على

---

(٢٠) من المثير للاهتمام ان تقارن وجهات نظر ليدل هارت مع وجهات نظر آرثر ماردر حول كبار ضباط الحربية الملكية في الفترة نفسها : انظر كتاب ماردر : من الدردنيل الى وهران (نشر مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٧٤) ص . ص . ٣٣ ـ ٦٣ . انظر ايضا أ . ي . سي . بروس Bruce « تاريخ نظام الشراء في الجيش البريطاني ، ١٦٦٠ ـ ١٨٧١ » (اطروحة الدكتوراه غير منشورة ، جامعة مانشستر ، ١٩٧٤) ، وكتاب بريان بوند : الجيش الفيكتوري وكلية الاركان (ايرمتوين ١٩٧٢) .

صعود مطرد وسريع ـ وحتى كالشهاب ـ الى رتبة التميز كنظري متخصص في التكتيك ، فانه في الحقيقة كابد انتكاسات وخيبات امل عديدة ربما تكون قد ساعدته على تقوية تصوره الخاص لذاته كعبقري احبطه الافراد ذوي العقول الصغيرة واحبطه العجز المالي لدى الجهاز البيروقراطي . ففي العام ١٩٢١ ـ مثلا ـ اكتشف وهو يقلب في ملف من ملفات وزارة الحرب حول « دليل تدريب المشاة » ، ان ضابطا كان قد تعاون معه من قبل عن كثب مراجعة هذا الدليل كتب « ملحوظة باردة ومع سبق اصرار » الى ضابط كبير مبجل ! هو البريغادير (عميد) وينستون دوغان مقترحا ان عليهما « ان يقتفيا اثر تفكير ليدل هارت ، ولكن دون ان يكلفا نفسهما عناء ان يفعلا شيئا من اجله بالمقابل » ! وانه لفضل كبير ينسب الى ليدل هارت انه لم يضمر فيما يبدو احتقارا ضد كاتب هذه الملحوظة ، وهو الكابتن ايفتس Evetts (اللفتنانت ـ جنرال سير جون ايفتس فيما بعد) .

« بعد الحرب (وفق تعبير جاي لوفاس الدقيق) أدى ليدل هارت الخدمة في مراكز متعددة ، كضابط معلم ينظم العمل التربوي في المستشفيات ، ويساعد على اعادة تأهيل المحاربين ، القدماء المقعدين في الحياة المدنية ، ويعلم التاريخ العسكري للضباط الذين يدرسون استعدادا لامتحانات ترقيتهم . وقد سعى للتعيين بوظيفة في قسم التاريخ التابع للجنة الدفاع الامبراطورية ، ولكنه خذل لان الفرع المالي ذا الذهنية النزاعة للاقتصاد في النفقات ، لم يكن ليسمح لضابط بان ينقل الى وزارة حكومية ويدفع مرتبه من مخصصات الجيش . وقدم طلبا للحصول على وظيفة في الادارة التعليمية بالجيش ، ولكن الهيئة الطبية رفضته ، وعندما تدخل اصدقاء له في الدوائر العليا لكي يعلن انه لائق جسمانيا ، كان افضل اختيار عرضته الهيئة الطبية منحه منصبا نظاميا كملازم » .

في آب (اغسطس) ١٩٢٣ تم اخطاره باختياره لينقل الى سلاح الدبابات في وجه منافسة حادة ، ولكن لسوء طالعه لم يجتز مرة اخرى فحص اللياقة الطبية[٢٢] . وفي ذلك الوقت فكر في البحث عن عمل في الولايات المتحدة كمحاضر وككاتب حر[٢٣] . واخيرا اتخذ حظه منعطفا نحو الاحسن في العام ١٩٢٤ ، كما سيتضح في آخر هذا الفصل .

لقد قامت سمعة ليدل هارت المهنية على صياغته الجديدة الجذرية لتكتيكات المشاة التي بدأها قرب نهاية الحرب العالمية الاولى وواصلها حتى اوائل العشرينات . في هذا كان يبني على

---

(٢١) تركت لديه النوبات القلبية التي اصيب بها في العام ١٩٢١ والعام ١٩٢٢ وسواسا بأنه قد يسقط ميتا على حين فجأة (٨/ ٣١٧ (. وعلى الرغم من انه كان يشكو « سوء الحظ » فأنه يبدو من الادلة التي توفرها الذكريات ان الهيئات الطبية المختلفة التي رفضت اعطاءه شهادة « لائق » انما كانت تؤدي واجبها فحسب . اما اشارة فوللر الى انه كان يبعد من الخدمة العسكرية بسبب كتاباته النقدية فتبدو أيضا بعيدة الاحتمال ـ ولعلها كانت تبدو معقولة اكثر بعد سنوات قليلة لاحقة .

(٢٢) الذكريات ، ص . ص . ٢٧ ـ ٧٥ في مواضع مختلفة ـ جاي لوفاس : تربية جيش (جامعة شيكاغو ١٩٦٤) ص . ٣٧٨ .

(٢٣) ٨/ ٣٠١ ، ليدل هارت الى كابتن ج . م . سكاميل في شباط (فبراير) ١٩٢٣ .

اسس صلبة ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربته الخاصة . وتستحق روايته الخاصة لهذه العملية في الذكريات ان تنقل مطولا :

« في تطور افكاري العسكرية لعبت تجربة ضرورة تدريب كتيبة من لا شيء دورا قدر لي ان اعرف فيما بعد انه اكبر من تلك الخبرة التي اكتسبتها اثناء الخدمة الفعلية في فرنسا . ذلك انها كانت مشكلة مختلفة للغاية ، واصعب كثيرا ، عن تنفيذ تدريب قوات معتادة على ممارسة الحرب ومجراها على الجبهة الغربية المحصنة . . . .

« الحاجة الى ايجاد نظام تدريب تكتيكي للهجوم والدفاع والهجوم المعاكس لملاءمة الظروف المتحركة بطريقة من شأنها ان توفق بين المبادىء الاساسية المستقاة من خبرة الماضي والتطور الحديث في الاسلحة . لهذا اضطررت لان افكر . . . في اسباب التعاليم والممارسات التكتيكية التي كانت تلقن في العام ١٩١٤ والسنوات التالية . وكلما فكرت فيها اكثر ، كلما ازداد شكي في سلامتها من جوانب مختلفة ، وازداد شعوري بالحاجة الى استكشاف اكثر منهجية للنظرية العسكرية ككل ، في علاقتها بالتاريخ العسكري . وهكذا بدأت من القاع ، من ميدان التكتيكات الصغرى التي كانت مألوفة لي ، صعودا نحو نظرة في الحرب الكبرى La grande guerre . . . ثم هبوطا من جديد الى صعيد التكتيكات الصغرى »[٢٤] .

لقد قاده مسعاه الى البساطة النظرية التامة لان يضع مسلمة عن وضع « رجل في الظلام » اعزل من السلاح ، يواجه خصما منفردا اعزل ايضا . واستنبط ان النجاح - على هذه الاصعدة الاعلى منها - يتوقف على مركب من التثبيت والمناورة والاستثمار . وظهرت هذه الافكار في مقال هام في مجلة United Service magazine (مجلة القوات المتحدة) في نيسان (ابريل) ١٩٢٠ . وكان جوهر نظريته انه :

« في الحرب نماثل رجلا يبذل كل جهده للبحث عن عدو في الظلام ، والمبادىء التي تحكم تصرفنا ستكون مماثلة لتلك التي يمكن ان يتبناها على نحو طبيعي . يمد الرجل ذراعا لكي يتلمس طريقه الى عدوه (استكشاف) . وحينما يلمس خصمه يتحسس طريقه الى رقبة الاخير (استطلاع) وبمجرد أن يبلغها يمسكه من ياقته او من رقبته حتى لا يتمكن خصمه من الفكاك او الرد عليه بطريقة مؤثرة (تثبيت) . ثم يضرب بقبضته الثانية عدوه ، الذي اصبح عاجزا عن تفادي الضربة ، ضربة قاضية حاسمة (هجوم حاسم) . وقبل ان يستطيع عدوه ان يفيق ، يتابع وضعه المميز لكي يجعله فاقد القوة نهائيا (استثمار) » .

كانت الفكرة الاساسية التي حاول ان يغرسها هي ان « الوزن او القوة » في الحرب الحديثة ينبغي ان تعني وزن قوة النيران وليس وزن مجرد اعداد من الرجال :

---

(٢٤) الذكريات ، ص . ٣٧ - ٣٨ .

« بينما المناورة هي المفتاح الى النصر ، فانها مناورة وحدات قوة النيران لا مناورة كميات ذخيرة المدافع . ينبغي ان نتعلم ان نعتمد من اجل النجاح ، لا على الوزن المادي لهجوم المشاة ، انما على الاستخدام الهجومي البارع في الربط بين كل الاسلحة المتاحة ، على نحو مبني على مبدأ المناورة » .

وفي المستقبل ، بدلا من حشود الرجال المزودين بالسناكي -

« سنرسل الى الهجوم جماعات قتالية منتشرة على نطاق واسع ، تتضمن عددا قليلا نسبياً من الرجال ولكنهم مزودون بوفرة بقوة نيران ، ومدعومين - علاوة على هذا - بكتل من قوة النيران المساعدة ، مثل المدفعية ، والرشاشات ، والدبابات ، وطائرات القتال الارضي* »(٢٥) .

وقد نشرت معالجة موسعة لنظرية « الرجل في الظلام » في الحرب في مجلة National Review (المجلة القومية) في حزيران وتموز (يونيو ويوليو) ١٩٢٠ . وقد اكد في الحلقة الاولى على القيمة الممكنة لجنزير (سلاسل) « التراكتور » الذي لا يستخدم بالنسبة للدبابات فحسب ، بل ايضا بالنسبة لكل اشكال النقل في منطقة المعركة لاحياء امكانية استغلال النجاح التكتيكي . فاذا امكن تحقيق ذلك يصبح من الممكن من جديد جني ثمار النصر كاملة على نحو ما فعل نابليون في احسن حالاته . وما ان يصبح النقل بواسطة الجنازير (السلاسل) مطبقا على نطاق شامل حتى ستصبح الجيوش قادرة على اختراق البلد في خط مستقيم ، ولن تعود هناك خطوط جامدة للاتصال يستطيع العدو عرقلتها بالقذف من المدافع او الطائرات ، وباختصار ستصبح هناك حركة اكثر مما كان في اي وقت مضى(٢٦) .

وعندما اتيحت الفرصة لليدل هارت لاعداد طبعة جديدة من دليل تدريب المشاة في صيف العام ١٩٢٠ استطاع ان يعتمد على الوسائل التكتيكية المحسنة التي ظهرت في العام ١٩١٨ ، والتي طورها الالمان في هجومهم في آذار (مارس) وبعد ذلك طورها الحلفاء .

وكان هجوم الالمان في آذار ١٩١٨ قد برهن على ان الدفاعات يمكن كسرها - حتى بدون دبابات - بواسطة مشاة مدربة تدريبا خاصا تساندها عن قرب المدفعية . فبناء على اوامر « لوديندورف » جرى تدريب هجومي كثيف للفرق الالمانية التي كانت قد نقلت من الجبهة الشرقية وفقا لكتيب كابتن « غراير » الجديد : الهجوم في حرب الخنادق . وشكلت وحدات نخبة من اصغر الجنود سنا واكثرهم لياقة بدنية وخبرة واطلق عليها اسم « قوات العاصفة » . وسلحت هذه

---

* المقصود طائرات الهجوم الارضي بالمعنى الحديث ، ولكن هذا الاصطلاح لم يكن مستخدما وقتئذ . (المترجم) .

(٢٥) « المبادىء الاساسية للحرب وتطبيقها على تكتيكات المشاة الهجومية اليوم » ، في مجلة United Service magazine ، نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، ص . ص . ٣٠ - ٤٤ . انظر ايضا لوفاس ، المصدر المذكور ، ص . ص . ٣٧٨ - ٣٨٠ .

(٢٦) « نظرية « الرجل في الظلام » في الحرب ، المصدر المذكور ، الذكريات ، ص . ٣١ - ٣٩ .

الوحدات برشاشات خفيفة ، وهاونات خفيفة ، وقاذفات للهب ، وكانت مهمتهم استخدام تكتيكات التسلل لعبور خطوط الخنادق ، وتجاوز مراكز المقاومة القوية ، والتغلغل - اذا امكن - بعمق حتى تستطيع ان تهاجم مدفعية العدو . وعلى النقيض من الممارسة المعتادة على الجبهة الغربية كان يلقى بالاحتياطي في المعركة مع تقدم الهجوم ، وليس عندما يتم ايقافه .

وقد احرزت تكتيكات « لوديندروف » - يدعمها سد (ستارة) ناري هائل من المدفعية - نجاحات مؤثرة وان لم تكن حاسمة ضد القوات البريطانية التي كانت غير مستعدة - بصورة مثيرة للأسى - للحرب في الارض المكشوفة . ومع ذلك فان الشيء الذي لا ينال حقه من التقدير عامة هو السرعة والكفاءة اللتين تعلمت بها قوات الحلفاء درسها . وكان ذلك يرجع في الاساس الى المفتش العام للتدريب الذي عينه « هيغ » اخيرا ، وهو الجنرال سير « إيفور ماكسي » ، وكان « رجلا ذا خيال واسع ، واصالة وهمة ، مع ثروة من خبرة الميدان وراءه » ، وقد تبدت الروح الجديدة التي بثها « ماكسي » واركانه في الجيش وفي مدارس الفرق في وقت مبكر يرجع الى يوم ٤ تموز (يوليو) بواسطة وحدات الجيش الرابع بقيادة « رولينسون » ، والفيلق الاسترالي بقيادة « موناش » ، والفرقة الثالثة والثلاثين الاميركية في معركة « هامل » Hamel . وتحقق نجاح على نطاق اوسع كثيرا في معركة « آميين » Amiens يوم ٨ آب (اغسطس) . وعلى الرغم من ان الدبابات لعبت دورا هاما في هذا النصر ، الا انني اعتقد ان فوللر وليدل هارت ربما بالغا في دورها على حساب المدفعية والمشاة . فكما لخص الجنرال هيوبرت ايسام Hubert Essame الامر بالتحديد : « كان النصر في الحقيقة مكافأة لكل الأسلحة التي عملت بمهارة معاً بهدف واحد فحسب » . وقد وصف المؤلف نفسه سحق خط « هندنبرغ » Hindenburg Line على يد جيش « هيغ » في نهاية شهر ايلول (سبتمبر) بانه « عملية » عملاقة تتجاوز في حجمها اي شيء ، وقع في الحرب العالمية الثانية قبل العام ١٩٤٥ »(٢٧) .

قد تبدو هذه الدروس التكتيكية واضحة جدا للمؤرخين حينما يستعيدونها ، ولكن ليدل هارت قد استحق ان ينسب اليه الفضل كاملا ، وهو الفضل الذي عزاه الى نفسه في الذكريات ، لكونه كان اول من ادرك المبادىء الاساسية وراء الخبرة العملياتية للعام ١٩١٨ ثم طورها ، في ضوء مفهومه الاصلي الخاص عن « السيل الآخذ في الاتساع » ، لاغراض التدريب . وليس هناك ما يوحي في مراسلات الجنرال « إيفور ماكسي » بانه كان يعتقد ان ليدل هارت انما كان ينظم فحسب تكتيكاته الناجحة التي اتبعها في زمن الحرب : على النقيض من ذلك هناك دليل كاف على ان تعمق واصالة الملازم البالغ من العمر اربعة وعشرين عاما هما اللذان اكسباه اعجاب الجنرال(٢٨) .

---

(٢٧) باري بيت : ١٩١٨ : الفصل الاخير (نشر كاسيل ١٩٦٢) ص ٤٣ - ٤٤ . هـ . ايسام : المعركة للسيطرة على اوروبا ، ١٩١٨ (نشر سكريبز : باتسفورد ١٩٧٢) ص ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٣٦ الهامش .

(٢٨) ملف مراسلات ماكسي ١٩٢٠ - ١٩٢١ في مواضع مختلفة ، انظر ايضا ٧/ ١٩٢٠ وما بعدها .

شرح ليدل هارت الحاجة الى نظام « السيل » الآخذ في الاتساع »ـThe expanding torrent ـ في الهجوم في رسالة بعث بها الكابتن ايفنس ضابط الأركان العامة الثالث لماكسي في آب (اغسطس) ١٩٢٠ .

« حينما افكر فيما كتبناه في السابق والفكرة القديمة عن « البقعة الناعمة » يبدو لي ان هذه الفكرة الاخيرة قد نسبت في اللحظة الحرجة ـ مباشرة بعد خلق البقعة الناعمة ودفع الاحتياطي نحوها . ولم تقل شيئا بشأن المشكلة الحيوية الخاصة باختراق نظام دفاعي في العمق . فقد تعين ارسال اعداد ضخمة من الاحتياطي عبر عنق زجاجة ، ولم ترد اية اشارة الى العمل الذي يلي ذلك »[٢٩] .

في العام ١٩٢٥ ذهب ليدل هارت ـ بصورة مقنعة ـ الى ان فكرته عن « السيل الآخذ في الاتساع » تختلف عن وسيلة التسلل في الهجوم الذي اوجده الالمان وانتهجه البريطانيون في العام ١٩١٨ في ثلاثة جوانب :

« ١ ـ انه بينما يدفع بالاحتياطي على طول خط المقاومة الاقل ، فانه يستخدم لتوسيع التغلغل والحفاظ على الاتساع الاصلي للتقدم وسرعته في حالة توافق .

٢ ـ يتحقق هذا الغرض بواسطة اسناد تلقائي لتلك الوحدات الامامية التي تحرز التقدم الاسرع ، وعن طريق ابدال مطرد للوحدات الامامية الابطأ جنبا الى جنب معها . . .

٣ ـ تكون الحركة على خط المقاومة الاقل تلقائية ، الامر الذي يوفر وقتا ، ولكن القائد المتفوق يستطيع ان يحتفظ بالسيطرة على معدل التقدم المتوغل واتجاهه[٣٠] .

كان مسعى ليدل هارت في هذه المؤلفات المبكرة حول تكتيكات المشاة هو ببساطة الامل في ان يتمكن من فهمها ضباط الصف والجنود وكذلك الضباط ، وان تصبح متأصلة فيهم الى حد يمكن معه تنفيذها تلقائيا في المعركة . وكما يذكر الجنرال ماكسي ـ متفقا مع « الوصايا العشر » لليدل هارت لتكتيكات المشاة ، في العام ١٩١٩ : « ان الرد على رسالتك المذكورة سهل . الامر الصعب ـ والذي سيتطلب عشر سنوات من الجهد الشاق ـ سيكون جعل هذا المذهب مفهوما ومتبعا وممارسا فعليا فوق امبراطورية الاطراف كامبراطوريتنا انها مهمة تدريبية شاقة ـ وتنطوي على جهد ذهني من جانب اعداد من الضباط الذين يمقتونها . ولكن باستطاعتنا ان نفعل الكثير لكي نبدأ على اسس جيدة »[٣١] .

وكان ليدل هارت يؤكد ايضا على ان المبادىء الاساسية ينبغي ايضا ان تكون قابلة للتطبيق

---

(٢٩) ٧/ ١٩٢٠/ ١١٠ ليدل هارت الى ايفنس ٢٤ آب ١٩٢٠ . وليس هناك ما يوحي في رسائل ماكسي او دوغان او ايفنس بان فكرة ليدل هارت عن « السيل الآخذة في الاتساع » كانت مألوفة او « قديمة » .

(٣٠) ٧/ ١٩٢٥/ ٧ « سجل مبكر للحياة العملية » (مخطوطة) انظر ايضا الذكريات ص . ص . ٤٣ ـ ٤٦ ، ولوقاس ، المصدر المذكور ، ص . ٣٨٠ .

(٣١) ٧/ ١٩٢٠/ ٥٦ ماكسي الى ليدل هارت ٨ تشرين الثاني ١٩١٩ .

على أية وحدة في جميع اشكال العمل forms of action وكانت الفكرة الاساسية التي يلح عليها مرارا وتكرارا ان التكتيكات ينبغي ان تبنى على « المناورة الذكية بقوة النيران » . ان التفرق والمرونة والمبادرة الفردية ستصبح أكثر قيمة في معارك المستقبل . كذلك كان ايضا في طليعة التقدم في التفكير في الامور المتعلقة بوظائف الاسلحة التقليدية اكثر منه في ادوارها . وعلى الرغم من ان ليدل هارت كان كثيرا كما يذكر الدبابات في تلك الكتابات ـ وكان قد نشر بالفعل في وقت مبكر للغاية يرجع الى تشرين الثاني (نوفمبر) مقالا عن المشاة والدبابات في وحدة مشتركة[٣٢] ـ فان شاغله الرئيسي كان المشاة التي كان يؤ من بانها لا تزال قادرة ـ بالامكان ـ على استغلال شرح في جبهة محصنة . لم يكن في هذا كله ما يثير الدهشة ، اذا وضعنا في الاعتبار خبرة ليدل هارت الشخصية المحدودة للغاية واعتزازه باللواء الذي كان ينتمي اليه ـ « لواء المشاة الخفيفة الخاص بالملك في يوركشاير » . انما المثير للدهشة اكثر من هذا ، اذا اعتبرنا دور المدفعية المسيطر طوال معظم الحرب العالمية الاولى ، هو اهماله النسبي لها ، ليس فقط في كتاباته التي اعقبت الحرب مباشرة انما طوال العشرينات[٣٣] .

وقد نشأ تحول ليدل هارت الكامل نحو الرأي القائل بان الدبابات ستشكل السلاح الحاسم في حرب المستقبل اساسا عن علاقته بالكولونيل ج . ف . سي . فوللر ، التي بدأت في العام ١٩٢٠ . اذ كان فوللر ـ اثناء توليه منصب ضابط رئيس الاركان في مقر قيادة الدبابات ـ قد صمم « الخطة ١٩١٩ » الثورية . وكانت هذه الخطة تتصور هجوما مفاجئا من دبابات متوسطة على جبهة طولها تسعون ميلا بهدف التوغل مسافة عشرين ميلاً من اجل شل قيادات الفرق وقيادات الفيالق ، وقيادات الجيوش الالمانية . هذا الاختراق على جبهة عريضة يتلوه اندفاع اكثر تركيزا على جبهة طولها خمسون ميلا تستغله قوة تالية من الدبابات والمشاة المحمولة على الشاحنات . وقد حسب فوللر ان العملية باسرها تتطلب عددا يصل الى خمسة آلاف دبابة بين ثقيلة ومتوسطة ـ وهي حقا رؤ يا للمستقبل البعيد تمت في العام ١٩١٨ . كذلك فقد خطط لسلاح الجو الملكي R. A. F. ان يوفر استطلاعا ومساعدة تكتيكية . وقد انتهت الحرب قبل ان يكون بالامكان تنفيذ هذه الخطة لهجوم مفاجيء حديث ، ولكن فوللر واصل اطراء الاهمية الفائقة للدبابات في محاضراته ومقالاته وكتبه[٣٤] .

افتتح ليدل هارت مراسلاتها الطويلة المفيدة للطرفين بان ارسل الى فوللر نسخا من مقاليه

(٣٢) « اقتراحات حول مستقبل تطور الوحدة القتالية : الدبابة كسلاح في الصناعة » في صحيفة سلاح المشاة ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ، ص . ص . ٦٦٦ ـ ٦٦٩ . انظر ايضا لوفاس ، ص . ص . ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

(٣٣) لاحظ مثلا الاشارات القليلة والمقتضبة الى المدفعية في اعادة تكوين الجيوش الحديثة (١٩٢٧) وخاصة ص . ص . ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣٤) لوفاس ، ص ٣٥٣ . « الخطة ١٩١٩ » مطبوعة في كتاب فوللر ذكريات جندي غير تقليدي (نشر نيكولسوف ، و واتسون ١٩٣٦) ص . ص . ٣٢٢ ـ ٣٣٦ .

« الرجل في الظلام » و« نظرية في الحرب » (من المجلة القومية) ليعلق عليها . وبعيدا عن النقد الذي جلبه ليدل هارت على نفسه بحديثه المفرط « ضبابُ الحرب » بان « حوله الى ظلام دامس » ، وقد اكد فوللر ان الدبابات كان من المرجح ان تصبح السلاح الفاصل في المطاردة طالما ان الخيالة اصبحت الان عديمة الفائدة من الناحية العملية بينما المشاة ايضا بطيئة للغاية . وفيما يتعلق بالنقطة الاخيرة ، وبعد بداية مختلفة على غير العادة (« اذا ما جرؤت على ان اقرن شخصي المتواضع بكم ») اجاب ليدل هارت :

« انني اكتب للحاضر الراهن ، بينما المشاة لا تزال تعتبر السلاح الرئيسي . واشعر بيقين تام ان الدبابة سريعا ما ستصبح السلاح الوحيد ذا الاهمية ، فقط اذا ما استمعت السلطات الى الناس الذين يتمتعون بادمغة منظمة ، الامر الذي يتضمن بطبيعة الحال نفاذ البصيرة ، وانت على رأسهم »[٣٥] .

وفي اوائل العام ١٩٢٢ اضطر ليدل هارت لان يقدم افضل الحجج التي كان باستطاعته ان يجدها ضد مدرسة الحرب الميكانيكية حينما وافق على صياغة المقال عن « المشاة » الذي ظهر تحت اسم الجنرال ماكسي في طبعة جديدة من « الموسوعة البريطانية » ، ولكنه اعترف ـ في مجالسه الخاصة ـ بان انتقادات فوللر قد حطمت ثقته في حالة المشاة . وكتب ليدل هارت الى فوللر : « من الارجح ان تستمر بسبب النزعة المحافظة ـ المالية والرسمية ـ اكثر ما ستستمر بحكم فضائلها الذاتية . ويتعين على المرء في الوقت نفسه ان يبذل اقصى جهده لتحسين تقنية المشاة ورفع معنوياتها ، وبالطبع ، على الرغم من ان الدبابات هي ـ بلا منازع ـ سلاح المستقبل القريب ، فان الانسان كمقاتل فرد يبعث من جديد . ويقوم تبرير دور رجل المشاة على عاملين . فهو الهدف الاصغر والاكثر حركة ـ بصورة شاملة ـ بين جميع حاملات الاسلحة » . واختتمت الرسالة بنبوءة :

« ان الامة الاسرع الى ادراك ان الفترة التي نحن بصدد الدخول اليها هي عصر الدبابة ستكسب الحرب القادمة » .

وعندما تلقى ليدل هارت انتقادات فوللر الكاملة لمقاله عن « المشاة » اجاب : « انني مؤمن غيور بالدبابات ، ولا اريد الا ان اتحول (عن هذا الايمان) بالكامل . ومع ذلك فان الاقتناع الكامل ضروري إذا كان للمرء ان يصبح داعية جيدا » . واعترف صراحة بعد ان فحص بعناية النقاط التي اثارها فوللر . « انني اوافق تقريبا على ان مهمتي ـ اي دعم المشاة ضد انتهاكات الحرب الميكانيكية ـ انما هي مهمة مستحيلة » . وكانت التحفظات الوحيدة لليدل هارت متعلقة باستخدام الغازات والتشويش اللاسلكي والرصاص الخارق للدروع المضاد للدبابات . وفيما عدا ذلك « فان حججك مقنعة للغاية بشأن الدبابة مقابل الاسلحة الاخرى كما هي موجودة بالفعل ، الى حد انني

---

(٣٥) فوللر الى ليدل هارت ، ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ ، ليدل هارت الى فوللر ، ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ .

مهيأ لان اصبح مريدا . انني لم اكن في اكسفورد « بيت القضايا الخاسرة » . فاذا لم يكن من قبيل التجاوز المفرط عن اهتمامك الكريم بجهودي هل لي ان اتساءل عن امكانيات نقلي الى سلاح الدبابات ؟ »[٣٦] .

وهكذا ابتداء من العام ١٩٢٢ انضم ليدل هارت قلبا وقالبا الى فوللر في نشر مذهب المكننة الذي تصبح الدبابة فيه هي المعيار الرئيسي للتقدم العسكري . ومع ذلك ظل هناك اختلاف هام في تصورهما للحرب المدرعة . فقد كان فوللر يميل الى القول بان الدبابة وحدها ستسيطر على ميادين القتال مستقبلا وان مهمة المشاة ستكون مجرد احتلال الاقليم الذي تكسبه الدبابات . بينما ذهب ليدل هارت ـ من جانب آخر ـ على نحو منطقي الى ان هناك حاجة الى نوع من المشاة اكثر حركية ـ وهو ما اسماه « المشاة البحرية للدبابات »Tank marines لكي تتعاون مع الدبابات في قوة مدرعة لتوفير معاونة فورية في التغلب على نقاط الدفاع القوية وباختصار ، كان فوللر يركز على تطور جيش مؤلف كله من الدبابات ، بينما كان ليدل هارت يجند جيشا ميكانيكيا باكمله تكون فيه كل اسلحة الاسناد محمولة على مركبات مدرعة ، وبذلك تكون قادرة على مصاحبة الدبابات عن قرب[٣٧] .

لقد ذكرنا بالفعل لهجة ليدل هارت المختلفة في مراسلاته الاولى مع فوللر . ولان الاول كان يحتقر التواضع الزائف ولم يعانِ هو نفسه منه ، فانه مديحه البغيض لفوللر ينبغي ان يعد مخلصا تماما . حقا ان فوللر لم يكن الاكبر سنا ورتبة فحسب ، بل انه كان في العشرينات ايضا الاكثر نشاطا وربما المفكر الاكثر اصالة بين الاثنين . وتكشف مراسلات فوللر الكثيفة مع ليدل هارت ، ومؤلفاته الوافرة في هذه الفترة في تاريخ ونظرية الحرب على السواء ، كثرة وخصوبة في الافكار من شأنها ان يميزا ضابطا له خبرته في اي جيش . وهكذا لم يكن ليدل هارت يبالغ حينما وصف فوللر لطالب اميركي معني بالشؤون العسكرية ـ هو الكابتن « ج . م . سكاميل » بانه « اعظم قوة عقلية صادفتها على الاطلاق ، انه تريتون* « وسط الاسماك الصغيرة » . وعندما بدأ ليدل هارت وضع قوائم باسماء الضباط البريطانيين المبشرين بمستقبل لامع ، ممن كان يرتبهم حسب عدد « النجوم » ـ في العام ١٩٢٥ ـ كان فوللر في فئة مميزة وحده ، باعتباره الوحيد الذي سجل الدرجة القصوى بالحصول على ثلاثة نجوم . وعندما جرت بين الاثنين مشاحنة ـ اثارها شجار غاضب بين زوجتيهما ـ في العام ١٩٢٨ ـ كتب ليدل هارت باستفاضة ليوضح الامور كلها . وعلى الرغم من انه اشار ـ مسايرا « سونيا فوللر » ـ الى انه يدين بخطواته الاولى على السلم الى ماكسي اكثر مما يدين

---

(٣٦) ليدل هارت الى فوللر ، ١٦ و ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٢ . فوللر الى ليدل هارت ، ١٩ كانون الثاني ١٩٢٢ .

(٣٧) الذكريات ، ص . ص . ٨٦ ، ٨٩ ـ ٩١ .

* التريتون هو نصف إله من انصاف آلهة البحر عند الاغريق ، ويصورونه بجسم رجل وذيل سمكة . والمقصود هو تشبيه فوللر وتفوقه بالنسبة للعسكريين الآخرين ، بانه مثل إله البحر بالنسبة للاسماك الصغيرة . (المترجم) .

لزوجها ، فانه سلم بطريقة كريمة ببروز فوللر :

« لقد كنت انت الرائد (في المكننة) و . . . وتحولي لم يبدأ قبل العام ١٩١٨ ولم يكتمل قبل العام ١٩٢١ . وحتى ذلك الوقت كنت انا في الاساس رائدا في مجال تكتيكات المشاة ولـم اكن قد درست بالكاد الحرب الميكانيكية . وقد ظللت لفترة طويلة اعتبر انك تملك اعمق عقل طبق على الفكر العسكري في هذا القرن . وعلى الرغم من انني اشعر ان ذهني يتطور باطراد في قوته ومداه ، فلقد اعترفت دائما بتفوقك . . . »[٣٨] .

ولسوء الطالع انه حتى قبل ان يصبح فوللر موضع الشك سياسيا نتيجة ارتباطه بالفاشيين الذين كان يتزعمهم سير «اوزوالدموزلي Sir Oswald Mosley في الثلاثينات ، كان فوللر قد ضحى بكل فرص بلوغه قمة الجيش بسلوكه المتغطرس ازاء الارفع منه رتبة وبصراحته غير المسؤولة . وقد كان يبدو في بعض الاحيان وكأنه ينطوي على رغبة في الموت فيما يتعلق بحياته العملية العسكرية[٣٩] ويمكن ان يوصف فوللر في العشرينات بانه كان مثل شهاب محترق ، بينما كان ليدل هارت نجما اقل لمعانا انما اكثر ثباتا .

كان ليدل هارت على يقين بانه حقق فعلا مكانة مرموقة في التاريخ بدرجة تكفي لان تجعله يجمع « مذكرات من اجل سيرة ذاتية » في العام ١٩٢٠[٤٠] . ولا بد ان تبقى دوافعه لكتابة هذه التقديرات الذاتية وغيرها والاحتفاظ بها مسألة تخمين . فالحقائق القائلة بان امه قد جعلته (مفرطا في النعومة) في طفولته ، وان صحته كشاب كانت عليلة نتيجة لتجاوزه قوته ، ربما تكون قد وفرت له دوافع اضافية لتحقيق تميز في الحياة العامة . ولقد كان باعترافه هو نفسه ـ شديد الحياء في فترة الدراسة في « كيمبردج » بشأن قدراته ، وانه كان يكن رأيا سيئا عن ذاته . وفي وقت لاحق رحب بالفرصة التي واتته لاصدار اوامر كضابط ليس ـ كما كتب ـ لانه كان خجولا بصورة غير معتادة ازاء هذا ، ولكن لأنه كان يفتقر الى الثقة بالنفس . والامر الواضح والذي يستحق التاكيد بالنسبة لهذه النقطة المبكرة هو ان ولعه بالمديح والاعتراف بـ « عظمته » سمة في شخصيته وليس

(٣٨) « ترتيبي للضباط » ٧/ ١٩٢٥/ ٢ . ليدل هارت الى الكابتن سكاميل ، ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٢٣ . ليدل هارت الى فوللر ، ١١ آذار (مارس) ١٩٢٨ . قبلها كان ليدل هارت قد ابلغ فوللر بانه يعتبر محاضراته في كلية الاركان « اروع اسهام في الفكر العسكري العلمي قدم على الاطلاق » (١١ نيسان ١٩٢٣) .

(٣٩) على سبيل المثال : فوللر الى ليدل هارت ٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٣ ، « انه (سكاميل) محق . سوف انتهي الى قطع رقبتي ـ هذا امر محتوم » . وتمتلىء رسائل فوللر الى ليدل هارت بملاحظات تشهيرية عن رؤسائه العسكريين ، كانت السيدة فوللر ترددها في المناسبات الاجتماعية . فمثلا عندما سمع فوللر ان جنرالا يتمتع باحتقاره قد منح وسام « صليب الحمام الاكبر » . بانه هذه الحروف لا بد ان تكون اختصار « العبارة » جمعية الاخوان المختلين عقليا » .

(٤٠) ٧/ ١٩٢٠/ ٣٨٦ . على الرغم من ان قراء الذكريات يمكن ان يعتبروا ان ليدل هارت كان يتمتع فعلا بقدر من الحظ ، فانه كتب في العام ١٩٢٠ : « استطيع ان اقول امنا ان كل شيء فعلته كان على الرغم من ان الحظ كان ضدي لدرجة الموت » المصدر نفسه ، ص ١٢ .

شيئا ظهر فيا بعد كرد فعل للخسوف المؤقت الذي اصاب سمعته اثناء الحرب العالمية الثانية .

في العام ١٩٢١ ، كانت النقاط الاساسية التي اوردها في مذكرة بعنوان : **ما حققته حتى بلوغي سن الخامسة والعشرين** كما يلي :

١ ـ القيت المحاضرات عن التكتيك امام معهد القوات الملكية المتحدة وامام معهد المهندسين الملكي . . .

٢ ـ كتبت القسم التكتيكي من دليل المشاة البريطانية الرسمي باكمله .

٣ ـ كتبت المادة عن تكتيكات المشاة للطبعة الجديدة من الموسوعة البريطانية التي يقال عنها انها « يكتبها اعظم الثقاة الاحياء في كل موضوع » .

٤ ـ اخترعت اسلوبا جديدا في الهجوم ، واسلوبا جديدا في الدفاع ، ونظاما جديدا للسيطرة على المعركة ، الى جانب ٧٠ فكرة اقل اهمية حول تكتيكات المشاة[٤١] . . .

وفي النهاية فان تحليل ليدل.هارت الذاتي الذي كتبه في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ يكشف الكثير الى حد يستحق معه ان ينقل منه مطولا :

« اي جسارة في ان يحاول المرء التعليق على نفسه دماغ تحليلي واضح للغاية . ليس قوي الذاكرة للغاية او دؤوبا ، انما مولع بالتوغل الى جذور كل شيء ثم بلورتها وتبسيطها في اطار واضح . اصيل في الافكار ، دون تحيزات من اي نوع . شديد التعاطف مع « الآخرين ، معني بفهم رأيهم ـ الامر الذي ادين له بقدرتي على معاملة الناس ، كريم للغاية ، وفي الحقيقة الى حد السفه .

« على درجة عالية من التوتر والحساسية ، وان كنت قد تعلمت بالتجربة ان اخفي ذلك . غير شجاع جسمانيا . اكره القيام بمحاضرات عمياء ، وسريع الاهتياج ، ولكنني اصبح في احسن حال بمجرد ان اجد لحظة اسيطر فيها على اعصابي . ولما كانت اعصابي عادة شديدة الحساسية فقد تعلمت فن الاستعداد الدائم للسيطرة عليها ، وقد نجحت في ذلك حتى الآن . ومع ذلك فانني في الحالات الطارئة المفاجئة التي داهمتني ـ في اثناء قيادتي السيارة غالبا ـ احتفظت عادة بهدوئي وتصرفت سريعا التصرف الصحيح ، الامر الذي اكسبني سمعة البرود .

« قادر للغاية في المناقشة ، اكتشف بسرعة دائما نقاط الضعف في موقف خصمي واحولها الى نجاح لي . كسول عادة ، ولكنني مستعد حينما اكون في حالة مزاجية ملائمة ، او عندما تنشأ الحاجة ، لان استخدام كل ثقلي ، اصمم حياتي في جميع الامور على نموذج مبدأين تكتيكيين اثنين هما اقتصاد القوة والزمن . اميل الى ان اكون انانيا وافكر في ذاتي اولا ، ومع ذلك فانني غالبا ما اتصرف على

---

(٤١) ٧/ ١٩٢١/ ٦٨ .

النقيض من ذلك تماما . واسع الافق الى اقصى حد . ذو مزاج سلمي وفلسفي ، ولكنني ـ حين استثار فعلا ـ يجعلني الغضب شبه اعمى ، وان كنت لا ادع نفسي ابدا اخرج عن السيطرة . افكر عادة على نحو يسبق الحاضر المباشر . دائما ما اكتب في اي موضوع ، خاصة ما كان عسكريا ، وعيني على مؤرخ المستقبل .

« أحب السلطة ، ولكن لكي استخدمها لخير اولئك الذين يأتمرون بأمري . افضل مشكاة صغيرة في معبد الشهرة التاريخية ، على شعلة سريعة الزوال من المجد الحاضر . مثالي ورومانسي ولكنني عملي . فنان ، ولكنني لا اعرف اية فكرة عن الفن الموسيقي .

« شيء واحد استطيع ان اسجله لنفسي ، وهو انني في اجتماعاتي ومناقشاتي مع خيرة عقولنا العسكرية النظامية ، كنت قادرا على ان ابزهم في الحجة واتفوق عليهم في تفكيري ، رغم براعتهم ، وكنت واعيا بأن ذهني هو عقليا اعمق واوضح واسرع خاطرا من اولئك الذين اواجههم .

« ادرك تماما ان الصدفة والحظ يلعبان دورا كبيرا في حياة عملية ناجحة ، ولكنني اشعر بالفعل انني ، اذا توفرت لي الصحة والفرصة استطيع في الوقت الحاضر ان اقود لواء على الاقل بامتياز في المعركة ، واستطيع بالتجربة ان اثبت انني واحد من « اساتذة الحرب » . ولكن ، في ظل الظروف الحديثة يبدو كما لو ان الفرصة ـ لو جاءت على الاطلاق ـ سوف تأتي فقط محكومة بالقواعد الجامدة الخاصة بالاقدمية ، حينما تكون طاقتي الذهنية وحضور بديهتي قد نال منها الزمن . وانني لاشعر بيقين تام ان باستطاعتي ، حتى في اللحظة الراهنة ، ان اقود لواء مشاة في الحرب بالدرجة نفسها من الكفاءة ـ على الاقل ـ التي يقودها بها اي قائد لواء في الوقت الحاضر ، واعتقد ان باستطاعتي ـ بمزيد من الخبرة بظروف وقدرات الجيوش الاخرى ـ ان اقود جيشا بالدرجة نفسها من الكفاءة اذا ما منحت الفرصة »[٤٢] .

كانت سنة ١٩٢٤ علامة فاصلة في حياة ليدل هارت العملية . فقد انتهت آماله بان يبقى جنديا محترفا حينما نقل الى قائمة الضباط الذين يتقاضون نصف راتب ـ وكان ذلك بالمصادفة تعبيرا مضللا لانه لم يكن يتقاضى الا ربع راتبه . فقد كانت صحته ـ بأقل تعبير ـ غير مستقرة ، وكان قد اصبح له زوجة وابن صغير يعولهما . ولم تكن لديه مؤهلات اكاديمية ، وقد اخفقت الجهود المستميتة التي بذلها معلموه السابقون ليؤمنوا له فرصة للحصول على الدكتوراه من جامعة « كيمبردج » بشروط خاصة ، ولم يكن في هذا الاخفاق ما يثير الدهشة ، لانه لم يستطع ان ينتقل للسكن هناك . وقد اثبت سير « إيفور ماكسي » ـ كما في مناسبات سابقة ـ انه صديق له قيمة كبيرة عند الحاجة ، بان امن لليدل هارت فرصة لتغطية مناورات الجيش الاقليمي Territorial Army

(٤٢) « بعض الانطباعات الخاصة » (٤ صفحات مكتوبة على الألة الكاتبة) ٧/ ١٩٢٠/ ٣٢ (اعيد طبعها على الألة الكاتبة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٩ ، ولكن من الواضح ان النسخة الأصلية كتبت في ١٩٢٠) .

لصحيفة « مورننغ بوست » . وقد انجز هذه المهمة على الوجه الاكمل حتى انه في العام ١٩٢٥ اختير ليخلف المعلق الشهير الكولونيل « ريبنغتون » كمراسل عسكري لصحيفة « ديلي تلغراف » في وجه منافسة حادة ، وكان بين منافسيه عدد من « الجنرالات » المعروفين . هذه الوظيفة ـ التي شغلها عشر سنوات ـ اعطته منبرا ممتازا مارس منه الضغط من اجل مكننة الجيش بوجه عام ، ومن اجل تطوير القوات الميكانيكية بشكل خاص ، وبالاضافة الى هذا وفرت له هذه الوظيفة قدرا معينا من وقت الفراغ والحرية الشخصية لمتابعة اهتماماته الواسعة بدراسة الحرب .

وبحلول منتصف العشرينات كان ليدل هارت ينهي ايضا مرحلة من مراحل تطوره الفكري ويدخل مرحلة اخرى . اذ كان قد اكمل فعلا تحليله النظري لتكتيكات المشاة ، واصبح آنذاك مشغولا بالحاجة الى تحقيق المكننة . وبالفعل شرح الخطوط العريضة لفكرة المكننة الشاملة كهدف طويل الامد في مقاله « تطوير جيش نموذجي حديث »[٤٣] . وبالمثل فانه انجز استكشافه « مبادىء الحرب » الجوهرية القائمة على اعمال المقاتل الفرد ـ « نظرية الرجل في الظلام في الحرب » .

كان آنذاك قد اصبح اكثر اهتماما بالحرب كظاهرة اجتماعية وسياسية ، وفي المجال العملياتي اكثر اهتماما بالاستراتيجية منه بالتكتيك . وقد اسهم السخط المتزايد ازاء سير الحرب العالمية الاولى في توفير دافع رئيسي لهذه الدراسات الواسعة . وبحلول العام ١٩٢٤ كان ركز على الفكرة القائلة بان « كلاوزفيتز » كان هو العبقرية الشيطانية الذي كان مذهبه الزائف في الاستراتيجية المسؤ ول عن معارك الاستنزاف غير المجدية ، مثل معارك « فردان » ، و« السوم » و« باشينديل »[٤٤] وفي الوقت ذاته كان يلتهم المعلومات المنشورة حديثا انذاك عن الحرب العالمية الاولى ، ويستكشف حروب القرون الماضية بحثا عن نظرية عامة في الاستراتيجية . ويشكل هذا المسعى ونتيجته الموضوع الاساسي للفصل التالي .

---

(٤٣) « جيش « النموذج الجديد » » : افكار عن مكننة مطردة ، ولكنها تدريجية » في فصلية الجيش ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ ص . ص . ٣٧ ـ ٥٠ . وكانت الفكرة الاساسية في هذا المقال ان « قوة النيران تضاعفها السرعة » : هذه السرعة ، التي لا يتم الحصول عليها الا بالتطوير التام للاختراعات العلمية ، سوف تحول ميدان المعركة مستقبلا من متاهات من الخنادق القذرة الى ساحات تسود فيها المناورات ، وهي جوهر المفاجأة ، مرة اخرى بعد ان ظلت زمنا طويلا في بيت شتوي داخل اضرحة من الوحل . وعندئذ فقط يمكن لفن الحرب ، الذي شلته مؤ قتا قبضة ظروف حرب الخنادق ، على ان يعود الى حقيقته من جديد » .

(٤٤) الذكريات ، ص ٧٥ . « لوقاس » ، المصدر المذكور ـ ص . ص . ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

الفصل الثاني
استراتيجية التقرب غير المباشر
١٩٢٥ ـ ١٩٣٠

حقق ليدل هارت في النصف الثاني من العشرينات سمعة دولية كمعلق بارز على الشؤون العسكرية ماضيها وحاضرها . واتسعت اهتماماته الخاصة من الانشغال بتكتيكات المشاة والفرد في القتال لتشمل التاريخ والاستراتيجية ونظرية عامة في الحرب . وكان الحافز الخارجي الى فترة من الدراسة والكتابة شبه المحمومة ناشئاً عن استيائه المتزايد من سير الحرب العالمية الاولى واعتقاد متزايد الصلابة بأن السبب الرئيسي لتلك المذبحة غير المجدية كان الالتزام بعقيدة عسكرية زائفة ، أعني تفسير كلاوزفيتز للحرب النابليونية .

وفي العقد الذي تلا العام ١٩١٨ ، اوجد القلق من الحرب ، الى جانب بعض الانجازات الدبلوماسية الايجابية اساساً للأمل لدى المتفائلين الذين كانوا يعتقدون ان تلك الكارثة كانت هي « الحرب التي انهت كل الحروب » . وقد اعقبت الاتفاق الدولي الذي لم يسبق له مثيل حول اجراءات نزع السلاح البحري والرقابة على الاسلحة في مؤتمر « واشنطن » الاول (١٩٢٢) معاهدة « لوكارنو » Locarno (١٩٢٥) التي ضمنت أمن حدود اوروبا الغربية ، كما أعقبه ضم المانيا الى عصبة الامم (١٩٢٦) . وتجسدت فترة الحماس القصيرة في اواخر العشرينات في ميثاق « كيلوغ ـ برياند » Kellogg — Briand (١٩٢٨) التي تعهد الموقعون عليها بتجريم الحرب كاداء للسياسة القومية . وفي بريطانيا اهتدت الاستعدادات الدفاعية بعد العام ١٩١٩ بالافتراض القائل بأن البلاد لن تتورط في حرب كبرى لمدة عشر سنوات على الاقل .

وشأن معظم العسكريين المحترفين ، لم يكن ليدل هارت مقتنعاً بان حقبة جديدة من السلام الدائم كانت تبزغ . فلم يكن من مناصري السلام ، وكان يفتقر الى إيمان بنزع السلاح الكامل أو بشجب دولي للحرب كأداة للسياسة ، انما كان يبذل الجهد من اجل تحسين ادارة الحرب مستقبلا على صعيدين . على الصعيد العملي والعملياتي اصبح واحداً من أشد المدافعين عن المكننة والحركة ، بينما ، من الناحية النظرية ، حاول ان يصمم استراتيجية مضادة لما كان يعتبره ميراث « كلاوزفيتز » الشرير ، في صورة « استراتيجية التقرب غير المباشر » . وقد اسفرت هذه

السنوات (١٩٢٥ - ١٩٣٠) عن فيض متدفق من المطبوعات التي جمع فيها بين « دروس » تاريخ الماضي العسكري (التي كان يؤمن بها إيماناراسخاً) ودراسات نقدية حول الحرب العالمية الاولى وتوصيات من اجل الحاضر والمستقبل . والامر الذي يحتاج الى تأكيد من البداية هو ان ليدل هارت - في تلك السنوات - كان اول صحفي كرس ، على نحو ما ، وقتاً لقدر ملحوظ من الابحاث والكتابات الاضافية الى هذا - وعلى الرغم من انه كان واعيا بالحاجة الى انفصال موضوعي و « علمي » صارم في استخلاص دروس من التاريخ - فانه كان ايضا ناقداً ملتزما ، وبالتالي فانه ينبغي النظر الى مؤلفاته - رغم ما لها من صفات دراسية - على انها في الاساس ذات طابع جدالي أو كراسات آنية . وقد تقدم ت . ا . لورانس - الذي كان يشارك ليدل هارت في نفوره من « كلاوزفيتز » - بملاحظة مثيرة للاهتمام عن جهود الاول في العام ١٩٢٨ :

« هناك - في دراسة ممارسات جميع القادة الفضلاء - تماثل مذهل بين المبادىء التي كانوا يتصرفون على اساس منها : بل ان هناك تقاربا هزليا بين المبادىء التي حددوها بافواههم . فان افراطا من جانب مدرسة « الكر » يؤدي الى هجوم من اسلوب « الفر » : ثم يعود البندول مرة اخرى . انك تحاول - في الوقت الحاضر . (بمساعدة قليلة للغاية من اولئك الذين يفترض ان تكون مهمتهم التفكيرية مهنتهم) ان تغير التوازن الى وضعه الصحيح بعد عربدة الحرب الاخيرة . وحينما تنجح (حوالى العام ١٩٤٥) سوف يتجاوز قطيعك حدود التعقل التي ترسمها ، وسيتعين على بعض استراتيجيي المستقبل ان يعيدوه الى الحظيرة . للخلف ثم للامام تمضي »[١]

في العام ١٩٢٥ كان ليدل هارت قد نشر مجلداً صغيراً بعنوان باريس ، او مستقبل الحرب (في سلسلة باسم « اليوم وغدا ») يشكل علامة مميزة في تطور افكاره العامة حول الحرب . وعلى الرغم من ان الزمن وجه ضربات قاسية الى بعض تنبؤاته ، فان هذا المجلد يظل واحدا من اكثر كتبه اثارة للاهتمام .

كانت مقدمته الاساسية ان الحلفاء اتبعوا استراتيجية خاطئة في الحرب العالمية الاولى ، اعني تدمير القوات المسلحة للعدو في مسرح للحرب الرئيسي . وقد دفع المدنيون العاديون ثمنا رهيبا لهذا الخطأ الفادح ، « فسيقوا مكبلين كالثور المعصوب العينين الى عربة مارس « اله الحرب » وذهب الى ان الاسوأ من هذا ان المدرسة التقليدية (« اولئك البوربون العسكريون ») لجأت الى السلطة لم تتعلم شيئا ولم تنس شيأ .« قد ينظر الى الاسلحة الجديدة على انها مجرد حمام اضافي يمكن من خلاله ان يملأ حمام الدم بأسرع ما يمكن » . وكان يخشى انه حتى في العنصر الجديد ، عنصر الجو ، يمكن ان تربط القوات الى النظرية النابليونية ، أي ان توجه نحو تدمير قوة العدو الجوية . ولو امكن فقط كسر هذا التقليد يمكن للحرب (او الصراع الدولي عامة) ان تخدم هدفا مفيداً مرة اخرى : « سلام مزدهر وآمن هو نصب للنصر افضل من هرم من الجماجم » .

---

(١) ت . ا . لورانس الى كاتبي سيرته روبرت جريفز وليدل هارت (١٩٦٣) لورانس الى ليدل هارت ، ص . ٤ .

ولم يكن «كلاوزفيتز» ليخالف رأي ليدل هارت القائل بأن الهدف في الحرب هو « اخضاع ارادة المقاومة لدى العدو ، بأقل خسارة بشرية واقتصادية ممكنة » ، ولكن الاخير اتخذ منحى اكثر اصالة في التأكيد على ان « دولة على درجة عالية من التنظيم تكون بقوة اضعف حلقاتها فحسب » . وذهب الى انه اذا امكن ان تنهار معنويات قطاع من الامة ، فان انهيار ارادة المقاومة لديها من شأنه ان يعجل باستسلام الكل.، وقد برهنت على ذلك الشهور الاخيرة من العام ١٩١٨ . كانت مهمة الاستراتيجية الكبرى اكتشاف واستغلال كعب آخيل (مقتل ـ المترجم) الامة المعادية (تماما كما قتل « باريس » ، ابن « بريام » البطل الاغريقي ـ ومن هنا كان اللقب المجازي) : وباختصار ينبغي على المرء كقاعدة عامة ـ ان يضرب ضد اكثر نقاط العدو ضعفا وليس ضد اقوى حصونه[٢] .

فكيف يمكن استخدام السلاح العسكري افضل استخدام في الحرب لاخضاع ارادة المقاومة لدى العدو ؟ لقد احدثت اجابة ليدل هارت ايمانا مفاجئا بالعقلانية : فقد كان يؤمن بأن الجيوش والامم تتألف اساساً من اناس عاديين ، لا من أبطال غير عاديين ، وما أن يدرك هؤلاء التفوق الدائم للعدو حتى يستسلموا للقوة القاهرة . ثم أشار ، بعبارات مألوفة تماما لكلاوزفيتز ، الى ان الجيوش تعاني من افلاس خطير في اخضاع ارادة الخصم :

« لانها مقيدة بمجال واحد للحركة ، مضطرة للتحرك عبر الارض ، فانه نادرا ما كان ممكنا لها ان تصل الى عاصمة العدو أو مراكزه الحيوية الاخرى دون ان تتخلص اولا من الجيش الرئيسي للعدو ، الذي يشكل درع الحكومة والامة العدوة » .

وجد ليدل هارت ـ شأن كثيرين من المفكرين المعاصرين في العشرينات ـ الحل في الطائرة . فقد كان ليدل هارت يعرض نظريات القوة الجوية القصوى على كابتن « ج . م . سكاميل » منذ وقت مبكر يرجع الى خريف العام ١٩٢٣ . ولسوء الطالع ان بحثه لم يبق ، ولكن فحواه يمكن ان يقدر حق قدره من تعليقات « سكاميل » المتشككة عليه :

« لست استطيع ان اوافق على ان القوة الجوية ستستوعب المهام البحرية والارضية . فكما ان للقوة البرية والقوة البحرية خصائصها الذاتية ولها ايضا حدودها الكامنة ، كذلك فان للقوة الجوية حدودها الضرورية . قد يكون من الممكن توسيع مدى العمل في حدود تقررها العلاقة بين القوة الرافعة والاوزان الاخرى الضرورية . . . ووزن الوقود . وسيؤثر التصميم على استهلاك الوقود ، وسيؤثر توزيع القواعد الجوية على مرونة العمليات . ولكن فكرة طائرات لا حصر لعددها تطير في كل مكان وفق رغبتها فكرة لا بد من تعديلها . . . فهي (الطائرات) لا تستطيع ان تحتل . وتأثيرها لا بد ان يكون سريع الزوال . كذلك فان القوة الاضعف ليست عديمة الحيلة . . . اما عن استخدام القنابل

---

(٢) باريس ، أو مستقبل الحرب و١٩٢٥ ، ص ص ١٢ ـ ١٣ ، ٢٠ ـ ٢٧ .

والغاز في ابادة المدن ، الخ فهذا ما يبدو لي هراء »[٣] .

في ذلك الوقت كان ليدل هارت يشارك بكل قلبه في الرأي القائل بان من شأن القوة الجوية ان تسيطر على الصراع مستقبلا . وكان من رأيه ان دولة حديثة هي نسيج من التعقيد والتداخل بحيث تشكل هدفا على درجة عالية من الحساسية لضربة مفاجئة وساحقة من الجو .

« تمكننا الطائرة من ان تقفز فوق الجيش الذي يشكل درع حكومة العدو وصناعته وشعبه ، وبالتالي ان نضرب مباشرة وفورا في مركز ارادة الخصم وسياسته . ان الجهاز العصبي لامة ، لم يعد يغطيه لحم قواتها ، بل اصبح يرقد مكشوفا للهجوم ، وشأن الاعصاب البشرية فان تقدم الحضارة قد جعلها اكثر حساسية مما كانت في الماضي وفي الازمنة الاكثر بدائية »[٤] .

وقد رسم صورة مفزعة مبنية على اسقاط لتجربة القصف المحدود في الحرب العالمية الاولى في المستقبل :

« انني اتخيل للحظة انه في حالة حرب بين أمتين صناعيتين مركزيتين تملك واحدة قوة جوية متفوقة ، وتملك الاخرى جيشا متفوقا . فاذا ما كانت الضربة سريعة وقوية بدرجة كافية لا يوجد سبب يحول دون ان يتم شل الجهاز العصبي للبلد الأدنى في مستوى القوة الجوية ، خلال ساعات قليلة او ايام على الاكثر من بدء القتال . . . »

« ولتتخيل للحظة لندن ، مانشستر ، برمنغهام ونصف دزينة اخرى من المراكز الكبرى تهاجم في وقت واحد ، مراكز الاعمال و « فليت ستريت » مدمرة ، « هوايت هول * كومة من الانقاض ، واحياء الاكواخ الفقيرة قد دفعها الجنون الى الانفلات والنهب ، الخطوط الحديدية مقطوعة ، المصانع مدمرة . الا تختفي الارادة العامة للمقاومة ، وماذا تكون جدوى الاقسام المحتفظة بتصميمها على القتال من الامة دون تنظيم وتوجيه مركزي ؟ »

واستنتج ان من الحمق ان نبني القوة العسكرية على المشاة حينما تستطيع الطائرات ان تبلغ وتدمر مدننا مثل « ايسين » و « برلين » في غضون ساعات[٥] .

كيف يمكن للقيمة الفائقة للقوة الجوية ان تؤثر على السلاحين الاقدم* ؟ لقد مضى ليدل

---

(٣) ج.م. سكاميل الى ليدل هارت في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٣ ، انظر أيضاً ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٣ . اجتمع ايمان ليدل هارت بتفوق القوة الجوية وشجبه لكلاوزفيتز للآثار الشريرة لمذهبه في الفترة ١٩١٤ - ١٩١٨ في مقال بعنوان : « الزيف النابوليوني : الهدف المعنوي في الحرب » كتب في حزيران (يونيو) ١٩٢٤ ونشر في ايار (مايو) ١٩٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص.ص. ٤٦ - ٤٨ .

* شارع الصحافة في قلب لندن . « المترجم »

* مقر الحكومة البريطانية . « المترجم » .

(٥) اي سلاحي الجيش (القوات البرية) والسلاح الجوي . « المترجم » .

هارت الى حد التأكيد بان الجو سيصبح « في النهاية المجال الاوحد لحرب المستقبل». كذلك فقد قدم تأكيدات ساحقة تظهر أنه لم يكن قد أعطى حتى ذلك الوقت إلا قدراً ضئيلا من تفكيره للمشكلات العملية للقوة الجوية ، مثل انه سيكون من الأسهل تحويل طائرة مدنية الى الاستخدام العسكري اذا ما قورن ذلك بأي من الأسلحة المعتمدة من قبل ، او ان الغاز (الذي يصفه هنا بأنه السلاح الامثل ») لن يتأثر بالظروف او العيوب الجسدية للشخص الذي يطلقه . كان المعنى الضمني لهذا ان الطائرات والغاز سيوفران في النهاية مركبا مثاليا يفسح المجال لتحطيم معنويات العدو بواسطة الحد الادنى من التدمير المادي والموت , ومع ذلك فانه توصل على ادراك الحقيقة الحاسمة ، وهو ادراك كان لا بد ان يعدل بعض تصريحاته الاكثر فجاجة ، اعني الادراك ان :

« حيثما وجد التكافؤ الجوي بين أمتين متنافستين ، وكان كل منها مستهدفا صناعيا وسياسيا بالقدر نفسه ، من الممكن ان يتردد أي منهما في استخدام الهجوم الجوي خشية الرد الانتقامي الفوري »[٦] .

اما من جانب البحرية فقد اعترف ليدل هارت بافتقاره الى المعرفة التقنية واكتفى بملاحظة انه وان كانت السفينة الحربية ستحتفظ بالسيادة على المحيطات لبعض الوقت ، فان الغواصات ستتجه الى السيطرة في البحار الاضيق . ولم يكن لديه كثير يقوله عن آثار القوة الجوية على السفن الكبيرة ، ولكنه كان يرى بوضوح شديد ان قوة معادية (وكانت فرنسا مدرجة ضمن هذا الدور في العام ١٩٢٥) يمكن ان تحرم بريطانيا من استخدام البحر الابيض المتوسط عن طريق التهديد المشترك للغواصات والطائرات الرابضة على قواعد على السواحل . وكانت بريطانيا معتمدة بصورة واضحة على حسن نية « باريس » الاخرى التي تعرفها اكثر[٧] .

لقد كانت الحرب الاخيرة في نظر ليدل هارت ذروة القوة الغاشمة ، اما الحرب التالية فستشهد « اثبات القوة المعنوية ، حتى في مجال الجيوش » . ولا بد من تزويد المشاة بـ « سيقان ميكانيكية » لتحملها الى ميدان القتال ، ولا بد من الاستعاضة عن المدفعية التي تجرها الاحصنة بمدافع تجرها آليات اومدافع محمولة على آليات ، ولا بد من تطوير اسلحة الدبابة باعتبارها خليفة الخيالة . وبمثل هذا الجيش « النموذجي الجديد » القادر على العمل مستقلا عن الطرق وعن الخطوط الحديدية ، سيصبح بالامكان التقدم مسافة مئات من الاميال في اليوم . ورسم خطوط احتمالات مثيرة اذا ما استخدمت الدبابات استخداما سليما :

« بمجرد ان نقدر ان الدبابات ليس سلاحا اضافيا ولا مجرد مساعد للمشاة وانما هي الشكل الحديث للخيالة الثقيلة وبمجرد ان يصبح استخدامها العسكري الحقيقي واضحا ـ وهو ان تحشد وتستخدم بأكبر اعداد ممكنة لتوجيه ضربة حاسمة الى كعب آخيل الجيش المعادي ، الى مراكز الاتصال ومراكز القيادة

(٦) المصدر السابق ، ص ص ٥٦ ـ ٦١ .
(٧) المصدر السابق ، ص ص ٦٤ ـ ٦٨ .

التي تشكل جهازه العصبي ، عندئذ فإننا لن نرى فحسب انقاذ الحركة من اغلال حرب الخنادق ، بل أيضا احياء القدرة القيادية وفن الحرب ، بدلا من مجرد ميكانيكيتها[٨] .

لقي هذا المقال التحريضي تغطية واسعة ، ومؤ يدة بوجه عام ، في الصحافة الدولية . وكان اكثر جوانبه تعرضا للنقد تمجيد ليدل هارت للغاز كسلاح خفيف نسبيا ولكنه فعال . ومع ذلك ، ودونما اثارة للدهشة ، فان تفسير مستقبل القوة الجوية قد قابل ايضا تحديا خطيرا . وعلى سبيل المثال فان الجنرال ين سير « ايان هاميلتون » وسير « فردريك موريس » كتبا في صحيفة Westminster Gazette فأشارا الى ان حرب الغازات والحرب الكيماوية قد لا تساعد الحضارة الاكثر تفوقاً ، وأن القوة الجديدة في الوقت الحاضر لا يمكنها أن تشل مدينة في ساعات قليلة ـ على الرغم من انها قد تستطيع ذلك في المستقبل[٩] .

وفيما يتعلق بالنقطة الاخيرة لم يكن ليدل هارت مقتنعاً ـ بوضوح ـ بالحجج التي ساقها كابتن ج.م. سكاميل الذي خالف رأيه القائل بان القوة الجوية يمكن دائماً ان تكون حاسماً بذاتها . فقد أشار الأخير ـ محقاً ـ الى أنه في الحرب العالمية الأولى « لم تكسر غارات الطائرات ارادة البريطانيين أو الفرنسيين . بل لقد قوتها . والاسوأ من هذا أن الانهاك لم يتحقق غالباً . أن تحطيم الارادة مسألة نفسية . وأفضل الوسائل لتحطيم ارادة المقاومة حقاً هي :

١ ـ ضربة حادة مركزة مؤ ثرة

٢ ـ سياسة كريمة ورحيمة .

وفي وقت لاحق تناول الموضوع نفسه « سينسر ويلكنسون » الاستاذ السابق لسكاميل في اكسفورد ، مشيرا الى ان فكرة ليدل هارت عن تجاوز جيش العدو للضرب مباشرة ضد سكانه المدنيين لم تكن جديدة : لقد كانت هي الاجراء المعتاد قبل ظهور الدولة الحديثة ، التي كانت مهمتها الاولى حماية مواطنيها ، وكانت في الحقيقة اجراء وحشيا تماما . بالاضافة الى هذا كان رجال الجو يخطئون حين يعتقدون انه سيكون بامكانهم القذف دون أي عرقلة ووفق مشيئتهم : فسريعا ما ستكتشف مضادات للطائرة القاذفة وكذلك للدبابة . اما فيما يتعلق بنمط الحرب الجوية مستقبلا ، فقد كتب ويلكنسون متنبئا : « لست اعتقد ان من الممكن ان بامكان القوات الجوية الاندفاع الى تدمير مصادر العدو (باستثناء فترة انتقالية وجيزة ممكنة) . انما اعتقد انه ستدور معركة في الجو يكون المنتصر فيها قد وضع المهزوم تحت رحمته . . . »[١٠] .

---

(٨) المصدر السابق ، ص ص ٧٩ ـ ٨٥ .

(٩) Westminster Gazette ٣ تموز (يوليو) ١٩٢٥ . عرض الصحف والمجلات لكتب ليدل هارت الأول محفوظ في البوم مختارات رقم ٨ (اوراق ليدل هارت) .

(١٠) ج . م . سكاميل الى ليدل هارت ١٩٢٣/١١/١٩ . سينسر ويلكنسون الى ليدل هارت ١٤ و ١٩٢٨/٨/٢٨ .

وحسبما يقول ليدل هارت نفسه فان سير « هيو ترينشارد » ـ الذي كان رئيسا للاركان الجوية آنذاك ـ تأثر بالمقال الى حد انه امر بتوزيع عدد من نسخه في السلاح الجوي الملكي ، كما اعطى نسخا منه لزملائه رؤساء الاركان . كما كتب مارشال جوي آخر الى المؤلف بان باريس « هي عمليا ما يجري تدريسه في كلية اركان السلاح الجوي الملكي »(١١) . ويبدو من غير المحتمل ان العقيدة الاستراتيجية للسلاح الجوي الملكي تدين بأي شيء لكتابات الملاح الجوي الايطالي « جيوليو دوهيت » ، على الرغم من انه كان اقوى دعاة القصف الجوي باعتباره الاداة الحاسمة في الحرب في العشرينات . ومن المؤكد ان ليدل هارت لم يكن قد قرأ له عندما كتب باريس(١٢) .

هذا المبدأ الخاص بالقصف الجوي كوسيلة حاسمة في الحرب ، وان يكن بارزا في باريس ـ لم يلق الا تأكيدا ضئيلا في كتب هارت التالية . وربما يكمن السبب جزئيا في انه اصبح يقدر الحدود العملية للطائرات الموجودة وقدرتها على تحديد المواقع وضرب اهداف محددة ، ولكن ثمة تفسيرا ارجح هو ان نظرية القصف تعارضت مع نزعات ليدل هارت الانسانية واهتمامه الفائق بأن تكون حرب المستقبل حربا محدودة . فقد كان من المرجح ان يتحول القصف الاستراتيجي الى اداة خرقاء تفتقر الى التمييز ولا تلائم بطبيعتها شن حرب محدودة . ولقد اصبح ليدل هارت في الحرب العالمية الثانية خصما رئيسيا للقصف الاستراتيجي من جانب الحلفاء لالمانيا .

وسنناقش نظرة ليدل هارت الاشمئزازية الى « كلاوزفيتز » و« نابليون » (الذي اشار اليه في مقال باريس على انه « مصاص الدماء الكورسيكي ») بقدر اكبر من التفصيل في اواخر هذا الفصل ، الا انه لا بد من ان اوضح هنا انه كان غير منصف الى حد كبير ازاء « كلاوزفيتز » فيما يتعلق بجعل جيش العدو الهدف الرئيسي ، والحقيقة انه كان يذكر وجهة نظر الكاتب البروسي عن غير قصد في اجزاء من مقال باريس . وقد اثار سينسر ولكنسون هذه النقطة بلا جدوى في العام ١٩٢٤ حينما ذهب الى ان « كلاوزفيتز » كان « يفهم جيدا ان عليك ان تكسر ارادة العدو ، وهو ما اقترح لتحقيقه ثلاث عمليات : الاولى سحق جيشه ، ثم الاستيلاء على عاصمته ، واذا لم يكن ذلك كافيا عمد الى احتلال اقليمه »(١٣) . وغضب ليدل هارت بأثر رجعي ازاء استراتيجية وتكتيك الاستنزاف اللذين اتبعا على الجبهة الغربية غضب مفهوم ، ولكن كان ـ بعض الشيء ـ اقل مدرسية او علمية في بحثه عن الاسباب المباشرة للورطة والعملية المعقدة التي كانت قد تشكلت بها هذه العقيدة قبل الحرب(١٤) .

---

(١١) الذكريات ، ص ص ٩٩ .

(١٢) انظر روبين بيغهام : المفكرون العسكريون في بريطانيا ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ (نيوجرسي ١٩٦٦) ص ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

(١٣) سينسر ويلكنسون الى ليدل هارت ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٤ .

(١٤) قارن بيتر باريت : كلاوزفيتز والقرن التاسع عشر « في كتاب نظرية الحرب وممارستها = هوارد (محررا) ، نشر كاسيل ١٩٦٥ ، بريغر ١٩٦٦ ، ص ص ٢٣ ـ ٤١ .

واخيرا يمكن للمرء ان يتكهن بالمدى الذي ذهب اليه المؤلف في حساب الآثار المحتملة لاسلوبه المتسم بدرجة عالية من الفردية : وهو اسلوب يعتمد على الجناس اللفظي ، ويلتزم الجمل البراقة ، قطعي وحاد في هجومه على المقدسات ، ومن السهل ان نرى من خلال عروض كتبه ان ذلك الاسلوب (وكذلك المحتويات) كان يستهوي القارىء العادي واولئك الذين لديهم استعداد مسبق لانتقاد القيادة العليا ، ولكن الجنود وطلاب شؤون الحرب اكثر تأملا كانوا اميل الى النفور . وهكذا كان رد فعل الكاتب الذي استعرض ـ دون ان يوقع باسمه ـ المقال في المجلة الفصلية للجيش Army Quarterly « عنيفا ازاء التوتر والقطعية التي ظهرت في « هذا المنشور الصغير » ، ولام المؤلف على اخفاقه في ادراك ان اساليب الحرب التي كان ينتهجها نابليون وآخرون كانت في الاغلب الوسائل المتاحة لتحطيم ارادة المقاومة لدى العدو[١٥] . وكان ليدل هارت يحاول بالفعل ان يجبر التاريخ قسرا على التسليم بالدروس الملائمة .

في اواخر العشرينات ادخل ليدل هارت نتائج دراساته التاريخية في نسيج الدروس المستمدة من سوء ادارة الحرب العالمية الاولى ، لكي يشكل نظريته في استراتيجية غير المباشر . وكمؤمن راسخ بأن الدروس يجب ان تستمد من التاريخ ، فانه كان مولعا بذكر قول بسمارك المأثور : الحمقى يقولون انهم يتعلمون من تجاربهم الخاصة . اما انا فقد جاهدت دائما من اجل الحصول على تجربتي على حساب الآخرين . كان هذا التناول واضحا في اول عمل تاريخي له ، وهو سيرة حياة « سيبيون الافريقي » التي حملت عنوان اعظم من نابليون (١٩٢٦) . وفي هذا الكتاب استغل ليدل هارت بذكاء المصادر القليلة المتاحة في اللغة الانكليزية ليجعل من سيبيون موصلا جديرا بالاعجاب لارائه هو العسكرية . وكما يلاحظ جاي لوقاس ببراعة : « سيرة حيوية مفعمة بالثقافة . . . وربما يكون هذا واحدا من افضل كتبه من وجهة نظر ادبية ، على الرغم من ان ليدل هارت نفسه شارك في وقت لاحق عنها اذا لم يكن مفرطا في التماسك والاقناع »[١٦] .

كانت النية الخلافية واضحة فيما يمكن ان يعد الآن عنوانا « مراوغا » : وقد حذره كل من سينسر ويلكنسون وفوللر على السواء من عدم الحكمة في تأكيد ان «سيبيون» كان « اعظم من نابليون » أو أي قائد ينتمي لعصر مختلف ، ولكنه ظل على ولعه الشديد بقوائم الزملاء وترتيب درجات الاستحقاق . كذلك انتقدا انتزاع الدروس من التاريخ قسرا ؛ وعرضا برفق جهل المؤلف بالدراسات الحديثة عن هانيبال ، بينما شجب فوللر عدم ذكر المراجع . ومما لا يثير الدهشة ان الكتاب لقي ترحيبا في ايطاليا ، ولكن الصحيفة الايطالية Giornale d'Italia لاحظت ـ وهي تمتدح الكتاب ـ انه في معظم اجزائه مثير للجدال ، وانه « كتب بغرض الدفاع عن ـ واثبات ـ رأي

(١٥) Army Quarterly تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٥ . ويكاد يكون من المؤكد ان الكاتب المجهول كان هو سبنسر ويلكنسون .

(١٦) « لوقاس » ، المصدر المذكور ، ص ص ٣٨٨ ، ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

ما ، وانه في بعض المواضع طغى عليه الاطراء » .

اما كابتن « ج . م . سكاميل » ـ الذي يمكن اعتباره اكثر ناقدي ليدل هارت صراحة وبنائية ـ فقد حذر المؤلف من خطأين اسلوبيين : « ميل الى اخفاء الصبغة الاخلاقية حتى على استنتاجات واضحة ، واتكال شديد على التشبيهات المجازية الخ التي جعلته قريبا الى حد خطير من الابتذال . ولكن ، فيما يتعلق بالترتيب والمعالجة » اعتبر انه لا يبدو شيء اقل من العبقرية في الطريقة التي جعلت بها سبيون حيا والتي اظهرت بها نظامه في القيادة اثناء الحرب كمفهوم موحد . ولست اعرف شيئا نظيرا لهذا في أي مكان آخر . . . هناك في كتابك شيء منعش للغاية . . . . انه يشد الانتباه كرواية . لقد تفوقت على ذاتك » . وآخرون خصوا الجانب التعليمي بمديح خاص ؟ فكتب « جو بوكان » : « ان ما يبدو ذا قيمة كبيرة هو الطريقة التي تضيء بها المناقشة بدأب بأمثلة حديثة »(١٧) .

ولا بد ان عددا قليلا من الامثلة يكفي لتصوير العنصر التعليمي فيما كان في الاساس قصة اخاذة من قصص المقدرة القيادية وفن الحكم . لقد لاحظ المؤلف ـ وهو يناقش قدرة « سيبيون » المحدودة على السيطرة على المعركة ، ان الطائرات تمثل الآن مصدر القوة . فالآن توفر القوة الجوية ايضا الوسيلة التي تضاهي ذبح الرومان المتعمد للمدنيين . فعلى العكس من القادة في الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ في « لوس » وغيرها كان القادة الرومان يفهمون انه لا بد من توسيع أي ثغرة في خطوط العدو بأسرع ما يمكن . وقد وفرت استراتيجية « سيبيون » في غزو افريقيا بينما بقي « هانيبال » في ايطاليا مفتاحا لاطراء « استراتيجة التقرب غير المباشر على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الاولى كنقيض لهاجس الجبهة الغربية . اما بالنسبة لشروط الصلح : « بين العام ٢٠٢ ق . م . والعام ١٩١٩ م فأي اعتدال بالمقارنة بفرساي * . هنا كانت استراتيجية كبرى حقا ـ حيث الهدف هو سلام افضل » . واخيرا فقد اظهر « سيبيون » فهما للحرب على النحو الذي يبزغ لتوه على الفكر العسكري ـ السياسي الاكثر تقدمية اليوم » . ولقد ترجم فهمه في الفعل « بطريقة قد يكون بامكاننا تحقيقه في الحرب الكبرى القادمة ـ والارجح اننا سنكون اسعد حظا ان خرجنا من وحل الطريق قبل العام ٢٠٠٠ م . »(١٨) .

تألف كتاب كشف النقاب عن القادة العظام (١٩٢٧) من مجموعة مقالات عن « جنكيز خان » ، « سابوتاي » ، « موريس دو ساكس » ، « غوستاف ادولفوس » ، فالينشتاين » ، و « وولف » ، وهي مقالات كانت قد نشرت قبلا في مجلة « بلاكوودز Blackwood's» ثم في

---

(١٧) فوللر الى ليدل هارت ، ١٦ آب (اغسطس) ١٩٢٦ .

* المقصود معاهدة صلح فرساي (١٩١٩) التي أنهت الحرب العالمية الاولى . « المترجم »

(١٨) أعظم من نابليون : سيبيون الافريقي (١٩٢٦) ص ص ٣٤ ـ ٣٧ ، ٤٢ ـ ٤٣ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٥٢ ـ ١٥٣ ، ١٦١ ـ ١٦٢ ، ١٨٩ الهامش ، ١٩٤ ، ٢٦٤ .

الولايات المتحدة . وكما في دراسته عن « سيبيون » يوجد ايضا ميل واضح الى رؤ ية الماضي بعين الحاضر ، والى البحث عن « رسالة واخلاق » . وقد لاحظ « سكراميل » - وهو يستعرض الكتاب محبذا له - ان « هذه الرسوم التخطيطية تمثل اكثر من سير حياتية - انها دعايات . . . . حيث تقال كلمة طيبة في تحبيذ الدبابات في كل مناسبة ملائمة » . وعلقت صحيفة « الاوبزرفر » ساخرة : « ان كابتن ليدل هارت كمؤ رخ يجعل من الماضي والحاضر وما سيجد ميدانا له . انه يضع قدما على دبابة واخرى على ستر متحرك testudo* ، ويقف مباعدا بين ساقيه فوق العالم العسكري كعملاق ، بينما نحن الرجال الصغار نسير تحت ساقيه العملاقتين ونعجب اين نحن على الارض »[19] . وعلى الرغم من ان بعض مراسلاته تسأل عن بعض التفصيلات وبعض المحذوفات التاريخية (فقد نبه فوللر - مثلا - الى اهمية ابتداعات « موريس أوف اورانج » التكتيكية) الا ان هذه كانت في الواقع خارج الموضوع : فقد كان ليدل هارت اقل اهتماما بتقدم اسهام في الفهم التاريخي - اذ كان يضع المؤ رخين الاكاديميين بالفعل في موضع ادنى من التقدير[20] - منه بالتأثير في النظرية والممارسة العسكريتين المعاصرتين . ومع ذلك فان هذا لا يعني القول بان افكاره هو كانت مفروضة عن وعي على التاريخ ، بل الاحرى - بالنسبة اليه - ان دراسة التاريخ كانت تفيد في صهر وتأكيد وشحذ الآراء التي كان يستمدها اصلا من التفكير في الحاضر وفي الماضي القريب .

استخدام المؤلف اذن موضوعاته - في كشف النقاب عن القادة العظام لابداء آرائه حول مسائل التكتيك والاستراتيجية والسياسة لما فيه مصلحة معاصريه . وهكذا فان المغول بتأكيدهم على النوعية ، وقادتهم الشبان ونظامهم الخاص بالتدريب القتالي واستخدامهم للتقرب غير المباشر يمثلون الاسلوب المتحرك في الحرب الذي كان ليدل هارت يأمل ان يراه يعود للحياة في زمانه هو . كتب سير « ايفور ماكسي » : « لقد استمتعت بجنكيز خان وخاصة التغلغل المتمكن داخله بجهودنا في تدريب الفصائل » لقد تأكد الدرس القائل بان جمع المغول بين الحركة والقوة الهجومية يمكن الآن ان يستعاد عن طريق ايجاد عقيدة مبنية على الدبابات والطائرات . لقد صور « ساكسي » على انه نفيض « كلاوزفيتز » ، الذي يؤ يد النوعية والحركة مقابل العدد . ووفقا لما يذهب اليه ليدل هارت كان اهمال الافكار الاولى (النوعية والحركة) في الحرب العالمية الاولى يعني ان « الفنان قد اخلى الساحة للصانع » . وكانت المانيا - في رأيه - تتعلم من هزيمتها الاخيرة : فقد جسد مذهبها العسكري الجديد الاهمية الفائقة للحركة ولاستغلال المناورة حتى من جانب اصغر وحدات المشاة . اما « غوستاف أدولوس » فقد صور اساسا على انه باعث الخيالة ، مع ايجاد فرس ميكانيكي ، هو الدبابة ، وتكهن ليدل هارت بانبعاث مهمة الخيالة والحرب الحاسمة لكبار

---

* ستر متحرك صامد للنار كان الجنود الرومان يحتمون به اثناء عمليات الحصار (تعريف قاموس « المورد ») .

(١٩) « سكاميل » في سان فرانسيسكو كرونيكل ١٥/ ١/ ١٩٢٨ الأوبزرفر ١٣/ ١١/ ١٩٢٧ .

(٢٠) ١١/ ١٩٢٦/ ١ - ٢/١١ ، ١١/ ١٩٣١/ ٣/٢١) .

القادة . وامتدح « ڤالينشتاين » لادراكه فيه « السلاح المعنوي » : لقد اكدت حملاته التي لا تلين حماقة « النزعة السلمية المثالية » التي كانت شائعة في العام ١٦٢٧ وسادت مرة اخرى في العام ١٩٢٧ . اما « وولف » فاعتبر داعية ممتازاً « للطريقة البريطانية في الحرب » على الصعيد الاستراتيجي ، وداعية للتقرب غير مباشر على الصعيد التكتيكي . وقد اظهرت حياته العملية ان العبقرية العسكرية ، وليس بمجرد المقدرة ، هي التي تقرر مصير الامم . ومع ذلك كان « وولف » في زمن السلم ناقدا صريحا للنظام ورؤ سائه ، ولم يكن لمثل هذا الرجل ان يرتفع الى القمة في الجيش البريطاني في العشرينات(٢١) .

تحتل سيرة حياة « شيرمان » Sherman التي كتبها ليدل هارت مكانة فريدة في تطوره الفكري . وكان قد انجذب بطبيعة الحال الى دراسة الحرب الاهلية الاميركية بسبب التماثل بين ورطة الخنادق في « فيرجينيا » خلال الفترة ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥ وتلك التي حدثت على الجبهة الغربية في الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، وان كان قد رأى كلا الصراعين من ناحية عسكرية تماما . بالاضافة الى هذا فان ليدل هارت سريعا ما قدر ان الانتباه في الفكر العسكري البريطاني كان قد اتجه الى التركيز بصورة ضيقة للغاية على المسرح الشرقي ، وذلك الى حد كبير تحت تأثير كتاب الكولونيل « ج . ف . ر . هندرسون » الشهير عن سيرة « ستونوول جاكسون» . وبالتالي فانه عندما دعي الى تأليف كتاب عن الحرب في العام ١٩٢٨ فضل الكتابة عن « شيرمان » المهل نسبيا على دراسة لها اغراءاتها المالية عن « لي » Lee الذي ربما كانت شعبية في بريطانيا ، كما في الولايات المتحدة ، تكفل مبيعات اكبر للكتاب .

وفي دراسة ليدل هارت الرائعة ، المبنية على عدد كبير من المراجع الاولية والثانوية(٢٢) ، تشع صورة « شيرمان » كتجسيد لاستراتيجية التقرب غير المباشر : القائد الذي كسبت عملياته في الحرب فعليا على النقيض من اقتحامات « غرانت » Grant الجبهوية المكلفة في « فيرجينيا » ، والذي بينت اساليبه الطريق الى احياء الحرب المتحركة . كان « شيرمان » قد اضطر ـ في الزحف الى « اتلانتا » ـ على انتهاج تقرب غير مباشر كنتيجة لاعتماده على امدادات تأتيه عبر خط حديدي وحتى رغم هذا فانه تمكن من ان يناور على خصمه الحذر ، (الجنرال « جوزيف ا . جونستون ») ويخرجه من سلسلة من المواقع الدفاعية القوية المتتالية بالتقدم « في تكتل واسع مفكك ، أو في شبكة واسعة » . وبالاضافة الى مفهوم « الشبكة الاستراتيجية » strategic net فان دراسة حملة « شيرمان » علمت ليدل هارت ايضا قيمة « الاهداف البديلة » و « البداية التحريضية » . فمرة تلو اخرى كان يجري اغراء القوات الكونفدرالية بشن هجمات لا جدوى منها على مواقع كانت في

---

(٢١) كشف النقاب عن القادة الكبار (١٩٢٧) ص ص ٨ ـ ١٢ ، ٢٠ ، ٣٠ ـ ٤٠ ، ٤٠ ـ ٤٤ ، ٦٣ ، ١١٨ ـ ١٢٠ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ . سير « ايفور ماكسي » الى ليدل هارت ، ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٧ .

(٢٢) شيرمان : جنديا وواقعيا واميركيا (نيويورك ١٩٢٩) .

الحقيقة محصنة تحصينا جيدا . وفي المسيرة الشهيرة من اتلانتا الى البحر ثم صعودا الى « كارولينا » ، استطاع « شيرمان » ـ وكان قد تحرر من الاعتماد على خط امداد واحد ـ من ممارسة تقرب غير مباشر حقيقي يهدد الاهداف البديلة حتى ان الكونفدراليين كانوا عاجزين عن التيقن ابدا من وجهته الا بعد ان يكون قد فات كثيرا اوان وقفه . لقد استمرت الصور والمفاهيم التي وجدت اكمل تعبير لها في كتاب الحروب الحاسمة في التاريخ (١٩٢٩) من « شيرمان » اكثر مما استمرت من أي من ابطال ليدل هارت العسكريين الآخرين . وقد ضمن الاخير شهادة عن تأثير « شيرمان » العميق والدائم في كتابه الذكريات :

« في حين ان مفهوم التوغل الاستراتيجي بواسطة قوة مدرعة سريعة الحركة نشأ في ذهني اصلا بينما كنت ادرس حملات المغول في القرن الثالث عشر ، فأنني توصلت الى ادراك اكثر وضوحا لتطبيقها ضد الجيوش ، التي تعتمد على المواصلات الحديدية في امداداتها خلال استكشاف العمليات المتنافسة لكل من « شيرمان » و« فورست » . كذلك كان لدراسة حملات « شيرمان » تأثير قوي على الاتجاهات الاخرى في فكري الاستراتيجي والتكتيكي . ويستطيع اي قارىء لكتبي اللاحقة ، في الثلاثينات ، كيف كنت غالبا استغل الصور المستمدة من « شيرمان » لاوضح وجهات نظري ـ وخاصة قيمة عنصر المفاجأة باعتباره ضمان للامن وللتقدم السريع ايضا ، وقيمة المرونة في الخطة والاستعدادات ، وخاصة بالعمل على خط يكفل ويهدد اهدافا بديلة (وهكذا ، اذا استخدمنا تعبير « شيرمان » نفسه ، وضع الخصم على « قرون المحنة ») ، وقيمة ما اسميته « البداية التمريضية » ، لايقاع الخصم في مصيدة ، بالجمع بين استراتيجية هجومية وتكتيكات دفاعية . او الدفاع المرن مع رد سريع حسن التوقيت ، والحاجة الى خفض ثقل المعدات وغيرها من المعوقات[٢٣] » .

وبطبيعة الحال فان استنباطات ليدل هارت من الحرب الاهلية الاميركية هامة بشكل خاص نظرا لما صنعه بها ، بغض النظر عن دقة او عمق قدرته الدراسية التاريخية . ومن غير الملائم ان نقوم هنا بطرح مناقشة كاملة لمعالجة ليدل هارت للحرب الاهلية ، ولكن لما كان الخلاف حول مزايا كل من « غرانت » و« شيرمان » قد افضى الى صدام خطير بينه وبين فوللر ، فان من الضروري الادلاء بعدد قليل من التعليقات[٢٤] . لقد كان تقدم « شيرمان » نحو « اتلانتا » حالة خاصة ـ

---

(٢٣) الذكريات ، ص ١٦٦ . ولتلخيص ممتاز لاهمية « شيرمان » في تطور افكار ليدل هارت انظر « لوفاس » المصدر المذكور ، ص ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

(٢٤) بعد مراسلات مطولة في العام ١٩٢٩ قدم فيها فوللر عدة انتقادات ممتازة لكتاب ليدل هارت « شيرمان . . . » ، فقد الاول صوابه حينا وصف بأنه مؤ رخ بائس ووجه في ١٢ تموز (يوليو) الى « الهنا الاعظم العزيز ! » . وفي ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) كتب : « ان رسالتك تمثل واحدا من الامثلة غير العادية على عبادة الذات التي وقعت عليها عيناي منذ زمن طويل . . . لان بطلي « غرانت » لا يتوافق مع بطلك « شيرمان » ، فان الضرر لا يصيب شيرمان بل يصيب غرورك الهائل . انك تحذرني مرتين ـ كما لو كنت جداً أعظم ادبيا ـ من النتائج الوخيمة ، وكأنك كنت قاضيا وانا مجرم .

بشكل واضح ـ نظرا لانه لم تكن لدى خصمه الاضعف منه نية خوض معركة التحام (كما فعل خلفه « جون ب هود » على نحو غير مسؤ ول) ومن ثم كان مستعدا للتقهقر . وعلى النقيض من ذلك لم يكن بامكان « لي » Lee ان يتقهقر من امام العاصمة الكونفدرالية « ريتشموند » او مركز المواصلات بيترزبرغ » ، وقد ساعدت التضاريس تكتيكاته الدفاعية . وقد كان من سوء الطالع ان ليدل هارت ـ وهو يطري بطله « شيرمان » ـ وجد أن من الضروري ان يحط من شأن قائده الذي يعلوه في الرتبة ، « غرانت » . وقد اثار « فوللر » نقطة سليمة حين أوضح ان « غرانت » و « شيرمان » كانا يتبعان استراتيجيتين مكملتين لا متنافستين (وهو « درس » ينطبق ايضا على الحرب العالمية الاولى) . كما احس « فوللر » بان ليدل هارت أضفى طابعا رومانسيا مفرطا على بطله الفذ ، واقترح بمكر لقب « اعظم من جنكيز خان » كلقب اكثر ملائمة له . بينما استمر ليدل هارت في النظر الى الحرب الاهلية من خلال عيني بطله شيرمان ، ولم يكن مستعداً أبداً لتغيير نظرته المفرطة في النقد الى « غرانت »[٢٥] . وبنظرة أوسع مدى فان من السمات المميزة لنظرة ليدل هارت العامة انه ينبغي ان ينظر الى الحرب الاهلية اساسا كمنافسة بين قادة لامعين اكثر منها صراعا بين نوعين مختلفين من الاقتصاد والمجتمع .

في العام ١٩٢٧ نشر ليدل هارت مجموعة اخرى من مقالاته تحت عنوان اعادة صنع الجيوش الحديثة ، كانت الفكرة الرئيسية فيها ـ مرة اخرى ـ هي « الحركة » وكان مبدأها الاخلاقي انه « لا شيء اقل من ميلاد جديد يمكن ان يبعث الحركة في الجيوش وفي الحرب . وبدون حركة فان جيشا لا يكون الا جثة ـ تنتظر الدفن في خندق . فاذا وهبت الجيوش الحركة من جديد ، من خلال المدرعات والمكننة ، فأنها يمكن ان تلعب دوراً أعظم » .

واهم اجزاء هذا الكتاب هو القسم الثالث ، الذي كان قد نشر اصلا كسلسلة مقالات في صحيفة ديلي تلغراف ، والذي يتضمن تحليلا تنبؤ يا لعقائد الجيشين الفرنسي والالماني بعد الحرب . ولم يعرض ليدل هارت وقته كناقد عسكري من قبل ابدا على نحو افضل مما فعله في هذا الكتاب ؟ ففي العام ١٩٢٧ كان بالفعل يرى » التحذيرات بضرورة التغيير » . فقد كانت المانيا تستفيد من هزيمتها وتضع تأكيدا شديدا على المناورة ، في حين ان عقيدة فرنسا كانت جامدة في الشكل ، ساكنة في رؤ يتها لحرب المستقبل : سوف تستخدم الدبابات اساسا لحماية المشاة ، بينما تبقى المدفعية ملكة ميدان القتال . وكان ليدل هارت يخشى في حرب قادمة ان تهزم النوعية الالمانية الكمية الفرنسية :

« كيف ستسير عربة الآلة البخارية الفرنسية اذا رفض العدو ان يتراجع متباطئا امامها ، وعهد بدلا من ذلك الى اطلاق الغاز في مساحات واسعة وحشد قواته ذات المستوى التدريبي العالي لهجمات

---

(٢٥) مجموعات شخصية من المحاورات مع ليـدل هارت .

متحركة بهدف ان يوقع الاضطراب بآلة الحرب الفرنسية المعقدة ؟ من المفارقات انه كان يتعين على الفرنسيين والالمان أن يتبادلوا العقائد حيث الالمان ـ في الاساس على الاقل ـ يجسدون التقليد النابليوني الخاص بالحركة والمفاجأة ، بينما تخلى الفرنسيون عن حيوتهم التاريخية ومناوراتهم السريعة بسبب ولعهم بقوة النيران » .

لقد وقفت فرنسا ـ كما ادرك ليدل هارت بصورة صحيحة ـ عند مفترق الطرق :

« اذا واصلت مسارها الراهن ، فان جيشها سيصبح ميليشيا قومية ، وستقل فاعلية باطرا نظرا للافتقار الى معلمين خبراء ، نظرا لان ضباطه المحترفين من النوع القديم ، المخلصين وذوي الثقافة العالية ـ يعتزلون بسبب ضعف الرواتب الكافية والاحتمالات الملائمة .

« فما هو المسار البديل ؟ قناعتي الخاصة هي ان جيشا محترفا اصغر ، تدفع له رواتب جيدة ، على مستوى عال من التدريب والمكننة ، يمكن بنوعيته ان يكفل لفرنسا أمناً حقيقياً اكثر مما توفره لها كميته الحالية . واني لامضي الى ابعد من هذا ، واقول ان فرنسا اليوم ـ التي اصبحت ابعد ما تكون عن ان تشكل خطرا عسكريا ، كما يتوهم الجهلاء من اصحاب النزعة السلمية ، لا تكاد تملك غطاءا كافيا في سياستها للتأمين العسكري ، ويتقلص امنها الى نقطة الخطر . ان الوضع خطير لان فرنسا آمنة وقوية امر وجوهري لاستقرار السلام الاوروبي[٢٦] .

بحلول هذا الوقت كان ليدل هارت قد ازداد تمسكا برأيه القائل بان الاستنزاف غير المجدي في الحرب العالمية الاولى كان راجعا في الاساس الى سيادة « الغلطة النابليونية » ، اي الاعتقاد بان الهدف الاول في الحرب ينبغي ان يكون جيش العدو الرئيسي . وقد اعاد طبع فصل بهذا العنوان في كتابه اعادة صنع الجيوش الحديثة ، وهو العنوان الذي كان قد سبق ان ظهر في بعثة باريس والذي نشر مرة اخرى بعد ذلك في كتابه شبح نابليون . وقد حاول « سينسر ويلكنسون » بغير جدوى ـ في مقال بعنوان « القتل ليس جريمة » ، وفي مراسلات شخصية ـ اقناع ليدل هارت بأنه يسيء تفسير « كلاوزفيتز » ، الذي لم يخدع نفسه ابدا بالتوهم بان القوات المسلحة للعدو هي الهدف الحقيقي[٢٧] ولقد برهن « ويلكنسون » حقا ـ بطريقة مقنعة في رأيي ـ على ان ليدل هارت كان يكرر « كلاوزفيتز » في معظم مجادلاته الرئيسية . وكتب « ويلكنسون » يقول ان ليدل هارت كان في الحقيقة عضوا في المدرسة التقليدية (الارثوذكسية) وكان يطرح مفارقة : فقد كان مع الوصفة السحرية القائلة بتحقيق النصر بلا معارك ولا اراقة للدماء . وعلى الرغم من ان « ويلكنسون » نفسه كان اكثر قطعاً في اعتقاده بانه حتى حشد المزيد من القوات على الجبهة الغربية من شأنه ان

---

(٢٦) اعادة صنع الجيوش الحديثة (١٩٢٧) ص ص ٢٥٠ ، ٢٧٦ .

(٢٧) « سينسر ويلكنسون » : « القتل ليس جريمة : بحث في بعض نظريات الحرب الجديدة ، في فصيلة الجيش ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٧ .

يكون استراتيجية اكثر فاعلية ، فانه حقق رؤ ية متبصرة نادرة حينما ادرك ان السبب الرئيسي للطبيعة « الشاملة » للحرب هو تورط عدد من الدول العظمى التي تعتقد جميعها بأن امنها الحيوي معرض للخطر والتي لديها جميعها استعداد لدفع ثمن باهظ من اجله . وفي هذا اظهر نفسه مريدا جيدا من مريدي « كلاوزفيتز » .

واخيرا ، قدم « ويلكنسون » ثلاث حجج ممتازة ضد وجهة نظر ليدل هارت في القصف الجوي للمدن كطريقة لتحاشي جيش العدو : الاولى ، ان الدفاعات كانت لا تزال في بداية عمرها وستتحسن بلا شك مع مضي الوقت ، الثانية ان « دروس التاريخ » توحي بان مثل هذه المحاولات الرامية الى الارهاب يمكن ان تقوي المقاومة وان تصبح غير فعالة ما لم تهزم القوات المسلحة للعدو ايضا ، والثالثة انه من الامور الحاسمة في نظرية القصف توجيه الضربة الاولى ـ وهو احتمال ميؤوس منه « لانه من المؤكد ان حكومة بريطانية لن تكون البادئة بشن حرب » وقد اكد صدق هذه الحجة الاخيرة ـ على الرغم من كل المحاولات التي ساقتها مدرسة القصف الهجومية ـ تأكيدا كاملا موقف الحكومة البريطانية ازاء القصف الاستراتيجي في الشهور الاولى من الحرب العالمية الثانية .

ولا بد ان يستنتج المرء ان ليدل هارت كان متورطا انفعاليا في مهاجمة الادارة العاجزة للحرب العالمية الاولى وتراثها الى حد عجز معه عن تناول اسبابها الاعم بتجرد . بدلاً من ذلك وجد كبش محرقة معقول فيما اعتقد خطأ انه فكرة « كلاوزفيتز » عن الاستراتيجية . وليس في هذا الخلط ما يثير الدهشة على الاطلاق ، ولا هو بالضرورة يبطل الدروس لعملياته التي استخرجها من الحرب العالمية الاولى . فقد كان يفتقر ـ من ناحية الحرب الجوية ـ الى المعرفة التقنية والخبرة الشخصية ، وكان يشارك في كثير من الافتراضات الزائفة التي كان يذهب اليه دعاة « القصف الاستراتيجي » . ولكن كما لمسنا ، فان فهمه للنتيجة الممثلة لحرب مستقبلة بين فرنسا والمانيا ، اذا حكمنا عليها على اساس عقائدهما العسكرية في اواخر العشرينات ، كانت دقيقة بصورة رائعة .

ولعل كابتن « سكاميل » ـ الذي اختلف ايضا مع ليدل هارت في بعض مواقفه المتطرفة ، بما في ذلك رأيه في الحرب الجوية مستقبلا ، قد اصاب رأس الوصل حين تحدث عن اسلوب وآراء صديقه الاستفزازية . فقد كان « سكاميل » يعتقد ان ليدل هارت يمكن ـ اذا واجه مشكلة محسوسة في حرب ـ ان يكون اول من يعدل استنتاجاته . وقد كتب ناقداً كتاب اعادة صنع الجيوش الحديثة :

« أن هدفه ليس وصف الظروف الفعلية أو الوشيكة » بقدر ما هو ايقاظ العسكريين من سباتهم والعامة من لامبالاتهم . فحينما يزحف الحذر المريح والخادع في الوقت نفسه على ضحية البرد القارس لا بد من لطمه ورفسه لاعادته الى النشاط . . . » [٢٨] .

---

(٢٨) « سكاميل » في « سان فرانسيسكو كرونيكل » ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٨ .

أما عن « كلاوزفيتز » ، فقد كان « سينسر ويلكنسون » الوحيد تقريبا في بريطانيا في ذلك الوقت الذي كان يفهم تماما ان اهتمامه الاول لم يكن بصياغة مذهب أو وضع قواعد وتصورات مسبقة لتوجيه القادة ، انما بالاحرى التفكير في طبيعة الحرب سواء على صعيدها العام وفي مراحلها المختلفة[٢٩] .

مصدر الاهمية الرئيسي لكتاب اصحاب الصيت Reputations (١٩٢٨) - وهو تقييم اولي لعشرة من قادة الحرب العالمية الاولى من غير العظام للغاية - انه يظهر موقف ليدل هارت في موقع وسط بين الاعجاب غير النقدي الذي كان يتسم به في العام ١٩٢٦ والاحكام المتزايدة في حدتها التي ابداها في كتاب الحرب الحقيقية The Real War (١٩٣٠) والطبعات المنقحة والموسعة التالية له .

مع ذلك ، لا بد من كلمة اولا عن عمق وشمول ابحاث ليدل هارت في التاريخ العسكري للحرب العالمية الاولى . وبالنظر الى انه كان اولا وفي الاساس صحافيا نشطا ، فان بحثه كان شاملا الى أقصى حد ، ولكن نادراً ما قام بزيارة لدور المحفوظات ، وفي مرات عارضة فقط رأى وثائق اصلية مما يسعى اليه المؤ رخون الاكاديميون باعتبارها الطبع الاكثر اهمية . ولم يكن افتقاره الى الوقت الكافي للدراسة في قاعات المحفوظات قصورا مصيريا ، كما يمكن ان يكون الآن ، حيث ان الوثائق الرسمية لم تكن متاحة للباحثين قبل مضي خمسين سنة على الحدث . وعلى أي حال فانه كان قادرا على التغلب على هذه العقبة الى حد ما عن طريق مراسلات ومناقشات لم يكل من تبادلها مع المؤ رخين الرسميين . اما فيما يتعلق باللغات الاجنبية التي كان باستطاعته ان يعمل بها فكانت الفرنسية فحسب ، وكان عليه ان يعدل على ترجمات لمقتطفات من مطبوعات هامة في الالمانية ولغات اخرى . وقد فرض عليه هذا عجزا قاسيا في فهمه للحرب على الجبهة الشرقية ، التي اضطر لان يراها اساسا من خلال ترجمات لروايات القادة الالمان عنها . وهكذا يبالغ « جاي لوقاس » بعض الشيء في الزعم بأن وراء كل من مجلداته عن الحرب العالمية الاولى « يمكن بحث واع بين الوثائق (كذا) واليوميات ضخمة مع اولئك الذين كانوا في مواقع تذهلهم لالقاء ضوء اكبر على الرجال والاحداث موضوع البحث »[٣٠] . ومن الامثلة الجيدة على مقدرته على تقديم عرض مقنع بقدر ضئيل للغاية من المادة التوثيقية ما يمكن ان نجده في كتابه اصحاب الصيت ، حيث استحدث معظم المعلومات للفصلين اللذين يتناولان القائدين الاميركيين « ليجيت » Liggett و « بيرشنغ » Pershing من مراسلات مع كابتن « سكاميل » . ومع ذلك فانه كان يعتني كثيرا - حيثما امكن - بالتحقيق بالمضاهاة مع مادة من الدرجة الثانية .

من حيث المنهج كان شبيها بصانع « الموزايك » (الفسيفساء) ، يستخدم كل قصاصة من

---

(٢٩) انظر مقال « باريت » في نظرية الحرب وممارساتها ، المصدر المذكور .

(٣٠) « لوقاس » ، المصدر المذكور ، ص ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

عمله هو ، بما في ذلك الملاحظات التأبينية ، ليبني بالتدريج افكاره وليهذبها حتى تبزغ في النهاية صورة واضحة . هذه العادة ، عادة التنقيح والتكرار الى ما لانهاية (او « النسج » كما كان يشبهه عادة) كانت في جزء منها ضرورية لكسب العيش ، ولكنها غالبا ما كانت تثير حنق مراجعي كتبه وتفرض مشكلات على كل من يريد اليوم ان يضع الترتيب الزمني لتطور افكاره . وينبغي ان يذكر ايضا ـ على الجانب المدين ـ انه ما ان يكون قد استقر على فكرة وسجل وجهة نظره في جملة أو فقرة واضحة ، كان مستعداً أن يكررها دون إعادة تقدير لسلامتها في ضوء الأدلة الجديدة . وأحياناً ما أعطت هذه العادة مبررات غير ضرورية لنقاده .

بحلول اواخر العشرينات أضافت السجلات المنشورة (من جانب القادة والمعجبين بهم) والخواطر الخاصة (من مصادر مطلعة مثل بريجادير ـ جنرال سير « جيمس ارموندز » ، المؤرخ الرسمي البريطاني للحرب) أضافت الى مخاوف ليدل هارت من ان القيادة الحالية للجيش كانت لا تزال مفرطة في شعورها بالرضى عن ذاتها وتجاوزها الزمن في تفكيرها . وقد أدى ذلك لان يميل ميزان حكمه بصورة متزايدة ضد اولئك المسؤولين عن مسار الحرب العالمية الاولى . ومن الادلة المسلية على هذا قائمة بعناوين ممكنة اعدها في العام ١٩٣٠ لتأريخه لحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وقد تضمنت هذه القائمة : « لا نابليون » ، « صراع الامم » ، الحماقة العالمية » ، « العالم في ارض العجائب » و « الوحش الذي لا رأس له » . ويتضح مثل هذا الاشياء في بعض « التأملات » في نهاية يومياته للعام ١٩٣٠ ، وخاصة هذه الملحوظة : « غريبة ، ومع ذلك شائعة جدا ، خاصة بين الجنود ، الذهنية التي تعتبر ان فضح الفساد أسوأ من الفساد »[٣١] وكان في العام ١٩٢٢ قد وصف الفيلد مارشال سير « هنري ويلسون » ، بصورة صارخة ، بأنه ومعه الكولونيل « هندرسون » العبقرية العسكرية الوحيدة التي تعهدناها خلال القرن الاخير . وبعد نشر كتابه « ويلسون « حياة ويوميات » في مجلدين في العام ١٩٢٧ استطاع ان يقول : « لم يحدث أبدا ان ادان رجل نفسه على هذا النحو » . لقد نسفت اليوميات سمعته و « ووصمته بأنه من الدرجة الثالثة »[٣٢]

وفي كتابه اصحاب الصيت كانت معالجته للسير « هيغ » متوازنة ، وحتى كريمة ، وتوصل الى استنتاج بأن « هيغ ـ كسيد عظيم ، كذلك بالمعنى الاوسع للكلمة ، وكنمط للشخصية النبيلة ، سيبقى على قائمة التاريخ ، فارسا لا يعرف الخوف ولا يعرف اللوم ، اكثر نظافة بكثير من معظم ابطال بريطانيا القوميين» وبحلول العام ١٩٣٦ كانت هذه الملحوظة البطولية قد اختفت ، واصبح « هيغ آنذاك » رجل مجبل اذا رأيناه في ضوء احكامه هو . . . ولكنه لم يكن امينا بدرجة كافية بالمقاييس الحقيقية » . وفي رأيي ان هذا النقد وغيره من الانتقادات الجارحة لقيادة « هيغ »

---

(٣١) ١١/ ١٩٣٠/٢٣ ، ١١/ ١٩٣٠/١ .

(٣٢) ليدل هارت الس » سكاميل » ، ٢٤/ ٦/ ١٩٢٢ . « لوقاس » ص ٣٩١ سير « سي . ا . كولويل » : فيلد مارشال سير هنري ويلسون : حياته ويومياته (في مجلدين ، كاسيل : ١٩٢٧)

وشخصيته ، وخاصة في حملة « باسشنديل » ، لها ما يبررها من الادلة ، ولكن اللهجة النقدية كانت ترجع بغير شك ـ في جزء منها ـ الى احساس بشن صراع لا ينتهي ضد الرضى عن الذات والنزعة المحافظة ، وتزييف التاريخ ، وعلى حد قوله البارع : « لقد رحل الرجال ، اما النظام فيبقى »(٣٣) .

وجدت العقبة العسكرية او الفلسفة العسكرية التي ارتبطت اوثق ارتباط باسم ليدل هارت ـ وهي استراتيجية التقرب غير المباشر ، اول تعبير لها في العام ١٩٢٩ في مجلد بعنوان الحروب الحاسمة في التاريخ . وكانت النتائج الرئيسية التي لخصها باسهاب في الذكريات ، انه :

« بوضوح اكثر واكثر بزغت الحقيقة القائلة بأن اقترابا مباشرا نحو هدف المرء الذهني ، او نحو غرض مادي ، على « خط التوقع الطبيعي » للخصم دائما ما مال نحو ـ وادى عادة الى ـ نتائج سلبية . وقد تم التعبير عن سبب هذا بطريقة علمية بالقول بأنه بينما تكمن قوة بلد عدو ـ في المظهر ـ في اعداده ومصادره ، فان هذه الاعداد والمصادر تعتمد على استقرار أو « توازن السيطرة والروح المعنوية والامداد . فالاولى ليست سوى اللحم الذي يكسوا اطار العظام والاربطة » .

ان التصرف على اساس خط التوقعات الطبيعية معناه تعزيز توازن الخصم ، والتأكيد عليه يعني زيادة مقاومته . وفي الحرب كما في المصارعة لا يمكن لمحاولة لالقاء الخصم ارضا دون هز قدميه وتوازنه الا ان تؤدي الى الانهاك الذاتي ، وزيادة هذا الانهاك الى حد لا يتناسب مع مدى الضغط الفعال الواقع عليه . ولا يمكن ان يتحقق النصر بهذه الطريقة الا من خلال هامش هائل من القوة المتفوقة في شكل ما ، وحتى في هذه الحركة يكون المرء معرضا لان يفقد قدرة الحسم . وعلى النقيض من ذلك فان تفحص التاريخ العسكري ، لا الاقتصار على فترة واحدة من مساره الكامل ، يبين حقيقة هي انه في كل الحملات الحاسمة كانت زعزعة توازن العدو النفسي والمادي هي المقدمة الحيوية لمحاولة ناجحة لاسقاطه . وقد تحققت هذه العملية بواسطة تقرب غير مباشر ، متعمد ، او عرضي . . .

« ولا يمكن تحقيق التفوق في فن التقرب غير المباشر والتقدير الكامل لمداه ، الا بدراسة وتأمل تاريخ الحرب بأسره . ولكن باستطاعتنا ان نبلور ـ على الأقل ـ دروسه في حكمتين بسيطتين ، الاولى سالبة والثانية موجبة . الاولى انه في وجه الدليل القاطع للتاريخ ليس هناك ما يبرر لقائد ان يوجه قواته نحو هجوم مباشر على عدو متمركز جيدا في موقعه . والثانية ، انه بدلا من السعي الى قلب توازن العدو عن طريق الهجوم ، ينبغي قلبه قبل شن هجوم حقيقي ، او قبل ان يشن مثل هذا الهجوم بنجاح . . .

---

(٣٣) اصحاب الصيت (١٩٢٨) ص ١٢٣ . افكار حول الحرب (١٩٤٤) ص ١٤٩ ـ ١٥٠ . الحرب الحقيقية ص ص ٣٦١ ـ ٣٦٧ .

« لقد وفرت القوات الميكانيكية ـ بالجمع بينها وبين السرعة والمرونة ـ الوسيلة لتحقيق هذا العمل الثنائي بطريقة اكثر فعالية مما كان يستطيع الجيش في الماضي »[٣٤] .

وكما كانت عادته طوال عمره ، وزع ليدل هارت هذه المخطوطة على نطاق واسع قبل نشرها ، طلبا للنقد والتعليق . وقدم « ت . ا . لورانس ملاحظة تنطوي على بصيرة حادة :

« انك برهنت على اطروحتك : ولكنني اخشى ان تكون قد برهنت بالقدر نفسه على الاطروحة النقيضة ، اذا كانت الحرب الاخيرة حرب مناورة لا حرب معارك . ان البندول يروح ويجيء . فاذا استقر يكون ذلك بمثابة حقيقة مطلقة : حينما يقف بندول بلا حراك فعلا فان هذا يعني ان الساعة قد توقفت ، لا انها حققت زمنا مطلقا »[٣٥] .

وعلق الميجور ـ جنرال (الجنرال سير فيما بعد) « و . هـ . بارثولوميو » W.H.Bartholomew ـ وكان واحدا من افضل العقول في الأركان العامة في فترة ما بين الحربين .

« انك توشك على اثبات نظرية عن طريق ضرب الامثلة ـ وهو امر له خطورته ، حيث المرء معرض دائما لان ينسى طرح الجانب الآخر . فهل انت مقتنع بأنك لا يمكن ان تتعرض لانقضاض على هذا الاساس ؟ انني بقدر ما احببت كتابك ، كان يمكن ان احبه أكثر حتى من ذلك لو انك لم تستخدم عبارة « تقرب غير مباشر » بمثل هذه الكثرة ، واتحت لقيمة التقرب غير المباشر ان تبزغ . انك فعلا تبرهن على ان المفاجأة ، التي تخل توازن العدو وتضمن كذلك موقعا يجعل وضع العدو في خطر ، هي افضل سلاح في الحرب . ولا فضل لتقرب غير مباشر ما لم يؤمن هذه النهاية ، وانني لاشعر انك مجدت بالأحرى الاسلوب على حساب . . . المبدأ »[٣٦] .

وبالمثل تحدى « فوللر » فكرة التقرب غير المباشر كعلاج لكل داء : « ان الهدف هو هزم العدو ، واذا امكن تحقيق ذلك بتقرب غير مباشر كان ذلك افضل كثيرا . اما في رأي كابتن « سكاميل » فان الكتاب قد برهن على ان ليدل هارت كان عبقريا . واشار الى ان دارسي الحرب الآخرين ، بمن فيهم « كامون » Camon ، « كولين » و « بوشيه » Boucher ، حاولوا تناول الموضوع من الزاوية نفسها وتوصلوا الى الاستنتاجات ذاتها بدرجة او بأخرى . ولكن معلم « سكاميل » ـ « سينسر ويلكنسون » ـ فقد بقي متشككا . وفي العام ١٩٣٢ كتب الى « سكاميل » : « انني اعتقد ان ليدل هارت عبد بدرجة مفرطة لنظرياته الخاصة التي يحولها الى عقائد جامدة ولكنه بارع ويعرف الكثير » . وفي رسالة اخرى خرج رأي « كلاوزفيتز » : « الحرب هي دائما شأن من شؤون الدولة وجزء من التغيرات التي تتم في الحرب هي تغيرات في

---

(٣٤) الذكريات ، ص ص ١٦٢ ـ ١٦٥ ، « لوقاس » ص ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ .
(٣٥) ت . ا . لورانس الى كتاب سيرته ، المصدر المذكور ، ليدل هارت ، ص ٦
(٣٦) ميجور جنرال « و . هـ . بارتولوميو » الى ليدل هارت (بدون تاريخ : ١٩٢٨ أو ١٩٢٩) .

دستور الدولة . ولم تكن هناك ابدا ـ ولن تكون ـ وصفات طبية لتحقيق النصر » وأدرج سير « جون فورتيسكيو » John Fortescue في اعداد نقاد ليدل هارت الصرحاء ، فقد كتب مراجعا الكتاب : « بالنسبة لكل ما درسه ليدل هارت فان كتابه سطحي ، وهو غامض فيما يتعلق بالتقرب غير المباشر وبما هو « حاسم »[٣٧] .

من ناحية منهج البحث كانت الاسس التاريخية لـ « التقرب غير المباشر » تفتقر كثيرا بالفعل الى التأكيد . لقد كان تناول ليدل هارت للتاريخ تناولا حدسيا وتلفيقيا اكثر منه « علميا » كما كان هو نفسه يحب ان يعتقد . ويشعر المرء وهو يدرس الكتاب أن منهجه ينزع الى تأكيد الذات الى حد كبير . ان قليلا من المعارك او الحروب الكبرى كسب دون نوع من الخداع أو المفاجأة أو الابتكار ، ولما كان ليدل هارت يوافق على ان « اللامباشرة » يمكن ان تكون استراتيجية وتكتيكية ونفسية وحتى ـ في بعض الاحيان ـ « لاواعية » ، فانه يصبح قريبا الى اقصى حد من تقديم برهان دوري* : فان « انتصارا حاسما » ـ وفقا لتعريفه هو ـ حدث يؤمنه « تقرب غير مباشر » . وهذا المنهج غير علمي في جوانب اخرى : فقد ازال قرونا بأكملها ، ومناطق في العالم وحروبا هامة ، كما كان للمرء ان يتوقع امثلة اكثر من تلك التي ساقها لفشل « التقرب غير المباشر » (غزو نابليون الفاشل لمصر ، مثل) او نجاح « التقرب المباشر » (تكتيكيا ـ مثلا ـ في معارك « هيستنغز » Hastings و « بلنهايم » Blenheim) . وربما الاكثر خطورة من هذا كله ان ليدل هارت كان ينتمي لعهد ما قبل « كلاوزفيتز » في معالجة الحرب والقدرة القيادية بمعزل تماما عن سياقها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وبعبارة اخرى ، ان الاسباب التي تجعل الحرب تؤدي الى « نتائج حاسمة » في منطقة ولا تؤدي اليها في منطقة اخرى قد لا تكون لها الا علاقة ضئيلة نسبيا بالقدرة القيادية . وقد كان ليدل هارت متورطاً انفعاليا في وجهة نظره الخاصة الى الحرب العالمية الاولى ـ مثلا ـ بحيث لم يكن باستطاعته ان يرى اوجه التماثل بينها وبين الحرب الاهلية الاميركية ، التي اصبحت حرب استنزاف على الرغم من وجود قادة ممتازين[٣٨] .

أشار « سبنسر ويلكنسون » ـ الذي ربما يكون اكثر نقاد ليدل هارت اطلاعا . اما ان دراسته كانت توجيهية اكثر منها تاريخية : « انني اعني بهذا انك تشرع في تلقين القادة الذين ماتوا كيف كان يمكن ان يحققوا نتائج افضل لو انهم كانوا قد تشبعوا بآرائك في التقرب غير المباشر ، على

---

(٣٧) « فوللر » الى ليدل هارت ، ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٢٩ . « سكاميل » الى ليدل هارت ٩ كانون الثاني (يناير) و ١١ شباط (فبراير) ١٩٣٠ . « سبنسر ويلكنسون » الى « سكاميل » ٩ شباط و ٣٠ حزيران ١٩٣٢ (انظر ملف « سكاميل » ، اوراق ليدل هارت سير « جون فورنيسكيو » في الأوبزفر » ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩ .

* بمعنى البرهنة على الشيء بالشيء وذاته الذي يحتاج الى برهان ، وبتعبير منطقي آخر « المصادرة على المطلوب » اي التسليم بما هو بحاجة الى برهان « المترجم » .

(٣٨) انظر ـ مثلا « ت . هاري وليامز » : « القيادة العسكرية للشمال والجنوب » في كتاب « دافيد دونالد » (محررا) : لماذا كسب الشمال الحرب الاهلية (نشر كولير بوكس ١٩٦٢) .

حين اعتقد ان المنهج التاريخي يقوم على اكتشاف الكيفية التي تصرفوا بها على النحو الذي تصرفوا به على وجه التحديد فعلا ، في كل حالة والى ابعد مدى ممكن . . . ورأيي ان معظم اولئك القادة العظام كانوا يعرفون عملهم جيدا وقد بذلوا افضل ما بوسعهم في الظروف التي كانت قائمة . . . » واشار الى عدد من الحالات الهامة (مثل حملات « مولتكه «Moltke في العام ١٨٦٦ والعام ١٨٧٠) حيث كان تفسير ليدل هارت ـ على اقل تقدير ـ تفسيرا مريبا . ومن المثير للاهتمام ان ليدل هارت نفى في رده اي زعم بالاصالة في مفهومه العام عن التقرب غير المباشر :

« وكيف يمكن ان يكون ، وهو ببساطة طريقة لبلورة انجح الاساليب التي انتهجها القادة العظام . والجدة الوحيدة التي يمكن للمرء ان يدعيها ـ في هذه الاطروحة ـ هي جدة في الدرجة وفي التركيز . في الدرجة عن طريق امعان النظر في آثاره النفسية اكثر مما في جانبه الهندسي فحسب . وفي التركيز لانه حتى « كولين » . . . يميل الى اشاعة الغموض حول اهميته ، بجعله يبدو عارضا اكثر منه اساسيا ، الى جانب معالجته اساسا من وجهة نظر المناورة التكتيكية »(٣٩) .

بعد مرور الوقت الذي مضى من السهل ان نرى ان ليدل هارت كان دافعه الى حد ضئيل فضولا تاريخياً غير متحيز ، وكان دافعه بدرجة ساحقة رد فعله الانفعالي ضد الخسائر البشرية اللامجدية في الحرب العالمية الاولى ، واهتمامه بتفادي تكرار اساليب مماثلة في المستقبل . وهكذا فان الشيء الاكثر اهمية من دقته وانصافه التاريخيين ـ وهو ما يبدو ان قراءه المعاصرين قد ادركوه ـ كان صحة اطروحته العامة للظروف الراهنة وملاءمتها العملية لحرب المستقبل . وقد عبر عن قلقه الزائد بوضوح شديد في رسالة الى « هيوكودليب «Hugh Cudlipp في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ :

« ان ما ظللت احاربه على مدى سنوات باستمرار كان الايمان العسكري التقليدي (الارثوذكسي) بالهجوم المباشر ، أي بالهجوم الجبهوي ضد عدو متمركز جيدا في موقع ـ وخاصة اذا شن مثل هذا الهجوم بأساليب ووسائل الحرب الاخيرة ، باستعداداتها المدفعية الخرقاء . وكان الاسلوب الذي دافعت عنه بلا انقطاع هو اسلوب « التقرب غير المباشر » ، في أي شكل من شأنه ان يحقق مفاجأة ، بينما الوسيلة التي كنت اصر على ضرورتها هي الجمع بين الطائرة والدبابة .

كل هذا كان بمثابة لغز للتقليديين ، الذين قادوا الجيشين الفرنسي والبريطاني . وفي العام ١٩٣٢ نجحت في تكوين لجنة تابعة لوزارة الحرب ـ شكلت للتحقيق في دروس الحرب الاخيرة ، وفي معرفة ما اذا كانت قد طبقت على نحو كاف ـ واذا استخدمنا المثل الذي أؤمن به القائل بانه « لا هجوم في الحرب الحديثة ممكن او يرجح ان ينجح ضد عدو متمركز في موقع ، ما لم تكن قوة مقاومته قد شلت بالفعل ، اما (أ) بصورة من صور المفاجأة ، او (ب) بواسطة نيران متفوقة ، على درجة من القوة تكفي لتحقيق اثر المفاجأة . كذلك نجحت في اقناع اللجنة بوضع عدد من آرائي الاخرى ـ حول اساليب

(٣٩) « ويلكنسون » الى ليدل هارت ، ٢٨/١٢/١٩٢٨ . ليدل هارت الى « ويلكنسون » ، ٣١/١٢/١٩٢٨ .

المفاجأة ، وضرورة القوات المدرعة لتحقيق اختراق ، وقيمة الهجوم المعاكس ، والاهمية الحيوية للتقرب غير المباشر . . . الخ . وقد جاء تقرير هذه اللجنة في الحقيقة فضحا مدمرا لعجزنا العسكري في الحرب الاخيرة . ولكن ، على الرغم من انه كان في النية اصلا نشر هذا التقرير لفائدة الجيل الطالع ، فانه حفظ سرا بتأثير نفوذ « سيرارشيبالد مونتغمري ماسينغبرد » ، الذي كان قد اصبح رئيسا للاركان العامة الامبراطورية في الوقت الذي اعد فيه التقرير للنشر . وكانت النتيجة ان ظل الجيش البريطاني يواصل التدريب على نوع من الهجوم تجاوزه الزمن ولا يملك فرصة ممكنة للنجاح ، وكان حال الجيش الفرنسي اسوأ حتى من ذلك »[٤٠] .

يبين هذا التصريح ، وغيره من التصريحات المماثلة في اوراقه ، بصورة جازمة ان « ويفل » Wavell كان بعيدا عن الدقة في اشارته المازحة : « بمعرفتك ودماغك وسيطرتك على القلم كان باستطاعتك ان تؤلف كتابا مقنعا بالدرجة نفسها بعنوان استراتيجية التقرب المباشر »[٤١] لقد رأينا ليدل هارت يدافع أفضل دفاع عن سلاح المشاة في اوائل العشرينات حينما كان قد تحول بالفعل الى القيمة الكامنة الاكبر للدبابات ، وقد احتفظ في معظم المسائل بقدرة ملحوظة على مناقشة سلبيات وإيجابيات كل من جانبيها . اما فيما يتعلق بنظرية التقرب غير المباشر فقد اصبح كاتبا « ملتزما » اذا استخدامنا التعبير المستخدم اليوم ، ولكنه ظل منفتح الذهن فيما يتعلق بالمسائل التفصيلية ، انما عنيد فيما يتعلق بالفرضية الاساسية في فلسفته .

على انه مهما كانت أوجه القصور في استراتيجية التقرب غير المباشر ـ من وجهة النظر المدرسية (السكولائية) ـ فانه يمكن الدفاع عنها بقوة كعقيدة تعليمية . لقد كان هناك الكثير يقال لتشجيع جيل جديد من الضباط على ان يفكروا لانفسهم ، وخاصة ان يفكروا بهدف تحقيق النجاح بواسطة المفاجأة والحركة المتفوقة ، وتقييم المهارة الذهنية والمهنية اكثر من التقليد والاقدمية ، وتحقيق الاستخدام الاكمل للعلم والتكنولوجيا للتقليل من الخسائر البشرية . وضمن هذه الاهداف كان ليدل هارت ليس الا معبرا ببلاغة وفاعلية اكبر عن طموحات جيل من الضباط ذوي العقلية الاكثر تقدمية ، الذين نجوا من مذبحة الحرب العالمية الاولى ، ومن هنا كانت مراسلاته التي تملأ مجلدات ضخمة مع رجال مثل « فوللر » ، « غورت » Gort ، « ويفل » ، « مونتغمري » ، « ايرنسايد » Ironside ، « بورنيت ـ ستيوارت » Burnett — Stuart « تيم بايل » Tim Pile « ب د . فيشر » B.D .Fisher ، « هنري كارسليك » H.Karslake ، وكثيرون غيرهم . وباختصار ، فان كتب ومقالات ورسائل ومناقشات ليدل هارت ـ كمنبه عام للتفكير (او ـ كما وصفها « ويفل » ـ « كمثير ذهني ») كانت ذات قيمة هائلة . وكان المستفيدون

---

(٤٠) ليدل هارت الى « هيو كودليب » ، ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ .

(٤١) « ويفل » الى ليدل هارت ، ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ . « ج . سي . ويلي » : الاستراتيجية العسكرية : نظرية عامة في سيطرة القوة (نيوجرسي ، ١٩٦٧) .

الرئيسيون الضباط المتأملين ، ولكنهم ليسوا المستفيدين الوحيدين . لقد كتب الفيلسوف وعالم الدراسات القديمة البروفيسور «جلبرت موراي » Gilbert Murray في العام ١٩٤١ : « اجد دائما انني اتعلم من حوارك او كتاباتك وحتى حينما لا اتفق معك اتفاقا كليا . فانك دائما ما تجعلني افكر . انك بالتأكيد تؤدي خدمة قيمة بالوقوف في وجه طوفان » الافكار المعبرة عن التمنيات التي تولدها الحرب »[٤٢] .

وبحلول العام ١٩٣٠ ، حينما كان ليدل هارت لا يزال في الخامسة والثلاثين ـ كان قد حقق سمعة دولية كمعلق ومؤرخ وكاتب عسكري . وجاء تعيينه مراسلا عسكريا لصحيفة ديلي تلغراف ومحررا عسكريا للموسوعة البريطانية ليقدم اساسا متينا انطلق منه الى التاريخ والمسائل العسكرية الجارية . وفي هذا المجال الاخير بالذات استطاع ـ كصحفي ممتاز يقود النضال من اجل المكننة ـ ان يحقق اكبر نفوذ له في العشرينات والثلاثينات ـ وقد سجل لتسلسل احداث هذا النضال بتفصيل مسهب في المجلد الاول من كتابه الذكريات .

ابتهج الاصدقاء والمؤيدون بنجاحه السريع ، بينما تذمر آخرون ـ ممن احسوا انهم اهداف لانتقاداته ـ من هذا الكابتن الصاعد الذي يزعم انه يلقن الجنرالات ما ينبغي عليهم ان يفعلوه . وكما ذكره « فوللر » ـ « الناس غيورون منك » . انظر الى مركزك في ١٩٢٢ وفي ١٩٢٧ . في العام ١٩٢٢ كان عليك ان تقول « نعم يا سيدي » و « لا يا سيدي » ، لاي ضابط لا يساوي اكثر من قرشين يحمل رتبة كابتن ، اما الآن فانك تستطيع ان تثير فزع مجلس الجيش »[٤٣] وتبدو صادقة بما فيه الكفاية مذكرة بعث بها ليدل هارت الى « جون بوكان » في العام ١٩٣٢ ، حينما كان الاخير يأمل ان يجعله يعين نائبا لامين لجنة الدفاع الامبراطورية ، وان تكن هذه المذكرة تبدو مفرطة في النزعة الذاتية (ولكنها تتفق مع اعتقاده بان على الجميع ان يقدروا انفسهم تقديراً كاملا كما يفعل هو على نفسه) :

« خلال السنوات الاخيرة اخذ كثيرون من كبار رجال الدولة والجنود والمؤرخين والصحف في العالم يطلقون ملاحظات من نوع ان هذا المرء « اعظم مفكر وكاتب عن الحرب من الاحياء » . وكثيرا ما كانت الملاحظة (هكذا اضاف بسخرية غير واعية) « الاعظم منذ كلاوزفيتز »[٤٤] .

ومنذ وقت مبكر يرجع الى العام ١٩٢٦ كان محاضره السابق في جامعة كيمبردج ـ « جيوفري بتلر » Geoffry Butler ـ الذي اصبح آنذاك عضوا في البرلمان وسكرتيرا برلمانيا خاصا لوزير الطيران ـ قد اشار اليه في لقاء جامعي بأنه رجل « بارز جدا » و « عظيم » . وفي العام ١٩٣٣

---

(٤٢) «جلبرت موراي » الى ليدل هارت ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠ .

(٤٣) « فوللر » الى ليدل هارت ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٧ .

(٤٤) نسخة ليدل هارت المنسوخة على الآلة الكاتبة من مذكرة طلبها « جون بوكان » في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٢ .

امتدح ـ بطريقة مقيتة ـ في الولايات المتحدة في سجلات الكونغرس ، حيث اعترف به ـ وفقا لمذكراته الخاصة ـ « كواحد من اكثر العقول العسكرية انتاجا في جيلنا »[٤٥] .

وقد استحق بالكامل هذه الاشارة الى انتاجيته . فان محصلة عمله الجاد أدهشت المعجبين به ، مثل « جون بوكان » و « ج . م . سكاميل » ، وأثرت على منافسيه الممكنين (عدا فوللر) بتعددها الملحوظ ونوعيتها العالية بشكل عام .

صحيح انه كانت لاعماله التاريخية أوجه قصور واضحة من وجهة النظر الدراسية الاكاديمية ، ولكن فيما عدا « سبنسر ويلكنسون » ـ الذي كان قد تقاعد في العام ١٩٢٥ ـ لم يكن هناك الا قليل ـ اذا كان هناك على الاطلاق ـ من المدرسين الجامعيين في بريطانيا في ذلك الوقت تؤهلهم قدراتهم للحكم عليه . والواقع ان كتب ليدل هارت ـ التي نادرا ما كانت نتاج بحث اصيل بالمعنى الدقيق لكلمة بحث ـ كانت تتمتع بمزايا واضحة . كانت مبنية على اساس من قراءات واسعة تعززها ـ كلما امكن ـ مقابلات ومراسلات ، ونادراً ما كانت دقتها في التفاصيل موضع تحد ناجح . ولا يقل عن ذلك اهمية ان ليدل هارت كان كاتبا موهوبا ، واذا كان في بعض الاحيان قد بدا منجرفا وراء عباراته البراقة وصوره البلاغية ، فانه كان يملك مع ذلك الصفة الضرورية ، خاصة بالنسبة للزبائن العسكريين الذين لا يهوون الكتب كثيرا ، وهي ان قراءته كانت ممتعة وبالاضافة الى هذا ـ وباستثناء « فوللر » ايضا ـ لم يكن هناك في العام ١٩٣٠ كاتب عسكري بريطاني آخر يستطيع ان يضاهي ليدل هارت في تعدد مواهبه وسعة اهتماماته المعاصرة ، واستقلاله الذهني وشجاعته في التعبير عن وجهات نظر غير تقليدية .

وفيما يتجاوز كل هذه الخصال ، كان ليدل هارت يكشف فعلا ـ وخاصة في مراسلاته ـ عن ان الطموح الشخصي الى السلطة والنفوذ لديه ـ وان كان طموحا حقيقيا بدرجة كافية ـ كان يفوقه شعور بالرسالة . وكما بين هذا الفصل ، فانه كان يعتبر نفسه محاربا صليبيا ضد الميراث الخطير الذي ورثه النظام العسكري البريطاني من استراتيجية الحرب العالمية الاولى وتكتيكاتها . وقد حاول في استراتيجية التقرب غير المباشر ان يصوغ نظرية عامة في الحرب معارضة لتلك التي تمثلت في حملات الاستنزاف في الجبهة الغربية . وقد قدم في اوائل الثلاثينات معالجة اكثر تحديدا للامن القومي في عقيدته عن « الطريقة البريطانية في الحرب » .

---

(٤٥) مذكرة ١١/ ١٩٢٦/١ ـ ٦ و ٧ آذار (مارس) ، في العام ١٩٣١
كان لدى ليدل هارت سببا وجيها لان يغير انه حرم من جانب مجلس الاكاديمية الملكية من ميدالية « شيزني » الذهبية ، التي كانت تمنح عن الاسهامات البارزة وقد تلقى هـو و « فوللر » في وقت لاحق ميداليتيهما الذهبيتين معا في العام ١٩٦٣ .

الفصل الثالث

الطريقة البريطانية في الحرب

١٩٣٠ _ ١٩٣٤

على الرغم من أن ليدل هارت واصل في النصف الأول من الثلاثينات ، جهوده التي لا تكل من أجل اصلاح الجيش البريطاني ، ولعب أيضا دورا نشيطا في مناقشة نزع السلاح ، فان هذا الفصل سيركز على نظرياته الاستراتيجية الأوسع ، وخاصة صياغته « الطريقة البريطانية في الحرب » . ونتيجتها الطبيعية شجب الحرب الواسعة على نطاق القارة (الأوروبية) في كتابه شبح نابليون . وستكون مهمة الفصل التالي فحص التطبيق العملي لأفكار ليدل هارت على سياسة الدفاع البريطانية في أواخر الثلاثينات وتقييم مدى نفوذه . وسينتهي الفصل الحالي الى كشف جانب من انشغاله الخاص بـ « الحقيقة » . وتشاؤمه العميق بشأن اقناع الجنود بقبولها ، ذلك التشاؤم الذي تظهر ملامحه واضحة في ملفاته الخاصة بتلك الفترة .

أذاع ليدل هارت علنا لأول مرة فكرته عن « طريقة حرب » بريطانية محددة في كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ، وذلك في محاضرة ألقاها بمعهد القوات الملكية المتحدة بعنوان « الضغط الاقتصادي أو الانتصارات القارية » . في تلك السنة كانت أزمة « منشوريا » قد قدمت أول مؤشر واضح الى عجز « عصبة الأمم » وفي العام التالي خبت الآمال في توقيع اتفاقية عالية لنزع السلاح في جنيف ، وفي أوائل العام ١٩٣٣ عاد الى الظهور شبح حرب أوروبية عندما أصبح هتلر مستشارا لألمانيا .

وفي بريطانيا كانت القوات المسلحة قد عانت بقسوة من قيد الميزانية طوال سنوات العشرينات العجاف ، وبلغت أرقى نقطة فيها بالأزمة الاقتصادية لفترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ . وكان التخطيط والاتفاق العسكريين قد خصصا منذ العام ١٩١٩ لـ « قاعدة السنوات العشر » التي وضعتها الوزارة والتي كانت تعتبر أنه ليس من المتوقع نشوب حرب كبيرة خلال السنوات العشر التالية وأنه يكون من الضروري تكوين « قوة حملة » «expeditionary force» . وفي العام ١٩٢٨ كان تشرشل ـ كوزير للخزانة ـ وقد وضع « قاعدة السنوات العشر » على أساس متحرك بحيث لم يصبح بالامكان تقريب تاريخ اعتبار الاستعداد للحرب أمرا ضروريا . وربما كانت هذه

الافتراضات قد وجدت ما يبررها في أعقاب نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة . ولكنها كانت افتراضات غير سليمة بشكل واضح في العام ١٩٣١ . وفي آذار (مارس) ١٩٣٢ ـ بناء على توصية ملحة من رؤساء الأركان ـ ألغى مجلس الوزراء « قاعدة ا لسنوات العشر » ولكنه وهو يعلن ذلك حذر من أن ذلك « ينبغي الا يؤخذ كمبرر لتوسيع النفقات من جانب قوات الدفاع دون اعتبار للوضع المالي والاقتصادي الخطير للغاية الذي لا يزال قائما » . ومنحت زيادة قيمتها خمسة ملايين جنيه اسرليني فقط للنفقات الدفاعية للعام ١٩٣٣ : وكان ذلك اسهاما صغيرا بالنظر الى المستوى الذي كانت قد هبطت اليه الأسلحة الثلاثة[١] .

وقرب نهاية العام ١٩٣٣ حذر البيان السنوي لرؤساء الأركان من أن ألمانيا تعيد تسليح نفسها ، وأنها خلال سنوات قليلة ستصبح من جديد قوة عسكرية منيعة . وخلال أي وقت من فترة السنوات الثلاث أو الخمس التالية قد تضطر بريطانيا الى التدخل عسكريا في القارة (الاوروبية) لانجاز التزاماتها بمقتضى ميثاق « عصبة الأمم » أو معاهدات لوكارنو Locarno . وأشار رؤساء الأركان الى أن باستطاعة الجيش ـ آنذاك ـ ان يوفر فرقتين على أقصى تقدير وألا يتمكن من تعزيزها لشهور طويلة[٢] . وأكدوا أيضا انه سيكون من قبيل انعدام الواقعية التعويل على الهدوء في أي مكان آخر . وانتهى البيان بلهجة قاتمة للغاية الى أنه ـ في الحقيقة ـ « اذا ما اندلعت الحرب في أوربا ، فاننا لما كنا بعيدين عن امتلاك وسائل التدخل ـ لن نكون قادرين على أكثر من مجرد تثبيت الحدود والمراكز المتقدمة للامبراطورية خلال الأشهر الأولى من الحرب » . وقد أدى هذا البيان مباشرة الى تشكيل « لجنة المتطلبات الدفاعية » المتفرعة عن « لجنة الدفاع الامبراطوري » ، لاعداد برنامج لمواجهة أسوأ النواقص في القوات المسلحة خلال السنوات الخمس التالية . وكان رئيس اللجنة سير « موريس هانكي » أمين « لجنة الدفاع الامبراطوري » ، وتألفت من عضوية رؤساء الأركان الثلاثة والوكيل الدائم لوزارة الخارجية والوكيل الدائم لوزارة الخزانة ، وهما على التوالي سير « روبرت فانسيتارت » R. Vancittart وسير « وارين فيشر » Warren Fisher .

وقد أدرجت في كتب أخرى ، وبشكل كاف ، تفاصيل تقرير « لجنة المتطلبات الدفاعية » في شباط (فبراير) ١٩٣٤ والمناقشات الوزارية المطولة التي أعقبته . ولا حاجة بنا لأن نكررها هنا[٣] .وكانت النقطة البارزة فيها ـ وذلك أساسا بسبب نفوذ الأعضاء المدنيين ـ الحث على انتهاج

---

(١) « مايكل هوارد » ص . ص . ٩٦ ـ ٩٨ . « دي . سي . وات »(١٩٧٥) ص . ص . ٨٨ ـ ٨٩ .(١٩٧٢)

(٢) طبقا لمذكرة عن خطة التعبئة لقوات الحملة البريطانية في العام ١٩٣٢ ـ ضمن اوراق ليدل هارت (١١/ ١٩٣٢/ ٥١) تكون فرقتان (الاولى والرابعة) مستعدتين للابحار بعد ١٤ يوما من التعبئة ، وتكون فرقة ثالثة مستعدة بعد أربعة اشهر وفرقة رابعة بعد ستة اشهر ، والحقيقة انه كان من المشكوك فيه ان تكون الفرقة الرابعة مستعدة بعد ١٤ يوما ، وكان من قبيل « الانتحار الاكيد » ارسال الفرقتين الاولى والرابعة بحالة عتادها الراهنة .

(٣) « م . هوارد» ، المصدر المذكور ، ص . ص . ١٠٥ ـ ١١٢ . « ن . هـ . جيبس » : (منشورات حكومة جلالة الملكة البريطانية ١٩٧٦) ص . ص . ٩٣ ـ ٢٦٨ .

سياسة مصالحة تجاه اليابان ، بينما اعتبرت ألمانيا العدو المحتمل الذي ينبغي في النهاية أن توجه ضده سياسة بريطانيا الدفاعية الطويلة الأمد . وقد قيل أن هذه مسألة تعني - في الأساس - الجيش والسلاح الجوي الملكي ، بينما في حالة حرب مع اليابان فان البحرية الملكية هي التي ستتحمل العبء ، على الأقل في المراحل الأولى .

وكان رؤساء الأركان متواضعين لأقصى حد في اقتراحاتهم على الرغم من اجماعهم على الحاجة الى « قوة حملة » قادرة على التدخل في القارة . وعلى سبيل المثال فان رئيس الأركان العامة الامبراطورية أكد أن أقوى « قوة حملة » يمكن للجيش أن يشكلها ستتألف من أربع فرق مشاة ، وفرقة فرسان ، ولواء دبابات . وكما أشار مايكل هوارد M. Howard فان مثل هذا الجبن - وان كان مثيرا للحزن - أمر مفهوم تماما . فقد كان هانكي يتنبأ - على نحو دقيق في الحقيقة - بأن تكون الحكومة محجمة عن قبول حتى مبدأ التزام الجيش بالتدخل في القارة . وفي المناقشات الوزارية لتقرير « لجنة المتطلبات الدفاعية » في أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٣٤ .

قاد نيفيل تشمبرلين Neville Chamberlain - وكان آنذاك وزيرا للخزانة ولكنه كان في الوقت نفسه شخصية مسيطرة في مجلس الوزراء - قاد الهجوم على النفقات الزائدة للتوصيات بوجه عام ولدور الجيش بشكل خاص[٤] . وتحدى الزعم بأن لبريطانيا مصلحة حيوية في الاحتفاظ بالأراضي الواطئة بعيدا عن سيطرة دولة معادية يمكن أن تستخدمها كقاعدة جوية . وذهب الى أنه اما أن تتمكن دفاعات الجبهة البلجيكية من الصمود بقوة ، واما - اذا لم تصمد - فان « قوة الحملة » لن تستطيع الوصول في الوقت الملائم على أي حال . والأفضل كثيرا أن تعطى الأولوية لاجراءات الدفاع الداخلي التي يمكن للرأي العام أن يتفهمها ويوافق عليها . وكانت فكرته بناء السلاح الجوي الملكي كقوة رادعة . وقد سادت هذه الآراء في مجلس الوزراء في النهاية ، وكان من نتيجة ذلك أن خفض نصيب الجيش في مخصصات السنوات الخمس من ٤٠ مليون جنيه استرليني الى ١٩ مليونا .

وفي تبرير هذه الزيادة المتواضعة في الانفاق الدفاعي أمام مجلس العموم في تموز (يوليو) ١٩٣٤ قدم رئيس الوزراء « بولدوين » Balduin ملحوظة لا تنسى : « عندما تفكرون في الدفاع عن انجلترا فانكم لا تعودون تفكرون في جرف دوفر Dover ، انما تفكرون في الراين . فهناك تقع حدودنا » . ويبدو هذا على السطح كأنه قبول بالتزام قاري ، ولكن بولدوين كان يفكر في الحقيقة في أمر الجو أكثر منه في أمر الأرض . وقد ظل رؤساء الأركان - طوال سنوات منتصف الثلاثينات متحدين في الرأي الحاسم القائل بأن تكوين « قوة حملة » للحفاظ على ميزان القوة في القارة .

ولكن الجيش حصل لأسباب سياسية على النصيب الأقل من الأولوية في المراحل المبكرة

(٤) الاجتماع الـ ٢٦٦ « لجنة الدفاع الامبراطوري » لمناقشة مذكرة اللجنة نفسها . المذكرة رقم ١١٤٩ .

الحذرة من اعادة التسلح . فلم يكن الالتزام القاري قد لقي استنكارا علنيا بعد ، ولكن لم يبذل شيء كبير في الممارسة لاعداد « قوة حملة » قادرة على انجاز مثل هذا الدور .

وهكذا فان محاضرة ليدل هارت أمام معهد القوات المتحدة الملكي وكتبه التالية(٥) التي كانت تؤكد على المفهوم القائل بطريقة بريطانية في الحرب ظهرت في وقت كان فيه الجيش البريطاني غير مستعد استعدادا جيدا لارسال قوة طوارىء الى ما وراء البحار ، وكان الرأي العام يبدو معارضا بقوة لالتزام قاري . فان طوفانا من الكتب المعبرة عن الاستياء حول الحرب العالمية الاولى . والتي ظهرت في اواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات قد لقنت البلد هذا الدرس : ينبغي ألا يتكرر هذا أبدا .

كانت فكرة ليدل هارت أن الالتزام الكلي بالجبهة الغربية في الحرب العالمية الاولى كان انحرافا عن استراتيجية بريطانيا التقليدية . فقد أصبحت بريطانيا مقيدة بحلفائها ـ كما لم تتقيد بهم من قبل أبدا ـ السياسة والاستراتيجية على السواء . لقد التزمت بصيغة القتال حتى النهاية التي كان رمزها المرئي جيش هائل من المجندين . وكانت نفقات حرب الاستنزاف مفرطة :

« نحن اليوم لا نعاني فقط من اجهاد الجسد ، سياسيا واقتصاديا ، انما أيضا اجهاد الروح . وكان هذا في الحقيقة أخطر الأعراض ، وسوف يظهر أثره بوضوح شديد في تاريخنا لفترة ما بعد الحرب . لقد حسمت النفقات المزدوجة لمعركة « السوم » ومعركة « باسشنديل » ـ التي غالبا ما نتذرع ، بل وندعي ، بأنها سببت في الوقت نفسه نزفا للقوة البشرية للعدو ـ من قوتنا المعنوية . هناك ولمدة جيل ـ ان لم يكن للأبد ـ غرقت العقيدة التي خلقت الامبراطورية » .

ولكن كيف حدث أن انتهجت بريطانيا سياسة غريبة الى هذا الحد عن تقاليدها ؟ قدم ليدل هارت سلسلة الأسباب الحيوية التالية :

« كان وحل « الفلاندر » رمزيا . في الحروب الماضية كنا نثبت أقدامنا ـ ماديا ـ وقبل أن نبدأ الحرب الاخيرة حتى تجرد بداية كنا قد ثبتنا أقدامنا مرة اخرى ، ولكن مجازياً وذهنياً هذه المرة . وخلال الحرب ألقينا بجسدنا كله فيها . ولا بد من تتبع سلسلة المسببات من خلال شهادات سير « هنري ويلسون » قبل الحرب ، وأوامر الاستدعاء العسكري التي أصدرها لورد كيتشنر ، وتسرع الأركان العامة في الوصول الى فرنسا ، وتسرع الجنرال جوفر Joffre في الوصول الى ألمانيا ، لتنحدر الى مصيرها النهائي في مستنقعات « باسشينديل » . الى هناك أخذنا قوة انجلترا وهناك انفقناها ، أهدرناها على تراب حلفائنا متخلين عنها من صميم قلوبنا .

كانت بطولة ، ولكن هل كانت ضرورية ؟ كانت عملا عظيما ، ولكن هل كانت حربا ؟

---

(٥) صحيفة معهد القوات المتحدة الملكي ١٩٣١ ، ص . ص . ٤٨٦ ـ ٥١٠ . الطريقة البريطانية في الحرب (١٩٣٢) ص . ص . ١٣ ـ ٤١ . حينا تقضي بريطانيا الى الحرب (١٩٣٥) .

وثمة سؤ ال اضافي ولكنه قائم بذاته ، وهو ما اذا كانت حتى قد أفادت حلفاءنا في المدى الطويل . هل ضحينا بأمننا ، هل ضحينا برهاننا على المستقبل من أجل ايماءة ؟ »(٦) .

لقد قاد فحص لحملات بريطانيا الرئيسية ، منذ أواخر السادس عشر ، ليدل هارت الى الاستنتاج أن « عادة رومانسية (مثل المبالغة في اسهام بريطانيا في انتصار الحلفاء في ووترلو) قد دفعنا لأن نخفي - وحتى عن أنفسنا - تراثنا ذا الطابع العملي في جوهره في ادارة الحرب » . وتأثير كتاب سير « جون سيلي » J. Seely ا لشهير توسع انكلترا واضح في مسح ليدل هارت التاريخي ، وكان منظرون بحريون آخرون ، وخاصة سير جوليان كوربيت J. Corbet قد قدموا قبل ذلك استراتيجية بحرية مماثلة ، وان تكن في بعض الاحيان أكثر حذرا . والحقيقة أنه يمكن تتبع نواة الفكرة رجوعا الى البيان القاطع لسير « فرانسيس بيكون » F. Bacon « ذلك الذي يسيطر على البحر يملك حرية كبرى ويمكنه أن يأخذ من الحرب الكثير أو القليل وفقا لما يشاء »(٧) .

ووفقا لما يذهب اليه ليدل هارت فان ممارستنا التاريخية كانت تقوم على أساس من الضغط الاقتصادي يمارس عن طريق قوة بحرية :

« لهذا الجسم البحري ذراعان ، الأولى مالية تتناول التدبير المادي والعسكري لامداد الحلفاء ، والأخرى عسكرية تتناول الحملات المحمولة بحراضد تجاوزات العدو المستهدفة للضرب . وبممارستنا كنا نحمي أنفسنا حينما كنا الأضعف ، واستخدمنا قوتنا حينما كان العدو هو الأضعف » .

ومضى ليشير الى أن القوة الاحتياطية البريطانية ربما أرسلت الى الساحل البريطاني في العام ١٩١٤ - بدلا من فرنسا - حيث كان يمكن أن تشكل تهديدا خطيرا للجناح الأيمن الألماني . ولكن - وهذا أكثر أهمية - بمجرد أن أوقف الغزو الأصلي ، كان ينبغي تحويل الجهد الحربي البريطاني الرئيسي الى مكان آخر . وكان يمكن بالمثل لحملة غاليبولي Gallipoli أن تنجح لو كانت القوات البالغ عددها ١٥٠ ألفا متاحة منذ البداية . وعلاوة على هذا أخطأت بريطانيا في الأخذ بأسلوب التجنيد الاجباري ، اذ كان يتعين عليها بدلا من ذلك أن تعطي أسبقية لتوفير الذخائر والامدادات لحلفائها . ولو كانت مثل هذه الاستراتيجية قد اتبعت لتعين على فرنسا أن تمتنع عن القيام بهجماتها المبكرة غير المجدية والمكلفة ، بينما كان سيصبح بالامكان اجبار دول المحور على مواجهة التهديد في البلقان ، الأمر الذي كان من شأنه اضعاف دفاعاتهم في الغرب . وكان سيصبح بالامكان بحلول العام ١٩١٨ محاصرة دول المحور عن قرب وكان من شأن الضغط الاقتصادي أن يبدأ في ايلامها سريعا . وحتى لو كان ذلك أسفر عن ورطة أدت بدورها الى صلح عن طريق المفاوضات ، لخرجت بريطانيا من ذلك كله أقوى بكثير وفي يدها قدراتها المعتادة في

(٦) صحيفة معهد القوات المتحدة الملكي ١٩٣١ ، ص . ص . ٤٨٧ - ٤٨٨ . الطريقة البريطانية في الحرب ، ص . ص . ١٤ - ١٥

(٧) فرانسيس بيكون مذكورا في كتاب مايكل هوارد : الطريقة البريطانية في الحرب : اعادة تقييم (١٩٧٥)

المساومة . واستنتج في النهاية أن ظروف الحضارة الصناعية جعلت عدونا أكثر تحملا للضغط الاقتصادي مما كان في الماضي ، وبسبب موقعنا الجغرافي الملائم تجاه ألمانيا كانت البحرية الملكية البريطانية أقدر على تطبيقها . « ومع ذلك فاننا ـ لأول مرة في تاريخنا ـ جعلناها سلاحا مساندا ، وأمسكنا بالسيف اللامع القاري الصنع »(٨) .

لا يمكن لمثل هذا التلخيص أن يصف لغة ليدل هارت المفعمة بالألوان التي تدعمها ثروة من الأمثلة التاريخية . ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن النقاط الجوهرية في مناقشة أو مصدر الهامه . فقد كان أثر الحرب العالمية الأولى هو الذي شكل تفكيره ، أكثر ما هو الدراسة التاريخية المتعمقة أو الاهتمام بالوضع الدفاعي المباشر . ويجدر أن نؤكد أن الفكرة القائلة بأنه يتعين على بريطانيا أن تعود الى « استراتيجيتها التقليدية » ، وبالتالي تفادي التوريطات العسكرية القارية ، قد سبق صعود هتلر الى السلطة بسنتين . كذلك فانه أعلن في وقت كانت فيه بريطانيا تقوم بدور الرائد لتطوير المكننة ، على حين أن خصمها المحتمل كان لا يزال ضعيفا نسبيا وممنوعا من اجراء التجارب على الدبابات على أرضه بمقتضى النصوص المانعة في « معاهدة فرساي » .

ويقدم « مايكل هوارد » ـ في تقييم جديد رائع لأصول « الطريقة البريطانية في الحرب » ـ نقدا لكبوح الجماح لاستدلالات ليدل هارت التاريخية :

« من قبيل الحاق الظلم بليدل هارت ـ سواء كمؤرخ أو كمحاور ـ أن نوحي بأن هذا التحليل للاستراتيجية البريطانية كان أكثر من مجرد قطعة من التأليف السياسي الممتاز ، معروضة بذكاء ، مصورة بانتقاء ، معنية بالتأثير في الرأي العام وسياسة الحكومة البريطانيين ، أكثر منها معنية بالقاء الضوء على تعقيدات الماضي بأية طريقة جادة أو دراسية(٩) .

وهذا صحيح بالطبع : فلم تكن القيمة المعاصرة لاستراتيجية ليدل هارت المفضلة متوقفة بصورة محدودة على دقة وسلامة سوابقها التاريخية . ومن الناحية الأخرى لا يوجد دليل يوحي بأن ليدل هارت لم يأخذ معطياته التاريخية فأخذ الجد تماما ، وبالاضافة الى هذا فان فكرته استمدت الكثير من قوتها النقاشية من الارتباط بتراث من المزعوم أنه كان تراثا قديما وناجحا . وبعبارة أخرى كان جزءا حيويا من فكرة ليدل هارت أن الاستراتيجية البريطانية في الحرب العالمية الأولى كانت انحرافا فريدا ، وكنتيجة طبيعية لذلك فان الاستراتيجية البحرية التقليدية كانت اختيارا متاحا لها .

ولهذا فان من المناسب أن نعيد فحص أوراق اعتماد هذه الاستراتيجية البحرية التقليدية ، محتذين حذو « مايكل هوارد » وغيره من الدارسين المعاصرين(١٠) .

---

(٨) صحيفة معهد القوات المتحدة الملكي ١٩٣١ ، ص . ص . ٥٠٠ ـ ٥٠٣ . الطريقة البريطانية في الحرب ، ص . ص . ٣٧ ـ ٤١ .

(٩) « مايكل هوارد » الطريقة البريطانية في الحرب ، ص . ٨ .

(١٠) انظر ايضا : Correlli Barnett, The collapse of British Power (1977); Paul M. Kennedy

أما دراسة « كوربيت » المستفيضة للتاريخ البحري البريطاني فقد أدت تواضعا واقناعا من موقف ليدل هارت . وبصفة خاصة فاله بينما اعترف كو البحرية ـ خصوصا في الدفاع عن الجزر البريطانية ، أدرك أنها نادرا ـ اذا ك مباشرة الى اسقاط قوة قارية (أوروبية) كبرى . وكان المثل الكلاسيكي على الفشل بهذا المعنى سر مثل انتصار نابليون في « أوسترليتز » وما تلا ذلك من سيطرته على أوروبا على الرغم من الهزيمة الحاسمة التي لقيتها الأساطيل الفرنسية والاسبانية في « الطرف الأغر » . وعلى النقيض من الانتصارات البرية ، فان الضغط البحري لم يصبح محسوسا الا على نحو بطيء بينما سبب ـ عرضا ـ ضيقا لملاحتنا نحن وللملاحة المحايدة حتى تولدت ضغوط من أجل التوصل الى صلح وسط .

علاوة على هذا لم يكن بالامكان أبدا أن تكفل حماية كافة مصلحة بريطانيا في صيانة توازن قوة في أوروبا وأمن الأراضي الواطئة بواسطة القوة البحرية وحدها . وباختصار فان بريطانيا كانت تطلب دائما حليفا قاريا (أوروبيا) أو حلفاء قاريين . وربما قنع هؤلاء في الظروف المواتية بمساعدة أو بقوة صغيرة من القوات البريطانية أو الهانوفرية او لكن لم يكن لبريطانيا ـ في حالة الطوارىء ـ بديل عن ارسال قوة طوارىء ضخمة الى القارة . وبعبارة أخرى كانت « الاستراتيجية البحرية » مكملة أو امتداد لاستراتيجية قارية (أوروبية) : ولم يكن بديلا عنها . وكما قدر « كوربيت » كانت القوة البحرية في التاريخ البريطاني في الغالب هي الذراع الأقوى ، ولكن المشكلة كانت دائما في تحقيق الانسجام بين العمليات البرية والبحرية كجزء من خطة استراتيجية متماسكة .

وكانت نقطة الضعف الكبيرة في مسح ليدل هارت التاريخي أنه افترض ببساطة فعالية الاستراتيجية البحرية حينما نفذت في صورة حصار بحري أو عمليات برمائية بهدف مساعدة حلفائنا عن طريق ضرب قسم من قوات العدو البرية . وفيما يتعلق بالحرب بسبب التجارة فان الدول الجزر أو الدول التي تعتمد على البحر في الحصول على سلع حيوية (كما كانت اسبانيا تعتمد على الفضة الاميركية في القرن السادس عشر) كانت من الناحية النظرية مستهدفة بدرجة كبيرة ، ولكنها عمليا أثبتت استحالة استغلال هذا الضعف .

أما الدول البرية الكبرى ـ سواء فرنسا في القرن الثامن عشر أو ألمانيا في اوائل القرن العشرين ـ فانها كانت تصاب بحرج ـ في أقصى تقدير ـ نتيجة فقدان تجارتها المحمولة بحرا ، ولم تكن تصاب بشلل . أما عن العمليات البرمائية البريطانية ـ عدا استثناءات مثل حرب شبه

«Mahan Versus Mackinde »: Two Interpretations of British Sea Powers'in Militavgeschichtliche mitteiluvgeu 1914, and N. H. Gibb's chapter «British Strategic Doctrine 1918-1939» in M.Howerd (ed) The/Theory and practice of War (cassell 1965; Praeger 1966).

الجزيرة Penin Sular War ، حيث كانت البرتغال تكفل قاعدة متينة ، وحيث رفض نابليون أن يقلل خسائره بالانسحاب ـ فان من الصعب العثور على أمثلة تسببت للعدو في القيام بتحويلات هامة في اتجاه تجارته . وكما يذكر مايكل هوارد صراحة فان الاستراتيجية البحرية البريطانية ـ في مقابل نجاحات قليلة ـ « أدت على مدى القرون الى سجل متصل من الاخفاقات المكلفة والمذلة » . وبين هذه الاخفاقات يذكر « لشبونة » في العام ١٥٨٩ ، « قادش » في العام ١٥٩٥ وثانية في العام ١٦٢٦ ، « بريست » في العام ١٦٩٦ ، « طولون » في ١٧٠٧ ، « لوريان » في ١٧٤٦ ، « روشفور » في ١٧٥٧ ، و « والشيرين » Walcheren في العام ١٨٠٩ : « وكلها رائعة في التصور ، وكلها تبعث على المزيد في التنفيذ » . ولا توحي الخبرة البرمائية البريطانية في القرن العشرين ـ من « الدردنيل » الى « النرويج » ، « داكار » و « دييب » ـ لا توحي بأنه كان هناك انخفاض في الاستنزاف الناتج عن « الاحتكاك » «Friction» الهائل الذي صاحب مثل هذه العمليات المنطوية على مخاطر . وبالاضافة الى هذا فان ادخال السكك الحديدية والطائرات أضاف الى مزايا القوة البرية في مواجهة مثل هذه العمليات . ويخرج « مايكل هوارد » باستنتاجين من هذا التحليل :

أولا ـ ان التزاما بدعم حليف قاري (أوروبي) في أقرب مسرح متاح ، على أوسع نطاق يمكن أن تتيحه المصادر المعاصرة ، وهو أمر بعيد تماما عن أن يكون غريبا عن الاستراتيجية البريطانية التقليدية ـ وكان مركزيا فيها بصورة مطلقة . ومن المؤكد أن المرونة التي تكفلها القوة البحرية جعلت من الممكن القيام بنشاطات أخرى أيضا : غزو استعماري ، حرب تجارية ، مساعدة لحلفاء في وسط أوروبا ، عمليات برمائية صغيرة : ولكن هذه النشاطات كانت مساعدة لقرارات كبرى على البر ، وقد استمرت كذلك طوال حربين عالميتين .

ثانيا ـ حينما لجأنا الى استراتيجية بحرية خالصة ، كان ذلك دائما نتيجة ، لا لاختيار حر ولا لحكمة سلفية ، وانما لقوة قاهرة . فكانت استراتيجية ضرورية أكثر منها استراتيجية اختيار استراتيجية « بقاء أكثر منها استراتيجية انتصار »(١١) .

عندما يعود المرء الى النظر في انتقادات ليدل هارت القاسية للاستراتيجية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها ، ترد على الذهن فكرتان عامتان . أولاهما أنه شديد الاعتماد على الادراك المتأخر ومن ثم فانه غير منصف لأفراد مثل سير « هنري وسلسون » الذي لم يكن بامكانه أن يعرف أن قرارات اتخذت في العام ١٩١١ من شأنها أن تؤدي إلى حملتي « السوم » و « باسشنديل » .

ثالثاً ـ أنه مفرط في التبسيط حين يفسر التحول في الاستراتيجية البريطانية (وكذلك في المسألة الأوسع ، مسألة طابع الحرب العالمية الأولى) ، في ضوء ما يعتقد هو أنه الفلسفة

---

(١١) « م . هوارد » : الطريقة البريطانية في الحرب ، ص . ص . ٩ ـ ١٥ .

العسكرية السائدة الناشئة عن أفكار « كلاوز فيتز » الشريرة ، والتي نشرها فوش Foch وغيره بطريقة أشد فجاجة وأكثر خطورة . ودون ان نحتاج الى استبعاد مثل هذا التأثير كله ، ينبغي ان يوضح في سياق البيئة القائمة السياسية ، الاجتماعية ، الاقتصادية ، وفوق كل شيء التكنولوجية .

لقد خرج ايفان بلوخ Evan. S. Bloch المصرفي البولندي بالاستنباط الصحيح من تجربته الحديثة في كتاب « الحروب الحديثة والأسلحة الحديثة » (١٩٠٠) حينما دلل على أن القوة الأكثر تفوقا في الدفاع مستقبلا ستؤ دي الى استبعاد حدوث انتصارات حاسمة من النمط النابليوني ، وأن العمليات ستتحول الى حرب استنزاف طويلة . بالنسبة اليه كان الدرس واضحا : فالحرب بين الدول الصناعية الكبرى لم تعد ممكنة الاستمرار كأداة للسياسة ، ولكنه لا يكاد يكون من المعقول أن نتوقع من محترفين مثل « شليفين » Schlieffen قبول مثل هذا الحكم البغيض .

ويمكن القول ـ علاوة على هذا ـ بأن السياسة التي انتهجت ازاء ألمانيا من جانب وزارة الخارجية البريطانية وكذلك من جانب وزارة الحرب خلال بدايات القرن العشرين كانت التزاما كاملا بالاستراتيجية التقليدية التي صممت لغاية الحفاظ على توازن قوة في أوروبا . وكان الأمر ببساطة أن بريطانيا ـ خلال الفترة من العام ١٨١٥ حتى صعو. القوة الألمانية الصناعية والبحرية ـ تمتعت بفترة ارتياح من قلقها التقليدي . وحتى لو أن نزاع ألمانيا مباشر ـ كما ذهب ليدل هارت في محاضرته ـ كان مع فرنسا وروسيا ، فما الذي كان يمكن أن يحدث لو أنها اجتاحت أوروبا الغربية باسرها وحولت فرنسا والأراضي الواطئة الى توابع لها ؟ لقد كان من المشكوك فيه كثيرا أن تستطيع القوة البحرية وحدها عندئذ أن تنقذ بريطانيا من وضع مثل[١٢] .

أما بالنسبة للاستراتيجية التي انتهجت بالفعل ـ وعلى الرغم من أن الأحداث أثبتت أن المخططين كانوا مخطئين في بعض التفاصيل في العام ١٩١٤ ـ فانها كانت تقوم على أساس افتراضات معقولة للغاية . وكانت هذه الافتراضات أن المانيا ستمضي مباشرة نحو نصر سريع وحاسم في الغرب وأن « قوة الحملة البريطانية » ـ شرط أن تصل في الوقت المناسب ـ يمكن أن تميل الموازين لمصلحة فرنسا . وباعتراف الجميع فان مخططي فترة ما قبل الحرب استبعدوا التدخل عبر بلجيكا ، جزئيا على أساس الافتراض الزائف بأن المانيا أما ستحترم حيادها أو ستقتصر ـ على الأقل ـ في تقدمها على جنوب « الموز » meuse . ولكن كانت هناك أيضا تلك المشكلة العقدة ، مشكلة التزام بلجيكا الجازم بحيادها ، وبالتالي استبعاد كل تخطيط أساسي على مستوى الأركان . وفي النهاية ، وبمجرد اندلاع الحرب رفضت قيادة البحرية أن تضمن أمن خط مواصلات الى بلجيكا يتميز عن الطريق الأقصر والذي يسهل الدفاع عنه . الطريق عبر القنال الانكليزي[١٣] .

---

(١٢) بول . م . كيندي ، المصدر المذكور ص . ص . ٤٥ ـ ٥٢ . انظر ايضا :
Samuel R. Williemson Jnr «The Politics of Grand Strategy (Harved V. P. 1969; N. W. Summerton The Development of British Military Planning for a War Against Germany , 1904-1914'
(اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة لندن ، ١٩٧٠)

لم يكن ليدل هارت واعيا بهذه الاعتبارات ، ولكنه في رد على ناقد لمحاضرته ، سلم بأن ارسال « قوة الحملة البريطانية » الأصلية لم يكن هو الخطأ الذي لا يمكن اصلاحه ، انما كان بالأحرى الالتزام الكلي بالجبهة الغربية الذي تم في العام ١٩١٥ . واذا نظرنا بأثر رجعي فان لهذه الزاوية للنظر كثيرا من المزايا : فقد كانت نفقات الاستنزاف بين العام ١٩١٥ و١٩١٨ باهظة للغاية . ومع ذلك ، ماذا كان يمكن عمله غير هذا في ذلك الوقت مع وجود الانطباع بأن فرنسا تقترب من الانهاك وأن روسيا على حافة الهزيمة ؟ عندئذ ، كما كان الحال في الثلاثينات ، كان ليدل هارت ، واولئك الذين يفكرون مثله ، عازفين عن مواجهة الحقيقة البغيضة القائلة بأن حليفا يتوحد لضغط شديد لن يرضى بسياسة « مسؤولية محدودة » من جانب بريطانيا . بالاضافة الى هذا لا يبدو أنه كان يدرك الفرق المهم بين القرار الاستراتيجي وأساليب تنفيذه . وبعبارة أخرى ينبغي أن يكون من الممكن تبرير القرارات الخاصة بارسال « قوة الحملة البريطانية » الى فرنسا في العام ١٩١٤ ، ومد أجل هذا الالتزام الى العام ١٩١٥ ، دون أن يعني ذلك الموافقة على الاستراتيجية والتكتيكات العملياتية لحرب الاستنزاف التي مورست طوال السنوات الثلاث الأخيرة للحرب[١٤] .

على أنه مهما كان مدى اهتزاز الأسس التاريخية للطريقة البريطانية في الحرب ، لا يزال يمكن القول بأنها كانت توفر حلا ممكنا عمليا لمشكلات بريطانيا الدفاعية في الثلاثينات . ومع ذلك فانه يمكن اثارة عدة نقاط ضد هذه القناعة . ففي المحل الأول أدت هزيمة ألمانيا في العام ١٩١٨ الى اشاعة الغموض لفترة قصيرة فحسب حول مشكلة توازن القوة في وسط أوروبا . بحيث كانت روسيا تعاني مخاض الثورة وفرنسا تزداد ضعفا على الدوام بفعل مجهودها الهائل أثناء الحرب العالمية الأولى . كانت المسألة مسألة وقت فقط حتى تتمكن ألمانيا بقوتها الصناعية من أن تصبح هي المسيطرة مرة أخرى ، بغض النظر عن اللون السياسي لحكومتها . وما ان يحدث هذا حتى يصبح اشتراك بريطانيا انشط في الشؤون الاوروبية الغربية ـ بما في ذلك التزام بارسال قوات اليها ـ ضروريا أكثر منه في أي وقت . ومن سوء الطالع أن اجابة « فوش » الشهيرة ـ عندما سأله سير « هنري ويلسون » ما هي أصغر قوة يمكن ان تفيد في مساعدة فرنسا عمليا ـ « جندي نفر واحد ، وأن نعني جيدا بأنه يسقط قتيلا » ، كانت هذه الاجابة لسوء الطالع لا تزال في محلها ، على الرغم من أن الفرنسيين لم يبدأوا من جديد ! الا بعد « ميونخ » ـ ـ وقد فرغ صبرهم في طلب جهد بالدم من جانب بريطانيا . وباختصار فان الاستراتيجية المرنة ذات الاتجاه البحري التي كان ينادي بها ليدل هارت « كانت تعتمد لنجاحها على حليف قاري (أوروبي) يجري اعداده لقبول الآلام التي يتحاشاها البريطانيون »[١٥] .

---

(١٤) M. Howard : The British Way in Warfare, P. 19

(١٥) M. Howard The Continental Commitment, PP. 58, 176.

انظر ايضا : S. Orwell and I. Angus (eds) The Collected Essays, Journalism and Letters

وعندما يتحول المرء من المجالات السياسية الى المجالات الاقتصادية والاستراتيجية تظهر عواقب الطريقة البريطانية في الحرب بالقدر نفسه . فلم تكن ألمانيا تعتمد بصورة حرجة على تجارتها فيما وراء البحار ، وبالتالي لم يكن يمكن لحصار بحري يفرض عليها أن يكون سلاحا حاسما ضدها إلا حينما يستخدم مرتبطا بحصار بري ، وكوسيلة ضغط اضافية للهجمات المتصلة للجيوش(١٦) .

ولقد استطاعت ألمانيا في كلا الحربين أن تواجه الحصار البحري وأن تطيل أمد جهدها الحربي على الرغم من عوامل معاكسة كبيرة وذلك بتبادل التجارة مع جاراتها المحايدة ، وصنع عدد كبير من البضائع البديلة ، وفوق هذا كله باكتساح مناطق شاسعة وقيمة من أوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية ولا يعني هذا كله بطبيعة الحال أن الحصار البحري لم يشكل في المدى الطويل ، وخاصة في الحرب العالمية الأولى ! اسهاما مهما في النتيجة النهائية . ولكن الأمر الذي لا يحتاج الى تأكيد هو أن حملات الضربات القوية البرية على جبهته قد استنزفت القوة البشرية والاقتصاد ، والروح المعنوية لدول المحور بمعدل أعلى بكثير مما فعله الحصار البحري في أي وقت(١٧) .

وكان الوجه الآخر من العملة أن بريطانيا ـ كدولة جزيرة تعتمد بصورة حرجة على الواردات التي تأتيها بحرا للحفاظ على وجودها ذاته ،ـ وبحكم كونها بعيدة عن أن تكون قادرة على استغلال مزايا الجغرافيا والقوة البحرية ضد عدو قاري مستهدف ـ كانت هي نفسها مستهدفة بدرجة عالية لضغط بحري (في شكل غواصات) في كلا الحربين . وكما يستنتج دكتور بول كينيدي عن حق : « اذا كانت الحرب العالمية الثانية قد فعلت شيئا ـ خلاف أنها صورت الانهيار الكلي في فاعلية السفن الحربية وحدها ـ فهو أنها حطمت أسطورة فعالية « الطريقة البريطانية في الحرب » في مواجهة دولة أخضعت نصف قارة » .(١٨) .

علينا الآن ان ننظر في جانب آخر من اطروحة ليدل هارت عن الطريقة البريطانية في الحرب ، وأعني الى أي مدى كانت أصلية . وأي استقبال لقيته في أوائل الثلاثينات . ولقد تمت الاجابة فعلا على النصف الاول من السؤ ال بصفة جزئية : كان ليدل هارت أصليا فقط في تصريحه الأميل للتطرف والأحادي الجانب عن قضية البحرية . وحتى لا نعود الى أبعد من العام ١٩٠٠ ، فان « كوربيت » ، « ايشر » Esher ، هانكي » Hankey ، وسير « هربرت ريتشموند » A. Richmond عبروا جميعهم عن وجهات نظر مماثلة ، ومن العسير ـ أن تصيبنا الدهشة اذا كانت

---

of George Orwell. (Secher and Warbuy : Harcout Brance 1968) II PP. 246- 249

(١٦) P. MKennedy. المصدر المذكور ، ص ٥١

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

نظرة استراتيجية عامة كهذه تتمتع بشعبية في الأوساط البحرية .

وتقدم المناقشة التي دارت في معهد القوات المتحدة الملكي في أعقاب محاضرة ليدل هارت يوم ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ أنواعا متعددة ومثيرة للاهتمام من الانتقادات والتعليقات . بدأها كابتن « التام » Altham بأن قال أنه كضابط بحري كان يميل بطبيعة الحال الى تأييد فكرة الضغط الاقتصادي ، ولكنه تساءل عما اذا كان من الحكمة تعميم دروس التاريخ . فقد كان من شأن الضغط الاقتصادي في الحرب العالمية الأولى - كبديل عن مساعدة أكثر مباشرة وفورية لحلفائنا - أن يكون أبطأ كثيرا في احداث تأثيره : وكان من شأن فرنسا وحلفائنا الأصغر أن يخضعا في مرحلة مبكرة ، ولكنا اضطررنا لأن نخوض الحرب وحدنا .

وبعد أن كان الأدميرال سير « هربرت ريتشموند » قد عبر عن اتفاقه العام مع المحاضرة ، أشار « العقيد ف . الستون » الى أن الانهيار الفرنسي في آب (أغسطس) ١٩١٤ ترك الحكومة البريطانية ولا بديل أمامها عن أن تلقي بكل ثقلنا كيفما اتفق في فرنسا .

وبين العقيد « ل . ب . ايفانز » أن المحاضر قد تجاهل العامل الحيوي الخاص بالجيوش الوطنية : « اذا كان بلد ما يملك جيشا وطنيا وبدأ يحارب به فانه يخاطر بمجموع رجال البلد ، فاذا ما هزم (هذا الجيش) انتهى (هذا البلد) . . . فهذه ليست هي الجيوش التي حارب بها « مارلبورو » . « لقد اضطرنا الخوف الى دخول فرنسا : فلم يكن باستطاعتنا قبول المخاطرة بدخول الغواصات الألمانية موانىء القنال (الانكليزي) .

أما العميد الجوي « و . ف . كامنيس » فقد تحدى اشارة ليدل هارت القائلة بأن بريطانيا كانت تملك في العام ١٩١٥ خيارا حقيقيا بالانسحاب من الجبهة الغربية وتركيز جهدها الرئيسي في مكان آخر ، ومن المؤكد أنه كان علينا أن نضع في الاعتبار الشعور السائد في هذا البلد وفي فرنسا وألمانيا في ذلك الوقت .

« اعتقد أن السبب الرئيسي في أننا تمكنا من كسب الحرب كان لأن الفرنسيين أحسوا بالفعل باننا نقف الى جانبهم بحزم حتى آخر قطرة دم اذا لزم الأمر ، وبأننا لم نكن مشغولين فحسب بصنع الذخائر » .

وأشار اللواء « ج . ماك . م . والتر » الى أنه لو كانت بريطانيا قد حاولت أن تنفذ استراتيجيتها التقليدية ، استراتيجية الحصار بوصفها أداتها الرئيسية في الحرب في الأعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ لكانت تعرضت لمتاعب خطيرة مع الولايات المتحدة . وأثار الرائد « ج . ا . توماس » نقطة أخرى كان من شأنها أن تكون مناسبة بعد ذلك في أواخر الثلاثينات . وقد ذكر محقا أن فرنسا كانت قد صممت ونفذت في العام ١٩١٤ خطتها الهجومية (الخطة ١٧) دون أن تعول على تأييد من الفرق الستة المكونة « لقوة الحملة البريطانية » . « كان من الواضح أن المشكلة بالنسبة

للحكومة البريطانية ، التي تملك جيشا من ست فرق ، كانت تعليم الاستراتيجية للفرنسيين ، الذين يملكون جيشا قوامه مليون رجل » .

وفي النهاية اتخذ الرئيس - « لورد آمثيل » Lord Ampthill الذي كان قد ساعد « لورد روبرتس » Lord Roberts في حركته تأييدا للخدمة الوطنية قبل العام ١٩١٤ - اتخذ الخطوة غير العادية حين قرر أنه يختلف اختلافا كليا مع المحاضر : كانت مقدمات ليدل هارت خاطئة ، وكذلك قراءاته للتاريخ . « الحقيقة أننا كنا نفعل تماما الشيء نفسه الذي فعله ملوكنا وقادتنا في أيام « آجينكورت » Agincourt ، حملات « مارلبورو » وحملة « شبه الجزيرة » ولكننا كنا نفعله بأعداد أكبر من الرجال » .

وهناك نقتطان في رد المحاضر جديرتان بالذكر فقد سلم ليدل هارت بالنقطة التي أثارها الكولونيل « الستون » والقائلة بأنه لم يكن هناك في الحقيقة بديل عن ارسال « قوة الحملة البريطانية » الى فرنسا أو بلجيكا بمجرد اندلاع الحرب ، ولكنه مع ذلك لم يعدل نقده المرير لسير « هنري ويلسون » لأنه فعل هذا الشيء نفسه أو ذلك عندما أعيد طبع محاضرته في كتاب . فهل من الفظاظة أن نشير الى أن عمل هذا كان من شأنه أن يحطم مسخا تاريخيا ؟ ثانيا ، ان ليدل هارت قبل أيضا النقطة التي أثارها الرئيس والقائلة بأنه لو أن بريطانيا كانت تملك جيشا مبنيا على الخدمة الوطنية قبل العام ١٩١٤ لكان هناك احتمال كبير بأن تنكمش ألمانيا وتخرج من الحرب . ومع ذلك فقد عارض بمرارة الأخذ بأي شكل من أشكال التجنيد الاجباري في الثلاثينات ، ولم يغير أبدا رأيه القائل بأن ادخال هذا النظام (في صورة محدودة) في ربيع العام ١٩٣٩ كان تخريبا هائلا(١٩) .

ويتضح أيضا افتقار ليدل هارت النسبي الى القدرة على تقبل النقد بالنسبة للنقاط التي استقر رأيه بشأنها في مذكرته اليومية في اليوم الذي ألقى فيه المحاضرة :

تراأس « لورد آمثيل » Ampthill وكانت في انتظاره مفاجأة ، لأنني هاجمت كل سياستنا الخاصة بتكوين جيش وطني واستخدامه في فرنسا . أيدني الأميرال « ريتشموند » في خطبة قديرة . كذلك فعل جميع البحارة ، وجاء النقد الواهن الوحيد من جانب الجنود الذين لم تكن لديهم حجة الا حجة تأثير ذلك على مشاعر الفرنسيين . وعندئذ وقف « آمثيل » وأعلن أنه يختلف تماما معي . ... الا أنه لم يقدم حجة واحدة واكتفى بالتأكيد - دون ما أساس تاريخي - بأن الحرب الأخيرة كانت أول حرب تخوضها جيوش وطنية ، وأننا لم ننفصل عن تاريخنا الماضي(٢٠) .

وعلى النقيض من الاستقبال العدائي لمحاضرة ليدل هارت الأصلية ، تكشف ملفات مراسلاته أن كثيرين من الجنود البارزين وافقوه على أنه ينبغي ألا تسمح بريطانيا مرة أخرى أبدا

---

(١٩) صحيفة معهد الفوات المتحدة الملكي ١٩٣١ ، ص . ص . ٥٠٣ - ٥١٠ .

(٢٠) اوراق ليدل هارت ١١/ ١٩٣١/١ ، قارن الذكريات المجلد الاول ، ص . ص . ٢٨٤ - ٢٨٥ .

لجيشها بأن يتورط في حرب قارية (أوروبية) . ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء سبق التعبير عنها في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ، قبل أن يصبح الموضوع واحدا من أكثر جوانب مسألة اعادة التسلح اثارة للجدل .

وقد كتب العقيد « ر . م . راينسفورد » R. M. Raynsford رئيس تحرير مجلة القوات المحاربة Fighting Forces ـ كتب صراحة في وقت مبكر يرجع الى العام ١٩٢٨ أنه يتعين على ليدل هارت أن يركز على دعوته الملحة الى المكننة ، وأن يدعه من الدروس التاريخية : « لا نريد مقارنات مع الماضي لتأكيد الحقيقة الجوهرية القائلة بأنه « لن تكون وينبغي ألا تكون هناك « سوم » و « باسشنديل » أخرى في التاريخ » .

وعبر جنرال سير « ايفور ماكسي » عن اتفاقه مع الكتاب (الطريقة البريطانية في الحرب) ككل : « انني أكثر تأييدا لنظرية ليدل هارت مني لنظرية « كلاوزفيتز » في الحرب . ولكنك ـ يا صديقي ـ لا تفهم السياسيين . وأهنئك على هذا الا تحاول أن تفهمهم » . كذلك كان جنرال سير « جون برنيت ـ ستيوارت » متفقا من صميم قلبه على آراء ليدل هارت الاستراتيجية ، ولكنه وبخه على محاولته تحقيق كسب عن طريق الحط من قدر القيادة العليا » . وفي العام ١٩٣٦ كتب اللواء « فوللر » ـ الذي كان قد تقاعد آنذاك ـ أنه فقد اهتمامه بالجيش لأنه لا توجد نية لتحديثه : « أنني أوافق تماما على أننا ينبغي ألا نستخدمه ـ تحت أية ظروف ـ في حرب قارية ، لأننا ـ اذا فعلنا ـ لن نثبت الا أننا نشكل ناديا للانتحار ـ »[٢١] .

ومع ذلك فقد كتب أشد الانتقادات عمقا وحدة لكتاب الطريقة البريطانية في الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ ، حينما نشر ليدل هارت ـ عن غير ترو ـ طبعة جديدة من الكتاب في منتصف حرب شاملة دون تنقيح محتويات الفصل المتعلق بالألقاب . وقد راجع « جون أورويل » الكتاب في مجلة نيو ستيتسمان New Statesman فتحدى أولا وصف ليدل هارت و « كلاوزفيتز » بأنه عبقرية شريرة وأن نظرياته قد تسببت للعالم في الانغماس في حرب غير محدودة في العام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

« هناك شيء غير مقنع في تتبع أثر تغير تاريخي على اساس نظرية يضعها فرد ، لأن نظرية ما لا تكتسب أساسا لها ما لم تؤيدها ظروف مادية » .

ومع ذلك فقد كان عيب ليدل هارت الرئيسي في نظر « أورويل » هو عدم استعداده للاعتراف بأن الحرب غيرت شخصيته :

---

(٢١) العقيد « ر . م . راينسفورد » الى ليدل هارت في ٢٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٨ ، سير ايفور ماكسي الى ليدل هارت في ٤ ايلول ١٩٣٢ ، «برنت ـ ستيوارت» الى ليدل هارت في ١٤ايلول ١٩٣٢ . انظر ايضا المحادثة مع «برنيت ـ ستيوارت » يوم ٢٦ اب (اغسطس) ١٩٣٥ (١١/ ١٩٣٥/ ٩٠) . « فوللر » الى ليدل هارت في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ .

« ان استراتيجية « اهداف محدودة » تعني ضمنا ان عدوك هو الى حد كبير شخص من نوعك أنت ، وتريد أن تحصل منه على أفضل ما فيه ، ولكن ليس من الضروري لسلامتك أن تبيده ، أو حتى أن تتدخل في سياساته الداخلية » .

واتخذ أورويل في العام ١٩٤٢ موقفا على غرار مواقف تشرشل ، فذهب الى أن التوصل الى صلح وسط مع ألمانيا مستحيل :

يعتمد بقاؤنا على تدمير النظام السياسي الألماني ، الأمر الذي يعني ضمنا تدمير الجيش الألماني . وليس من الصعب أن يشعر المرء بأن « كلاوزفيتز » كان محقا في أنه كان يلقننا : « عليك أن تركز ضد العدو الرئيسي الذي ينبغي هزيمته أولا ، وأن « القوات المسلحة تشكل الهدف الحقيقي » على الأقل في أي حرب تنطوي على قضية ايديولوجية أصلية »[٢٢] .

ومن المناسب أن أختتم هذا الجزء بوجهات نظر مراسل مدني كان يشعر بأن ليدل هارت لم يذهب بعيدا بما فيه الكفاية نحو النزعة السلمية . فقد علق دكتور « ايزمي وينغفيلد ستراتفورد » Esmé Wingfield — Stratford وكان مؤرخاً وزميلاً سابقا في الكلية الملكية بكيمبردج ـ على البراهين المقدمة في كتاب الطريقة البريطانية في الحرب ، فذهب الى أنه كان من قبيل الكوارث لأي شخص له مكانة ليدل هارت البارزة ، وربما نفوذه ، أن يشجع الفكرة القائلة بأن حربا أخرى من أي حجم كانت أمرا يمكن حتى تصوره ـ فقد كان من شأنها أن تدمر الحضارة . فكيف كان باستطاعة ليدل هارت أن يعتقد أنه ما أن تبدأ الحرب حتى « يمكنك أن تجعل منها شأنا رقيقا نبيلا من شؤون القرن الثامن عشر لاقتطاع مساحات صغيرة من الأقاليم والاحتفاظ بها للحصول على مقابل ؟ واذا كان الناس عقلاء الى هذا الحد فانهم لا يمكن أن يفكروا بطريقة جنونية كهذه لتسوية خلافاتهم . ان قوى الحقد الجماعي والايحاء الجماعي اللذين ينتجان الحرب ستحرص هي نفسها ـ على أن تجري الحرب الى أقصى مدى . . حرب المستقبل هذه ـ حيث هناك أهداف عسكرية وشعب يفوز ، وكل ما عدا ذلك من أمور يتغلغل ويتخفى فيها صديقنا القديم « كلاوزفيتز » ـ هي ببساطة (أيضا) ذات بعدين »[٢٣] .

لقد مس « وينغفيلد ـ ستراتفورد » بالتأكيد موضعا حساسا هنا ، لأن ليدل هارت كان مفتونا للغاية بالشؤون العسكرية ، وخاصة التكتيك ـ الى حد يحول بينه وبين الوصول بمشاعره الانسانية الى نتيجتها المنطقية . وارتباط ليدل هارت الوثيق بوجهة نظر الجندي المحترف واضح في مذكرته عن حديث دار بينه وبين جنرال « فون بلومبرغ » Von Blomberg ، الذي أصبح فيما بعد

---

(٢٢) المقالات والكتابات الصحفية والرسائل المجمعة لجورج اورويل ، المصدر المذكور . المجلد الثاني ، ص . ص . ٢٤٦ ـ ٢٤٩ . انظر ملف ليدل هارت عن اورويل .

(٢٣) « إ . وينغفيلد ـ ستراتفورد » الى ليدل هارت ، ١٣ ايار (مايو) ١٩٣٢ . وهو حين وصف المفهوم التقليدي للحرب المحدودة بأنه «ذو بعدين » كان يشير بالطبع الى الآثار الثورية للقوة الجوية .

وزير حرب لهتلر ، وهو حديث دار في جنيف في العام ١٩٣٢ .

« لأنه كان جنديا محترفا قال أنه يؤيد نزع السلاح لأن شأنه ـ عن طريق استعادة جيوش صغيرة تسهل ادارتها ـ أن يعيد الى الحرب فن القيادة ـ « النبالة » ، وروح المحارب الحقيقية . (كان يتأجج بالحماس ـ كألماني حقيقي ـ وهو يتحدث عن هذا الاحتمال المجيد)[٢٤] .

كان كتاب شبح نابليون مبنيا على محاضرات « ليزنولز » Lees Knonls التي ألقاها ليدل هارت في « ترينيتي كولدج » Trinity College « كيمبردج » . قرب نهاية العام ١٩٣٢ ، والتي نشرها في العام ١٩٣٤ وفي السنة التالية أبلغ ليدل هارت أحد المراسلين بأن هذا الكتاب ـ على الرغم من كونه أصغر كتبه ـ هو الكتاب الذي يقدره أكثر من غيره : « أعتقد انني وضعت فيه من الأفكار أكثر مما وضعت في أي كتاب غيره »[٢٥] . والحقيقة أنه يمكن اعتبار هذا الكتاب لا كعمل من الأعمال الدراسية التاريخية ، انما كجدل عنيف مكتوب بطريقة رائعة يبلغ فيه ليدل هارت ذروة الفكرة التي طالما دعا لها ، وهي الفكرة القائلة بأن أفكار « كلاوزفيتز » الشريرة ، المبنية على الحرب الشاملة التي تميزت بها سنوات نابليون الأخيرة ، كانت هي المسؤولة عن سلب الاستراتيجية في الحرب العالمية الأولى .

وعلى النقيض من « كلاوزفيتز » يمتدح ليدل هارت المفكرين الأكثر افادة ، مثل « دي ساكس » de Saxe ، « بورسيه » Bourcet « غيبيرت » Guibert و « جوميني » Jomini ، الذين كانوا يلقنون عن قيمة المفاجأة والحركة ، والذين يمكن اعتبارهم روداه . وقد علّق « ت . إ . لورانس » على جملة وردت في مسودة الكتاب وتقول « هناك حاجة الى عقلية تنتمي للقرن العشرين لتقدير الأهمية الكاملة لاقتراحاته (اقتراحات « ساكس » : « تبدو هذه الجملة كما لو كانت قد انتظرتك لتنطق بها ـ حقيقة تماما ، ولكنك لا تعنيها ؟ . » وعلى نحو مميز لليدل هارت فانه يتخذ صف « جوميني » ضد رئيس أركان نابليون « بيرتييه » Berthier ، مغفلا نواقص الأول المهنية والشخصية . وكتب عن غيرة « بيرتييه » من « جوميني » قائلا : « يمكن أن مثل هؤلاء الرجال يكونون ـ دائما ـ أكثر قلقا على التنفيس عن حقدهم ، وعلى احباط منافس محتمل من مساعدة وطنهم »[٢٦] .

ولا يملك المرء الا أن يشعر أن ليدل هارت كان يتميز ضد « كلاوزفيتز » بأعمق معنى للتمييز . فهو يكتب طوال الوقت كما لو كان الأخير قد نادى بحرب غير محدودة دون أي بديل

---

(٢٤) ١١/١٩٣٢/٩ .

(٢٥)ليدل هارت الى « ج . نيكولس » ، ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٣٥ .

(٢٦) انظر شبح نابليون (١٩٣٣) ص . ص . ٦٦ ـ ٧٣ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ت . إ . لورانس الى سيرته (١٩٦٣) ص . ص . ١٢٤ ، ١٧٣ ـ ١٨٣ .

آخر ، على حين أنه حتى القراءة السطحية تظهر أن نية « كلاوزفيتز » كانت خلاف ذلك تماما : أعني ان الحرب الشاملة تأتي في نهاية مسلسل العنف بين الدول . وقد أظهرت حملات نابليون أن الأمم الحديثة حاملة السلاح قادرة على خوض مثل هذه الحروب « الشاملة » وأنه من غير المرجح ألا تقع حروب مماثلة في المستقبل . ولكن الحرب الشاملة كانت « مثالية » بالنسبة لـ « كلاوزفيتز » بالمعنى الفلسفي وحده : فان عباراته المتكررة التي تعني أن الحرب ينبغي اخضاعها للسياسة وأنها في الحقيقة مجرد « استمرار لسياسة الدولة مع خليط من وسائل أخرى » تشير الى كذب تأويلات ليدل هارت الخاطئة . وفي مواضع عديدة حيث ينتقده ليدل هارت ، فان « كلاوزفيتز » انما يصف ببرود ودقة ماينحو الى الوقوع في الحرب . ويتخلى الاول عن اللعبة حيث يلاحظ : « ربما كان من الحكمة تفادي الضرر لو أن كتابه نظر اليه في ضوء ما يدل عليه عنوانه على وجه التحديد ـ على أنه مقال في طبيعة الحرب ، وليس كدليل عملي لادارة الحرب » . ومع ذلك فان هذه هي بالتحديد الغلطة التي يقع فيها ليدل هارت بصفة متكررة .

بالطبع لم يكن هدف ليدل هارت الوحيد البرهنة على خطأ الأسلوب « الكلاوزفيتزي » في التفكير ، وهو الأسلوب الذي زعم أنه مسؤول عن اخفاق الحرب العالمية الأولى . فهو في الفصلين الأخيرين : « قانون البقاء » و « تحرير الفكر » قد دعا الى صياغة « نظرية صحيحة في الحرب » :

« ان من قبيل التفكير البديهي فحسب أن نقول أنه ليس باستطاعتنا أن نأمل في تكوين عقيدة صحيحة في الحرب الا من الدروس الصحيحة .

والدروس الصحيحة لا يمكن أن تكون صحيحة الا اذا بنيت على وقائع صحيحة . والوقائع لا يمكن أن تكون صحيحة الا اذا اختبرناها بروح علمية خالصة ـ أي بتصميم متجرد تماما على التوصل الى الحقيقة مهما كانت جارحة لكبريائنا . لقد اعترف عدد غير قليل من المؤرخين العسكريين بأنهم يشعرون بأنهم مجبرون ـ بحكم المركز أو المصلحة أو الصداقة ، على أن يكتبوا أقل ما يعرفون أنه الحقيقة . وما أن يستسلم انسان لهذا الميل حتى تبدأ الحقيقة في الانزلاق بعيدا كما تتسلل الماء من انبوب تملؤه الثقوب ـ أن يصبح أولئك الذين يريدون أن يتعلموا كيف يديرون حربا في المستقبل في وضع من يحجمون عقولهم ـ دون أن يدروا ـ في حمام فارغ من الماء » .

واختتم بنداء مؤثر يدعو الى ادخال روح علمية جديدة في السعي الى الحقيقة داخل الجيش : « يتوافق الولاء للحقيقة مع الولاء الحقيقي للجيش في فرض نزاهة جديدة عند فحص حقائق التاريخ ومواجهتها . وكذلك تواضع جديد »[٢٧] .

فأي نموذج لهذه الصفات الجديرة بالاعجاب أفضل من « كارل فون كلاوزفيتز » ؟ .

---

(٢٧) شبح نابليون ، ص . ص . ١٢٤ ، ١٧٣ ـ ١٨٥ .

تعكس هذه الأجزاء الأخيرة من كتاب شبح نابليون بأمانة انشغال ليدل هارت المسبق بالسعي الى « الحقيقة » كما ينعكس في عدد لا يحصى من المواد في أوراقه الخاصة المتعلقة بتلك السنوات . وقد شكل النصف الأول من الثلاثينات « المرحلة الفلسفية » له بالمعنى الصحيح : انها الفترة الوحيدة في حياته العملية التي كرس فيها جانبا كبيرا من وقته لكتابة أفكار وتأملات مجردة »[٢٨] .

وهذه التأملات ـ المعبر عنها ببساطة ـ مكرسة لموضوعين يتعلق كل منهما بالآخر : الحاجة الى البحث عن الحقيقة ونشرها بروح من التجرد العلمي ، واستحالة عمل أي من هذين العملين في الجيش البريطاني . فماذا كانت جذور هذا الهاجس التسلط ولماذا برز هكذا في تلك السنوات ؟ .

ربما تكمن الاجابة في تورط ليدل هارت الانفعالي في اواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات في البحث عن ـ ونشر ـ التاريخ العسكري الحقيقي للحرب العالمية الأولى[٢٩] . والتي تشكل بالتأكيد أكبر موضوع واحد يغطيه « أرشيفه » الضخم . ومما لا يثير الدهشة أن تحقيقاته الدؤوبة قد كشفت عن قدر هائل ـ ومقبض ـ من الفساد : فلم تكن الأخطاء والاخفاقات الفردية تكسى بغطاء براق فحسب ، انما كانت الأحداث الهامة تزيف تزييفا كاملا أيضا . وكان الشيء الذي صدم ليدل هارت بشكل خاص الطريقة التي كان يبدي بها أشخاص كثيرون في السلطة لا مبالاة أو عداء صريحا ازاء تسجيل الوقائع تسجيلا سليما ، وكذلك الجبن والولاء الزائف من جانب اولئك المؤرخين الذين اكتشفوا الحقيقة ولكنهم رفضوا نشرها . وكان الذي يحتل المركز الرئيسي بين هؤلاء المجرمين الأخيرين ، في أعين ليدل هارت ، العميد « سيرجيمس أدموند » James Edmonds ، المؤرخ الرسمي الأول لحملات الجبهة الغربية ، الذي اعترف لليدل هارت في المجالس الخاصة بأنه لم يكن ليستطيع أن يقول الحقيقة صراحة في تاريخ رسمي ، ولكنه كان يأمل أن تتضح لاولئك الذين يستطيعون أن « يقرأوا ما بين السطور »[٣٠] .

هكذا فانه اذا أمكن القول بأن مصدرا واحدا قد أفسد نظرة ليدل هارت الى احترام الجيش للحقيقة فهو كان اتصالاته الوثيقة مع مؤرخين رسميين من أمثال « أدموند » ، « سيريل فولز » Cyril Falls « سيسيل اسبينول ـ أوغلاندر » Cecil Aspinall—Oglander ومع آخرين من « المطلعين » مثل سير « موريس هانكي » .

---

(٢٨) أدمج بعض هذه التأملات في كتب ليدل هارت في الثلاثينات ، ولكن المجموعة الرئيسية هي افكار عن الحرب (١٩٤٤) .

(٢٩) انظر قائمة كتب ليدل هارت في آخر الكتاب . وهي تتضمن ستة كتب عن الحرب العالمية الاولى .

(٣٠) ت . إ . لورانس الى كتاب سيرته ، المصدر المذكور ، ص ١٣٦ .

كما يمكن للمرء أن يطلق تخمينا بأن التفلسف الخاص الذي انتهجته تأملات ليدل هارت كان مدينا بقدر ما لعلاقته الوثيقة في ذلك الوقت مع « ت . إ . لورانس » ، الذي كان ليدل هارت يكتب سيرته والذي كان معجبا بشدة بأفقه الفكري[٣١] .

ويكفي أن نورد مقتطفات قليلة لنقل انطباع عام عن هذه التأملات البالغة الأهمية والتي سجلها بعناية صحفي مشغول بالعمل الى حد يدعو لليأس . لقد كان ليدل هارت يعتقد أن سجل بريطانيا التعيس في كل حروبها الكبرى منذ « حرب القرم » يمكن أن يُعزى أساسا الى الافتقار الى تفكير واضح ونزيه . وقد كتب في العام ١٩٣٢ : « ما لم نكن نزيهين فيما يتعلق بماضينا ، ونقديين فيما يتعلق بحاضرنا ، فان الاحتمال سيكون ١٠٠ الى واحد ضد أية تحسينات في مستقبلنا في انطلاقنا في المرة التالية » (الى الحرب) . وكتب في « تأمل » مميّز له في السنة التالية :

« ان الجنود كفئة يملكون بطريقة ما أعلى مستويات الشرف ، ويملكون بطريقة أخرى أدناها . فهم في العادة روح الفضيلة ـ حينما لا تستثار تميزاتهم الفئوية . ولكن من النادر أن يوجد جندي لديه احساس بأهمية النزاهة العقلية ، أو يضع واجبه في أعلى مكانة فوق ولائه الفئوي . . . »

وفي العام ١٩٣٤ مضى الى أبعد من ذلك حين كتب :

«ان الجندي المفكر تناقض في الاصطلاح. فان العادة والقناعة، والتميزات التي تنشألديهم بالطبيعة تمنع الجندي ـ من التفكير بحرية في كثير من الموضوعات أو حتى في كثير من المهن . فعادة التفكير العلمي مستحيلة . والجيش الذي لا يكون أبدا مستعدا لأي طارىء حربي ، ولا يمكنه أن يكون ـ يقمع الحقيقة . . . »[٣٢] .

اتخذت مشكلة حرية التفكير والتعبير في الجيش بعدا عمليا حينما بدأ ليدل هارت التفكير في مستقبل ابنه « ادريان » Adrian ففي العام ١٩٣٤ ، حينما كان « أدريان » لا يزال في الثانية عشرة ، كتب أنه على الرغم من أنه كان هو نفسه آسفا للغاية لتركه الجيش ، فان « أدريان » قد لا يحذو حذوه لأن هذا يستوجب « وضع عصابة على جانب من العقل» . وحينما كان يسأل كثيرا عما اذا كان يحب لابنه أن يلتحق بالجيش كان يجيب : « لا ، لأنه ـ برغم كل مزاياه ـ ليس مكانا لانسان يفكر . . . ومنبت المتاعب هو خوف الجيش العميق الجذور من الحقيقة »[٣٣]

---

(٣١) انني مدين لـ « ستيفن بروكس » Stephen Brooks بالاشارة الى تأثير لورانس . لقد ابلغ لورانس « روبرت جريفز » Robert Graves بأن ليدل هارت « يبدو انه لا يملك حسا نقدياً فيما يتعلق بي » ولاحظ ليدل هارت ان وجهة نظر ج . ب . شو عن الحقيقة كانت متعددة الجوانب اكثر مما كانت واضحة : « انه مثل ماسة متعددة الاوجه كل منها يعكس الضوء ، اكثر مما تفعل شريحة من الزجاج مثل ت . إ . لورانس » . ١١/١٩٣٣/١ مذكرة في اليوميات في ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٣ .

(٣٢) ١١/١٩٣٢/٢٨ ، ١١/١٩٣٣/٢٨ ، ١١/١٩٣٤/٥٨ .

(٣٣) ١١/١٩٣٤/٧ ، ١١/١٩٣٥/٣٧ .

كذلك تعبر عن الجانب الايجابي ، المتعصب للسعي الدؤوب الى « الحقيقة » ، في ليدل هارت تعبيرا جيدا رسالة الى البروفيسور « جلبرت موراي » في العام ١٩٣٤ :

« بالنسبة اليّ يبدو ـ بصورة متزايدة ـ أن الأمل الأكبر في المستقبل يكمن في تشجيع موقف ودعم عمل مشار اليه في واحد من فقراتك الأولى ـ يكمن في ايجاد وسيلة للدراسة العلمية للحرب ولاكتشاف الحقيقة بشأنها وفي جوانبها المختلفة ـ أسبابها ونتائجها ، الحالة الذهنية التي فيها تخلق وتنفذ ، والأثر الواقع على سائقيها ومحصليها وركابها . ان الحقيقة يمكن أن تكتشف على نحو أفضل بواسطة دراسة علمية للحروب الماضية جنبا الى جنب مع دراسة علم النفس » .

وهناك مذكرة تعود الى الفترة نفسها يمكن أن تفسر بأنها تكشف عن عقدة اضطهاد :

« هل ينبغي تحريم صيد المهر ؟ أنه ينفع في التفكير بالطريقة التي يقتنص به النوع البشري أفراد الأنواع الأسمى . انه الرمز الأعلى للانكليزي التقليدي ، وبمعنى أسوأ للا انسانية بوجه عام »[٣٤] .

كان هاجس ليدل هارت المتسلط فيما يتعلق بعداء الجيش للحقيقة مفتقرا الى التناسب في أنه كان يمكن أن يجد مهنا أخرى ذات ترتيب هرمي على الدرجة نفسها من الانغلاق والمقاومة للحديث الصريح لو أنه كان في موقع يسمح له بمقارنة موضوعية . والأمر الذي يحتاج الى تأكيد هو أن انقشاع الوهم عن عينيه كان أكثر ايلاما لأنه كان يحطم ايمانه الساذج برؤسائه حينما كان ملازما شابا في الحرب العالمية الأولى .

ومما يذكر له بالفضل أنه سجل هذه العملية بتجرد رصين في مذكرة كتبها في العام ١٩٣٥ بعنوان Peccavi contra Viritalem حيث كتب : « انني أخشى أنه نادرا ما كان هناك جندي شاب منكب ـ بولاء غير نقدي ـ على التفكير بخير ما في رؤسائه ، أو شديد الشغف بأن ينسب اليهم عبقرية عسكرية » .

وفي النتيجة فانه من الواضح أن تصور ليدل هارت للحقيقة كان الى حد ما تصورا محدودا وذاتيا . ولكن على الرغم من أنه كان واعيا بمقدرته الكبيرة الخاصة ، فانه لم يكن يفتقر الى القدرة على التحليل الذاتي . وهكذا فانه عندما أشار اليه كاتب زميل ممن يكتبون عن الحرب ـ هو « فريدريك بريتين ـ أوستين » Frederick Britten-Austin بوصفه « عبقريا » ، كتب ملحوظة تقول :

من المؤكد أنني لست أشعر بأية « عبقرية » ـ انما فقط وبتواضع بذهن قادر على العمل بصورة سلسلة ، وبرغبة في رؤية الأشياء بوضوح ، فاذا كنت أملك أية قدرة خاصة ، فانما يبدو لي انها قدرة

---

(٣٤) ليدل هارت الى « جلبرت موراي » اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ . ١١/ ١٩٣٤/ ٢٠ .

تسجيل الوقائع التي ألاحظها ، والربط بين بعضها بعضا ـ ان عقلي يعمل مثل آلة تسجيل المدفوعات النقدية ولكن للقيم الذهنية[٣٥] .

وتحليله الذاتي الذي كتبه في يوم عيد ميلاده الأربعين يكشف الكثير ، ويستحق أن يقارن بما ذكرناه في فصول سابقة :

« يوم عيد ميلادي الأربعين ـ ما هو انطباعي الغالب ؟ انني بدأت لتوي أرى ، واذ أصبحت أرى فانني أتصور كم من الأشياء آت . وحينما التفت الى الوراء أدرك على نحو أفضل الى أي مدى أعاقت التقدم في الرؤية ، البيئة ، وضغط العمل ، والجبن الأخلاقي (كره أصيل لايذاء مشاعر الآخرين ، انما أيضا خوف من ايذاء الذات بالتالي) . انني أستطيع أن أرى نفسي بوضوح كاف الآن بحيث أدرك أن تلك العوائق لا تزال تفعل فعلها ، وانني لأعجب لم يمكنها أن تكون أقوى مما أستطيع أن أرى بعد »[٣٦] .

أما الكلمة الأخيرة في هذا الفصل فهي لـ « ت . ا . لورانس » ، التي كثيرا ما أفرغت تعليقاته الساخرة المازحة المستهزئة بالذات بلاغة ليدل هارت المثالية في السنوات التي سبقت وفاته المأساوية في أيار (مايو) ١٩٣٥ .

في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٣ اصطحب ليدل هارت لورانس الى « نادي المتوحشين » Sauvage Club لمناقشة الفقرات الأخيرة من سيرة حياته : « ت . ا . لورانس : في الجزيرة العربية وبعدها » . وفي خطاب (أمام النادي) اقترح وصف لورانس بأنه « روح الحرية تجيء متقمصة الى عالم مكبل بالانحلال » ، وقد نازع لورانس هذا الوصف على أساس أنه في الحقيقة « فوضوي » غير معني كثيرا بحرية الآخرين بمثل ما مصير حريته هو . وألقى لورانس تعليقا ساخرا على « الروح » وعندما كانا يخرجان الى شارع « ستراند » واصل ليدل هارت حديثه عن رغبته في أن يسبر غور الأشياء . وقال لورانس ـ مشيرا الى بائع كبريت ـ « اذا تركت هواك بالحقيقة يتغلب عليك على هذا النحو ، سوف تنتهي بائعا للكبريت في شارع « ستراند »[٣٧] .

---

(٣٥) يستذكر المؤلف أنه سمع ليدل هارت يبدي ملاحظات مماثلة في العقد الأخير من حياته .

(٣٦) ١١/ ١٩٣٥/ ٤٢ .

(٣٧) « ت . إ . لورانس » الى كتاب سيرته ، المصدر المذكور ، ليدل هارت ص . ٢٠٢ .

الفصل الرابع

المسؤولية المحدودة

١٩٣٥ _ ١٩٣٩

بين العام ١٩٣٥ واندلاع الحرب في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ بلغت حياة ليدل هارت العملية ذروة من حيث الشهرة والنفوذ . وقد أضافت مكانة صحيفة « التايمز » وزنا الى صيته الشخصي العالي ككاتب عسكري ، بينما أدى تعيينه كمراسل لشؤون الدفاع الى اعطائه مجالا أوسع للتحليل الاستراتيجي من ذلك الذي كان يتمتع به طوال العقد الذي عمله مع صحيفة « ديلي تلغراف » . وبالاضافة الى هذا فانه كان قد أقام علاقات وثيقة وودية مع كثير من كبار ضباط الجيش ، بمن فيهم رئيسا الأركان العامة الامبراطورية المتعاقبين ، « ديفيريل » Deverell و « غورت » Gort . واهم من هذا كله انه كانت تؤخذ مشورته من قبل « داف كوبر » DuffCooper أثناء فترته الأولى في وزارة الحرب (١٩٣٥ - ١٩٣٧) ، وحينما خلف الأخير في منصبه « هور - بيليشا » في أيار (مايو) ١٩٣٧ أصبح ليدل هارت مستشاره غير الرسمي . وقد تمكن ليدل هارت خلال سنة « المشاركة » بينهما من ممارسة نفوذ مستمر ومفيد بوجه عام في المراحل الأولى الحرجة من عملية اعادة التسلح . وخلال هذه الفترة القصيرة تمكن من تنفيذ عدد كبير من الاصلاحات التي كان يدعو لها منذ وقت طويل : فتم « تطهير » مجلس الجيش وعين ضباط أكثر تقدمية ، وأعيد تشكيل بناء الحياة العملية للضابط وقوم مسارها ، وأدخلت تحسينات كبيرة في مناهج التعليم والتدريب وفي أحوال الملابس والمعيشة . وأجريت اصلاحات خاصة كان ليدل هارت قد ألح عليها بدرجات متباينة من النجاح بما في ذلك تطوير الدفاع المضاد للطائرات ، واعطاء أولوية عليا للجيش الاقليمي . وتنسيق الدفاع بواسطة وزير واحد وتكثيف المكننة لجميع الأسلحة الثلاثة . وفوق هذا كله سعى ليدل هارت - وسيحاول هذا الفصل أن يبرهن أنه سعى بنجاح كبير - الى تغيير الأولويات في الادارة المناطة بالجيش البريطاني[1] .

وهكذا بدأ ليدل هارت - على السطح - أنه « الزبد الذي يعلو موجة كبيرة » : وهنا كان كمجرد « كابتن » - لا يزال في أوائل الأربعينات من عمره ، ولكن لديه قوة « صانع الملوك » في

(١) الذكريات ، المجلد الثاني « ج . لوفاس » : تعليم الجيش ، ص . ص . ٤٠٦ - ٤٠٧ .

الشؤون العسكرية . ومع ذلك كان هناك في الحقيقة دائما جانب مظلم من قصة النجاح الباهرة هذه ، وفي العام ١٩٣٩ عانت سمعة ليدل هارت خسوفا استغرق سنوات عديدة لاستعادتها ، ولم يقدر لآثار هذا الخسوف أن تتبدد كلية أبدا .

ويمكن البحث عن تفسير لهذا الخسوف على عدة أصعدة ، بعضها يتجاوز تماما سيطرة ليدل هارت . فان فشل السياسة الخارجية البريطانية في تهدئة أي من أعدائها الممكنين الثلاثة أدى في النهاية الى « أسوأ حالة » تصورها رؤساء الأركان . ولم يكن لها ببساطة حل عسكري - على الأقل من خلال مصادر بريطانيا المحدودة . وبعبارة أخرى فان ليدل هارت حقق نفوذا غير مباشر في وقت متأخر ، وكان يعتمد كلية على آخرين لتنفيذ أفكاره ، ولم يكن لدى « مريضه » أمل كبير في الشفاء خلال الوقت القصير المتاح . وبدأ ليدل هارت سريعا - وعلى وجه التحديد - يشك في حكمة ربط نفسه الى هذا الحد الوثيق باسم هور - بيليشا :

« انني أوشك على الشعور بأن أشد الخطوات تدميرا من وجهة نظر الأمد الطويل التي خطوتها على الاطلاق كانت السير معه . قبل ذلك كنت في موقع حصين ضد الهجمات ، وكنت أقف بعيدا ولكن على علاقات طيبة مع معظم الجيل الصاعد من الجنود . كنت أضع أفكاري في المطبعة وكان باستطاعتي أن أواصل الضغط من خلال المطبعة حتى يتم تبنيها .

« أما الآن فان كل اقتراح اتقدم به من خلال « هـ - ب » يلقى مقاومة ، ويحاول الأشخاص الذين ساعدت على وضعهم في السلطة التقليل من نفوذي . الأسوأ من هذا أنهم يعرفون من هم الرجال الذين أقدرهم تقديرا عاليا ويحاولون ابعادهم . هكذا أصبح من الخطورة أن يكون المرء صديقا لي ، وأن يعرف أنه كذلك »[٢] .

والذي زاد الطين بلة أن ليدل هارت واجه صعوبات متزايدة في التوفيق بين أفكاره الخاصة وسياسة صحفية التايمز المؤيدة للتهدئة .

فكانت مقالاته ما تتوقف أو تحرف باختصارات أو اضافات تحريرية ، وكان من نتيجة ذلك أن قدم استقالته عدة مرات قبل أن يترك الصحيفة بعد اندلاع الحرب بوقت قصير . وكأنه لم يكفه ما تعرض له من محن انهيار زواجه الأول تماما بعد فترة طويلة من المصاعب في العام ١٩٣٨ ، وفي الصيف التالي بلغت سنوات العمل الشاق ذروتها باصابته بنوبة قلبية وانهيار بسبب الاجهاد البدني .

ومع ذلك فانه لا شيء من هذه الأسباب يمس السبب الأعمق لهبوط أسهم ليدل هارت في تقدير الرأي العام ، وهو ارتباطه بمفاهيم المسؤولية المحدودة وتفوق الجانب الدفاعي في الحرب ،

---

(٢) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ١١٨ .

فان هذين الموضوعين المترابطين يشكلان معا الفكرة الرئيسية في كتاباته الغزيرة في أواخر الثلاثينات ، وحتى تبريره البارع في كتابه الذكريات لا يمكن أن يخفي أن هناك مفارقة تحتاج الى تفسير ، هذا اذا لم نقل أكثر . فكيف يمكن ـ مثلا ـ للنصير البارز لنظريات الحرب المدرعة و « الحرب الخاطفة » « بليتز كريج » أن يعد بطل الحرب الدفاعية ؟ كيف أمكن لصحفي حركان يقدر حريته كأنها كنز ـ يعتبر الناطق بلسان المؤسسة العسكرية ؟ وكيف ـ فوق كل شيء ـ آخر ـ يمكن التأكيد في منشور دراسي أن عقيدة المسؤولية المحدودة « مهدت الطريق الى « دنكرك »[٣] .

وان الهدف في هذا الفصل التركيز على هاتين الفكرتين المحوريتين ، المسؤولية المحدودة وتفوق الجانب الدفاعي : تفسير موانع ليدل هارت وأسبابه ؟ تفحص تأثير هذين المفهومين والحكم على مدى ملاءمتهما لاحتياجات الدفاع البريطاني في ذلك الوقت . ويكون من قبيل الحماقة الزعم بأن هذا يمكن أن يتم بتجرد رصين ؟ فالرأي الشخصي لا بد أن يلعب دورا ما . ومما يعقد المهمة أيضا طريقة تناول ليدل هارت وانتاجه المتعلق بالشخصيات ومنهجه في النشر . فلم يكن ليدل هارت مضطرا ـ على النقيض من لجنة الدفاع الامبراطوري ورؤساء الأركان ، مثلا ـ لمسح السياسة الدفاعية البريطانية والامبراطورية ، بأسرها ، ولا كان من المتعين عليه أن يقدم نصيحة حول ما ينبغي عمله في الحالات الطارئة . وبالتالي فانه ليس من اليسير تقدير مدى اتساع وشمول تفكيره ، فقد كان بالتأكيد ـ مثلا ـ أقل خبرة في مجالات السياسة الجوية والبحرية . وكان أكثر اهتماما بالشؤون الأوروبية منه بشؤون الشرق الأقصى . كذلك فانه ـ كصحافي ممتاز ـ كان بارعا في الحديث المضني الماكر عن السياسات التي يؤيدها دون أن يلزم نفسه بتحديد مفرط بما ينبغي عمله أو ما يمكن عمله . وكان بارعا بالقدر نفسه في تغطية تراجعه بادخال عبارات مبررة تجعل من المستحيل على مناقشيه أن يثبتوا خطأه . الأسوأ من هذا كله ، بالنسبة لكل من يحاول أن يتتبع التطور الزمني لأفكاره ، أنه يكرر نفسه على نحو لا يمكن الرجوع عنه : فان مقالات نشرت أصلا في الصحف تعود للظهور مرة ثانية وثالثة في مجلات وكتب ـ أحيانا معدلة ويمكن مع قدر كبير من التداخل وحتى التناقض .

وكتاباه أوروبا تحمل السلاح (١٩٣٧) و الدفاع عن بريطانيا (١٩٣٩) غير مقنعين في هذا الصدد بشكل خاص ، حيث أنهما كليهما جمعا حينما كان مشغولا الى حد كبير في الصحافة والشؤون العامة . وفي حالة الكتاب الأخير فانه كان أيضا مريضا الى حد لا يسمح له باستكمال تركيب جديد لوجهات نظره في الوضع السياسي جذريا .

وكما بينا في الفصل السابق ، نبعت معارضة ليدل هارت لارسال « قوة حملة بريطانية » الى

---

(٣) انظر فصل « ماجينو وليدل هارت : « عقيدة الدفاع » لا يرفنغ م . جيبسون (وهو اسم مستعار لاربادن . كوفاتش) في كتاب « إ . م . ايرل » (محررا) صناع الاستراتيجية الحديثة (برنستون ١٩٤١ ، اكسفورد ١٩٤٤) . ومن المؤسف ان هذه الرواية المضللة قد أعيد نشرها بلا مراجعة في طبعات لاحقة .

القارة (الأوروبية) من رد فعله ازاء الحرب العالمية الأولى ، وكان قد أعلن هذه المعارضة صراحة في أوائل الثلاثينات . وهي من ثم سبقت التهديد المحدد من جانب ألمانيا الهتلرية ، ذلك التهديد الذي ازداد وضوحا ابتداء من العام ١٩٣٣ كذلك سبقت هذه المعارضة التيقن من ضعف بريطانيا في مجال القوات الميكانيكية ، الذي كان من شأنه أن يقدم - في منتصف الثلاثينات وأواخرها - سببا قويا مؤيدا لسياسة المسؤولية المحدودة . ولا يمكن المبالغة في التأكيد على هذه النقاط حيث أن ليدل هارت - كما سنثبت فعلا - كان يميل ، ربما ميلا لا شعوريا ، الى تغطية اعتراضاته الأعمق بحجج عسكرية أكثر تحديدا ، وهي حجج كانت تبدو آنذاك مقنعة الى أقصى حد . وينبغي التأكيد كذلك بأن ليدل هارت - في دعوته لهذه الأفكار - كان بعيدا عن أن يكون صوتا مارقا وحيدا . صحيح أن كتاباته كانت لها جاذبية شديدة لدى الرأي العام بالتحديد لأنه صاغها بمهارة ، وبخبرة عسكرية وقوة في الحجة ، فأثرت في المشاعر القلبية لعدد هائل من الناس من جميع مشارب الحياة بما في ذلك الجيش .

طوال الأعوام ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ و ١٩٣٧ - بينما كان اولويات الجيش موضوعا لمناقشات لا تنتهي من جانب رؤساء الأركان ولجنة الدفاع الامبراطوري . ومجلس الوزراء[٤] - واصل ليدل هارت الطريق بشدة في التايمز وفي المجلات والمذكرات وفي كتابين[٥] على موضوعة أن بريطانيا ينبغي ألا تكرر خطأ العام ١٩١٤ القائل بالزج بقوات في حرب قارية . وعلى الرغم من مؤهلات عديدة . سنناقشها في موضع لاحق من هذا الفصل ، فان الرسالة الاساسية المتغلغلة في ذهنه هي أن هذا الالتزام نفسه خطير وينبغي تحاشيه . فلماذا أصبح ليدل هارت - خلاف ذلك - يدخل كثيرا تاريخه المزخرف عن « الطريقة البريطانية في الحرب » الرامي الى البرهنة على انه على مدى خمسة قرون كان تحاشي التورط في حرب قارية كبرى أمرا مفيدا دائما ؟ حقا لقد لاحظ في ذلك الوقت أن دراساته التاريخية قد خلقت لديه استعدادا للعزلة في السياسة الاستراتيجية ، على الرغم من أن ظروفا تقنية قادته لأن يدرك الحاجة الى أمن جماعي[٦] . ولكنه كان يعتقد أن أفضل ما تنصح به بريطانيا بالتحديد أن تقصر اسهامها على الأمن الجماعي .

لقد طُرحت أفكار ليدل هارت عن عدم حكمة الدخول في التزام قاري طرحا ملائما في الفصل الذي يحمل عنوان « دور الجيش البريطاني » في كتاب أوروبا تحمل السلاح . وهو فصل الح « نيفيل تشيمبرلين » - بعد وقت قصير من توليه رئاسة الوزراء ، الحاحا خاصا على « هور - بيليشا » أن يقرأه[٧] . والفقرات التالية تتضمن لب المناقشة .

---

(٤) Michel Howard : The Continental Commitment (1912) PP. 98- 111. Bnean Bond (ed) Chief of Staff. The Diaries of Lieutenant- Genenal Sir Henry Pounall. Pownall. (1913) PP. 126- 229

(٥) انظر عندما تدخل بريطانيا الحرب (١٩٣٥) واوروبا تحمل السلاح (١٩٣٧)

(٦) اليوميات ، جزء ٢ ، صفحة ١٤٦ .

(٧) اوروبا تحت السلاح ص ١٣٠ - ١٤٠ .

حينا توزن الظروف بعناية يبدو الميزان مائلا بشدة ضد الامل في ان يكون لقوة الميدان البريطانية المرابطة على القارة (الاوروبية) اثر عسكري يوازي الكلفة والمخاطرة . ولست استطيع ان ارى احتمالا ملائما ، حتى حين يتم تنفيذ البرنامج الراهن ، بأن تملك قدرة الهجوم اللازمة على انتزاع اية ارض من غاز يكون قد كسبها قبل أن تصل هذه القوة . ووضع الصورة في الاطار الصحيح ، الذي شكلته المنطقة بين « الموز » و« القنال » (الانجليزي) يفيد في تعميق هذا الانطباع . ولست ارى ان قوة اضخم يمكن أن يكون لها تأثير أفضل ، ولا أن التعزيز التالي يخلق اختلافا ، لأن الشروط المحددة لا علاقة لها تذكر بعدد الرجال . فهي شروط كيفية وتقنية في جوهرها . وبالاضافة الى هذا ، تكمن وراء كل الصعوبات التي تواجه المهاجم على البر خطر تشتيت اقترابه بهجوم معادٍ من الجو . وكلما كانت القوة اكبر كان الخطر اضخم .

يمكن مع ذلك ان نعتبر ان القوة جديرة بأن تشكل على اسس سياسية . وقد يكون هذا رأيا صائبا . ولكن يتعين علينا أن نتيقن من أن اولئك الذين يقررون أن يفعلوا ذلك يقررون وعيونهم مفتوحة على التعديدات العسكرية الاساسية .

فاذا كان هناك شك الآن فيما يتعلق بموقف البلجيكيين ، فان صعوبات استخدام جيش ميداني بفاعلية يمكن ان تتزايد ، وان تتزايد في امرها . فاذا ما قررنا ـ من ناحية اخرى ـ أن نتخلى عن فكرة التدخل بجيش . فان مشكلاتنا العسكرية تصبح ابسط كثيراً . وباستطاعتنا عندئذ ان نركز على جعل الجيش في الوطن احتياطيا امبراطوريا كافيا ، لتعزيز حاميات ما وراء البحار ، والدفاع المتحرك لاقاليم ما وراء البحار ، وللمهام التي تنشأ الحاجة اليها . عن حق ـ لتحقيق استراتيجيتنا التاريخية في ظل ظروف مستقبلية . وبامكاننا ان نسوي موازينها وتنظيمها وتدريبها لهذا الدور ـ فنتحاشى بذلك التباين الواسع والتزايد بين ما هو مطلوب لحرب دفاعية على القارة وما يناسب أكثر دفاعا متحركا ، وحربا استعمارية (كولونيالية) وفرضا لسياسة امبراطورية . في هذه الحالة تحتاج القوة التي نملكها إلى تطوير أقل كثيرا . فالصفات التي يتمتع بها الضابط العادي ـ والتي تثير الشكوك في قدرته « الهجومية » في ظل ظروف حديثة ـ تناسب ، بصورة تدعو للاعجاب ، اداء هذه الواجبات . وينطبق هذا على الجنود ايضا . ان الجيش البريطاني ـ منذ أيام « مارلبورو » ـ لم يلمع إلا نادرا في الهجوم ، وليس هذا بسبب افتقاره الى الشجاعة ، وانما لنقص في القابلية . لقد كان فائقا في الدفاع ، ولا نظير له كأداة في حفظ النظام . وستكون لهذه الصفات قيمة زائدة بما يتناسب مع قدرة الحركة الاستراتيجية عندما تضاف .

لقد استنتج بقوة أن مثل هذه السياسة كانت أنسب للوقائع القائمة للحرب على البر . وأنها لا تناسب اولئك الذين « يرغبون في التدريب الكلي للأمة استعدادا للحرب ، وكذلك اعداد جيش غير محدود للتدخل في القارة . . . ان الطريقة العشوائية التي يناضل بها جانبنا على ارض القارة ، بمطالبه المنهكة ، قد تحددت في آب (اغسطس) ١٩١٤ ، ينبغي ان تكون انذارا لهذا الجيل .

اليوم ، نظرا للظروف التقنية والتكتيكية ، فان ارسال جيش ميداني الى القارة لا يبدو أنه يقدم اي وعد بأن يتناسب مع الاخطار الكامنة . ولما كان عقم الاحتمالات يرجع الى التفوق الكامن للدفاع الحديث بمجرد أن يتاح لهذا الدفاع الوقت ليتدعم ، فان من العسير أن نرى أن هناك احتمالا اكبر نتيجة اعداد قوات أضخم ترسل في وقت لاحق ، إلا احتمال تبديد أكبر للأرواح والمصادر . ومن ناحية اخرى فانه مع وجود جيش أضخم يزداد مخاطرة تعرضه لضربات هجوم جوي على خطوط مواصلاته . ويدرك دعاة تكوين قوة ميدان ـ هم انفسهم ـ أن صعاب نقله وصيانته فيما وراء البحار ستكون اليوم اكبر مما كانت في الماضي بكثير . فكلما زادت القوات التي نحتفظ بها فيما وراء البحار كلما ازدادت السفن التي يتعين علينا تحويل مسارها عن المهمة الجوهرية الخاصة بالحفاظ على الامدادات التي ترد الى هذا البلد ، وزادت الاهداف التي سنعرضها للهجوم على الممرات البحرية الضيقة ـ التي هي الاكثر تعرضا للهجوم الجوي وهجوم الغواصات . ومشكلة اطعام هذا البلد اثناء الحرب من الصعوبة بما يكفي دون اضافة عبء الحملات البرية غير الضرورية وغير المبشرة بالنجاح في القارة[٨] .

وهكذا فانه على الرغم من أن ليدل هارت لا يمكن أن يتهم بتجاهل الحجج المؤيدة لالتزام قاري ، فانه يعرض وجهة النظر القائلة بأنه على بريطانيا أن تقصر اسهامها في الامن الجماعي على قوة طوارىء من السلاح الجوي ودعم بحري . وقد وجدت فكرة امكان أن تحل قوة مقاتلات من السلاح الجوي الملكي محل دور الجيش التقليدي في قوة طوارىء تأييدا بارزا لدى الجنرال سير « جون برنيت ـ ستيوارت » (جون) الذي تولى امر القيادة الجنوبية في العام ١٩٣٤ . وقد سبب « برنيت ـ ستيوارت » ايضا غضبا شديدا في الاركان العامة بمعارضته العنيدة لالتزام قاري للجيش في رسائل إلى صحيفة التايمز[٩]

ويمكن تلخيص اعتراضات ليدل هارت على التزام قاري بري على النحو التالي :

١ ـ لا تستطيع بريطانيا ان تتولى اعادة تسليح الاسلحة الثلاثة جميعا في وقت واحد مع الاولويات نفسها في الانفاق ! فان القوة الجوية والبحرية ستكون قيمة أكبر فيما سينفق عليها من أموال .

٢ ـ يستطيع السلاح الجوي الملكي ان يأخذ مكان الجيش في توفير قوة قارية مشتركة .

٣ ـ الجانب الدفاعي متفوق تفوقا هائلا في الحرب البرية ، وتفتقر بريطانيا الى القوات الميكانيكية التي تلائم العمليات الهجومية .

٤ ـ لا حاجة بحليف قاري (مثل فرنسا) الى قوتنا الصغيرة من المشاة ، ولكن يمكن أن يفضل الفرق الميكانيكية .

---

(٨) اوروبا تحمل السلاح ، ص ص ١٣٠ ـ ١٤٠ .

(٩) الذكريات المجلد الاول ـ ص ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

٥ ـ من المشكوك فيه الى أقصى حد ، اذا ما وصلت قوة طوارىء بريطانية في الوقت المناسب ، أن تؤ ثر على النتيجة .

٦ ـ لم يعد من الجوهري الدفاع عن القواعد القارية (في بلجيكا مثلا) بقوة جوية بسبب المدى المتزايد للطائرات .

٧ ـ حتى لو شكلت بريطانيا قوات ميكانيكية فانها ستكون ذات قيمة أكبر للدفاع النشط عن أقاليمنا فيا وراء البحار .

٨ ـ لم تتعلم القيادة العليا البريطانية دروس الحرب العالمية الاولى ، وهي في الحقيقة تستعد لتكرار الاخطاء التي ادت إلى « السوم » و « وباسشينديل » . ومن هنا فانه ينبغي تفادي حتى مجرد التزام رمزي طالما أنه يمكن أن يؤ دي الى ارسال جيش ضخم .

٩ ـ المزاج البريطاني العام غير مناسب لعمليات هجومية[١٠] .

ومن الواضح انه ليست كل هذه النقاط على قدر واحد من السلامة والقيمة ، ولكن طريقة ليدل هارت كانت تقوم على جمع حجة فوق حجة من أجل تحقيق أثر تراكمي . وتبين المادة التي تحتويها ملفاته أن أولئك الذين كانوا يفكرون على النحو نفسه الذي يفكر به كانوا يبتهجون بمقالاته ، أما المتشككون والمنتقدون فكانوا أميل الى اعتبار اسلوبه مثيرا للتوتر واستدلاله غير مقنع . ويمكن ان نذكر حكم العقيد باكينهام ـ وولش Pakenham — Walsh اثر اكتمال كتاب اوروبا تحمل السلاح كمثل نموذجي على رد الفعل « الوسط » ازاء كتابات ليدل هارت :

انه لشيء جيد حقا ويمد الفكر بقدر كبير من الغذاء . ولكن ل . هـ . يستخدم كلمات وافكار مدللة أخاذة ويطلقها مجنونة فتبتعد سريعا عن مواضعها الاساسية ، ويطبق الفكرة في أقصى معناها . . . أن فحصه الخاص للمشكلات ليس علميا حقا ، وانها تجتاحه بصورة مفرطة كلماته الأخاذة[١١] .

ان تفحص حجج ليدل هارت المؤ يدة واحدة واحدة يتطلب كتابة تاريخ. لتطور السياسة الدفاعية البريطانية في الثلاثينات . ويكفي القول بأنه من وجهة نظر المصالح البريطانية ، وعلى صعيد عسكري خالص كان هناك الكثير ليقال تأييدا لسياسة المسؤولية المحدودة . ولقد كان الجيش في منتصف الثلاثينات حقا في حالة عدم استعداد مثيرة للحزن للمشاركة في حرب

---

(١٠) معظم هذه النقاط ورد في صحيفة التايمز في مقال نشر يوم ٥ آذار (مارس) ١٩٣٧ . انظر ايضا رسالة ليدل هارت في التايمز ، ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ حول « دور الجيش » ورد « الجنرال بريتشارد » Pritchard عليها .

(١١) يوميات « باكنهام ـ وولش » ، ٢٦ آذار (مارس) ١٩٣٧ .

أوروبية ؛ وحتى فرق المشاة النظامية الطليعية (ولم يكن يوجد منها الا خمس) كانت تعاني نقصا في الاسلحة الحيوية وفي المستوردات وفي الافراد المتخصصين ، بينما لم تكن قد وجدت بعد فرقة مدرعة واحدة . وبالاضافة ـ الى هذا ، وبعيدا للغاية عن القوات الصغيرة المتاحة في الوطن التي كانت تحشد وتتنظم من اجل طارىء اوروبي ، ادت ازمة الحبشة تعزيز كبير ودائم ـ كما ثبت فيما بعد ـ للشرق الاوسط .

ومرة اخرى ، فيما يتعلق بالمكننة والقيادة التقدمية ، تسجل ذكريات ليدل هارت بتفصيل مقبض السقوط الذي تلا فترة الامل بالتجربة في بداية الثلاثينات ، والتحول الذي طرأ على أنصار الحرب المدرعة البارزين امثال « هوبار » Hobart ، « مارتيل » Martel ، « بايل » Pile و « ليندسي » Lindsay . كذلك يمكن انتحال العذر لليدل هارت في اعتقاده بأن الأركان العامة كانت عاكفة على احياء قوة طوارىء بريطانية تتألف اساسا من فرق مشاة ، أضعف من سابقتها التي شكلت في العام ١٩١٤ ، من حيث العدد والتدريب والاسناد المدفعي . ويمكننا الآن ايضا أن نرى من السجلات ان الاركان العامة كانت في حالة التباس الى أقصى حد فيما يتعلق بدور قوة الطوارىء البريطانية بمجرد أن تصل الى القارة[١٢] . وقد كان مصيبا ـ علاوة على هذا ـ في اشتراطه الهام القائل بأنه اذا كان لا بد من التزام قاري على البر ، ينبغي أن يأخذ شكل فرق ميكانيكية ـ فحتى فرقة واحدة ، أو اثنتين، يمكن أن تكون مفيدة للفرنسيين في دور الهجوم المضاد اكثر مما يمكن أن يفيدهم ضعف هذا الغدد من فرق مشاة بطيئة الحركة .

إلا أن بعضا من حججه الاخرى كان موضع الشك لأنه يعتمد على افتراضات حول التوقيت وتوازن القوى عند اندلاع حرب ما . فنظرا للوضع الدبلوماسي المائع الى أقصى حد طوال الثلاثينات ، كان ليدل هارت ميالا إلى ان يكون مفرطا في القطعية والعمومية في تأكيداته . وعلى سبيل المثال فان عودة بلجيكا الى سياسة حياد في العام ١٩٣٦ زاد كثيرا من صعوبة ارسال قوة طوارىء بريطانية صغيرة إلى هناك للدفاع عن القواعد الجوية المتقدمة ، بينما كانت الزيادة المطردة في مدى الطائرات قد خففت الى حد ما أهمية مثل هذه القواعد . ومع ذلك لم يكن واضحا ابدا أن هذه التطورات قد جعلت مصلحة بريطانيا الاستراتيجية التقليدية في الاراضي الواطئة غير صحيحة. وكان ثمة مشكلة على الدرجة نفسها من الصعوبة ، مشكلة سببت لرؤساء الاركان متاعب لا نهاية لها ، وهي ما اذا كان بالامكان نقل قوة الطوارىء البريطانية سالمة عبر القنال (الانكليزي) وأن تصل الى مسرح العمليات في الوقت الملائم للتأثير في النتيجة . وعلى وجه العموم فقد قرروا أن ذلك ممكنا ، حتى وان اضطرت للعمل عبر الموانى الغربية لفرنسا ، لتتفادى أسوأ ما يمكن توقعه من هجمات العدو الجوية ـ وقد ثبت صوابهم بالطبع[١٣] . وقد لاحظ ليدل

(١٢) يلاحظ انه في كل المناقشات التي جرت ـ فيما عدا ما قاله ليدل هارت ـ لم يرد اقتراح بمشاركة قوة طوارىء بريطانية في هجوم عام .

(١٣) انظر مثلاً مناقشة رؤساء الاركان يوم ٤ أيار (مايو) ١٩٣٤ . ٥٣/ ٤/ ١٢٥ .

هارت ـ في اعتراف نادر منه ـ في المذكرات بأن لم يتنبأ ـ حينما كان يلح الحاجة الى تدخل مبكر للغاية من جانب قوة طوارىء ترسل الى القارة ـ بأنه اذا لم يتعرض الفرنسيون انفسهم لهجوم مباشر فانهم سيقنعون بمراوحة الخطر بينما تكتسح القوات الميكانيكية الالمانية حلفاءهم الشرقيين ، بدلا من أن يبادروا هم أنفسهم الى الهجوم لمساعدة اولئك الحلفاء(١٤) .

يمكننا ـ اذن ـ أن نستنتج بوجه عام أن ليدل هارت كان يستند الى أساس متين في تركيز نقده للالتزام القاري على عدم استعداد بريطانيا العسكري وعدم قدرتها على أن تلعب دورا هاما على البر في حسم نتيجة حرب اوروبية كبرى . ومن الجدير بالملاحظة أن تناول ليدل هارت لهذه المسألة المعقدة كان أولا وقبل كل شيء تناول الخبير العملياتي التكتيكي . وكانت نقطة البداية عنده هي التأثير المرجح للأسلحة والتكنولوجيا الجديدين على التكتيك ، وعلى هذا الاساس فانه بنى نظريته في المسار المحتمل للعمليات الاستراتيجية . ثم قادته المشكلات الاستراتيجية الى بحث السياسة الخارجية ، ولكن هذا الجانب لا يلقى منه إلا تأكيدا قليلا نسبيا . ولقد كان لمثل هذا التناول مزاياه ؛ فبعد كل شيء شهدت فترة ما بين الحربين بزوغ سياسات لم تكن القوات اللازمة لها موجودة ، وكان من المفيد أن يشار الى هذا بين حين وآخر . ومع ذلك كان هناك خطر حقيقي من أن يحرك الذيل الكلب* ، أي أن يسمح للاعتبارات التكتيكية ـ بأن تقرر السياسة العسكرية وبالتالي الخارجية . ومن الضروري ـ قبل أن نناقش النتيجة العملية لمفهوم المسؤولية المحدودة عند ليدل هارت ـ أن نتفحص العقيدة الكامنة وراءه والقائلة بأن التجديد التكنولوجي تجعل الدفاع باطراد أقوى بالمقارنة إلى الهجوم .

ثمة موضوعة رئيسية في مؤلفات ليدل هارت في منتصف الثلاثينات وأواخرها هو أن الدفاع يتفوق بشكل ملحوظ على الهجوم في الحرب البرية الحديثة وأن تطورات الاسلحة تزيد بالفعل من هذا التفوق . وعلى سبيل المثال فان هذه المقولة قدمت في ثلاث مقالات تحت عنوان عام « دفاع أم هجوم ؟ » في صحيفة التايمز ايام ٢٥ ، ٢٦ و٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ . وقد بنى في هذه المقالات على اساس متين نقده للتطور البطيء للقوات الميكانيكية والتكتيكات الجديدة في الجيش البريطاني ، ولكنه في المقالين الثاني والثالث أشار مرارا وتكرارا الى أن البادىء بالهجوم نادراً ما نجح في أية معركة خلال القرون الستة الماضية ، بل أن فرصته أقل في الوقت الحاضر .

« ان تطور الاسلحة الحديثة كان دفاعيا في غالبيته . والمدفع الرشاش هو ـ فوق كل شيء ـ الذي وطد تفوق الجانب الدفاعي في الحرب الاخيرة ، واليوم يوجد من المدافع الرشاشة اكثر مما وجد في أي وقت مضى . والمدفع المضاد للدبابات والمضاد للطائرات ، وهي الأسلحة التي شهدت أبرز التحسينات منذ الحرب ، أسلحة دفاعية خالصة » .

---

(١٤) الذكريات . المجلد الاول ٢٩٨ .

* المقصود أن تحدث الظاهرة على عكس ما تمليه طبيعة الاشياء . « المترجم »

وكان قد نازع فعلاً ـ في كتابه اوروبا تحمل السلاح ـ الرأي القائل بأن الفرق الممكنة ستتمكن من تحطيم الدفاعات في الايام الاولى للحرب فيما عدا الحالات التي يؤ خذ فيها العدو على غرة وحين يكون هو ذاته غير مزود بأسلحة ميكانيكية . وباستطاعة المدافعين ـ باستخدام الخطوط الحديدية والانهار والقنوات كموانع ، وبنسف الجسور وسد الممرات الضيقة defiles ـ ان يمضي بعيدا الى ابادة الخطر الجديد . وبالاضافة الى هذا تستطيع المكننة ان تمكن من نقل وسائل العرقلة والنسف بسرعة اكبر الى أي بقعة مهددة . « على الرغم من الميزة الظاهرة التي جلبتها المكننة للجانب الهجومي ، فان دعمها للجانب الدفاعي قد يثبت انه اكبر » . كذلك لم يكن يعتقد ان تطور القوة الجوية يمكن أن يبدل جذريا ميزان القوة[١٥] .

كان الدرس واضحا ومشجعا للأمم غير العدوانية : « عظيمة للغاية هي قوة الجانب الدفاعي اليوم الى حد يكفي معه دعم صغير لاحداث توقف تام » . لم يكن من المحتمل ان يهزم ضحايا العدوان شرط أن يكون قد أحجم عن « التورط الاحمق في هجمات » . وقد ادت تطورات القرن الحالي الى اثارة الشك » فيما اذا كان أي شكل من العمل الهجومي يظل ضروريا لاهداف دولة غير عدوانية في حرب » . وقد تكهن ليدل هارت في فقرة ختامية ، أكثر ملاءمة كثيرا للعصر النووي منها للثلاثينات ، بأن اجتماع عدم الحسم في الحرب والخوف المتبادل من الهجمات الانتقامية الجوية من شأنه استبعاد نشوب حرب غير محدودة بين الدول العظمى » . في هذه الحالة تختفي الحرب القصوى ويحل محلها رجوع الى لعبة «اللعب لجمع النقاط» التي كانت تمارس في القرن الثامن عشر » .

من الواضح أن ليدل هارت ـ في كل مناقشاته للقوة النسبية للهجوم والدفاع ـ كان قلقا بشكل خاص من أن القيادة العليا البريطانية والفرنسية كانتا عاكفتين على تكرار الهجمات اللامجدية على النحو الذي جرى في الحرب العالمية الاولى . حقا لقد حاول رئيس الاركان العامة الامبراطورية ـ سير « سيريل ديفيريل » Cyril Deverell ـ عبثا اقناعه بأن ملاحظاته (أي ملاحظات ديفيريل نفسها بعد لعبة حرب قد أسيء فهمها وأن الجيش البريطاني لم يكن في الحقيقة مرتبطا بعلاقة زواج مع مذهب تكتيكي أو استراتيجي للهجوم في جميع الظروف[١٦] . بل ان المثير للدهشة أكثر من هذا ـ ونظرا لقيام الفرنسيين ببناء خط « ماجينو » ، واعتمادهم الشديد على جيش يقوم على التجنيد الاجباري القصير الاجل او رد فعلهم المتسم بالجبن ازاء احتلال الالمان

---

(١٥) « دفاع أم هجوم ؟ » مواضع متفرقة . اوروبا تحمل السلاح ، ص ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ كررها في كتاب الدفاع عن بريطانيا ، ص ٥٠ .

(١٦) حديث مع « ديفيريل » في ١٨/ ١١/ ١٩٣٧ ، ١١/ ١٩٣٧/ ٩٤ . حين نقرأ بين السطور ، يسهل أن نرى أن رئيس الاركان العامة الامبراطورية اصبح في حالة التباس وحرج تحت اسئلة ليدل هارت الملحة . فقد اجاب تحت الحاح السؤال عن المكان الذي كان يتخيل امكان قيام قوة ميدان كاملة بعملية هجومية فيه ـ بقول غامض : « اماكن مثل ليبيا » .

لمنطقة « الراين » من جديد ، فضلا عن الاثر العميق لخسائر الفرنسيين في الحرب العالمية الاولى ـ المثير للدهشة في ضوء هذا كله ما نسبه ليدل هارت الى الفرنسيين من ذهنية هجومية . وأنه كما يدعو للسخرية ان كان يمكن للحلفاء أن يصبحوا في موقف جيد لو أن الفرنسيين شنوا هجوما على نطاق شامل على الجبهة الغربية في العام ١٩٣٩ .

وفي المجادلات التي نشأت عن هذه المقالات وغيرها من المبادلات في صحف القوات المسلحة ـ[١٧] ، تخلق التأكيدات الكاسحة وانعدام التعريفات الدقيقة الانطباع بأن مسألة « الهجوم مقابل الدفاع » تكاد تكون على الدرجة ـ نفسها من الحساسية مثل التساؤ ل « كم طول قطعة حبل ؟ » . وعلى الرغم من أن المتجادلين جالوا في التاريخ طولا وعرضا (من كريسي Crécy الى الحملات الحديثة في الصين والحبشة واسبانيا) فانه كان لا بد من أن يكون واضحا أن الظروف تغير القضايا ، وأن غير المتوقع كثيرا ما يقع في الحرب . والامر الذي يبرز هو أن ليدل هارت لم يتنبأ عند ذاك بالعمليات الهجومية الفجائية التي نفذتها المانيا واليابان بنجاح كبير فيما بين العام ١٩٣٩ والعام ١٩٤١ .

كانت الاسس التي بنيت عليها الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى اطروحة ليدل هارت هي ما اذا كان يمكن لحرب اوروبية أن تظل محدودة تماما ، واذا لم يكن ذلك ممكنا ، هل تتيح الاعتبارات الاخلاقية والسياسية لبريطانيا أن تحد من اسهامها في التحالف . هناك ـ اذا القينا نظرة الى الخلف ـ عنصر سخرية مأساوي في حقيقة أن رؤ ساء الاركان ، وحتى اكثر من ذلك الاركان العامة ، اذا كانوا مصيبين في افتراضاتهم بأنه كانت لا تزال لبريطانيا مصالح حيوية في أوروبا الغربية ، مصالح لم يمكن تأمينها بصورة كافية بواسطة سياسة « مسؤولة محدودة » ، ولكنهم كانوا محافظين فيما يتعلق بالمكننة ، وكانوا مناقضين فيما يتعلق بما يمكن أن تفعله قوة الطوارىء بعد وصولها إلى فرنسا . أما ليدل هارت ـ على النقيض من ذلك ـ فكانت له افكار تقدمية حول الحاجة الى المكننة ونوع العمليات المتحركة التي يمكن أن تؤ دي اليها . ولكنه كان ميالا إلى انكار الحاجة الى التزام قاري ، الامر الذي كان يبرر وحده اولوية اسبق للجيش في الانفاق الدفاعي . أما أين كان ليدل هارت غير محق ، ففي ادعائه بأن الاركان العامة لم تكن تملك فكرة اخرى غير إحياء جيش ضخم على الاسس نفسها التي كانت قائمة وقت الحرب العالمية الاولى . فبعد كل شيء كانت القوة القصوى التي يمكن تكوينها في زمن السلم (اعني دون تجنيد اجباري ودون جهد حربي شامل) هي خمس فرق نظامية واثنتي عشرة فرقة اقليمية ، وحتى عندئذ كانت تخصص عدة فرق من هذه الاخيرة للدفاع المضاد للطائرات في الوطن .

ربما لخصت ـ على افضل نحو ـ وجهة نظر الجندي التقليدية ـ في مدخل يوميات الكولونيل

(١٧) لمراجعة مفيدة للمقلات الصحفية عن مسألة الدفاع أو الهجوم والموضوعات المتصلة بها ، انظر فصل « جيبسون » في كتاب صناع الاستراتيجية الحديثة ، ص ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢ .

« هنري باونول » يوم ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٦ عقب اجتماع للجنة « متطلبات السياسة الدفاعية » :

« من الواضح انه في حرب كبرى ينبغي مساندة النظاميين ، ومن الواضح بالقدر نفسه أنه ليس هناك من يقوم بهذا في الجيش الاقليمي Territorial Army تلك هي الحقائق . فلماذا لا يواجهوننا بجسارة ؟ لكنهم احجموا - بجبن .

وكانت هناك هرطقة اخرى اكثر خطورة - هرطقة وزير الخزانة . تلك القائلة بـ« مسؤولية محدودة » في الحرب . انهم لا يستطيعون أو لن يستطيعو أن يدركوا انه اذا نشبت الحرب مع المانيا مجددا (سواء بسبب الامن الجماعي ، أو« لوكارنو » ، او أية طريقة اخرى) فسوف نقاتل مجددا من اجل ارواحنا . وينبغي ان نبذل جهدنا لأقصاه ، برا وبحرا وجوا . فلا نستطيع ان نقول أن اسهامنا هو« كذا وكذا » لا اكثر ، لاننا لا نستطيع أن نخسر الحرب دون زوال الامبراطورية . ان فكرة الحرب التي نخوضها «بنصف حماس» هي الاشد ايذاء والاشد خطرا في العالم . فسوف تكون حربا مائة بالمائة - وحتى عندئذ يمكن أن نخسرها . وسنخسرها بالتأكيد اذا لم نمعن فيها مائة بالمائة . فبالله عليكم دعونا ندرك ذلك من البداية - وانا اعني بالبداية الآن . اما موقف وزير الخزانة الحسابي البارد شبه المتجرد فكان من المفزع الاستماع إليه . . .

وكتب باونول أيضا في ١٤ آذار (مارس) ١٩٣٨ :

من الامور المبينة ان فكرة امكان دخول الجيش في التزام فكري بدأت تعود الى اذهان اناس كثيرين . ويركز « غورت » عليها بقوة . وعلى الرغم انها تأتي الى الترتيب الرابع الاخير في ترتيب الاسبقيات فيما يتعلق باعتماد الاموال ، فانها يمكن ان تأتي الاولى في الاولوية حينما تنشأ الحالة الطارئة . ولما كانت الاخيرة من الناحية المالية كان هذا يعني ان القوات التي نرسلهاستكون ضعيفة التجهيز في اداتها لمهمتها . والاركان العامة مهتمون باستمرار من جانب ل . هـ . [ليدل هارت - المترجم] والسياسيين بأنهم تواقون الى ارسال الجيش الى فرنسا والى تكرار «فضائع باستنديل » . ونحن لا نريد هذا ، ولكننا نعتقد ان هذا دور محتمل بدرجة كبيرة ونحن بحاجة لان نستعد له »[١٨] .

تنبأ الجنرال سير « فريدريك موريس » مصيبا - وهو يرد في صحيفة « التايمز » يوم ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ على مقالات « دفاع أم هجوم ؟ » - بأنه « سيتعين علينا ان نرسل جيشا الى حليفنا ، ولن نكون احرارا في اختيار تكتيكاتنا » . ومن الامور المثيرة للدهشة ان أحدا في الاركان العامة - ولا حتى رئيس الاركان العامة الامبراطورية لورد « غورت » - لم يبد قدرة ، حتى صيف العام ١٩٣٩ ، على مواجهة الحقيقة القائلة كلما كانت القوة البرية البريطانية المشاركة

(١٨) رئيس الاركان ، المصدر المذكور ، ص . ص . ٩٩ ، ١٣٩ - ١٤٠ .

اصغر كلما كانت كلمتها في تقرير استراتيجية الحلفاء أصغر . فبعد « ميونـخ » فقـط استيقظـت الحكومة البريطانية على الواقع القاسي ، وواقع ان الفرنسيين كانوا يتوقعون مجهودا يبذل فيه الدم كدليل على التزام بريطانيا الكامل بحلف . ومع ذلك فان قائدا فرنسيا ـ هو الجنرال « باراتييه » Baratier ـ احتج، في تحد لعقيدة ليدل هارت عن المسؤولية المحدودة في فصيلة الجيش Army Quartely في أوائل العام ١٩٣٨ ـ احتج على ميل الانكليز « الى القاء الثقل الرئيسي للحـرب على حلفائهم . وهو احتجاج لا يمكن تفنيده بقوة . فاذا ما حدث ان هاجمت المانيا بلدنا فانها ستشن حربا كلية يتعين على فرنسا وانكلترا ـ كي لا ترغما على الخضوع خلال مسارها ـ ان تلقيا في ميزانها بكل مصادرهما في البر البحر والجـو »[١٩] . ولقـد كانـت هذه التصريحـات ـ مهما كانـت مرارة مذاقها ـ اقرب الى الواقع من وجهة نظر ليدل هارت التفاؤلية ، التي لخصهـا عنـوان رئيسي في احدى الصحف في يوم ٩ تموز (يوليو) ١٩٣٩ : « الضربة القاضية مجرد حلم . اننا يمكن ان نخسر حربا فقط بمحاولة كسبها »[٢٠] .

قد يكون من الممكن الافتراض ـ بناء على تعلقه الشبيه بالهوس بالمسؤولية المحدودة ـ أن ليدل هارت كان يمكن ان يحبذ سياسة التهدئة تجاه اعداء بريطانيا المحنكين في الثلاثينات ، ولكن الامر لم يكن كذلك . فانه بالاحرى قد أيد مبدأ الامن الجماعي حيث تقدم بريطانيا اسهاما في صـورة تتناسب مع ظروفها ومصادرها الاستراتيجية . وقد حاول سدى فيما يتعلق بالحبشة في العام ١٩٣٥ اقناع « جيوفري دوسون » رئيس تحرير صحيفة التايمز بأن على الصحيفة أن تلح في الدعوة الى فرض عقوبات اقتصادية كاملة وأن تغلق ابواب الامدادات النفطية في وجه ايطاليا ، حتى وان كانت النتيجة شبه المؤكدة لهذا ستكون حربا في البحر الابيض المتوسط[٢١] .

ولا يبدو أنه اتخذ موقفا على نفس القدر من الحزم حول عودة المانيا الى احتـلال المنطقـة المنزوعة السلاح في « الراين » في آذار (مارس) ١٩٣٦ ، ولكنه نظر الى المسألة من نواحي سياسية واخلاقية اكثر مما نظر اليها من نواحي استراتيجية . فقد شارك رد الفعل البريطاني الواسع الانتشار القائل بأنه « اذا القينا جانبا انتهاك العقيدة ، فان الشيء الصحيح هو ما جرى ولـكن بطريقـة خاطئة » . وقد اشار ليدل هارت ـ في مناقشة جرت بعد وقت قصير مع العقيد « برنار باجيه » Bernard Paget والبريجادير سير « رونالد آدم » Ronald Adam ـ الى انه لو قامت فرنسا بمهاجمة المانيا فان الاخيرة قد تشن هجوما معاكسا عبر « الاردين » . وقد أكد العسكريان أن البلجيكيين لن يشعروا بسعادة الى ان تصل قوة ميدان بريطانية الى ارضهم . واعربا كلاهما عن اعتقادهما بأن مثل هذه القوة يمكن ان تصل في الوقت المناسب لان المانيا لن تكون مستعدة في المستقبل القريب لاتخاذ جانب الهجوم في الغرب[٢٢] .

---

(١٩) مذكورة في كتاب صناع الاستراتيجية الحديثة ، ص ٣٨١ .

(٢٠) صحيفة صنداي اكسبرس ، ٩ تموز (يوليو) ١٩٣٩ . وفي مقال آخر للصحيفة ذاتها في ٢١ أيار (مايو) ١٩٣٩ بعنوان « لماذا لا يمكن لهتلر وموسوليني كسب حرب » .

ثمة مسألة أخرى كان ليدل هارت يعتقد بشأنها انه يتعين على بريطانيا ان تتخذ موقفا ، وهي مسألة امدادات الاسلحة والقوات من دول المحور الى جانب الجنرال « فرانكو » في الحرب الاهلية الاسبانية . وفي الحقيقة فقد كتب في مذكرة الى هور ـ بيليشا في آذار (مارس) ١٩٣٨ ، في أعقاب استيلاء الالمان على النمسا ، وذهب الى ان « المفتاح العسكري » للمنافسة بين ايطاليا والمانيا ، من ناحية ، وبريطانيا وفرنسا من ناحية اخرى يكمن في اسبانيا :

كما ظللت أبين طوال ثمانية عشر شهرا فان سيطرة المانية ـ ايطالية على اسبانيا من شأنها ان تفرض عوائق شديدة في وجه نجاح بريطانيا وفرنسا في حرب تنشب مع هاتين الدولتين . وانه لاعمى كل من لا يستطيع ان يرى ان انتصار فرانكو الآن يمهد لهذه السيطرة . لقد كان أيسر علينا عسكريا ان نمنع ذلك الانتصار اكثر مما كان يسيرا على المانيا وايطاليا تأمينه . ولا تزال الاوراق في ايدينا ـ الى ان يؤمن فرانكو وحلفاؤه الساحل الشرقي من اسبانيا . فحينما يحدث هذا يكون من المرجح أن نخسر اللعبة كلها » .

وكان الحل في رأيه أن تتخلى بريطانيا وفرنسا عن مهزلة عدم التدخل ، وتزويد الجانب الحكومي بالمصادر المادية الكافية لاستعادة التوازن : فاذا ما بدأت منافسة في تقديم المساعدات تمتعت بريطانيا وفرنسا بالميزة الجغرافية .

اذا جسروا على تصعيد اعتراضاتهم الى حد الحرب ، وجب علينا ان نحارب بكل مزايا الجانب الدفاعي وفي ظل ظروف من الجغرافيا الاستراتيجية اكثر ملاءمة بكثير مما يمكن أن نأمل اذا قهرت اسبانيا . لهذه الاسباب تبدو المخاطرة أقل من تلك التي تفرضها أية حالة كارثة اخرى يمكن التنبؤ بها »[٢٣] .

وبطبيعة الحال فان النتيجة كانت عدم تدخل الحلفاء ؛ انتصر فرانكو بعون كبير من المحور ، ولكنه ـ على النقيض من مخاوف ليدل هارت المعقولة ـ لم يتدخل لقطع طريق امدادات بريطانيا عبر البحر الابيض المتوسط في الحرب العالمية الثانية .

بلغ خلاف ليدل هارت مع سياسة هيئة تحرير صحيفة التايمز ، المؤيدة للتهدئة ، ذورته حول أزمة « ميونخ » ، ولما كان قد أوضح موقفه في وقت الازمة التشيكوسلوفاكية الاولى في أيار

---

(٢١) الذكريات ، المجلد الاول ، ص ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨ .

(٢٢) « مذكرة حول العودة لاحتلال المنطقة المجردة من السلاح في الراين » ، ٧ آذار (مارس) ١٩٣٦ ، ١١/ ١٩٣٦/ ٤٥ . « حديث مع باجيه وآدم » ، ١٥ ايار (مايو) ١٩٣٦ ، ١١/ ١٩٣٦/ ٦٤ .

(٢٣) الدفاع عن بريطانيا ، ص ص ٦٣ ـ ٦٤ . الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ، ١٨٠ . وقد اتفق « ايدن » مع رأي ليدل هارت في أنه لو فاز فرانكو فانه قد يصبح مواليا لالمانيا وقد يهدد من ثم طرق بريطانيا التجارية (مذكرة خطية) اول حزيران (يونيو) ١٩٣٨ ، ١١/ ١٩٣٨/ ٦٢ .

(مايو) ١٩٣٨ ، فان أيا من « دوسون » أو « بارينغتون ـ وارد » لم يستشره قبل المناداة علنا بوجوب التنازل عن منطقة « السوديت » المحصنة التشيكوسلوفاكية لألمانيا . وقد أدرك ليدل هارت بوضوح الآثار الاستراتيجية الواضحة لمثل هذه التضحية ، وكتب في وقت لاحق انه اصيب بصدمة وغثيان ازاء لهجة المسؤ ولين الكبيرين في التايمز . ومع ذلك فان تقديره للوضع كان يردد ـ الى حد كبير ـ صدى التقديرات المتشائمة لرؤ ساء الاركان . صحيح انه كان يشك فيما اذا كان بمقدرة الالمان غزو تشيكسلوفاكيا طالما ان فرنسا كانت تشكل شاغلا له في الغرب . وهو من ناحية اخرى لم يتوقع ان تقوم فرنسا بهجوم واسع جاد سواء على البر او في الجو . بل استنتج ـ على نحو ضعيف ـ أن « افضل امل لاجبار المانيا على التخلي عن مستقرها [في منطقة حدود تشيكوسلوفاكيا] هو تطوير ضغط اقتصادي عام ، من شأنه ان يتدعم بعزلة معنوية » . وكان الدرس الرئيسي الذي استقاه من الأزمة ان بريطانيا وفرنسا منعتا من القيام بعمل هجومي بفعل ضعف دفاعاتهما ضد هجوم جوي[٢٤] .

كيف اثرت نتيجة أزمة ميونخ على آراء ليدل هارت حول المسؤولية المحدودة ؟ لقد مارس ليدل هارت الضغط بنجاح من أجل اتخاذ الاستعدادات لالتزام قاري بري يدرج في أدنى سلم اولويات الجيش ، وبعد اسابيع قليلة بدأ ليدل هارت يشك في حكمة هذا القرار . وفي وقت مبكر يرجع الى ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٣٨ اشار في مقال افتتاحي بصحيفة التايمز ـ الى أن التوتر المتزايد في أوروبا قد يستلزم ارسال قوة ميدان الى القارة ، وان كان قد أكد أن قوة ميكانيكية من شأنها أن تكون اكبر قيمة للفرنسيين من فرق مشاة . وفي تموز (يوليو) حث كل من « بول رينو » Paul Raynaud والملحق العسكري الفرنسي الجنرال لولونغ le long ـ على أن تستعد بريطانيا لارسال قوات ميكانيكية ـ حيث اقترح الاول ان يكون عدد الاجمالي ـ متواضعا ـ ٦٠ الف جندي .. أما ليدل هارت فقد ذهب في العام ١٩٣٩ اولا ـ وبصورة أكثر حزما في السنوات التالية ـ الى ان تحطيم نظام التحالف الفرنسي ، الى جانب فقدان قوات تشيكوسلوفاكيا ومصانع الاسلحة فيها لالمانيا ، قد حول الوضع وأقنعه بانه يتعين على بريطانيا بعد كل شيء ان تبذل اقصى جهدها لاستعادة التوازن عن طريق قبول التزام قاري على البر . وقد كان من شأن نقاد سياسة المسؤولية المحدودة أن يقولوا بأن تسوية « ميونخ » لم تخلق وضعا جديدا بصورة جذرية الى الحد الذي يؤكد ضرورة قيام بريطانيا بدور نشط في الدفاع عن مصالحها الحيوية في اوروبا الغربية . ورد فعل اللواء سير « هنري باونول » ـ الذي كان عندئذ مديرا للعمليات العسكرية ـ مثال على ذلك :

نشر ليدل هارت مقالين في التايمز . الاول [في ٦/١٧] عن استخدام القوة الميدانية . وهو يبدي قلقا من أن الاحداث الاخيرة قد جعلت المؤشر يتجه نحو الالتزام الغربي ، الامر الذي يبغضه . ولكن من المثير للاهتمام أن نلاحظ انه ـ بعد كتابة اتسمت بالالتباس واستنباطاته الزائفة

---

(٢٤) الذكريات المجلد الثاني ، ص ص ١٦٠ ـ ١٧٢ .

المعتادة من التاريخ ـ يستنتج انه قد يكون من الحكمة انه يتم الاحتفاظ . . . بفرقنا من المشاة ، لمهام اخرى تتناسب معها أكثر ولا بد ان تكون لدينا قوات متوفرة لها . . . بلجيكا . . . هولندا . . . » وهكذا فان مؤشره يميل هو الآخر ! »[٢٥] .

لا توحي كتابات ليدل هارت في الشهور التي أعقبت ميونخ بأن تحوله الى الحاجة لالتزام قاري كان مفاجئا أو كاملا . وينبغي ان نتذكر ـ انصافا ـ انه كان قد أصبح في ذلك الوقت شخصا غير مرغوب فيه بالنسبة لـ « دوسون » و « بارنغتون ـ وارد » وأنه وجد صعوبة متزايدة في نشر وجهات نظره حول الوضع الاستراتيجي المتدهور. وعلى سبيل المثال منع نشر مقالين هامين بعنوان : « جيش عبر القنال ؟ » كان قد كتبها في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٨ حتى ٧ و ٨ شباط (فبراير) ١٩٣٩ ، حينما نشرا في أعقاب بيان « تشيمبرلين » بانه اكد للفرنسيين دعم بريطانيا لهم في البر .

وحتى رغم هذا ، ودون ان يكون التفسير الذي قدمه ليدل هارت فيما بعد في كتابه الذكريات متاحا للقراء المعاصرين ـ من السهل أن نفهم لماذا يتكون لديهم (ولدى من قاموا بجمع كتاب تاريخ التايمز بعد ذلك) اعتقاد بأن نيته كانت متجهة مع ذلك إلى معارضة الالتزام القاري . وعلى سبيل المثال كتب اللواء سير « ادوارد سبيرز » Edward Spears انهّ قرأ مقال ليدل هارت (في ٧ شباط) باهتمام وفي الوقت نفسه بقلق شديد . . . لست أعرف ماذا سيأتي ، ولكنني أرجوكم الا يغيب بصركم عن حقيقة أنه كان من الواضح ـ من البحث الشامل للغاية الذي قمت به أخيرا للرأي العام الفرنسي ـ أن فرنسا لن ترضى بأن تقوم بكل القتال بينما نكتفي نحن ـ تحت أية ذريعة يمكن ان نختار اختلاقها ـ بالاستعداد لنوع من الحرب لا ينطوي على تضحيات مماثلة . . . » . أما تفسير ليدل هارت فهو أنه اضطر لأن يعيد تلخيص كل النقاط التي كان متفقا فيها مع « بارنغتون ـ وارد » قبل أن ينزلقا الى خلافهما المرير في النهاية . ومن المؤكد أنه كان قد نصح « أنطوني ايدن » بالفعل في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ بأنه نتيجة لميونخ أصبح من الضروري ارسال تعزيزات برية بريطانية الى فرنسا في حالة نشوب الحرب . أما أين أصاب سمعته بضرر بليغ فذلك كان بإعادة نشر حجج « المسؤولية المحدودة » في كتابه الدفاع عن بريطانيا في تموز (يوليو) ١٩٣٩ ، في وقت كانت فيه بريطانيا قد دخلت في التزام عسكري تجاه فرنسا اكثر تحديدا مما كان الحال قبل العام ١٩١٤ وحينما كان من الواضح أن قوة الطوارىء البريطانية ستعبر القنال (الانكليزي) بمجرد اندلاع الحرب ، ميكانيكية كانت أم لا . فبينما قبل فكرة أن بريطانيا لم تكن تستطيع خوض مخاطرة رؤية فرنسا تسقط ، فانه كان لا يزال يتساءل عن الحاجة إلى اسهام بري في دعمها .

---

(٢٥) المصدر نفسه ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤ . رئيس الاركان ، المصدر المذكور ، ص ١٥٢ . للاطلاع على اعتراف مبكر من ليدل هارت بأن التزاما قاريا هو أمر ضروري ، انظر مذكرته في اليوميات ، ٢٩/ ١/ ١٩٣٩ (١١/ ١٩٣٩/ ٦) .

« حينما تؤخذ في الحسبان قوة الدفاع الحديث ، فان الطول المحدود للحدود الالمانية الفرنسية بالنسبة الى حجم الجيش الفرنسي ، وقوة التحصينات هناك ، ليس من السهل أن نتخيل أن يكون لأي انقضاض عليها فرصة كبيرة للنجاح . انما الفرصة الاكبر تكمن في مفاجأة أولية ؛ غير أن قوتنا الميدانية لا يكاد يكون من الممكن أن تصل الى المكان في الوقت المناسب للمساعدة في تجنب ذلك . فبمجرد أن يعبأ الجيش الفرنسي فان هذه القوة الميدانية ـ التي تغلب عليها المشاة ـ لن تضيف إلا النذر اليسير إلى قوته . فقد تصبح قيمتها له أقل بكثير من مخاطرة استدراجنا ـ تدريجيا ـ إلى مجهود جديد على البر لا يتيح غير احتمال ضئيل بالنسبة للنتيجة وقدرا من الاجهاد يفوق حتى ماكان في الحرب الاخيرة »[٢٦] .

ما الذي يمكن للمرء أن يستنتجه في حالة ليدل هارت الغريبة وعقيدة المسؤولية المحدودة ؟ على الرغم من أن الحجج التي تساعد في صف تكوين قوة ميكانيكية صغيرة ذات مستوى عال من النوعية ، وهي قوة لم تمتلكها بريطانيا قبل العام ١٩٣٩ ـ تبدو حججا معقولة ، فان هناك انطباعا قويا بأن ليدل هارت كان في الاساس معارضا لفكرة ارسال حتى ولو جندي واحد الى القارة (الأوروبية) خشية تكرار تجربة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الرهيبة . مثل هذا الموقف مفهوم جدا بالطبع وكان يشارك فيه كثيرون . ولكن اذا كان لبريطانيا أبدا خيار في الأمر يمكن أن يكون موضوعا للشك ، ما لم تكن الحكومة مستعدة لدفع سياسة التهدئة الى مدى أبعد بالسعي إلى عقد معاهدة عدم اعتداء مع هتلر . وبعد آذار (مارس) ١٩٣٩ اختفى حتى ذلك الطريق غير المحتمل للهروب .

ولو كان ليدل هارت قد تحول تحولا كاملا الى الاقتناع بالحاجة الى دور قاري للجيش ، هل كان من شأن نفوذه أن يحدث أي تغيير ؟ أن نفوذ الكتاب والخارجيين بشكل عام على القرارات العسكرية والسياسية يصعب تقديره إلى حد معروف . لقد كانت أفكار ليدل هارت تظهر خلال السنوات بين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ في اعمدة صحيفة التايمز النافذة ، وهي الصحيفة التي كان من المعروف ان لرئيس تحريرها ونائبه علاقات وثيقة للغاية مع كثير من الزعماء السياسيين ، وخاصة في حزب المحافظين . وقد اسهم ذلك بقدر كبير في تأمين قرار له في الاوساط اليمينية .

وبوجه عام ـ فيما عدا الحالات التي يكون فيها الشخص الخارجي على اتصال مستمر بوزير ، كما كان حال ليدل هارت مع هور ـ بيليشا في الفترة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ـ كان الاكثر ترجيحا أن توضح افكاره وتدعم اتجاهات فكرية اكثر من أن تخلق افكارا جديدة بصورة جذرية . و في الحالة موضوع نظرنا الآن كان « نيفيل تشيمبرلين » وكثيرون آخرون عازفين غريزيا عن قبول الدخول في التزام قاري من اللحظة التي اصبح فيها الموضوع مسألة دفاعية رئيسية في أعقاب نشر التقرير الاول للجنة المتطلبات الدفاعية في شباط (فبراير) ١٩٣٤ . ومع ذلك فانه مع استمرار المجادلات كان من الامور التي لها قيمة لا شك فيها أن تحصل الفكرة على التأييد العام وأن تنشر

(٢٦) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨ . الدفاع عن بريطانيا ، ص ٢٠٩ .

الحجج التفصيلية لمراسل صحيفة التايمز الذي كان اسمه معروفا على نطاق واسع (على الرغم من أنه كان مجهولا رسميا) .

وعندما ينتقل المرء من المشكلة المجردة الخاصة بتأثير الفكر على العمل الى مسائل عملية مثل لما كان ليدل هارت يقدم نصائحه ، وماذا كان يقول لهم وكيف كانوا يستجيبون ، عندئذ يكون هناك دليل قوي على انه كان يمارس نفوذا كبيرا حقا . وصحيح ان معظم الادلة ـ التي جمعت وقدمت في كتابه الذكريات ـ تجتني في من محفوظاته الخاصة الضخمة ؛ فهو قد يسيء تقديم رأي آخر بطريقة خالية من الذكاء في بعض الاحيان ، او على العكس ـ يسيء الحكم على تأثير آرائه هو . ولكن ـ في مقابل هذا ـ فان ولعه الشديد بالحقيقة ينبغي ألا يستهان به . كذلك فان العادة التي لازمته طوال حياته ، عادة توزيع نسخ لا حصر لها من مذكراته ، وفرت محكا مفيدا لكشف الاخطاء المتعلقة بالواقع أو بالرأي .

ومن المثير للسخرية ان نفكر أنه ربما كان قد مارس نفوذا في بريطانيا على تشكيل السياسة والاستراتيجية من خلال عقيدته عن المسؤولية المحدودة . اكبر مما مارسه على تطور القوات المدرعة التي ارتبط اسمه غالبا بها .

فاذا أخذنا علاقات ليدل هارت بالجنود اولا ، يتضح أن كثيرين منهم من ذوي الرتب العليا يشاركونه معارضته لدور قاري للجيش . ويمكن أن يعزى هذا الموقف لعاملين مرتبطين : تجربتهم في الحرب العالمية الأولى ، ومعرفتهم المباشرة بعدم استعداد الجيش الكامل لمواجهة دولة اوروبية كبرى . وعلى سبيل المثال فان الجنرال سير « جون بيرنيت ـ ستيوارت » (الذي ارتبط اسمه عادة باسم ليدل هارت باعتبارهما من اكبر خصوم دور أوروبي للجيش) كتب لصحيفة التايمز في إواخر شهر آذار (مارس) ١٩٣٩ :

« الدراسات الاكاديمية بشأن ما اذا كان ينبغي لنا ، أو ينبغي الا نرسل جيشا عبر القنال لدعم فرنسا اذا ما هوجمت هي دراسات مثيرة للاهتمام . ولكن السؤال الفوري عما اذا كان سيتم ارسال جيش بريطاني فعلا ينبغي ان يكون سؤالا تسهل الاجابة عليه . اننا لا نملك جيشا نرسله الى المساعدة الفورية لفرنسا ؛ وما لم نكن مستعدين لأن نضيف الى مؤسساتنا النظامية بقدر هائل ، وأن نجد وسيلة اكثر فعالية بكثير لملئها بالرجال وبالاحتياطيين المدربين بما يفوق كثيرا ما هو موجود في الوقت الحاضر ، فأننا لن نملك مثل هذه القوة أبداً » .

وبالمثل ـ في ٥ شباط (فبراير) ١٩٣٨ لاحظ الجنرال سير « ادمون ايرنسايد » Edmund Ironside في يومياته :

ليس لدينا التزام قاري الآن . ولقد أبلغت مؤتمر القارة بأن جيوشنا Corps الصغيرة البائسة المكونة من فرقتين وفرقة متحركة واحدة لا يمكن التفكير فيها كاسهام في جيش يذهب الى فرنسا . ولا

شيء غيرها لدينا . فلنضع خططا للامبراطورية وحدها . وبعد كل شيء ، سوف يضطر السياسيون لأن يرفضوا مساعدة فرنسا وبلجيكاحينها يبدأ عرض العام ١٩١٤ من جديد .

وتكشف هذه الجملة الاخيرة الكثير ، لأنه على الرغم من أن ضباطاً كثيرين آخرين اعربوا عن وجهات نظر « مناهضة للقارة » ، بمن فيهم « فوللر » ، « بايل » ، « غورت » ، و « منتغمري » ، فان معظمهم كان يدرك انه مهما كانت الأولويات المرسومة للجيش في وقت السلم ، فانه اذا نشبت حرب مرة اخرى في أوروبا فانه سيتعين ارسال قوة بريطانية ، مهما كانت سيئة الاستعداد[٢٧] .

يبدو أن قليلين من القادة أدركوا هذه الحقيقة الكريهة بصورة اكثر حزما مما ادركها سير « هنري باونول » ، الذي كانت مهمته الاساسية بعد أن اصبح مديرا للعمليات العسكرية في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٨ أن يقنع الحكومة بأن تقبل أن على الجيش أن يستعد لدور أوروبي . وهذا هو السبب ـ الى حد كبير ـ في الملاحظات المريرة التي وجهها الى ليدل هارت ، و « برنيت ـ ستيوارت » وآخرين ممن قدموا حججا معقولة للبرهنة على الرأي المعارض . ففي أول لقاء له مع « هور ـ بيليشا » ـ بعد أن أصبح مديرا للعمليات العسكرية ـ قال « باونول » بصراحة للوزير :

« كان اعتقادي الجازم انه اذا ما تورطنا في حرب أوروبية كبرى عاجلا أو آجلا ، وأني لأعتقد أنه عاجلا ، فانه سيتعين ارسال قوات بريطانية الى فرنسا . فاذا لم ندرك ذلك ، او اذا تم تجاهله في وقت السلم فان القوات ستذهب الى هناك غير مدربة وسيئة التجهيز بالنسبة لهدفها . وستكون النتائج محزنة .

وفي مذكرة في شهر شباط (فبراير) ١٩٣٨ ، تستنكر نجاح وزير التنسيق الدفاعي (سير توماس اينسكيب Thomas Inskip) في انزال الدور الأوروبي للجيش لأدنى درجات الاولوية ، استنتج « باونول » :

وجهة نظري أن دعم فرنسا هو دفاع داخلي ـ فاذا تصدعت فرنسا سقطنا نحن . وهنا يكمن زيف حجته . وانظروا كيف يتم تبديل الدور بما يتناسب مع كيس النقود . ان الذيل يهز الكلب . ويستطيع المرء أن يرى انه لا يحبذ هذا الدور لأنه يطلب من زملائه الوزراء « أن يشاركوه المسؤولية » . وهو يقول اذا كانت فرنسا معرضة للاجتياح واذا تعين علينا ان نرسل جيشا لمساعدتها ، فان الحكومة القائمة يومها ستتعرض للنقد لأنها اهملت الاستعداد لمواجهة طارىء على هذا القدر من الوضوح » .

انها لقصة محزنة . فماذا عن القوات السيئة الطالع ؟ »[٢٨] .

---

(٢٧) نسخة من رسالة « بيرنيت ـ ستيوارت » التايمز في اوراقه ، بدون تاريخ ولكنها نشرت في ٤/ ٣/ ١٩٣٩ .
R. Macleod and D.Kelly (eds.) **The Ironside Diaries ,1937-41** , P. 48 .

(٢٨) رئيس الاركان ، المصدر المذكور ، ص ص١٢٣ ، ١٢٩ .

على النقيض من المعاني الضخمة لكتابات ليدل هارت ، من الصعب ان نجد جنديا واحدا مسؤولا يعتقد انه كان من الممكن أو من المرغوب فيه تكوين جيش ضخم ، يتألف اساسا من المشاة على أسس ١٩١٤ ـ ١٩١٨ نفسها . وهم لم يكونوا يدعون للتجنيد الاجباري لانهم كانوا في الحقيقة متفقين مع ليدل هارت في القول بأن هذا من شأنه ان يكون عائقاً أمام تدريب وتجهيز القوات الموجودة . وكانت نقطة الضعف المشتركة في ضابط الاركان العامة النموذجي ـ من امثال « باونول » ، « هيننغ » Haining ، و « ديل » Dill ـ انهم كانوا فاتري الحماس نحو المكننة وغامضين في أفكارهم بشأن التحديد الدقيق لماهية الدور القاري الذي تستطيع أن تلعبه قوة طوارىء بريطانية صغيرة ناقصة التجهيز ومن ناحية أخرى فان تأخر الحكومة الناشيء عن عدم اتخاذها قرارا ـ حتى شباط (فبراير) ١٩٣٩ ـ بضرورة استعداد الجيش النظامي (لا الاقليميين حتى في ذلك الوقت) لحرب أوروبية ، كانت له آثار خطيرة للغاية على كل جانب من جوانب التنظيم والتخطيط والتجهيز . اما ماذا كان يمكن ان يحدث لقوة الطوارىء البريطانية لو ان هتلر شن هجومه المعتزم في الغرب في خريف العام ١٩٣٩ ، فهو امر لا يكاد يكون التفكير فيه محتملا .

ابلغ « داف كوبر » Duff Cooper ـ وهو آحد الاعضاء القليلين بمجلس الوزراء الذين كانوا يؤ يدون الالتزام القاري ـ ابلغ ليدل هارت أنه كان آسفا للغاية لترك وزارة الحرب (في أيار ١٩٣٧) . ووفقا لمذكرة ليدل هارت عن الحوار الذي دار بينهما فانه : « تجادل مع « نيفيل » (تشيمبرلين) . ولكن « نيفيل » لم يكن واقعا تحت تأثير حجج (ليدل هارت) وحجج « جون ستيوارت » عن قوة الطوارىء البريطانية ، ولم يكن يشعر بأنه يستحسن ان يقوم شخص آخر بتنفيذ سياسته . فلم يكن منصفا لـ « د . ف . » (أي داف كوبر) . وتظاهر « د . ف . » بالاحترام وقال أنه كان يأمل ان يواصل مهمته وانه يستطيع ان ينفذ (هذه السياسة) ولكن نيفيل بقي على عناده » . كذلك أبلغ رئيس الاركان العامة الامبراطورية ـ سير « سيريل ديفيريل » ـ ليدل هارت (« بطريقة ودية ») بان مقالاته في التايمز قد زادت مائة بالمائة من الصعوبات التي يواجهها في الحصول على الاموال من الحكومة للجيش . فقد أدت بالوزراء لأن يثيرو الحجة القائلة بأن « الحاجة هي الى رجال بوليس فحسب » . وكان لدى « ايرنسايد » الانطباع نفسه ، اذ قال لضباطه أن « رئيس الاركان العامة الامبراطورية يعارض صراحة ، محاولة الحصول على الاموال لهذه الاغراض . ان « نيفيل تشيمبرلين » لن يعطي نقودا للجيش ، فكلما يبدو أن بعض مقالات ليدل هارت وغيره تعني لسنا بحاجة الى جيش » . وعبر نصير متحمس للمكننة ـ هو العميد « مارتيل » ـ عن قلقه ـ لليدل هارت ـ من أن رسائل « بيرنيت ـ ستيوارت » الى « التايمز » يمكن أن تعرقل تطوير الدبابات » . [29] .

---

(٢٩) مذكرة ليدل هارت المخطوطة في ٣/ ٦/ ١٩٣٧ ، ١١/ ١٩٣٧/ ٤٩ . حديث مع سير « سيريل ديفيريل » في ٢٩/ ٦/ ١٩٣٧ . حديث مع البريجادير « مارتيل » في ٢٨/ ١١/ ١٩٣٨ ، ١١/ ١٩٣٨/ ١٢٢ يوميات باكنهام ـ وولش ، ١٦/ ١٢/ ١٩٣٦ .

هذه الشكوك تردها الوثائق المتاحة الآن في ادارة المحفوظات العامة . وعلى سبيل المثال فان رسالة ليدل هارت في صحيفة التايمز يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ عن « دور الجيش » شكلت نقطة البداية لملف ضخم من المذكرات والرسائل التي حاول فيها « باونول » و « هايكي » وغيرهما اقناع « إينسكيب » ، «هور - بيليشا» ومجلس الوزراء بالحاجة الى دور قاري للجيش . وكان احد الاهداف الرئيسية للحكومة من وراء التخلي عن مثل هذا الدور في شباط (فبراير) ١٩٣٨ كان خفض النفقات . وقد أبلغ لورد « غورت » « هانكي » بأن توفيره (أي توفير « اينسكيب ») الضخم البالغ ١٤ مليون جنيه قد تم الى حد كبير على حساب الدبابات ، وجزئيا على حساب الذخيرة . لقد تخلى عن فكرة انتاج دبابات ثقيلة ومتوسطة وتراجع فيما يتعلق بالدبابات الطوافة والخفيفية «Cruiser» . وبين « غورت » ان هذه التخفيضات يمكن أن تعني ان الجيش لن يكون مجهزا تجهيزا كافيا حتى لحرب ضد ايطاليا في مصر[٣٠] .

وقد ادى انشغال ليدل هارت بتفوق الجانب الدفاعي ، مع إعتقاده بأنه ينبغي ألا يكون من العسير ردع معتد ، إلى وضعه في موقف جيد فيما يتعلق بموضوع الدفاع الجوي لبريطانيا العظمى (A.D.G.B.) . فبحلول أواخر الثلاثينات كان قد كف عن اهتمامه القصير بالقذف الاستراتيجي ، وأصبح اكثر ثقة بأن بامكان الاجراءات الدفاعية ان تكون فعالة ضده . وعلى الرغم من أنه كان يملك اتصالات مع رجال الجو البارزين أقل من اتصالاته مع رجال الجيش (واتصالات أقل حتى من ذلك مع البحارة) فانه كان يتمتع بعلاقات وثيقة مع الأمينين الدائمين المتعاقبين في وزارة الطيران « سير كرسيتوفر بولوك » Christopher Bullock وسير « دونالد بانكس » Donalad Banks . وكان ليدل هارت طوال الثلاثينات - وخاصة نتيجة للضعف الذي كشفت عنه ازمة « ميونخ » - يدافع عن قضية الدفاع الداخلي ضد التشاؤم المتفشي والقائم على الاعتقاد بأن « القاذفة ستستطيع دائما أن تخترق » وأن تسبب خسائر بشرية هائلة . وقد قدر مارشال الجو « جوبيردي لافورتيه » Joubert de la forté (قائد المنطقة الساحلية) - في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٦ - أن باستطاعة المانيا ان تشن هجوما جويا مفاجئا على بريطانيا خلال ساعتين من اعلان الحرب . ونبلي بلاء حسنا اذا استطعنا ان نسقط قاذفة واحدة من كل تسع قاذفات . عندئذ لا يستطيع العدو ان يواصل هجماته المستمرة إلا لمدة شهر ، ولكن هل يستطيع البلد أن يصمد لشهر من الضرب المتواصل ؟ بل أن سير« دونالد بانكس » كان حتى أكثر انزعاجا من ذلك . وقد لاحظ ليدل هارت بعد غداء معه في أيار (مايو) ١٩٣٧ :

> انه قلق الى حد خطير من زنة القنابل التي يمكن الآن أن تلقى على انكلترا في يوم واحد - ٢٠٠٠ طائرة ، اكثر من نصفها قاذفات ذات حمولة طن أو أكثر .

> يعتقد ان الالمان ليست لديهم أدنى فكرة عن خططنا للانتقال الى عاصمة بديلة ، تماما كما اننا

(٣٠) برقية ٢١/ ٥١٠ من « هايكي » الى « اينسكيب » ، ٧ آذار (مارس) ١٩٣٨ .

غير واثقين من خططهم . فالمباني التي لاحظناها في « ميونخ » يمكن أن تكون لمجرد التعمية ، وانهم يعتزمون البقاء في برلين ، او في ضواحيها .

كذلك قد يكون من الضروري اعتبار لندن مدينة لا يمكن الدفاع عنها .

قد يتعين علينا ان نتحمل مليون اصابة بشرية ـ وليست لدينا ترتيبات كافية لمستشفيات ، ولا مصادر . مشكلات لم نقس مداها بعد(٣١) .

ولكن ليدل هارت ، على النقيض من ذلك ـ استمد قدرا من الارتياح من دروس الحرب الاهلية الاسبانية ، فكتب الى « ايرنسايد » :

فيما يتعلق بخطر القوة الجوية ـ مثلا ـ يتعين علينا ان نعتمد اساسا على استنباطات من ادلة التطور التقني حتى وقت متأخر . والآن فان الحبشة واسبانيا توفران لنا أساسا لقدر من التشجيع فيما يتعلق بالأثر الرادع للنيران المضادة للطائرات او الاثر الفعلي للمقاتلات، بما يجعل المرء يعرف هذا ـ وان كان ذلك بقدر من الحذر ـ طالما ان عدد الطائرات القاذفة في اسبانيا كان صغيرا الى اقصى حد ، حتى بمقاييس الحرب الاخيرة .

انني أجد ـ أيضا ـ انه على الرغم من هذا الدليل المشجع يميل خبراء الدفاع المضاد للطائرات ـ في اعترافاتهم غير العلنية ـ لان يكونوا متشككين للغاية في فرصهم لاصابة القاذفات ، وخاصة في ظل ظروفنا المناخية . ومن ناحية اخرى ، اعتقد أننا نقف على أساس امتن من هذا حينما نضع تقديرا أكثر تواضعا عن الاثر المادي للقذف ، في تميزه عن الاثر النفسي . وحتى الاثر النفسي يمكن قصره على حده الادنى عن طريق استعداد وتعليم كافيين(٣٢) .

ان جهوده المؤدية للدفاع الجوي قد اصيبت بالشلل بسبب جهله ـ حتى العام ١٩٣٩ ـ بالتطوير السري للرادار . وكان لهذا نتيجة مضحكة . ففي أيار (مايو) ١٩٣٧ ارسل الى سير « توماس اينكسيب » بحثا عن « القوة الحمائية للشائعات القابلة للتصديق ، كانت فرضيته الأساسية فيها أن الخطر الذي ينبغي أن نخشاه كثيرا هو خطر الهجوم الجوي على مدننا وموانينا » . واقترح ليدل هارت اطلاق شائعة تقول اننا اكتشفنا سلاحا جديدا ضد الهجوم الجوي ، على أن نحتفظ بسر عدم وجود هذا السلاح في أصغر دائرة ممكنة . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ابلغ مارشال الجو سير « ولفريد فريمان »Wilfred Freeman والكابتن « جاك سليسور »Jack slessor الذي يبدو بوضوح انه كان يعرف بأمر الرادار) أبلغا ليدل هارت مصدر الشائعة عن غير قصد

---

(٣١) في يوم ٣٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٨ أبلغ المیجور جنرال سير ف . أ . « تيم بايل » ليدل هارت بأنه طبقا لحسابات الاركان الجوية، يمكن للألمان أن يلقوا حمولة ـ قصوى من ٦٠٠ طن قنابل يوميا على بريطانيا ؛ وأن ٦٠ ألفا سيقتلون في الاسبوع الأول ولكن الضغط يمكن أن يخف بعد شهر : ١١/١٩٣٨/ ١٠٥ .

(٣٢) ليدل هارت إلى « ايرنسايد » ، ١١ آذار (مارس) ١٩٣٧ .

انهما قلقان من قيام « اينسكيب » بنشر الفكرة القائلة باننا نملك اشعة فتاكة أو وسيلة مماثلة كدفاع ضد الهجوم الجوي[٣٣] . وكان هذا مثلا على المحاولات الخارجية للمساعدة التي يمكن ان تبسفر عن نتائج معاكسة .

وتبين التفاصيل المستفيضة التي يحكيها ليدل هارت في كتابه الذكريات انه كان قادرا ـ خاصة خلال فترة مشاركته مع « هور ـ بيليشا » ـ على ممارسة نفوذ كبير في جذب الانتباه الى الحاجة لقدر كبير للغاية من الاستعداد للدفاعات الارضية والجوية ضد الهجوم الجوي . ومع ذلك فانه في هذا المجال ايضا صنع أعـداء له ، سواء بين اعضاء الاركان الجوية الذين كانـوا يريدون ان تكون الاولوية للقاذفات ، وبين أولئك الاعضاء في الاركان العامة الذين كانوا يذهبون (مصيبين) إلى أن « الدفاع الجوي لبريطانيا العظمى » ، .A.D.G.B كان يحظى بأولوية على حساب استعـداد القوة الميدانية . Field force . وكان « غورت » ، « بروك » و « باونـول » بـين معـارضي ليدل هارت حول ما كانوا يعتبرون انه الانفاق المتناسب على الدفاع الجوي[٣٤] .

لقد سجل ليدل هارت تسجيلا دقيقا في الذكريات تأثيره على سياسة الحكومـة من خلال اتصالاته مع السياسيين الافراد . وكان ضمن السياسيين الذين يطلبون النصح منه « ايدن » ، « تشرشل » ، « هور »Hoare، « هاليفاكس »Halifax و « لوثيان »Lothian [٣٥] . وكما اشرنا بوضوح (في بداية الفصل الحالي) حينما كنا نناقش علاقاته مع كبار العسكريين ، فان تأثير ليدل هارت على مشكلة دور الجيش كان تأثيرا قويا بنوع خاص في العامين ١٩٣٧ و١٩٣٨ . اذ كانت نظرته العامة الاستراتيجية منسجمة مع نظرة « نيفيل تشيمبرلين » ، وكان يشاركه فيها على نطاق واسع كثيرون في اوساط الحكومة . وعندما أصبح « تشيمبرلين » رئيسيا للوزراء في أيار (مايو) ١٩٣٧ ، كان عاكفا بالفعل على ترتيب نظام أولويات الجيش الذي نوقش دون التوصل الى نتيجة طوال السنة السابقة . ولم يكن لدى « اينسكيب » ولا « هور ـ بيليشـا » ادنـى فهـم للمسائـل الاستراتيجية ، وكان رئيس الوزراء بحاجة الى خبير لمساندة وجهات نظره الخاصـة ضد اصرار رؤساء الاركان العنيد على ضرورة اعداد الجيش لحرب اوروبية . ومن أيار (مايو) ١٩٣٧ الى شباط (فبـراير) ١٩٣٨ ـ حينما تم التخلي في النهاية عن الالتـزام القـاري ـ قدم ليدل هارت مسودات المذكرات التي طرحها « هور ـ بيليشا » أمام مستشاريه العسكريين . وعندئذ انتقد ليدل هارت المذكرة المقدمة من هؤلاء ، وتسبب ـ من خلال « هور ـ بيليشا » في اعادة كتابة الصيغة

---

(٣٣) ١١/١٩٣٧/٣٨ و ٩٩ .

(٣٤) « الخطوط العامة للمعارضة لتطوير دفاع بريطانيا العظمى المضاد للطائرات » ، ٣٠/٧/١٩٣٨ ، ١١/١٩٣٨/ ٣٩ . « الدفاعي ضد الهجومي في الجو» . ٢٦/٥/١٩٣٨ ، ١١/١٩٣٨/ ٦٠ .

(٣٥) كان ليدل هارت على اتصال وثيق مع خصوم سياسة التهدئة البارزين بمن فيهم « تشرشل » . وقد سعى « لورد لويثان » بشكل خاص للحصول على نصيحة ليدل هارت حول المسائل الاستراتيجية قبل أن يصبح سفيرا لبريطانيا لدى الولايات المتحدة؛ انظر رسالته المؤرخة ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٣٩(الذكريات ، المجلد الثاني، ص ٢٤٨) .

النهائية عدة مرات قبل ان ترسل الى مجلس الوزراء . وفي صيف العام ١٩٣٧ نصح سير « توماس اينسكيب » أيضا بشأن مسألة دور الجيش[٣٦] .

تبنى تشيمبرلين » مفهوم المسؤولية المحدودة في الرسالة الوحيدة التي بعث بها الى ليدل هارت (في آذار ـ مارس ١٩٣٧) والتي كتب فيها :

« انني واثق أننا لن نعود ابدا الى ارسال جيش الى القارة على النطاق الذي فعلناه في الحرب العظمى » .

ومما يوضح الامر بالقدر نفسه اشارة رئيس الوزراء في رسالة الى « هور ـ بيليشا » في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ :

بين قراءات أخرى . قرأت كتاب أوروبا تحمل السلاح تأليف ليدل هارت . فاذا لم تكن قد قرأته ، فانك يمكن أن تجد من المثير للاهتمام ان تلقي نظرة عليه ، وخاصة على الفصل الذي يدور حول دور الجيش البريطاني »[٣٧] .

وهكذا كان ليدل هارت لمدة نحو عام من أيار (مايو) ١٩٣٧ بمثابة الموجّه الخفي وراء وزير الحرب ، ولكن ذلك كان دورا محفوفا بالمخاطر ولا يحسد عليه ، وقد اتضحت نتائجه العكسية سريعا . فلا عجب ان « غورت » و « آدم » وغيرهما ، ممن كان ليدل هارت يعتبرهم اصدقاء اصابهم البرود سريعا في موقفهم ازاءه حينما ادركوا انه كان يقدم التقارير بصفة غير رسمية « من خلف ظهورهم » الى « هور ـ بيليشا »[٣٨] . على أي حال كان ليدل هارت ذا ذهنية مستقلة الى حد بعيد للغاية وكان فرديا الى حد يمنعه من أن يبقى طويلا في موقع ربط اسمه بصورة محتومة ـ وان يكن بصورة غير منصفة ـ باخفاقات الحكومة . وبحلول ربيع العام ١٩٣٩ كان قد تخلص كليا من اوهام فيما يتعلق بتشيمبرلين وحكومته لقيامها بمضاعفة الجيش الاقليمي ، وادخال التجنيد الاجباري ، وتقديمها ضمانا غير عملي الى بولندا . وسيصدر الفصل التالي موقفه النقدي ازاء السياسة البريطانية والاستراتيجية الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية . وعلى الرغم من أن سياسيين مهمين ظلوا يستشيرونه ، فانه لم يعد أبدا الى القيام بمثل هذا الدور المباشر في صنع السياسة العسكرية .

ومن الضروري ، حين نقيم نقاط القوة ونقاط الضعف في فكر ليدل هارت العسكري في

---

(٣٦) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ص ٥٠ ـ ١٠٤ . أما كيف استقبلت الاركان العام اصرار ليدل هارت المتكرر على اعادة صياغة مذكرة « دور الجيش » فيمكن الاطلاع عليه في كتاب رئيس الاركان ، المصدر المذكور ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٣ .

(٣٧) الذكريات ، المجلد الاول ، ص ٣٨٦ ، المجلد الثاني ص ٣٩ .

(٣٨) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ص١٩ ، ٨٧ ـ ٨٨ ، ٢٥٠ . رئيس الآركان ص ص ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٩٠ : في وقت لاحق قال « هوبارت » لليدل هارت انه حينما كان يناقش افكارا بشأن التدريب مع « غورت » و « آدم » في شباط (فبراير) ١٩٣٨ قال الاول : « لسنا نريد أي مزيد من أفكار ليدل هارت ـ ان هناك الكثير منها وزيادة بالفعل » : ١١/ ١٩٤٠/ ٥

النصف الثاني من الثلاثينات ، ان نأخذ في اعتبارنا السياق التاريخي . اذ ان ليدل هارت ـ شأنه شأن كثيرين للغاية من ابناء جيله ـ لم يستطع ان يفلت من الآثار الرهيبة للحرب العالمية الاولى ، جزئيا من حيث التجربة المباشرة ، ولكن ربما اكثر من هذا من حيث الدراسة والتفكير اللذين تلوا التجربة المباشرة ، في اخطاء وعبث ادارتها . ومن الامور المفهومة أنه وكثيرين من معاصريه كانوا يريدون تحاشي تكرار تلك المذبحة بأي ثمن ـ خاصة اذا كانوا يعتقدون ـ مثل ليدل هارت ـ أنه كان بامكان بريطانيا ان تتحاشى التزاما عسكريا كاملا في العام ١٩١٤ بسهولة وامان نسبيين. ثانيا ، ان خبرة ليدل هارت الحقيقية ـ على الرغم من جولاته الواثقة في السياسة الخارجية والاستراتيجية الكبرى ـ تكمن في الجوانب التقنية والتكتيكية والعملياتية للحرب . وكان هذا هو المجال الذي شن فيه حملاته بكل حماس منذ الحرب العالمية الاولى ، والذي كان فيه تخلف الجيش البريطاني واضحا بصورة مؤلمة . وفي أواخر الثلاثينات لم تستطع حتى مهارة ليدل هارت في الكتابة ان تخفي الصراع داخل شخصيته بين رجل التكتيك العنيد المبهور بالتقنيات العملياتية الجديدة ، وبين الفيلسوف المفرط الحساسية ، ذي النزعة الانسانية ، الذي يبغض خنق الحرب وتدميرها ولا عقلانيتها الكاملة . ثالثا ، في محاولتنا لفهم موقفه لا بد أن نؤكد أنه لم يكن بالقطع ـ رغم ميله نحو سياسة العزلة ـ من المنادين بالتهدئة ، وانما وجد نفسه يكتب لأكثر الصحف اليومية نفوذا من الناحية السياسية ، وكان محرروها بالتأكيد من أنصار التهدئة . وكان سلوكه في هذه المحنة سلوكا مشرفا تماما ، ولكن سمعته عانت بالتأكيد من تلك العلاقة الغامضة . وأخيرا فان ، الحقيقة الاساسية التي تحتاج الى تأكيدها انه كان صحافيا تعين عليه ان ينشر بانتظام ليكسب لقمة عيشه . وليس القصد من هذا الايحاء بأنه لو كان قادرا على ان ينتظر الاحداث لكانت أفكاره الاساسية أتت مختلفة اختلافا جوهريا ؛ ومع ذلك فانه كان من المرجح ان تصبح مطروحة بعناية اكثر وتماسك اكبر مما كان الحال في المقالات والكتب التي القى بها في عجلة معا أثناء سنواته المرهقة مع صحيفة التايمز .

فاذا وضعنا هذه الظروف الملطفة موضع الاعتبار ، ما هي الانتقادات الرئيسية التي توجه ضد أنصار سياسة المسؤولية المحدودة البارزين ؟ لقد كان ليدل هارت رجلا بارعا للغاية ، وكان صحافيا موهوبا حقا ، ولكنه لم يكن متجردا و « علميا » كما كان يحب أن يتخيل . لقد كشفت الفصول السابقة انشغالاته وتحيزاته ، التي كانت حقا واضحة لبعض معاصريه . وقد خلقت ثقته الملحوظة بذاته وجو الاستاذية في المسائل العسكرية ، وان يكن كل منها رصيدا له على نحو ما ـ جوا من الاحتقار لتعليقاته على القادة العسكريين ، ولكنه كان يصاب بدهشة صادقة حينما كان يشير احد الى ذلك[٣٩] . ويمكن أن يقال ـ كنتيجة طبيعية لهذه النقطة ـ أنه لم يفعل الكثير في اتجاه

---

(٣٩) كتب « بيرنيت ـ ستيوارت » الى ليدل هارت في ١٩٣٢/٩/٢٠ : « تخيل نفسك الرأس المسؤول عن الجيش واقرأ كتابك (الطريقة البريطانية في الحرب) من هذه الزاوية . الم تكن لتحتقر الاتهامات الموجهة اليك بالعجز ؟ والم تكن كل الصعاب تواجهك ، الأمر الذي لاتسمح به كناقد ؟ انظر أيضا « تونّاس » ، المصدر المذكور ، ص ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

نقد التيارات العسكرية العليا البريطانية . وكان ليدل هارت ـ و « دافيد لو » David Low ـ محقين في الاعتقاد بأن « الكولونيل بليمبس » موجود فعلا في القيادة العليا ، ولكن يوميات وسير حياة أولئك العاملين داخل المؤسسات الدفاعية ، مثل هانكي » ، « باونول » و « ايزماي » Ismay تقدم تصحيحا جوهريا للأسطورة البطولية عن « التقدميين » و « الرجعيين » على النحو الذي يصفه ليدل هارت في كتابه الذكريات .

عيب آخر حاول هذا الفصل كشفه هو أن تناول ليدل هارت لصياغة السياسة الدفاعية القومية قد بولغ في تقديره كثيرا ازاء اعتبارات تكتيكية . فهو مثلا ناقش المسألة الدقيقة الخاصة باسهام بريطانيا الممكن تجاه حلفائها القاريين على نحو اقتصر تماما على رؤية المسألة من زاوية عجزها عن المشاركة في عمليات متحركة مستخدمة وحدات ميكانيكية . فقد مال ـ هو ومن كانوا يتفقون معه في الحكومة ـ إلى التهوين من القيمة السياسية والاخلاقية لتعهد محدد بالمشاركة في الدفاعات الارضية لبلجيكا وفرنسا(٤٠) .

ليس من السهل أبدا الاجابة عن السؤال عما اذا كان ليدل هارت قد تنبأ بدقة باتجاه الاحداث العسكرية في العام ١٩٣٩ والعام ١٩٤٠ . فصحيح بالتأكيد أن كتاباته تحتوي على اشارات عديدة بحاجة الى اهمية الهجوم غير المباشر ، والتشتيت النفسي ، والتوغل في عمق دفاعات العدو لشل « جهازه العصبي » القيادي ؛ وهناك ـ أكثر تحديدا من هذا ـ اشارات توحي بأنه كان يرى في « اردين » Ardennes كطريق اقتراب ممكن غير متوقع الى فرنسا . ومع ذلك فان دراسة عن كثب لمؤلفاته بين العام ١٩٣٥ والعام ١٩٣٩ تترك انطباعا مناقضا بأنه كان قلقا من أن تخسر بريطانيا وفرنسا حربا عن طريق شن هجوم غير مسؤول ، اكثر مما كان قلقا من أن تتمكن المانيا كسب انتصار حاسم عن طريق البدء بالهجوم . وكما يلاحظ « لوفاس » : « لقد جاء تنبؤ « غورت » بامكان اقتحام الماني لفرنسا اقرب للوقائع من تنبؤ ل . هـ . (ليدل هارت) في هذا الوقت [١٩٣٧](٤١) .

وثمة وجه قصور آخر هو أنه لا يبدو انه ادرك أن الضغوط الاقتصادية ـ وكذلك التعصب

---

* يستخدم هذا الاسم Blimps في الانكليزية للدلالة على الشخص الساذج الذي يجهل تماما الشؤون العامة ومجرياتها في بلاده . « المترجم »

(٤٠) باستثناءات مشرقة قليلة ـ مثل « كوبر » و« وايدن » ، وفي النهاية « هاليفاكس » لم يبد أن أعضاء مجلس الوزراء كانوا يدركون ان مصير بريطانيا يرتبط في النهاية بمصير فرنسا ؛ وبدا ـ في مناقشتهم لدور الجيش ـ انهم يدعون الى« انكلترا نادرة ». انظر ـ مثلا ـ مناقشة لجنة الدفاع الامبراطورية يوم ١٥ كانون الاول(ديسمبر) ١٩٣٨ .

(٤١) في كتاب الدفاع عن بريطانيا ، ص ص ٢١٧ ـ ٢١٩ رأى ليدل هارت في « الاردين » ايضا رصيدا للمدافعين اكثر مما رأى فيها اقترابا مغطى للمهاجم .

الايديولوجي السائد في المانيا النازية ـ من شأنه أن يتبدى بصورة حتمية في الاسلوب المتبع في الحرب . فهو يذهب ـ بدلا من هذا ـ الى أن الجانب الدفاعي متفوق تماما الى حد انه سيصبح من المستحيل تقريبا أن يحقق المعتدي نتائج حاسمة . وكان كل ما يستطيع أن يأمله هو حرب محدودة على نمط حروب القرن الثامن عشر ، ولكن مع استخدام المكننة لخفض الخسائر البشرية . فهل كان ـ كما اشار « مايكل هوارد » يعرف ان حلفاء بريطانيا كانوا معرضين للهزيمة وأنه كتب « جزئيا لطمأنة نفسه ، وجزئيا لطمأنة الآخرين » وقوله كل شيء للتحذير من العودة الى الاستراتيجية الانتحارية للحرب العالمية الاولى ؟[٤٢] الارجح أنه كان مخطأ فحسب فيما يتعلق بطبيعة الحرب الوشيكة الوقوع . فمهما كانت مشاعره الخاصة ، فانه كان في العلن يتنبأ بتفوق الجانب الدفاعي وبالامكانية العملية للحرب المحدودة . وهكذا كان من المحتم أن تعاني سمعته تدهورا بعد احداث العامين ١٩٣٩ و ١٩٤٠ م على الرغم من أن بعض نقاده المعاصرين كانوا مفرطين في ظلمهم له حينما القوا على عاتقه مسؤولية « دانكرك »[٤٣] .

أما الفكرة الاخيرة فهي أنه بانكار الحاجة الى التزام قاري على البر ، كان ليدل هارت في الواقع العملي يقلل من قيمة جهوده الهرقلية الخاصة لاصلاح الجيش . ان مدرسة المسؤولية المحدودة ـ بالقائها ظلال الشك دائما على الدور الاوروبي خلال السنوات ١٩٣٤ ـ ١٩٣٧ ، ثم بوضعه في الترتيب الادنى في سلم الاولويات في العام ١٩٣٨ ـ قد اعطت الاسبقية في الحقيقة للمزاعم المتعارضة للأسلحة الاخرى ، وخاصة للدفاع الجوي لبريطانيا العظمى . اما مدى الاختلاف ـ اذا كان ثمة اختلاف ـ الذي كان يمكن ان يخلقه قرار مبكر باعداد الجيش لحرب اوروبية بالنسبة لاحداث الفترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ فهذا ما لا يمكن أن يعرف ـ طبعا على وجه اليقين .

ان من الصعب مقاومة الاستنتاج القائل بانه لو أن ليدل هارت كان غير منحاز فعلا في نظرته العامة لاستطاع ان يحتفظ بكل آرائه عن ضعف الجيش ، ولكان قد قبل ـ مع ذلك ـ حقيقة ـ ان التزاما قاريا امر لا مفر منه . ان حكم « مايكل هوارد » على هذه الفترة التعيسة قاس ولكنه عادل :

لم يؤكد أحد بهذا القدر من الالحاح على الحاجة الى تحليل متجرد من الاهواء كأساس للتاريخ والنظرية على السواء ؛ ولكنه هو نفسه حاول أن يهرب من محنة جيله بما كان ـ في سياق زمانه ـ شيئا اكثر قليلا من تبرير عقلاني لتفكير تحكمه أما في الحنين الى الوطن . [الى هذا الحد] فان خسوف نجمه لم يكن شيئا لا يستحقه »[٤٤] .

---

(٤٢) « مايكل هوارد » : « ليدل هارت » في مجلة Encounter ، نيسان (ابريل) ١٩٧٠ .

(٤٣) انظر الفصل المذكور اعلاه في كتاب صناع الاستراتيجية الحديثة . وسيشار الى عدم شعبية ليدل هارت في بداية الحرب في الفصل التالي .

(٤٤) « مايكل هوارد » في مجلة Encounter ، المصدر المذكور ، ص ٤٢ .

الفصل الخامس
ناقد الحرب الشاملة

كانت فترة الحرب العالمية الثانية ـ من منظور مهني فترة خيبة امل واحباط بالنسبة لليدل هارت . في ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ كتب : « كما انني عاجز عن فعل شيء فعال الآن لوقف هذا المسار المهلك ، فانني لا يعنيني ان أكون شريكا في جريمة التضحية اللامجدية بشباب الامة ، وتدمير الحضارة البريطانية » . وقد تخلى عن مركزه النافذ كمراسل دفاعي لصحيفة التايمز في خريف العام ١٩٣٩ جزئيا بسبب اختلافه مع سياسة هيئة تحرير الصحيفة ، ولكن أيضا لأنه اتخذ وجهة نظر محددة ازاء الحاجة لقول الصدق في زمن الحرب ، ولم يكن يعتقد بأنه سيسمح له بأن يفعل هذا في التايمز . وقد حد هذا الشك كثيرا من فرصه كصحافي جر في الشهور الاولى من الحرب ، ولكنه كان ـ من آذار (مارس) ١٩٤١ وما بعدها ـ المراسل الحربي الدائم لصحيفة ديلي ميل . ولم يعرض عليه أي منصب رسمي أثناء الحرب وظل من الخارجيين الى حد كبير .

ومن الناحية الشخصية فان صحته كانت تتدهور ببطء من النوبة القلبية التي أصابته نتيجة الافراط في العمل ، والتي أصيب بها في حزيران (يونيو) ١٩٣٩ . وبالاضافة الى هذا فان الهبوط المفاجيء في دخله قد وضعه في محنة اليمة بين رغبته في الحفاظ على استقامته ككاتب وحاجته لأن يكسب لقمة عيشه . وقد هب صديقاه « دوروتي Dorothy » و « ليونارد ايلمهيرست Leonard Elmhirst » لانقاذه بان عرضا عليه استخدام جزء من منزل في ضيعتهما في « دارتنغتون » مقابل ايجار ضئيل ، الامر الذي مكنه من ابقاء قاعدة عملياته في « ايفون » حتى حزيران (يونيو) ١٩٤١ عندما انتقل الى بناية « هاي راي » بالقرب من « املبسايد » في « وستمورلان » . وقد ثبت ان هذا المكان كان بمثابة ملاذ هنيء له لباقي فترة الحرب وكتب الى صديقة ـ « ڤيڤيان غاستر Vivian Gaster » ـ « بعد ان كنت بلا مكان املكه منذ العام ١٩٣٨ . امتلكت منزلاً مبهجا (له حديقة خضروات وبستان وحتى فريز بري « في الضيعة ») ومع ذلك فانه ينبغي الا نتخيل انه عاشق حياة قعود ريفية في هذين المكانين الساكنين ؛ اذ تكشف يومياته ، على العكس من ذلك ، عن حياة سفر دائم ، خاصة في صورة رحلات متكررة الى لندن ، وجولات منتظمة في مناطق التدريب

العسكري. وكانت إحدى مزايا مسكنه الجديد - كونه « قريباً بصورة ملائمة لساحة التدريب الخاصة بقواتنا المدرعة الجديدة في الشمال ، بقيادة صديق لي [هو الميجور جنرال « ب . ر . سي . هوبارت »] وهو نقيض مجدد للقوى للنمط العام من القادة » . ودخلت حياته المنزلية مرحلة ابهج عندما تمت اخيرا - في العام ١٩٤٢ - اجراءات طلاقه ، وتزوج من كاتلين نيلسون Kathleen Nelson التي كانت له منذ ذلك الوقت رفيقة مثالية وعونا في عمله .

لقد لاحظنا في نهاية الفصل السابق ان سمعة ليدل هارت اصيبت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية بحالة خسوف . وستتضح بعض اسباب هذا في الفصل الحالي ، ونكتفي هنا بأن نذكر أن « التهدئة » كانت قد أصبحت كلمة قذرة وان اسمه ارتبط (بدون وجه حق) باسم صحيفة التايمز التي كانت تؤ يد تلك السياسة ؛ وكذلك فإن تأكيده على تفوق الجانب الدفاعي والعجز النسبي للجانب الهجومي قد استغل من جانب كثير من النقاد كاساءة تقدير هائلة عندما اجتاحت المانيا الغرب في أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٤٠[١] .

أصيب ليدل هارت بفترة خسوف ايضا بمعنى آخر تمثلت في أن كثيرا من ميادين نفوذه على قادة الاسلحة والسياسيين في السلطة إما اغلقت تماما أو سدت مؤ قتا . ومما يدعو للسخرية أن بعض القادة الذين أمّن لهم ترقيتهم ، بمن فيهم « غورت » و« آدم » أصبحوا يعارضون في أخذ مشورته . وباختصار فانه خلال سنوات الحرب ، على النقيض مما كان في أواخر الثلاثينات - كان يعمل على مشارف عالم السياسة فحسب . فهو لم يكن يحتل أي منصب رسمي او استشاري ، ليس هذا فحسب ، بل إن السياسيين الرئيسيين الوحيدين اللذين كان على اتصال دائم معهما كانا « لويد جورج » Lloyd George (وهو نجم خبا سريعا بعد العام ١٩٤٠) و« بيفر بروك» Beaver brook الذي ترك مجلس الحرب نهائيا في شباط (فبراير) ١٩٤٢ . ولو أن أيا منهما خلف « تشرتشل » كرئيس للوزراء - كما تصور كثيرون لفترة قصيرة - لكان من المحتمل أن يدعى ليدل هارت ليصبح مستشارا عسكريا رسميا .

ومن المفارقات أنه في تطور فكر ليدل هارت كانت سنوات الحرب بين أكثر سنوات حياته العملية كلها اثارة للاهتمام ، وأقلها شهرة . ويحتوي المجلد الثاني من كتابه الذكريات على قسم ختامي قصير فحسب يتناول قصته من اندلاع الحرب الى سقوط فرنسا . كذلك يقف مقال « جاي - لوفاس » الواسع الاطلاع عند العام ١٩٤٠ ويلقي نظرة سريعة فحسب على المستقبل ؛ وعلى حين أن الفصل المضلل بعض الشيء في كتاب « إ . م . ايرل » صناع الاستراتيجية الحديثة كتب في وقت مبكر من فترة الحرب ؛ فانه لم ينقح أبدا . وفي وقت اقرب تركز اهتمام إما على نفوذ

---

(١) انظر - على سبيل المثال - الجنرال « مونتغمري - ماسينغبرد » في ملاحظاته الملتهبة في خطبته امام فرع لنكولنشاير للفيلق البريطاني يوم ٤ أيار (مايو) ١٩٤٠ ، ١١/ ١٩٤٠/ ٢٩ (كل الاشارات في هذا الفصل هي الى المجموعة ١١ ، ما لم نذكر غير ذلك) .

ليدل هارت على تطور الحرب المدرعة أو على جوانب من حياته العملية بعد العام ١٩٤٥ . ومن تجربة مؤلف هذا الكتاب (بريان بوند) فانه نادرا ما تحدث بصورة تلقائية عن سنوات الحرب .

وليس القصد من هذا الايحاء بانه كان يشعر بأن هناك شيئا سيئا يتعين اخفاؤه ، والحقيقة أنه كان قد اعتزم مبدئيا أن يواصل كتابة الذكريات ليصل الى العام ١٩٤٥ ، وذلك الى ان اصبحت طويلة الى حد الاستحالة . وعلى النقيض من ذلك فان انتقاده الدؤوب لشن حرب شاملة في سعي لا جدوى منه نحو سراب النصر ـ وان كان قد جعله يبدو كمهرطق في أعين الدوائر الرسمية ومنعه فعليا من القيام بدور نشط في الحرب ـ هذا الانتقاد الدؤوب تطلب نزاهة هائلة وشجاعة اخلاقية . بالاضافة الى هذا ، في المنظور الاطول مدى سقوط الاوهام في فترة ما بعد ١٩٤٥ ومع بزوغ الحرب الباردة ، بدت مطالبة ليدل هارت وقت الحرب بضبط السس تجاه العدو ، وتشاؤمه فيما يتعلق بامكانية تحقيق « انتصار » ذي مغزى ، بديا في ضوء اكثر ملاءمة .

ان مسار تفكيره أثناء الحرب موثق توثيقا جيدا للغاية في ملفاته ، حتى ان المشكلة هي ماذا يختار المرء من وسط الرسائل والمذكرات العديدة الهامة . وهنا لا بد أن نحسب لصالح ليدل هارت تقديره الشديد للحفاظ على السجل التاريخي الكامل ، بما في ذلك بعض ما يتحدث عن انتقادات لأفكاره حول الحرب . وهكذا يستطيع المؤرخ أن يكتشف بسهولة ، ليس فقط ما كان يفكر به ليدل هارت في أي وقت ، انما أيضا لمن كان يرسل افكاره ومذكراته العديدة ، وأية ردود كان يتلقاها . وباختصار فانه احتفظ بمصدر لا يمكن تقديره لوجهة النظر النقدية المناهضة للمؤسسة والمناهضة لوجهة نظر تشرتشل في الحرب العالمية الثانية ، وهو جانب سيلقى في حينه قدرا اكبر من الانتباه من جانب المؤرخين (٢) .

بدت وجهة نظر ليدل هارت في الاشهر الاولى من الحرب غير مألوفة ، ولكنها مع ذلك كانت تلقى تأييدا واسعا في البرلمان وفي البلاد . فبعد اندلاع الحرب اقترح مصالحة وتسوية عن طريق المفاوضات ، في الوقت تماما الذي كانت فيه الحكومة البريطانية ـ على السطح على الأقل ـ وأكثر منها الصحافة ، تستنكر هذه السياسة لاعتبار انها غير قابلة للتطبيق مع المانيا النازية . وعلى الرغم من أن ليدل هارت كان قد دعا الى الامن الجماعي في منتصف الثلاثينات وانتقد تسوية « ميونخ » ، فانه استنكر ردود فعل الحكومة البريطانية المتسرعة ازاء الاستيلاء النازي على تشيكوسلوفاكيا في آذار (مارس) ١٩٣٩ . وكان ناقدا مريرا للأخذ بالتجنيد الاجباري على أسس عسكرية وأخلاقية على السواء ، واعتبر تقديم ضمان الى بولندا دون تفاهم مصاحب مع الاتحاد السوفياتي اكبر حماقة ، واستفزازا صريحا لهتلر . ومن ثم كان يعتقد ان بريطانيا وفرنسا اختارتا

---

(٢) انظر دراسة « موريس كاولنغ » M.Cowling المتألقة

The Impact of Hitler: British politics and British Foreign Policy 1923-1940 (c.v.p.1975)

قضية عاطفية وغير مقنعة للذهاب الى الحرب من أجلها . وعلاوة على هذا فانه كان يتشكك ، على أسس عسكرية ، في الاحتمالات التي يمكن ان تسفر عنها عمليات هجومية : وقد عاد الى التأكيد بأنه كان مصيبا في الماضي فيما يتعلق بحالة بريطانيا وفرنسا . إلا أن قارئا غير متحيز لكتاباته قبل أيار (مايو) ١٩٤٠ سوف يستنبط بالتأكيد أنه كان يناقش فكرة الهجوم بوجه عام وأنه هون من قدرات المانيا ، فضلا عن قدرات اليابان .

لكل هذه الاسباب كان ليدل هارت منزعجا ازاء الصعود اللاعقلاني في النزعة التفاؤلية الوطنية المفرطة تأييدا لجهد حربي شامل لتأمين انتصار مبكر على المانيا ، وهي النزعة التي اجتاحت الوطن بعد اعلان الحرب كرد فعل حاد ازاء القبول المريق لماء الوجه بسياسة التهدئة . وينبغي النظر الى بعض افكاره الخاصة المثيرة للدهشة في تأييد صلح عن طريق المفاوضات مثلا ، في ضوء مجموعة كبيرة من الانفجارات الفجة والعدوانية وحتى الهستيرية . ولقد لاحظ في وقت مبكر للغاية يرجع الى ١٠ أيلول (سبتمبر) أن « لويد جورج »وكثيراً من الصحف يعلنون أن « لا مفاوضات مع ألمانيا » . وفي ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ أثار «تشرتشل» ، الذي كان يشغل مركز أمير البحرية الاول آنذاك ، First Lord of the Admiralty انتقاد ليدل هارت حينما وعد بنصر نهائي في حديث اذاعي . وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) القى « تشرتشل » بيانا « قتالياً » من الاذاعة أعلن فيه أننا إما أن نهزم وإما أن تنكسر وتحطم النازية والخطر الالماني على أوروبا . وعلق ليدل هارت قائلا : « لقد اطلق « تشرتشل » سلسلة من العبارات التي جعلت خطب هتلر « تبدو مهذبة » . ولسوء طالع ليدل هارت أن بلاغة « تشرتشل » الخطابية عن الوحشية النازية قد أثبتت أنها دقيقة . كما أنه لاحظ مجموعة من التصريحات الحمقاء لكل من « تشرتشل » ، « ايرنسايد » (الذي كان آنذاك رئيسا للأركان العامة للامبراطورية .C.I.G.S) و« تشيمبرلين » ، بما في ذلك تأكيد الاخير في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٠ ، بأن « هتلر قد فاته القطار » . وفي ١٨ شباط (فبراير) دعا « هور - بيليشا » - الذي كان قد أقصي مؤخرا عن وزارة الحرب - الى أن تهاجم بريطانيا روسيا في فنلندا وأن تمضي الى الاستيلاء على « لينينغراد » . كذلك حث الادميرال سير « روجز كييز » Roger Keyes و « ف . أ . فويغت » F.A. Voigt الى أن تهاجم بريطانيا كلا من المانيا والاتحاد السوفياتي . وقدمت مقالات جون غوردون J.Gordon في صحيفة صنداي تايمز أمثلة كثيرة للاختيار على التطرف الذي كان ليدل هارت يحاول كبحه . فقد كتب « غوردون » في ١٨ آب (اغسطس) « ان اولئك الذين تباهوا بانهم لا يعرفون الرحمة لا يستحقون الرحمة . . . مقابل كل قنبلة القيت على تراب بريطانيا . . . القوا ١٠ قنابل في قلب ألمانيا » . وقد تضمنت « قائمة المضلِّلين » التي وضعها ليدل هارت - بالاضافة الى هؤلاء - كلا من « رينو » ، « تشرتشل » ، « هـ . ج . ويلز » ولويد جورج . (بسبب ردود فعلهم المؤسفة ازاء استسلام بلجيكا) ، «برتراند راسل» (« لتخليه عن نزعته السلمية وتهليله للحرب من نيويورك ») و « كاساندرا » - « وليام كونر » معلق صحيفة ديلي ميرور ، الذي اصبح فيما بعد صديقا [لليدل هارت] - (« بسبب

حديثه الاذاعي المثير للاشمئزاز عن « وود هاوس » Wode howse) . وينبغي أن نؤكد أن هذه عينة صغيرة من الملفات[٣] .

من البداية كان ليدل هارت معارضاً بصورة حازمة لشن الحرب بضراوة ، ودعا بدلا من ذلك إلى أن تلح بريطانيا من أجل صلح عن طريق المفاوضات . وقد نشر بحثا وزعه على نطاق واسع في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ بعنوان « الحاجة إلى تقنية جديدة للحرب » ، وفيه ذهب إلى أنه بينما لا يمكن لبريطانيا وفرنسا الحاق الهزيمة بألمانيا ، فانهما تتمتعان بميزات معينة عليها ، بينما أن الشعب الألماني يعاني من سوء التغذية ويقع تحت ضغط عصبي .

« إن السعي إلى شن هجوم عسكري واسع ضد اليابان من شأنه أن يكون أقل الاستراتيجيات والسياسات حكمة من أية زاوية نظر . . .

واعلان بأننا نتخلى عن الهجوم العسكري كوسيلة لصد العدوان من شأنه أن يكون تصرفا بعيد النظر ، يقوي مركزنا المعنوي ، بينما يؤدي إلى النمو الحتمي للسخرية في الخارج وسقوط الأوهام هنا . ويمكن أن يكون هذا من قبيل النقطة الاولى في تقنية جديدة للحرب ، تتلاءم مع الظروف الراهنة ومع ملابساتنا الخاصة . فمن شأنه ان يجعلنا أحراراً في خلق ضغط اقتصادي ومعنوي إلى أقصى حد وأن نستغل لأفضل مدى قوانا العسكرية لمواجهة أية محاولة المانية لكسر « أسوار حراستنا » . ومن شأنه أن يلقي على الالمان مسؤولية البدء بالهجوم ، بكل مساونه » .

كذلك فانه اعتقد أن سياسة غير عدائية كهذه يمكن أن تحسب على نحو افضل كسياسة تؤمن التعاون مع الولايات المتحدة .

بعد أيام قليلة أوضح حجته هذه في مذكرة بعنوان « مشكلة شخصية » :

« أن تبحث عن انتصار في « حرب كبرى » حديثة ليس أبدا اكثر من السعي وراء سراب في الصحراء . وفي الحرب الحالية قد يكون الأمر أسوأ ـ بحيث يفضي بنا الى رمال متحركة بلا قاع . ليس فقط بالمعنى القومي . لان الصراع الطويل الذي حتمه مثل هذا الهدف الزائف يعرض للخطر وجود كل قيم الحرية . بل ان الحرية نفسها قد لا تستطيع أن تعيش بعد مثل هذا « الدفاع » الهجومي غير المسؤول » .

كان يبحث عن علامات دالة على أن المجموعة السياسية قد حررت نفسها من أوهام « النصر » . وكان يدعو الى عدم اتخاذ أي عمل للتطاحن مع ألمانيا على أمل ان تختلف المانيا مع

---

(٣) ١٩٣٩/ ١٠٥ « اولئك الذين تود الالهة تحطيمهم تصيبهم اولا بالجنون » ، ١٠/ ٩/ ١٩٣٩ . ١٩٤٠/ ٥١ « استسلام الملك ليوبولد ـ دراسة في التدهور الهستيري » ، ٢٨ أيار (مايو) : ١٣٨ مقتطفا من صحيفة صنداي اكسبرس ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ . للاطلاع على وجهات نظر « كييز و « فويغت » انظر هذه الحرب المتسعة (١٩٤٢) ص ٢٦٥ . كان « فويغت » مشرفا على تحرير كتاب القرن التاسع عشر .

روسيا . وكتب يقول :.« قد يقرر مصير هذه الحرب الضجر وليس الدم » . بل انه استنكر الدفاع « البطولي » عن وارسو ، لأنه زاد من قدر الدمار دون أن يحقق هدفا طيبا[٤] . ولقد كانت هذه ملاحظة متجردة للغاية حقا ، حيث انها تجاهلت قيمة خلق الاسطورة والامل في المستقبل حتى في حالة حدوث هزيمة ظاهرية كاملة . ومما لا يثير أي دهشة انه وجد صعوبة في نشر وجهات نظره حول حماقة الحرب النشطة في اللحظة ذاتها التي قررت فيها الحكومة أخيرا أن تقوم بعمل حاسم . فقد رفضت صحيفة التايمز ان تنشر مقالة « الحاجة الى تقنية جديدة في الحرب » ، ولكنه ضمها مع غيرها من المقالات الاخرى المرفوضة ـ في كتابه تيار الحرب The Current of War الذي ظهر يوم ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٤١[٥] .

لقد كان على ليدل هارت ـ لكي يعتقد بأن صلحا عن طريق المفاوضات مع هتلر هو أمر ممكن بعد غزوه لبولندا ـ أن يأخذ بوجهة النظر القائلة بأن « الفوهرر » هو في الاساس حريص ومتخوف في مطامعه الاقليمية . وكان ليدل هارت ـ قبل وقت طويل من آراء السيد ا .ج .ب . تايلور المراجعة المتحدية ـ قد اظهر الاقتناع (واذا استخدمت كلمة التهوس فاننا لا نكون قد استخدمنا كلمة مفرطة الحدة) بأن بريطانيا هي التي « تسببت » في الحقيقة في اندلاع الحرب بتقديمها ضمانا استفزازيا(*) لم تكن لها قدرة على تنفيذه . وكانت لدى المانيا حجة قوية فيما يتعلق بمطلبها في « دانزيغ » Danzig وفي « الممر » Corridor ، وكان يتعين علينا أن نتفاوض بشأنها على نحو ما اقترح « موسوليني » .

وكان يتعين علينا أن نمارس الضغط على البولنديين ليقبلوا اتفاقا مع هتلر قبل أن تنفجر الازمة . وبالاضافة الى هذا كان لدى هتلر سبب وجيه للشعور بالاستفزاز من جانب البولنديين والضمان الاحمق من جانب بريطانيا وفرنسا . وهكذا « اجتمع اغراء لا يقاوم الى استفزاز لا يمكن الدفاع عنه ـ أي لا يمكن الدفاع عنه من جانب رجال دولة يتعاملون مع حقائق مريرة » . وبحلول العام ١٩٤١ كان بامكان ليدل هارت أن يكتب قائلا : « اكثر حتى من معظم الحروب ، لم يكن لهذه الحرب من بدايتها معنى » . « من السهل ان تلقي اللوم على هتلر ـ اذا كنت تدفع يدك من بين القضبان داخل قفص النمر فمزقها ، فان الجميع سيدركون أن هذا نتيجة غبائك أنت . وبصفة خاصة اذا كنت تمسك بيدك قطعة لحم ، وتدفعها للأمام وتضربه على أنفه» . وفي كتابه لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ (١٩٤٤) Why Don't We learn from History وسع الفكرة القائلة « بالاثر الكامن المثير للحرب الذي احدثه الضمان البولندي » لتصبح اتهاما واسعا بأن النتيجة الطبيعية لحديثنا

---

(٤) ١٩٣٩/ ٩٩ « المشكلة اذا ما تقدم هتلر بعرض للصلح » ٧ ايلول (سبتمبر) ، المصدر المذكور ، « الحاجة الى تقنية جديدة في الحرب » ٨ أيلول ، المصدر المذكور ، « مشكلة شخصية » ـ ١٤ ايلول المصدر المذكور .

(٥) تيار الحرب (شباط) ١٩٤١ ، انظر خاصة ص ص ١٥١ ـ ٦٣ .

(*) المقصود الضمان الذي قدمته بريطانيا لبولندا . « المترجم » .

« الهجومي » قد ارهص بتدخل المانيا في «اسكندنافيا » والبلاد الواطئة والبلقان . وهكذا تقع مسؤ ولية البؤ س الذي حل بعد ذلك بشعوب الدنمرك ، النرويج ، هولندا ، بلجيكا ، فرنسا ، يوغوسلافيا واليونان بكل ثقلها على عاتقنا ـ لاننا فقدنا احساسنا بالوقائع العسكرية »[٦] .

ما الذي يستطيع المرء أن يخرج به من هذا كله ؟ من المؤكد أن نقد الضمان البولندي كان له ما يبرره على أساس أنه اتخذ على عجل دون مشاورة عسكرية ملائمة ، وكان في النهاية مستحيل التنفيذ عسكريا ، ولم تعقبه سريعا محاولة جادة حقا لكسب تحالف روسي على الرغم من النصيحة الواضحة لرؤساء الأركان . . وبالاضافة إلى هذا فانه ربما أدى ـ الى حد ما ـ إلى « استفزاز » هتلر ، على الرغم من أنه كان من المعروف بالفعل أن لديه خططا للاستيلاء على « دانزيغ » و« الممر » . ومن ناحية أخرى لا يمكن القول بأن ليدل هارت أبدى فهما واسع الخيال للمصاعب التي كانت تواجهها الحكومة البريطانية او للدوافع وراء تقديم الضمان . وكما كتب « موريس كاولنغ » Maurice Cowling :

« لم يكن « تشيمبرلين » يقصد بالضمان البولندي أن يستبعد تعديلا للحدود . بل على النقيض من ذلك،فقد كان يريد من البولنديين أن يكونوا معقولين . وبينما كان يأمل أن يكونوا كذلك فانه كان يشعر بقدر أكبر من الثقة ـ مما كانت تشعر به وزارة الخارجية ـ بأن هتلر قد عرف ان بريطانيا ستدخل الحرب إذا ما هوجموا (أي البولنديين) . بل إنه كان يعتقد أنه حتى ريبنتروب Ribbentrop قد فهم هذا ، وأن هتلر ـ الذي « لم يكن أحمق كما صوره بعض المتهوسين » ـ سيكون مستعداً للتوصل إلى حل وسط « إذا استطاع أن يفعل ذلك دون أن يشعر باهانة » . . . فكان من المنطقي أن يكون مرناً (أي تشيمبرلين) وأن يجعل هتلر مرناً بأن يسمح بتجدد المناقشات الاقتصادية التي كانت براغ قد أوقفتها »[٧] .

وبعبارة أخرى كان « تشيمبرلين » يحاول أن يقوم بما كان يدعو اليه ليدل هارت فيما بعد ، أعني « خوض مخاطر الحرب من أجل الحفاظ على السلام » . أما اذا كان هتلر قد شعر ـ أو لم يشعر ـ باستفزاز فالحقيقة هي أنه كان يأمل أن يشق طريقه بالحرب ، على النحو الذي كان يريده في « ميونخ » ، دون انتظار لمعرفة ما اذا كانت بريطانيا وفرنسا ستسلمانه مرة أخرى ما كان يريد « على طبق » . ويصور مثل الضمان البولندي هذا تصويرا دقيقا انعطافة غريبة في ذهنية ليدل هارت تسببت في جعله حاد النقد للسياسة والتصرفات البريطانية (وإلى حد ما لسياسة الحلفاء

---

(٦) المصدر السابق ، ص ص١٤٥ ـ ١٤٩ ، لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ (١٩٤٤) ص ص ٣٤ ـ ٤٠

(٧) « كاولنغ » ، المصدر المذكور ص ١٩٨ . انظر ايضا « د . سي . وات »
«The Initiation of Negotiations Leading to The Nazi- Soviet Pact»
: C, Bramshy Essays in Honour of E. H. Carr (Macmillan 1974
في كتاب « سي . برامسكي » (محررا)

وتصرفاتهم) بينما كان ينتحل كل المعاذير للعدو . وسنناقش السمة نفسها في موضع متأخر من هذا الفصل في علاقتها بالجوانب الأخرى من الحرب مثل القصف الاستراتيجي وشائعات الفظائع الوحشية .

كذلك كان ليدل هارت يخشى ، كنتيجة طبيعية لمعارضته للدعوى القوية ضد الحرب لأسباب عسكرية - أنه كلما أصبحت الحرب أكثر « شمولية » ، كلما زادت مخاطرة فقدان « الحرية » بصفة دائمة . وعلى الرغم من أنه كتب بصراحة وكثيرا عن « الحرية » فانه نادرا ما تفحص المفهوم بأية درجة من التفصيل . ومن الواضح أن ما كان يراود تفكيره أساسا هو الحرية الشخصية من البيروقراطية ومن الخدمة العسكرية الاجبارية ، وحرية نشر آراء نقدية وغير تقليدية . والشيء الذي يغيب بصورة مثيرة للدهشة - عن كتاباته في ذلك الوقت هو الفكرة الرئيسية الأوضح التي عبر عنها «تشرشل » وآخرون ، والقائلة بأنه ما لم يمكن الحاق الهزيمة بالنازية فان قسما كبيرا من أوروبا سيظل بصفة دائمة خاضعا لطغيان وحشي حيث تختفي الحرية الشخصية كلية . وقد كان يخشى منذ وقت مبكر يرجع الى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٩ أن تكون بريطانيا قد أصبحت بالفعل دولة استبدادية - « ان زعماءنا العميان يعصبون عيون الشعب » . وكان يشعر بانزعاج شديد من الطريقة التي كان يتم بها جمع واعتقال النازحين الأجانب الفارين من النازية ، وبينهم فنانون وعلماء ذوو مكانة مرموقة . فكانت تلك في رأيه علامة على أن « العصابة الفاشية تتولى الأمور هنا » . كذلك فقد لاحظ حالات من حديث فج من بعض الضباط في اجازاتهم عن وجوب اطلاق الرصاص على « أعداء الضمير» « الهنز Huns» (اصطلاح كان يطلق على الجنود الالمان في تشبيه يقصد به انهم ذوو نوازع محبة للتدمير مثل قبائل الهون المغولية) (المترجم) .

وليس مما يثير الدهشة أنه كان ذا حساسية خاصة - كصحفي عامل - ازاء الحرية المقيدة في نشر الآراء التي لا تلقى استحسانا من الناس في الصحافة ، وان كان لا بد أن يقال أن هذا كان يرجع إلى عزوف رؤساء التحرير عن تشجيع « الهلع والقنوط » أكثر مما يرجع الى أية رقابة رسمية . وقد كتب - في تورية مثيرة للذعر - في ٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٩ أنه « ينبغي أن تسمى الصحافة قمعا »*. وقد لقي « لويد جورج » المعاملة نفسها التي لقيها ليدل هارت من رؤساء التحرير ، وللأسباب نفسها ، بالاضافة إلى نقد كاسح من « تشرشل » ، كتب - راثيا - في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٩ :

---

(٨) ١٩٣٩/ ١١٠ب مذكرات يومية ٢ تشرين الاول (أكتوبر) . ١٩٤٠/٦٣ ب مذكرات يومية ١٦ - ٢٩ حزيران (يونيو) .

(*) لم نستطع الحفاظ على هذه التورية (أو الجناس) الذي تحمله كلمتا صحافة Press وقمع Supress في اللغة الانكليزية . . « المترجم » .

« لقد أعطاني التعبير شرف وضعي في الفئة نفسها التي وضعت أنت فيها كرجل يقول أكثر من اللازم من الحقيقة عن الحرب ، بما لا يسمح بتشجيع نشره في أعمدتهم . وانني لأخشى أن الواقعيين تنتظرهم أوقات عسيرة لعدة أشهر أقل ، ولكنني أعتقد أن فرصنا ستلوح عندما تبدأ الأمة فهم العبث الكامل لهذا الصراع المروع » .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ أبلغ ليدل هارت « لويد جورج » بأن صحيفة ديلي ميل قد منعت مقالا كان يحث فيه على أن يعرض الشعب الألماني طريقة للخروج من الوضع الراهن . وقد نشر ليدل هارت عديدا من هذه المقالات غير المستساغة في كتبه التي نشرها في زمن الحرب ومعها ملحوظات توضح متى وأين رُفضت . بل انه وجد الرقابة الرسمية الفرنسية أكثر تقييدا(٩) . ومع ذلك كانت هذه مجرد منغصات صغيرة اذا قورنت بما كان يمكن أن يواجهه في ألمانيا أو الاتحاد السوفياتي .

أما تهديد الحرية الذي كان ليدل هارت ينظر إليه باكبر فزع فهو التجنيد الاجباري . وقد كتب عن التجنيد الاجباري - في ملاحظة خطية بعنوان « تأمل في الحرية » بتاريخ ٧ آب (اغسطس) ١٩٤١ :

« تتجاوز الآثار كثيرا المجال العسكري . اننا نحاول - وقد ألهتنا صيحة الحرب الشاملة - أن نجعل أنفسنا استبداديين - مع الحد الأقصى من عدم الكفاية للحد الأدنى من القدرة الانتاجية ، بما يتناسب مع الجهد . . . المبدأ الأساسي للنازية هو زعم الدولة بأن لها أن تحدد واجب الفرد وأن تقرر له ضميره . ومن هنا فاننا - في معارضتنا للنظام النازي الجديد - نضعف مركزنا الخاص اذا انتهجنا الأساس ذاته . . . »

وأضاف في ملاحظة موسعة أنه يتعين علينا أن نعنى بحماية حقوق المعارضين على أساس الضمير وغيرهم من غير الملتزمين .

وفي السنة الثالثة طور فكرة جديدة حول موضوع التجنيد الاجباري تقوم على أساس المقولة القائلة بأن « الشعوب المتمدنة ليست شعوب مقاتلين جيدين - يتعين علينا أن ندرك هذا وأن نكيف هذا الدرس وفقاً لاحتياجاتنا » . إن من شأن التجنيد الاجباري في دولة متمدنة أن يضعف الجيش بالاعتماد على أناس غير عداونيين أكثر وأكثر . وسيكون من الحكمة من جانب أولئك الذين يرسمون اطار السياسات الدفاعية للأمم المتمدنة أن يبنوا قواتهم من « حيوانات مقاتلة » جيدة ،

---

(٩) « لويد جورج » ليدل هارت ، ٢٠/ ١١/ ١٩٣٩ . « فرانسيس ستيفنسون » الى « لويد جورج » ، ٢٩/ ١١/ ١٩٣٩ . ليدل هارت الى « لويد جورج » ، ١٠/ ١١/ ١٩٤١ . انظر ايضا The Current of War ص ١٦٣ ؛ الذكريات ، المجلد الثاني ، ص ٢٧٥ .

على نحو ما فعلت بريطانيا حينما اعتمدت على « الأجناس العسكرية » في الهند . ولكن هذه طريقة أخرى للعودة إلى الحرب المحدودة بصورتها التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر .

وقد أشار الى مسؤولية نابليون عن ادخال التجنيد الاجباري في ملاحظة بتاريخ ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ :

« لقد سقط نابليون ، ولكنه ترك ميراثا هو أغلال التجنيد الاجباري ، الذي جر البشرية الى سلسلة من حروب أكبر وأبشع . وعندما يسقط هتلر فهل سيترك أيضا اغلال التجنيد الاجباري المدني ، وهو النتيجة الطبيعية المنطقية للاستبدادية المثبتة حول أعناق البشرية ! الأمر الذي يقيم حكم العبودية الشاملة ؟ فاذا كان الأمر كذلك فانه سيكون انعكاسا مثيرا للسخرية على الادارة غير المفكرة للحرب ، وعلى الجهود والتضحيات التي بذلتها الشعوب التي سعت وقاتلت لالحاق الهزيمة به » .

ذهب ليدل هارت الى أبعد حتى من هذا - في قسم طويل متشائم من كتابه لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ Why Don't we Learn From History ، وتجاهل امكانية أن يكون التجنيد الاجباري نتيجة التطورات الواسعة الاجتماعية ، الاقتصادية ، والسياسية ، ووصفه بأنه « العامل الأكثر اسهاما في الحروب العظمى التي عصفت بالعالم في الأجيال الأخيرة . . . فالتجنيد الاجباري يفيد في التمهيد للحرب ، ولكن ليس في تسريعها - إلا بالمعنى السلبي لتسريع نمو الجزء من الحرب والأسباب الأخرى الكامنة وراء الهزيمة » . أما فيما يتعلق ببريطانيا في الحرب العالمية الثانية :

« فان مسؤولية جسيمة تقع على عاتق اعضاء برلمان سمح - بل شجع الجهات الرسمية على فرض مثل هذه الاجراءات غير الدستورية ، بينما حول هذا البلد في الوقت نفسه إلى سجن محتمل ، يمكن أن يصبح من المستحيل على أي شخص الهرب منه وبدء حركة « بريطانية حرة » في حالة الهزيمة أو في حالة وقوع انقلاب »[١٠] .

والشيء المفزع في هذه التعليقات عن التجنيد الاجباري - والتي تعود للظهور في كل كتاباته - هو الطبيعة القطعية لصياغتها . وما لا شك فيه أنه كان هناك قدر كبير من الصدق في وجهات نظر ليدل هارت ، فمثلا ، كان وجود جيوش قائمة على التجنيد الاجباري عاملا ساعد - حقا - على الارهاص بالحرب في العام ١٩١٤ . ومع ذلك فانه ما ان تتجذر مثل هذه الفكرة حتى تنتهي بأن تتطور وتكرر بما لانهاية له دون اعتبار للحجج الممكنة من الجانب الآخر . وربما كان التجنيد الاجباري في الحرب العالمية الثانية طريقة فجة وغير اقتصادية لجمع الرجال للجيوش . ولكن كان على الحكومات أن ترضى بالمشكلة الأخلاقية للمساواة في التضحية ومشكلة القوى البشرية الخاصة بمحاولة توزيع مهارات الأمة من أجل أفضل ادارة لآلة الحرب ككل . ومهما كان

---

(١٠) لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ ص ص . ٢١ - ٣٠ .

عدم الملاءمة في الطريقة التي تم بها ذلك فانه لا يوضح المشكلة[1] الأساسية . اذ يبدو ليدل هارت في هذه المسألة - وفي غيرها - مناقشا بارعا أكثر مما يبدو الباحث الموضوعي عن الحقيقة ، وهو ما كان يعتبره مصدر فخره .

بحلول خريف العام ١٩٣٩ كان ليدل هارت أكثر تشاؤ ما حتى مما كان عليه في بداية الحرب حول احتمالات انتصار بريطانيا ، وتتضمن ملفاته اشارات عديدة إلى منازعات بينه وبين المتفائلين . وقد لاحظ في أول تشرين الثاني (نوفمبر) : « كانت أكثر حروبنا في القرن الثامن عشر لغوا هي الحرب المسماة « حرب أذن جنكنز »(*) . وقد تصبح الحرب الحالية معروفة باسم « حرب وجه تشيمبرلين » » . ولخص وجهات نظره بعد أسبوع في مذكرة بعنوان « الاحتمال في هذه الحرب » ، وأرسل نسخا منها إلى « لويد جورج » ، « أيدن » و « التون » ، « كريبس » ، « توينبي » ، « لورد سيسيل » ، « آيكي » ، «هور - بيليشا » , سير « آرثر سولتر » ArtherSalter وغيرهم . وفيها شرح الخطوط العريضة للطرق التي يمكن بها لبريطانيا أن تخسر الحرب ، وأكد صعوبات الفوز ، ولكنه انتهى الى أن النتيجة الأكثر رجحانا هي حالة جمود يكون الجميع فيها خاسرين . فان أريد تحاشي ذلك يتعين على أحد الطرفين - كما هو الحال في المشاجرات المنزلية - ان يعطي للآخر فرصة حقيقية للتراجع عن موقفه دون أن يفقد ماء الوجه : « ان ادراكا لهذه الوقائع الكامنة ينبغي أن يجعل من السهل علينا أن ننصب سلما يستطيع هتلر أن ينزل عليه اذا أبدى أي استعداد لعمل ذلك » . وينبغي التأكيد هنا أن ليدل هارت - شأنه شأن « لويد جورج » - لم يكن أبدا « انهزاميا » لأنه لم يعتبر في أي لحظة أن استقلال بريطانيا موضوع قابل للتفاوض فيه ، وبالاحرى ، كان يفترض ، أن « هتلر » كان راغبا في التفاوض بمجرد أن أدرك أن بريطانيا كانت منيعة . وقد كانت معظم الردود التي وردته غير ملتزمة ، إلا أن « لورد سيسيل » وافق على أنه ينبغي علينا أن نبذل كل جهد ممكن لتحقيق صلح عن طريق المفاوضات بما لا يمس شرفنا . وكانت الصعوبة أنه لم يستطع أن يرى كيف يتحقق هذا دون أن نطلب من ألمانيا الجلاء عن بولندا وتشيكوسلوفاكيا كتمهيد لمناقشة ما ينبغي عمله مع تلك الأقاليم . وكان هذا أمرا بعيد الاحتمال ، ولكن حتى « لورد سيسيل » لم يذكر مشكلة الحصول على انسحاب الاتحاد السوفياتي من القسم الذي كان قد احتله من بولندا(١١) .

---

* Jenkin's Ear War وهي الحرب التي يعتبر المؤ رخون انها أرهصت بحرب الوراثة النمساوية . وجنكنز هو « روبرت جنكنز » (١٧٣١ - ١٧٣٨) البحار الانكليزي الذي ابلغ ان سفينته « ربيكا » تعرضت للنهب من جانب حراس الشواطىء الاسبان في منطقة جزر الهند الغربية ووقع في الأسر ، حيث قطع آسروه احدى أذنيه قبل أن يدفعوا سفينته الى الجنوح (١٧٣١) . وقد أثيرت هذه القصة مرة أخرى أمام مجلس العموم البريطاني في العام ١٧٣٨ حيث عرض جنكنز أذنه المقطوعة وكان الرأي العام الانكليزي معبأ ضد الاسبان ، فأعلنت الحرب على اسبانيا في العام ١٧٣٩ . « المترجم » .

(١١) « لورد (روبرت) سيسيل » الى ليدل هارت ، ٢٢/ ١١/ ١٩٣٩ . كانت وجهات نظر ليدل هارت عن حل

وفي مذكرة مماثلة بعنوان « الهدف الحقيقي في الحرب » لمس ليدل هارت فكرة أساسية قدر لها أن تتكرر كثيرا بعد ذلك ، أعني الفكرة القائلة بأن الحكام المستبدين ـ وان كانوا يتصفون بقصر النظر والفظاظة في السعي الى أهدافهم ـ يريدون على الاقل تفادي حرب مدمرة . وعلى النقيض من ذلك فان زعماء الديمقراطيات كانوا آنذاك يبدون استهتارا وعدم مبالاة بكل العواقب . ويتعين علينا أن نواجه الضرورة غير المستساغة ، ضرورة محاولة التوصل إلى حل وسط للصلح وأن نبين لألمانيا أنه من مصلحتها كما هو من مصلحتنا . ولم يتخل ليدل هارت عن موقفه بفعل العقبة الواضحة المتمثلة في أنه كان لو أمكن تشجيع ألمانيا على أن تبدأ محاولة التوصل إلى صلح ، فانه لا يمكن الوثوق بكلمة هتلر . وقد تساءل ـ بطريقة بليغة ـ هل لا تزال حكومتنا جديرة بأي قدر من الثقة فيما يتعلق بتحول موقفها بشأن التجنيد الاجباري ؟ وبطبيعة الحال فان ليدل هارت بتقديمه هذه الآراء علنا ـ يجتذب النقد ضده ، وقد اتهمه كاتب واحد على الأقل ـ هو اللواء سير « تشارلز غوين » Charles Gwynne ـ صراحة بالانهزامية لانكاره امكان انتصار بريطانيا . وفي آذار (مارس) ١٩٤٠ كتب مسؤول بوزارة الاعلام يبلغ ليدل هارت ان « نقادنا في الولايات المتحدة يروجون وجهة النظر القائلة بأنه لا يمكن للحلفاء أن يكسبوا الحرب وأنهم يذكرون ـ دعما لوجهة النظر هذه ـ تصريحات مزعومة لك » فهل هو مستعد لمساعدة الجهد الحربي بكتابة شيء للنشر في أميركا مفاده أن باستطاعة الحلفاء أن يحققوا أهدافهم في الحرب ؟ ورد ليدل هارت بأنه على قدر ما كان يتمنى العكس فانه لا يرى أي أساس معقول للقول بأن باستطاعة الحلفاء أن يفوزوا ؟ ان أفضل ما يمكنهم أن يأملوا هو أن يبرهنوا للعدو على أنه لا يستطيع إلحاق الهزيمة بهم . وكان يعتقد أن أفضل موقف يتخذ فيما يتعلق بالولايات المتحدة هو التأكيد على الأخطار الاستراتيجية التي تحيق بها (أي بالولايات المتحدة) اذا ما هزم الحلفاء[١٢] .

سيطرت على الأشهر الاولى من العام ١٩٤٠ في الجبهة الداخلية الاقتراحات الانجلو ـ فرنسية لتشتيت انتباه ألمانيا عن طريق فتح مسرح جديد للحرب في « سكندنافيا » . فقد أوجد غزو الاتحاد السوفياتي لفنلندا ذريعة ، كما أن اعتماد ألمانيا على الحديد الخام السويدي ، الذي يتم شحنه بحراً بمحاذاة الشاطىء النرويجي في أشهر الشتاء ، قدم سببا استراتيجيا جذابا . وعلى الرغم من أنه لا يمكن الزعم بأن ليدل هارت تنبأ بالمهارات الممتازة في العمليات ، تلك المهارات التي أظهرها الالمان فيما بعد في النرويج ، إلا أنه أشار بحكمة بضرورة الحرص ، على النقيض من المتحمسين للفكرة مثل « آيرنسايد » و « هور ـ بيليشا » . فلم تكن به رغبة في أن يرى بريطانيا في صراع مع الاتحاد السوفياتي ، ولكن الامر المثير للدهشة أكثر من هذا أنه أنكر قيمة القيام « بتقرب غير

وسط للصلح أثناء عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ مماثلة جدا لوجهات نظر لويد جورج ، وان لم تكن مبنية على اساس اعجاب لويد جورج الشخصي المحموم بهتلر .

(١٢) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص . ص . ٢٥٩ ـ ٢٦٠ . ١١/٤ وزارة الاعلام . مراسلة مع « فرانك دارفال » ١٨ ـ ٢١ آذار (مارس) ١٩٤٠ .

مباشر» . وذهب الى أنه ينبغي علينا أن نتحاشى « أن نتجمد استراتيجيا في محاولة لتحقيق قبضة تطوق جزءا نائيا من اقليم العدو» . وكان لا بد أن نكون قد تعلمنا درس مثل هذه الحماقة من الحرب الأخيرة في عمليات تحويلية divensionary كتلك التي قمنا بها في « سالونيك» . ويلقي هذا الاعتراف ظلال الشك على القيمة العامة لنظرية التقرب غير المباشر . ومع ذلك فانه أسف لأننا لم نرد الى ألمانيا بعض مستعمراتها في العام ١٩١٨ حتى كان يصبح بالامكان الآن ان نستولي عليها من جديد لنبرهن على أن العدوان لا يفيد ![١٣] .

وطوال الأسابيع التي سبقت الهجوم الألماني على البلدان الواطئة وفرنسا ، كان ليدل هارت يعارض بحزم الأفكار السائدة في الصحافة القائلة بأنه يتعين علينا أن ننتقل الى الهجوم في النرويج ، وأن نقصف « الرور» وأن نمضي عموما الى كسب الحرب ، وقد وجد مؤيدين بارزين لوجهات نظره في « بيفربروك» Beaverbrook و « لويد جورج » . فقد كتب الأول مرات عديدة وبطريقة مثيرة للاشمئزاز الى ليدل هارت ، داعيا نفسه أكثر من مرة بأنه « مريد » له . وفي أوائل شهر آذار (مارس) ١٩٤٠ - بعد أن اعرب « بيفربروك» عن اتفاقه التام مع وجهات نظر ليدل هارت - حثه على ان يواصل رحلة الحديث لنزع الأوهام عن الجماهير ، وكان « بيفربروك» قد تعرض للهجوم لنشره « وجهات النظر الانهزامية » التي يطلقها ليدل هارت في صحفه ، ولكنه كان يعتقد انها تحدث أثرا[١٤] .

اعتقد ليدل هارت أن الرأي العام يتحول بصورة متزايدة نحو لويد جورج باعتباره الرجل القادر على معالجة المشكلة . وعندما واجهت الحكومة ، نقدا برلمانيا عنيفا بسبب معالجتها للعمليات النرويجية ، حث « ليدل هارت » « لويد جورج » على أن يتكلم أمام مجلس العموم . وهو ما فعله وكانت له آثار مدمرة يوم ٨ أيار (مايو) . وقد سجل ليدل هارت - في مذكرة يومية في ذلك اليوم - أن لويد جورج عبر عن اتفاقه مع وجهات نظره . أما « حديث النصر» الذي أطلقه غرينوود Greenwood و « سنكلير» Sinclire في مناقشة يوم ٧ أيار (مايو) فكان لغواً أجوف : « كان من الضروري أن نكون واقعيين ، وبينما نبذل كل ما بوسعنا لاحباط الهدف الألماني ، أن نعمل من أجل صلح مشرف » . وسجل أيضاً ان لويد جورج توهم فرصة في العودة كرئيس للوزراء : كانت لديه الفرصة الأفضل للتغلب على الشكوك الروسية وكان هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يتعامل مع « هتلر» و « موسوليني » على قدم المساواة . ورسم ليدل هارت الخطوط العريضة لسياسة جديدة للحرب : علينا أن نحشد قوتنا للدفاع ، وان نوجه ردودا سريعة على تحركات العدو وان ندخل سياسة اجتماعية واقتصادية تهدف الى خلق « نظام جديد » في الداخل[١٥] .

(١٣) ٨/١٩٤٠ تأملات ، ١٤ شباط(فبراير) . المصدر السابق .

(١٤) مذكرة الى لويد جورج ، ٦ أيار (مايو) المصدر السابق . مذكرة الى لويد جورج ٩ أيار (مايو) .

(١٥) ليدل هارت الى « لويد جورج » ، ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٠ .

أصيب ليدل هارت بخيبة أمل عندما علم أن لويد جورج لم يكن ضمن مجلس وزراء الحرب الذي شكله « تشرشل » ، وان يكن قد عرض عليه منصب فيه . وقد أبلغ « فرانسيس ستيفنسون » - سكرتير « لويد جورج » - ليدل هارت فيا بعد بأن السبب الرئيسي لرفضه هذا المنصب هو أن « تشرشل » لم يكن ينوي تشكيل مجلس وزراء حرب صغير يكون اعضاؤه متحررين من المسؤوليات الوزارية . ولاحظ ليدل هارت في ١١ أيار (مايو) - باكتئاب - أن « مجلس وزراء الحرب الجديد يبدو أنه مجموعة كرست نفسها لـ « النصر » دون اعتبار لامكانياته العملية . ومهما كانت أخطاء « هتلر » و « موسوليني » فانهما - على الأقل - أظهرا فهما محدودا لأخطار تحطيم المدنية الأوروبية . . . ولكن الزعماء الديمقراطيين هم الذين يهددون الآن باطلاق قوى لا يمكن السيطرة عليها* . . . » .

استمر ليدل هارت على أمله في أن يستدعى لويد جورج للوزارة . وفي حديث جرى يوم ٢٣ تموز (يوليو) أبلغ ليدل هارت بأن « سمنر ويليز » Sumner Welles وكيل وزارة الخارجية وجد الموقف في لندن أسوأ مما هو في أي مكان آخر فيا يتعلق بامكان وساطة أو تسوية سلمية . ولاحظ ليدل هارت تشاؤم لويد جورج :

« في الحرب الأخيرة كان دائما قادرا على الشعور بأننا نملك المصادر اللازمة للفوز في المدى البعيد ، حتى أنه كان يجد مبررا للمضي في الحرب دون ان يكون عليه أن يضع في اعتباره ضرورة التفاوض من أجل الصلح . ولكن سياستنا في هذه الحرب كانت مقامرة ، وكان يحس أنها مقامرة مشكوكا فيها . وتكمن أفضل فرصة في نشوء المتاعب بين هتلر وستالين » .

وفي حديث أسبق (يوم ١٨ تموز) أعرب لويد جورج عن الرأي القائل بأن هتلر سوف يحاول غزو بريطانيا ، ووضع فرصنا في النجاح عند نسبة ٥ أو ٤ بالمائة . وفي وقت لاحق من الصيف ، تحدث « توم جونز » Tom Jones - حديثا خاصا - مع ليدل هارت في « كريسيت » Criccieth عن تشاؤم لويد جورج والطريقة التي كان يهدد بها هذا التشاؤم نفوذه . وكان لويد جورج خائفا جدا من القنابل ، وخاصة عندما كان يجلس في مقر اقامته الآخر في « شورت » بمنطقة « سوري » »[١٦] .

بدأ ليدل هارت - حتى قبل أن تصبح هزيمة فرنسا كاملة - في جمع مقتطفات من كتاباته لفترة ما بين الحربين ليبرهن على أنه تنبأ بدقة بما سيحدث ، وليدافع عن نفسه ضد الاتهام بأنه أعلن - في

---

(١٦) في ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ألقى ليدل هارت تلميحا قويا إلى أن « لويد جورج » قد يقود حملة من أجل « العودة إلى العقل » . لاهتمام « تشرشل » باقناع « لويد جورج » بدخول مجلس وزراء الحرب وأسباب رفضه انظر « أديسون » المصدر المذكور ، ص . ص . ٣٧٢ - ٣٧٦ .

كتابه الدفاع عن بريطانيا وغيره ـ تفوق الدفاع على الهجوم[١٧] . وبطبيعة الحال كان هناك قدر كبير من التدبير في هذا الدفاع الذاتي . فقد كان في العادة معنيا بالبرهنة على تصريحاته ، وكان من الصعب التنبؤ بأن الفرنسيين سيرتكبون مثل هذا العدد الكبير من الأخطاء الذي أدى إلى إلغاء امتيازاتهم الاستراتيجية :

لقد مهد الجيش الفرنسي الطريق لهزيمته لأنه أخفق في انتهاج أو تطوير تقنية دفاعية تتناسب مع الظروف الحديثة . ولقد تعجل الكارثة ، بعد الاختراق الألماني الاولي ، عن طريق محاولة تطبيق تقنية هجومية كانت قد عفا عليها الزمن كلية . وعلى النقيض من ذلك ، نجح الألمان لأنهم فهموا قوة الدفاع الحديث بدرجة كافية تماما بحيث تجنبوا ثلم اسلحتهم في أي اقتحام جبهي مباشر ، على حين حولوا « الرصيد » الدفاعي ذاته لصالحهم ، على نحو يجعل الهجمات المعاكسة من جانب الحلفاء ترتد إلى صدورهم » .

ومع ذلك فان من العسير مقاومة الاستنتاج بأن ليدل هارت كان يؤكد دقته بسرعة واندفاع أكثر مما يلزم . وبوجه عام فانه في كتاباته في فترة ما قبل الحرب كان قد ترك انطباعا بأن المهاجم لا يملك غير فرصة ضئيلة للنجاح دون وفرة ساحقة في القوة المادية ، بينما كان يؤكد ـ منذ اندلاع الحرب ـ احتمال حدوث حالة جمود ليس من شأنها إلا ان تسبب خطرا في حالة اتخاذ الحلفاء مواقع الهجوم . وقد أشار لأول مرة في كتابه الدفاع الدينامي Dynamic Defense (الذي نشر في تشرين الثاني ١٩٤٠) إلى أن انتصارات هتلر في الربيع لم تكن ترجع « إلى القوة الهجومية لأدواته » بقدر ما كانت ترجع الى المبادرة التي يتمتع بها المعتدي ، ولكن بعد صفحات قليلة أشار إلى ما للألمان من « تفوق واسع في الدبابات والطائرات »[١٨] . وقد أكدت الأبحاث التي جرت فيما بعد تفوق الألمان في الجو . ولكن قوة دباباتهم ـ من حيث الكم والنوع ـ لم تكن تتجاوز أو تبز قوتها لدى الحلفاء »[١٩] . ولقد كانت لدى ليدل هارت ـ شأنه شأن « كلاوزفيتس » قبله ـ أسس قوية للاعتقاد بأن الجانب الدفاعي أقوى نظريا من الجانب الهجومي ، ولكن عمليات الهجوم الخاطف من جانب الألمان في بولندا والغرب برهنت على أن العمليات الهجومية يمكن عمليا أن تنجح في ـ الظروف الحديثة ـ وهو درس أكدته فيما بعد اليابان في بيئة مختلفة في الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ . ولقد كان من شأن ليدل هارت أن يحسن صنعا لو أنه اعترف بأن عقيدته كانت شديدة الاندفاع ، بدلا من أن يحاول تفسير كل تلك الأمثلة بأنها كانت حالات استثنائية . وفي كتابه « مجرى الحرب »

---

(١٧) « ضوء جانبي تاريخي على الهجوم الألماني في أيار ١٩٤٠ » ـ بدون تاريخ ، والمصدر السابق ص . ص . ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(١٨) Dynamic Detense (تشرين الثاني ١٩٤٠) ، ص . ص . ١٢ ـ ٢٠ .

(١٩) انظر: R. H. S. Stolfi «Equipment for Victory in France in 1940» في مجلة History ، شباط (فبراير) ١٩٧٠ .

انغمس في التحايل النظري إلى حد القول بأن « الهجومي » في المعنى العسكري المعتاد اصطلاح يستخدم للدلالة ـ فقط ـ على العمل الذي يتخذ شكل تقدم نحو العدو . وهذا وصف مريح ولكنه ليس دقيقا ـ خاصة في الظروف الحديثة للحرب « . . . ان رجلا ـ أو قوة ـ يقبع في مركز مغطى قد يبدو أنه اتخذ موقفا دفاعيا ، ومع ذلك فانه نيرانه أو نيرانها تعمل بصورة هجومية . . . »[20] صحيح تماما ، ولكن كل هذه التأملات المجردة كانت بعيدة الى حد مفرط عن المشكلات العملية التي تواجه المخططين العسكريين في الحرب العالمية الثانية .

وربما كان المتوقع أن تعصف أحداث صيف العام ١٩٤٠ ـ بما فيها دخول ايطاليا الحرب وما تلا ذلك من امتداد الحرب إلى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط ـ بآمال ليدل هارت في صلح عن طريق المفاوضات دون نصر . ولكنه على النقيض استمر في التمسك بحزم بوجهات نظره ، التي كانت قد أصبحت غير مألوفة ، وأخذ يوزعها على أوسع مجموعة كما كان يفعل في السابق . وقد قام اقتناعه بعدم جدوى الحرب الشاملة ـ وهو اقتناع مستمد من خمسة وعشرين عاما من الدراسة ـ على أساس ستة افتراضات على النحو التالي :

١ ـ كل حرب بين الدول الكبرى يكن تحاشيها .
٢ ـ هناك دائماً أخطاء من الجانبين .
٣ ـ الناس العاريون هم دائماً الذين يعانون أساساً .
٤ ـ تزداد العاناة بالسعي الى « نصر » موهوم .
٥ ـ نادراً ما يتم بلوغ القصر بغناه العسكري ولا يتم بلوغه أبداً بمعنى سياسي ـ بحكم كونه مسألة نابغة أكثر منه مسألة غير حاسمة .
٦ ـ حتى حينما يكن النصر ممكن البلوغ فانه يكون أساساً سيئاً لسلام لاحق »[21] .

وفي بحث بعنوان « حساب بسيط لرجال الدولة » ذهب الى أن العوامل المحسوبة برهنت على الامكانية المتزايدة لحدوث نتيجة عكسية لبريطانيا من جراء استمرار الحرب . فقد كانت العوامل غير المحسوبة بدقة تتطلب ـ وان لم يكن يمكن استبعادها ـ امتدادا واسعا لأقصى حد للخيال لتصوير انتصارنا .

« مع ذلك يمكننا ـ حينما نؤمّن تسوية سلمية ملائمة ـ أن نعول على القيمة البغيضة لحملتنا الجوية ولحصارنا ـ طالما كنا قادرين على مواصلتها . فانه سيكون من قبيل الشؤم تأجيل مثل هذه التسوية الى لحظة تكون فيها قوانا في حالة تدن » .

---

(٢٠) مجرى الحرب ، صفحة ٣٩٩ .
(٢١) ١٩٤٠/٨٧ « الحرب والسلام » ، ١٤ أيلول (سبتمبر) .

وفي مذكرة مماثلة بتاريخ ١٢ تشرين الاول (أكتوبر) شرح ليدل هارت الخطوط العريضة لفكرته عن خطة سلام . ان أي تسوية لا بد أن تترك لبريطانيا حرية تطوير قوتها الجوية والبحرية ـ وفي المدى البعيد فان نمو القوة الجوية الأميركية من شأنه أن يعطينا أمنا ومركزا أفضل للمساومة :

« عندئذ ، حينما تكون قوانا المجتمعة قد طورت ، يمكننا نحن والأميركيين أن نقوم بأي عملية مراجعة مرغوبة لشروط الصلح بفعل ضغط أشد الحجج اقناعا من الناحية العملية ـ وهي امتلاك التفوق الجوي مقرونا بالسيطرة على البحار . ونحتاج للتغلب على السيطرة النازية على أوروبا إلى « خطة سنوات عشر » ـ أي إلى سياسة طويلة الأمد تسعى ـ بدلا من السير وراء سراب النصر في قتال إلى حد الانهاك ـ الى فرصة الافلات من قبضة المأزق الحالي بهدف كسب الميزة النهائية بأكثر الطرق وثوقا وضغطا للقوة » .

كان من القلائل الذين تلقوا هذه المذكرة ورد عليها باستفاضة ، معبرا عن شكوكه في فكرة ليدل هارت عن صلح بطريق المفاوضات ، الروائي ورئيس تحرير مجلة John O'London's Weekly ، « جون بروفي » John Brophy . وقد اعترف هذا الأخير صراحة بأن « كل غرائزي هي ضد استنتاجاتك . . . انني أشمئز من هتلر وموسوليني كثيرا الى حد يصعب معه علي أن أتخذ موقفا غير انفعالي ، وانني لأجسر على القول بأن هذا يصح بالنسبة لمعظم الناس . . . » ومن ناحية أخرى فانه وجد أن القصف المتبادل للسكان المدنيين أمر لا معنى له بوجه خاص ، ولم يكن باستطاعته أن يتطلع أبدا نحو جيش بريطاني يطرد الألمان من الأراضي الأوروبية التي غزوها :

« انني شديد الاعجاب حقا ، ليس فقط بتحليلك العقلي ، انما أيضا بشجاعتك الأخلاقية . انك قد تكون محقا . والواقع أنني لست في مركز يسمح لي بأن أنازعك حججك . ان الجانب الأكبرمني الذي يمقت كل معاناة ، وفي الحقيقة كل نشاط عسكري يصرخ بأن اتفق معك . والذي لا يبدو (اذا كان لي أن اشير) أنك أخذته في الحسبان بصورة كاملة هو تأثير ذلك على :

(أ) هتلر ، الذي قد يشجعه هذا تشجيعا عظيما .
(ب) الولايات المتحدة ، التي تحب أن نخوض عنها حروبها .
(جـ) الشعب في الداخل ، الذي قد يشعر بأنه جرى التخلي عنه . فهل ستمضي الولايات المتحدة في انتاج الأسلحة لنا ؟ هل يتخلى هتلر عن أي من مكاسبه ؟

من ناحية أخرى فانني أرى بوضوح أن هذه الأسلحة تظل ملحة اذا استمرت الأحوال على ما هي عليه ، وأن ذلك من شأنه أن يمدنا بفائدة لا تقدر من سلام مزعزع[٢٢] .

واصل ليدل هارت ـ في فكرة طويلة وهامة بعنوان « تصفية الحساب » بتاريخ ١٧ تشرين

---

(٢٢) المصدر السابق ٩٠ ، ٩١ ، « جون بروفي » الى ليدل هارت ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ .

الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ ـ حجته القائلة بأنه حتى اذا استطاعت بريطانيا أن تحقق النصر في النهاية فان الظروف التي ستنشأ عنه قد لا تكون أفضل من شروط صلح يتم التفاوض بشأنه الآن من موقع ادنى . وسيكون الدمار أوسع منه في أية حرب غير حاسمة انتهت قبل ذلك ، بينما من المرجح أن تصبح بريطانيا من الناحية المالية التابع الفقير لأميركا ـ اذا لم نصبح « شيوعيين فقراء » .

« الأسوأ من كل العواقب المحتملة أننا ـ في محاولتنا لاقتلاع جذور الهتلرية ـ سنبذر محصولا جديدا من أمثال هتلر ، ليس في أوروبا وحدها ، بل في ترابنا نفسه . وتماما كما أن « الحرب من أجل الديمقراطية » الماضية سببت نموا واسع الانتشار لحكم أقلية أكثر جذرية ، فان هذا الصراع الاستبدادي السافر لا بد بالطبع أن ينحو نحو بيروقراطية شاملة تحت توجيه طغياني . وكلما طال هذا الصراع كلما ضاقت حلقات الأغلال . (لا حالة الحرية ولا معنى الحرية اللذين عرفناهما قبل الحرب الأخيرة قد استعيدا بعدها) .

« والاحتمال أسوأ من كل هذا لأن الوسائل التي نلجأ اليها الآن في سعينا الى النصر ـ القصف المركز للاهداف الصناعية مقرونا بحصار يهدف إلى التجويع التدريجي لأوروبا كلها الواقعة تحت سيطرة العدو ـ تنحو نحو التسبب في آثار أكثر حطا (كذا) من قيمة الحياة المتمدنة مما عانيناه في أية حرب حديثة سابقة . (إن نظرية الحرب الخاطفة نظرية انسانية النزعة بالمقارنة بهذا ، وان كانت تستخدم لأغراض عدوانية ـ بينما لا يمكن تطبيقها بطريقة فعالة من جانب خصوم العدوان) .

ومن المؤسف ـ على أقل تقدير ـ أن يساق أولئك الذين مضوا لانقاذ الانسانية من طغيان النازية إلى الحاق هذا البؤس اللامحدود بالملايين من الأبرياء من الكائنات البشرية في البلدان المحتلة كما في المانيا ، في محاولة لتحريرهم من حكم مجموعة محدودة . وهذه المرة فان شعبنا معرض بالقدر نفسه لمثل هذه الآثار . . من جراء القصف المعاكس والحصار المعاكس لجزيرته الأكثر استهدافا . . .

« ومنذ انهيار فرنسا ، ونهاية الحملة البربرية ، اتخذت هذه الحرب طابع لعبة القناني الخشبية بنسب عملاقة . وكلما طال استمرارها كلما كان من الأرجح أن تمتد هذه المباراة لتبلغ أبعادا هزلية ـ حيث يستخدم أحد الطرفين أساسا قذائف انتجت عبر الأطلسي لالقائها على مدن ألمانيا ، بينما يصنعها الطرف الآخر في الأجزاء الأبعد من أوروبا ، لضرب مدن انكلترا . انها صورة قاتمة لكل أولئك الذين يقع مكانهم في طريق لعبة القناني الخشبية . ويتعين علينا أن نكون من الحكمة بحيث نأخذ في الحسبان ـ الآن ـ الآثار النهائية لحماس الأميركيين المتزايد لضرب النازيين ـ مخافة أن يؤدي بهم لأن يصبحوا مصممين على « القتال حتى آخر كوخ انكليزي » . »[٢٣]

وقد ظهرت الفكرة القائلة بأنه حتى اذا كان النصر ممكنا فان « أسطورة هتلر » جديدة قد

---

(٢٣) المصدر السابق . « تصفية الحساب » ، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) .

تخلق ، في مذكرة ليدل هارت التالية :

« حتى اذا استطعنا في النهاية أن ننجح في تدمير « النظام الجديد » لهتلر بالقوة ، فان حالة الفوضى والبؤس الناشئة عن ذلك قد تخلق ايمانا بأن حلا مرسلا من السماء لمتاعب أوروبا قد طعم بواسطة القوة . وهكذا قد تطلع من وسط رماد الحكم النازي أسطورة هتلرية ـ لتهدد بالخطر المستقبل ، حتى أكثر مما هددته الأسطورة النابليونية . ومن شأن هذه أن تكون السخرية القصوى لمحاولتنا سحق القوة بواسطة القوة » .

وفي كتاب لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ مضت هذه الفكرة لأبعد حتى من هذا :

« لو أن ظروف ما بعد الحرب جاءت مخيبة للآمال ، فان خبرة التاريخ توحي بأنه (أي هتلر) يمكن أن يصوَّر على أنه الرجل الذي كان يمكن أن يقود الجماهير الأوروبية إلى « أرض تفيض بالحليب والعسل » لو أنه لم يقابل بالمعارضة أولا ثم يسقط بعد ذلك بواسطة خصوم غيورين ومصالح مكتسبة ! »[٢٤] .

ولا توحي هذه الفقرة بأن ليدل هارت كان يملك معرفة كبيرة بالظروف التي كانت سائدة في أوروبا تحت الاحتلال النازي . ولا يبدو أنه أدرك أثر الانتصارات العسكرية للفترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ في تقوية قبضة الحكومة النازية على الشعب الألماني .

وفي نهاية العام ١٩٤٠ ـ اذن ـ لم يكن ليدل هارت يرى نهاية ذات مغزى للحرب إلا بصلح عن طريق المفاوضات . ولقد أيد القيام بعمليات بحرية ضد ايطاليا ، ولكنه لم يكن يرى كيف يمكن لبريطانيا ان تهزم ألمانيا عن طريق غزو القارة (الأوروبية) . أما فيما يتعلق بالوسائل غير المباشرة المتاحة لبريطانيا ، فانه كان معارضا بمرارة للقصف الاستراتيجي ، وكانت لديه تحفظات قاسية بشأن أخلاقية الحصار . ولاحظ ـ بطريقة خالية من الواقعية ـ ان الحصار ينبغي أن يكيف بحيث يوجع ألمانيا أكثر مما يوجع الشعوب الواقعة في قبضتها ؛ وإلا فان بريطانيا ـ بتجويع شعوب البلدان المحتلة ـ قد ترتكب « جريمة ضد الانسانية والمدنية أكبر من أي شيء يمكن حتى أن يفكر فيه دكتاتور طاغية » .

على بريطانيا أن تستخدم ـ بدلا من القوة العسكرية ـ أسلحة معنوية وسيكولوجية . وقد وجه ليدل هارت ـ في ختام كتابه الدفاع الديناميي نداء بليغا من أجل « خطة سلام بناءة وديناميية تهز خيال شعبنا وشعوب العالم . لا بد ان تتوجه للفرد حيثما كان ـ في بلدان العدو كما في تلك البلدان التي أخضعها » . كذلك ـ طالما أن النظم الاستبدادية تقدم فرصة لفوائد مادية ـ يتعين علينا أن

(٢٤) المصدر السابق ١٠٤ « أعمدة الحكمة السبعة » ، ٢٤ تشرين الثاني . لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ ص ٥٣ . انظر أيضا ليدل هارت الى الأسقف « وودز » ، ٢٠ آب (أغسطس) ١٩٤٠ .

نؤكد الاختلاف الأساسي الذي يفصل تصورنا للحياة المتمدنة عن تصورهم ـ وهو فكرة احترام الحرية الفردية[٢٥] .

كانت هذه ولا شك عواطف جديرة بالاعجاب ، ولكن هل كانت هناك فرص عملية لتحقيقها ؟ لقد كانت الصعاب كثيرة وشاقة . ولم تكن حرية بريطانيا التي طالما تبجحت بها قد أوصلتها إلى حالة طيبة في أواخر الثلاثينات . فهل كان باستطاعتها أن تزيد حريات مواطنيها في الوقت ذاته الذي كانت تحارب فيه من أجل بقائها بعد سلسلة هزائم مهينة ضد خصم واثق بنفسه بصورة متفوقة ؟ هل كان باستطاعتها أن تنقل بصورة فعالة هذه الأفكار في الحرية إلى الشعوب الأوروبية المذعنة ، ولو أنها استطاعت ، هل كان يمكن ترك انطباع جيد لدى شعوب مثل التشيكيين والبولنديين والنرويجيين بالنظر إلى عجز بريطانيا عن انقاذهم من الاجتياح في المحل الأول ؟ وفوق كل هذا هل ـ كان من شأن الدعايات البريطانية أن تترك انطباعاً جيداً لديهم ـ مهما كانت مدعومة جيداً ـ ما لم يروا أن بريطانيا نفسها ماضية أولاً إلى إلحاق الهزيمة بالعدو ثم إلى قيادة الهجوم المعاكس ضد دول المحور ؟

في الشهور الأولى من العام ١٩٤١ استمر الموضوع الرئيسي لانشغال ليدل هارت في أن يكون الحاحه على الحيلولة دون انتصار الماني ، بينما كان يستنكر ـ في الوقت نفسه ـ السلاح ذا الحدين ، سلاح الحصار والقصف الاستراتيجي الذي كانت تستخدمه الحكومة لتحقيق ذلك . أما فيما يتعلق بالاستراتيجية الكبرى ، وعلى الرغم من وجود اشارات عديدة إلى مشاركة انكليزية ـ أميركية ، فانه لا يبدو أنه أهتم كثيرا اهتماما شخصيا باقناع الولايات المتحدة بدخول الحرب . وهكذا فان فكرة نموذجية له في ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٤١ تقول :

« اذا كان باستطاعتنا أن نحول دون انتصار ألماني ، وأن نتحاشي أيضا آن ينزف دمنا حتى الموت ، فاننا قد نتمكن في النهاية من أن نخلق ، بالتكافل مع أميركا ، ربطاً بين القوة الجوية والبحرية وبين القوة الاقتصادية يكون قادرا على قلب الموائد ـ حتى بدون استخدام القوة ـ وتقرير مستقبل النظام العالمي »[٢٦] .

في جوانب قليلة فقط من الحرب استطاع ليدل هارت أن يتخذ موقفا متجردا خاليا من الأهواء وبالتالي أن يكون في موقف أفضل للحكم فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي . وكان بعد « ميونخ » قد دعا الى عقد اتفاق مع الاتحاد السوفياتي باعتبار ذلك امرا جوهريا اذا كان من الضروري اقامة حاجز دبلوماسي فعال ضد هتلر . وقد اتسم ردّ فعله بضبط النفس عندما هاجم الاتحاد السوفياتي فنلندا وحذر بحزم من أي عمل يجر وراءه مخاطرة بحرب معه . والحقيقة أنه من

(٢٥) الدفاع الديناميي ، ص . ص . ٥٣ ـ ٥٦ ؛ قارن : تيار الحرب ، ص . ص . ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .
(٢٦) ١٩٤١/١٨ تأملات ، ١٧ آذار (مارس) . المصدر السابق « باسشنديل في الجو » ١٢ نيسان (ابريل) .

بداية الحرب ـ وعلى الرغم من أنه لم يكن متفائلا ـ كان يرى امكانية الشقاق بين « اللصين » كوسيلة بين وسائل أخرى لتأمين بقاء بريطانيا .

ومع بدء شن « العملية بارباروسا » Barbarossa اعترف ليدل هارت فورا بأن وجه الحرب قد تغير بأسره عسكريا وايديولوجيا على السواء . عندئذ ـ ولأول مرة ـ كانت بريطانيا مهيأة لامكانية النصر العسكري ، وهو أمر يتميز عن مجرد احباط انتصار الماني . وقد حكم ـ مصيبا ـ بأن هتلر كان يقوم بمقامرة هائلة عندما يسعى إلى ضرب الاتحاد السوفياتي ، بوسائل « الحرب الخاطفة » التي نجحت في أماكن أخرى ، قبل أن يلقي بكل قوته ضد بريطانيا . وحث بريطانيا ـ دون أن تلزم نفسها صراحة بما اذا كان الاتحاد السوفياتي سيتمكن من البقاء ـ على أن تبذل كل ما بوسعها لالهاء هتلر بزيادة هجماتها الجوية ضد قوته الحربية الى أقصى حد وانتهاز أية فرصة لشن غارات عليه من البحر .

لم تكن طريقة ليدل هارت الاعتراف بأنه كان مخطئا في آرائه المتشائمة السابقة وأن تفاؤل « تشرشل » كان له ما يبرره ؛ انما كان يكتفي بملاحظة أن اعتقاد المتفائلين في السابق بالنصر النهائي لم يكن يؤيده إلا ايمان غريزي : « لم تكن الحرب تحمل أي احتمال نصر لنا الى أن ارتكب هتلر غلطته المميتة » . ولم تكن معارضته الأساسية للقتال الى النهاية ، قد تأثرت بحماقة هتلر . ومع ذلك وبقدر ما كان يعني السياسة البريطانية ، فان دخول روسيا كان علامة فارقة كبرى . فقد كانت هناك في السابق مشاركة قلقة بين أولئك المستعدين للقتال حتى الموت للحفاظ على استقلال بريطانيا ولكنهم متشائمون فيما يتعلق بامكانية شن حرب صليبية أوروبية ، وبين أنصار « تشرشل » . وقد أثبتت مقامرة « تشرشل » الكبرى ـ التي قام بها في وجه عوامل كثيرة معاكسة في أيار (مايو) ١٩٤٠ ـ أنها كانت الرابحة يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١(*) .

كان ليدل هارت بحلول أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ ـ بعد أن تتبع بحذر مسار التقدم الألماني طوال الصيف ـ متفائلا بصورة مشوبة بالحذر بأن روسيا ستصمد . ولكنه حذر من « أن أمامنا طريقاً طويلاً وشاقاً». ولن يكون من اليسير تمهيده بـ«أحجار ذهبية». وتحاشى تطرف كل أولئك الذين توقعوا أن تلحق الهزيمة بالجيوش الحمراء خلال أسابيع قليلة . وأولئك الذين بدأوا يستبعدون الألمان من تقديرهم بمجرد أن تكبدوا بعض الهزائم في أوائل الخريف . وبحلول كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ كان قد أصبح واثقا من بقاء الاتحاد السوفياتي بدرجة تكفي لأن يتساءل « هل سنكون قادرين على غزو القارة في العام ١٩٤٢ . أو بعد ذلك ؟ وهل سيكون ذلك ضروريا ؟ » ونظرا لأنه لم يأخذ في الحسبان ـ فيما يبدو ـ احتمال تدخل أميركا في المسرح الأوروبي ، فانه أجاب على هذه التساؤلات جميعا بالنفي . فحيث اننا نفتقر إلى جيش من « نموذج جديد » وسفن انزال حديثة « ينبغي أن ترتكز آمالنا على قادة ألمانيا وقدرتهم على تدمير قوة

(*) تاريخ هجوم المانيا النازية على الاتحاد السوفياتي . « المترجم » .

الجيش الألماني ومعنوياته في هجمات لا جدوى منها ـ في مسعى لا جدوى منه إلى النصر الذي اعتبروه يقينا في العام ١٩٤٠ »[٢٧] . وهذا ما فعله هتلر حقا باستراتيجيته الهجومية على الجبهة الشرقية في العام ١٩٤٢ والعام ١٩٤٣ .

وبعد حزيران (يونيو) ١٩٤١ كانت أكبر قطعة مفقودة في لعبة القطع الخشبية المتشابكة هي مشاركة اميركا في المسرح الأوروبي . ان أحدا لم يكن يمكن أن يعرف ما اذا كانت اميركا ستعلن الحرب ـ أو حتى تعلنها على وجه الدقة ـ على ألمانيا ، حيث أن هتلر هو الذي أعلن الحرب عليها بعد الهجوم الياباني على « بيرل هاربور » .

كان رد فعل ليدل هارت الأولي ازاء هذا الهجوم هو أن أي شخص يتمتع بحس تاريخي كان لا بد أن يتنبأ به . ومن حقه أن يقال أنه سريعا ما أدرك أنه حتى في الوقت الذي كانت فيه القوات اليابانية لا تزال تتقدم بسرعة مذهلة ـ وبخسائر طفيفة للغاية ـ فانهم كانوا يقدمون أنفسهم رهائن بنشر جهودهم على نطاق بالغ الاتساع ويقسمون قواتهم العسكرية الضخمة للغاية على جزر يسهل على قوة بحرية وجوية متفوقة أن تعزلهم فيها . وكان يستند الى أساس مشكوك فيه أكثر حينما عزا هزائم الحلفاء في المحيط الهادي أساسا إلى نزوعهم إلى الهجوم[٢٨] . ويبدو من كتاباته بشكل عام خلال العام ١٩٤٢ أنه أبطأ في فهم الجانب الحيوي الذي كانت ستلعبه القوات الأميركية في المسرح الأوروبي . ولعل تفسير ذلك أنه كان يعلم جيدا ضعف أميركا العسكري في المدى القصير وكان يأمل مع ذلك في صلح يقوم على حل وسط قبل أن تكون قواها الحربية الهائلة قد طورت .

ويمكننا أن نجد الدليل على أن دخول الاتحاد السوفياتي الاجباري الحرب ضد ألمانيا لم يغير تفكير ليدل هارت الأساسي في مذكرته الهامة بعنوان « الارادة الخالدة للكتلة الصغيرة في الحرب » Eternal Will O'The Wisp in War بتاريخ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، وهي المذكرة التي أرسل نسخا منها الى « لسويد جورج » ، لورد « نويل ـ بوكستون » Noul-Buxton ، « ل . ب . جاكس » L. P. Jacks ، « كنغسلي مارتن » Kingsley Martin ، « هور ـ بيليشا » ، « جيمس ماكستون » J. Maxton ، « ستيفين كنغ ـ هول » Stephen King—Hall ، « غلبرت موراي » Gilbert Murray ، « جوي بروفي » J. Brophy وغيرهم . وقد أكدت هذه المذكرة الحاجة إلى صلح يقوم على حل وسط للأسباب التي أوضحناها آنفاً ، التي يوحي بها العنوان ضمنيا ، وكان موضوعها الأساسي أن « الانتصار على دولة عظمى أخرى لا يحقق أبدا الآمال في سلام طيب ودائم »[٢٩] وقد اختلف « هور ـ بيليشا » اختلافا كاملا مع معلمه العسكري السابق ، ولكن رد

(٢٧) هذه الحرب الآخذة في الاتساع This Expanding War ص . ص . ٧٠ ـ ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠١ ـ ١٠٤ ، ٢٦٦ ـ ٢٦٩ ، لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ ص . ٤١ .

(٢٨) هذه الحرب الآخذة في الاتساع ، ص . ص . ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٧١ .

(٢٩) ١٩٤١/٥٤ « الارادة الخالدة للكتلة الصغيرة » ، ٣ أيلول (سبتمبر) .

« جون بروفي » كان أكثر تفكرا ويستحق أن يذكر منه مقتطف طويل ، ليس فقط لأنه أثار حوارا مع ليدل هارت ، بل ايضا لأنه يعطي مثلا للآراء الواقعية والمثالية المختلفة في طبيعة الحرب :

« انني أفهم وجهة نظرك بوضوح شديد ، ولكنني لست واثقا من أنها ليست بعيدة المدى أكثر مما يجب بالنسبة لضروراتنا الراهنة . ما أعنيه هو أنه اذا لم يكن هناك احتمال حقيقي لحصولنا على انتصار صريح فاننا لا نحتاج بالتأكيد إلى ان نفرط في القلق حول الآثار التالية لمثل هذا الانتصار . وفي الوقت نفسه فاننا نواجه عدوا من نوع لم نواجهه من قبل أبدا ، واقتراحك باجباره على عقد صلح وفقا لشروطنا يفرض السؤال عن الكيفية التي بها سنجعله يحافظ على الاتفاق . هكذا يبدو الأمر لي . ولا شك أننا لن نحقق نوع النصر الذي يسعى اليه الألمان ، ولكن يبدو لي أن طبيعة النازيين ذاتها تستبعد أي حل وسط . وهنا فانا أتفق مع « تشرشل » وليس معك .

« علاوة على هذا ، هناك اعتراض آخر . ان ما تقوله عن « تشرشل » مثير للغاية . وبقدر ما يمكنني أن أحكم فانه له ايضا ما يبرره . ولكن أي بديل لدينا لمنصب رئيس الوزراء ؟ ثم ألم تخفق أنت . . . في أن تعطيه حقه من الفضل في التحول المعنوي الهائل الذي أحدثه في هذا الوطن ؟ . . . لقد رفعنا « تشرشل » من عهود الكآبة ، عهود « بولدوين » Baldwin ، « رامزي » Ramsey ، « ماكدونالد » Macdonald و « تشيمبرلين » ، الأمر الذي كان من نتيجته انني أشعر لأول مرة منذ سنوات عديدة أن الجو في هذا الوطن قد أصبح صالحا للاستنشاق بدرجة أو أخرى[٣٠] .

وقد جذب هذا الرد ردا آخر من ليدل هارت في صورة مذكرة وزعها أيضا على نطاق واسع . وفي هذه المذكرة ثلاث نقاط جديرة بالذكر : أولا ، اعتقد ليدل هارت أن ناقده متأثر بالافتراض القديم اللاتاريخي بأننا « نواجه عدوا يختلف اختلافا أساسيا عن أي عدو واجهناه من قبل » . وقد ارتكبنا الخطأ ذاته حينما قاتلنا لويس الرابع عشر ونابليون . ثانيا ، لقد دفعنا الألمان مرات عديدة بتحركاتنا المترددة إلى عرقلتنا ، وهكذا تسببنا في انتشار الحرب وتحولها إلى حرب لا محدودة . ثالثا ، لقد نسي زعماؤنا الحاليون الشرط الأساسي الذي خلق استراتيجيتنا وسياستنا التقليدية ، أعني السعي في الحرب الى تحقيق هدف سلام يكون لنا فيه وضع مميز عن طريق المفاوضات . لقد ساقونا خطوة خطوة إلى الموقع الذي ربما لا نملك فيه قدرة كافية على المساومة ، وقد نواجه هزيمة شاملة ـ لا ضرورة لها كلية اذا انتهجنا سياسة أحكم .

وقد رد « بروفي » على هذا قائلا :

« ما أتساءل عنه ليس هو سلامة حججك بقدر ما هو انطباقها العملي على الرأي الشعبي اليوم . انني لأتخيل أنه سيكون من العسير للغاية أن نجعل الشعب يؤيد بحماس شيئا أقل من « النصر » ،

---

(٣٠) « هور ـ بيليشا » الى ليدل هارت ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، « ج . بروفي » الى ليدل هارت ، ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ .

وهناك في أذهان كثير من الناس شك راسخ منذ وقت طويل وله ما يبرره ككل في الحلول الوسط من جانب زعمائهم . . . كذلك فاننا لا نستطيع ، إلا ببذل كل ما بمستطاعنا ، أن نحافظ على وحدتنا مع شعوب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وأوروبا » .

وأوضح ليدل هارت أنه كان يعني بـ « الصلح عن طريق المفاوضات » وضعا تجبر فيه مناعتنا وقيمنا الراسخة هتلر على ان يسلم ويترك معظم الأراضي التي غزاها .

« ان أي نوع آخر من النهايات ، فيما عدا هزيمتنا ، لن يكون موضوع مفاوضات ـ على الرغم من أنه قد يأخذ شكل توقف الصدامات السافرة ، الذي ينشأ عن اعتراف متبادل بأن النتيجة المحتملة لمواصلة الصراع بنشاط ستكون دمارا متبادلا دون كسب يعوض عنه »[٣١] .

لفترة قصيرة عند بداية العام ١٩٤٢ بدا كما لو أن ليدل هارت سينال عرضا بمنصب رسمي كمستشار ـ عسكري ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وتبين يومياته لشهري شباط وآذار (فبراير ومارس) أنه أمضى وقتا طويلا يقدم الاستشارات لوزير الدولة الجديد للحرب سير « جيمس كريغ J. Gigg » ، خاصة فيما يتعلق بشكل المناصب الكبرى في الجيش . وفي ١٨ آذار اقترح سير « ارشيبولد رونالدز Archibald Ronalds » السكرتير الخاص البرلماني لـ « كريغ » ـ وكان صديقا قديما لليدل هارت ـ تشكيل هيئة من الخبراء العلميين برئاسة سير « هنري تيزارد H. Tizard » وليدل هارت . واقترح أن يتخذوا مقرا في أحد البيوت بالقرب من لندن . وكان « رونالدز » يحس أن الجيش ـ شأنه شأن السلاح الجوي ـ ينبغي ان تكون له شعبة للبحث العملياتي في كل من مقار قياداته الرئيسية . ما كان الجيش في حاجة اليه هو « ٢٠ نموذجاً مصغراً من ل . هـ . » [ليدل هارت] مقسمين بين القوى المختلفة . وكان هناك حديث أكثر عن « مجمع العقول » هذا في نهاية شهر نيسان (أبريل) ، ولكن في ذلك الوقت كان حماس « كريغ » قد خفت في وجه اعتراضات العسكريين . كما سمع ليدل هارت أن بعض كبار القادة ، وخاصة اللفتنانت جنرال (الفريق) « باونول » واللفتنانت جنرال (الفريق) « آدم » عارضا تعيينه مستشارا لخليفة « كريغ » ـ « ديفيد مارغيسون David Margesson »[٣٢] .

وقد دهش صديق قديم آخر ـ هو « ايفان مايسكي I. Maisky » السفير السوفياتي في لندن ـ عندما علم أن الحكومة لم تستفد من خبرة ليدل هارت . ووفقا لما قاله « لويد جورج » فان « مايسكي » أبلغه « اننا نعتبر ليدل هارت أفضل عقل عسكري في انكلترا ، بل الوحيد »[٣٣] .

---

(٣١) « ج . بروفي » الى ليدل هارت ، ٢ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤١ ، ليدل هارت إلى « ج . بروفي » ، ١١ تشرين الاول ١٩٤١ .

(٣٢) حديث مع سير « أ . رونالدز » ، ١٨ آذار « حديق مع السير رونالدز » ، ٣٠ نيسان ، حديث مع « ب . ج . كريغ » أول أيار .

(٣٣) حديث مع « مايسكي » ١٨ آذار ، حديث مع « لويد جورج » ، ٢٢ ـ ٢٣ آذار .

ولقد كان باستطاعة ليدل هارت بالتأكيد أن يلعب دوراً له قيمته على صعيد تنظيم الجيش والتدريب والتخطيط العملياتي ، ومن الجدير بالتأكيد أنه ظل معنياً بصورة حادة بهذه المسائل العملية . ولكن آراءه في مسائل السياسة والاستراتيجية الاوسع كانت على خلاف مع آراء « تشرشل » الى حد أنه كان يتعين عليه أن يتخلى عن معتقداته الأساسية لكي يبقى على قيد الحياة . وعلى سبيل المثال فانه في الوقت ذاته الذي كان فيه « رونالدز » يحاول تشكيل « مجمع العقول » تحت رئاسة « تيزارد » وليدل هارت ، كان الأخير يكتب الى « ادوارد وودز » Edward Woods أسقف « ليتشفيلد » بلهجة شديدة النقد عن « تشرشل » . وقد رد ليدل هارت على وصف الأسقف لرئيس الوزراء بأنه « زعيمنا الذي أرسلته السماء » قائلا أنه في السنة الأخيرة قبل الحرب كان قد وصل الى الاحساس بأن قدرة « تشرشل » على فعل الشر هي أعظم في امكانياتها من قدرته على فعل الخير ـ و « أن تمركزه الفريد على ذاته ، وحسه الدرامي ، وافتقاره الى الارتياب ، وافتقاره الى ملكة الحكم ، كانت تصنع في مجموعها شيئا قد يقدر له أن يقود هذا البلد نحو كارثة » . وقد مالت الأحداث منذ ذلك الوقت نحو تأكيد تلك المخاوف . وكان من العسير أن يقبل مثل هذا الزنديق بترحيب وسط حاشية رئيس الوزراء في العام ١٩٤٢ (٣٤) .

حقا ان استقلال ليدل هارت العقلي الحاد قد وضعه بصفة دائمة خارج مسار الرأي العام . كما أنه كان ميالا من الناحية المزاجية الى جعل نفسه الناطق بآراء الأقلية التي لا شعبية لها ، وسواء كان مصيبا أو مخطئا بشأن مسائل بعينها فانه كان يقوم بدور ديمقراطي له قيمته . ولقد كان عاجزا خلال فترة عزلة بريطانيا عن أن يجد أسبابا منطقية للاعتقاد بالنصر النهائي ، أما وقد دخلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الحرب فقد بدأ يطلق حججا اخرى في تأييد صلح سريع عن طريق المفاوضات . وهذه المخاوف واضحة منذ وقت مبكر يرجع إلى ١٩ آذار (مارس) ١٩٤٢ في حديث مع لورد « بيفربروك » ، الذي كان يستطلع وجهات نظره قبيل سفره مباشرة الى واشنطن . وقد أعرب « بيفربروك » في مناقشة لامكانية فتح جبهة ثانية عن شكوكه فيما اذا كان باستطاعتنا أن نكسب الحرب وذكر « فوللر » كخبير عسكري ليس من شأنه أن يلزم نفسه برأي محدد . أما ليدل هارت فقد بين حمق صرخة النصر التام التي كنا نطلقها ، على النقيض من حكمة ستالين الاستراتيجية في اظهار طريق للشعب الالماني للخروج من محنته ، وبالتالي إضعاف مقاومته . وقد وافقه « بيفربروك » ولكنه بيّن صعوبة التعبير عن هدف الحرب ـ إلا بكلمات مطلقة ـ في بلد ديمقراطي .

ألمح ليدل هارت الى أن واشنطن ملزمة بأن تصبح هي مركز المجهود الحربي للحلفاء ، الأمر

---

(٣٤) ليدل هارت الى الاسقف « وودز » ، ١٢ نيسان ١٩٤٢ . حول الفجوة بين تفكير ليدل هارت والحكومة انظر ـ مثلا ـ ٢٩٤٢/ ٣٦ « للمراحل الثلاثة للفكر العسكري » ١٨ آيار في « ريتشارد ستوك » الى ليدل هارت ، ٧ نيسان ١٩٤١ . انظر أيضا « أديسون » المصدر المذكور ، ص . ص . ٣٧٠ ، ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

الذي من شأنه أن يضع بريطانيا في مركز غير ملائم في نهاية الحرب اذا كنا مجرد تابعين فقراء للولايات المتحدة . وكان الأمل الوحيد الذي يستطيع أن يراه لكي تحتفظ بريطانيا بنفوذها المسيطر هو اندماج فوري مع الاقاليم التابعة (الدومنيو) في « كومنولث » كبير[٣٥] .

وعند عودة « بيفربروك » الى لندن أبلغ ليدل هارت بموجة التفاؤل غير العادية التي وجدها تجتاح البلاد والمدينة [واشنطن] . وكانت تقوم بوضوح على أساس أحداث الجبهة الشرقية ، ولكن لم يستطع أن يرى أي مبرر لها . ووافقه ليدل هارت على أنه من السابق لأوانه كثيرا حذف الحملة الألمانية في روسيا من الحساب ، وقد أشار على « بيفربروك » في وقت لاحق بأنه من قبيل الجنون فتح جبهة ثانية في العام ١٩٤٢[٣٦] .

لم تكن معارضة ليدل هارت لاستراتيجية « تشرتشل » أكثر صراحة في أي موضع مما كانت في مقته للقصف الاستراتيجي للمدن . فقد كان هذا الموضوع - أكثر من أي موضوع آخر - الذي شكل أساس ارتباط ليدل هارت الوثيق مع « جورج بيل George Bell» أسقف « شستر » ، الذي أضاع على نفسه فرصة أن يصبح كبير أساقفة « كانتربري » بفضل نقده الشجاع والصريح لسياسة الحكومة .

في وقت مبكر يرجع الى أيار (مايو) ١٩٤١ أبلغ مارشال الجو سير « ريتشارد بيك Richard Peck» مساعد رئيس الأركان الجوية ، ليدل هارت بأمر « القصة الحقيقية » للمبادرة البريطانية في القصف الاستراتيجي في صيف العام ١٩٤٠ ، مضيفاً أنها ترجع اساسا الى « تشرشل » والى مارشال الجو « سيريل نيوال Cyril Newall» رئيس الأركان الجوية . وفي كانون الأول (ديسمبر) أبلغ ضابط مجهول الاسم من السلاح الجوي الملكي ليدل هارت (وكان مصيبا فيما قاله) بأن الهجوم الجوي الاستراتيجي كان - برغم ما تقوله التقارير الرسمية - يحقق فشلا ذريعا ؛ وأن الغارة النهائية الكبيرة التي شنت على « كولونيا » - مثلا - كانت بمثابة كارثة . وقد قبل الأسقف بيل الدليل الذي قدمه ليدل هارت على أن بريطانيا هي التي بدأت - عمليا - القصف الاستراتيجي للمدن ، ولكنه أشار على سبيل التلطيف الى أن هتلر كان يعتزم غزو انكلترا ومن المؤكد أنه كان سيقصف لندن سواء كنا قصفنا برلين أو لم نقصفها . وذكر في هذا الصدد « الفظاظة الكاملة » التي يستخدمها الجيش الألماني في بولندا ، الدنمرك ، النرويج ، والبلاد الواطئة . (وربما كان يمكن أن يضيف تدمير « غيرنيكا » في ٢٦ نيسان ١٩٣٧) . وقد رد ليدل هارت بواحدة من معتقداته الأساسية : لقد استخدم الألمان قوتهم العسكرية لغايات محددة (كما هو الحال في استخدامهم

---

(٣٥) ١٥/١٩٤٢ حديث مع « بيفربروك » ١٩ آذار .

(٣٦) المصدر المذكور ٣٧ ، ٤٢ ، ٧٨ ، ٨٢ أحاديث مع « بيفربروك » ٣٠ أيار ، ١١ حزيران ، ٢٣ ، ٢٦ - ٢٧ أيلول .

المحدود لغارات الخنادق في الحرب العالمية الأولى) وما كانوا يقصفون لندن قبل أن يحاولوا غزوها لو أننا لم نقصف برلين . لقد كانت السياسة البريطانية حمقاء على الصعيد العملي بقدر ما كانت حمقاء على الصعيد الأخلاقي ، حيث أننا تعرضنا للمعاناة أكثر مما عانى الألمان في مباراة القصف الشامل[٣٧] .

وقد لخص ليدل هارت موقفه ازاء القصف الاستراتيجي تلخيصا مناسبا في فكرة نشأت عن الغارات مع « كولونيا » ، كتبها في حزيران (يونيو) ١٩٤٢ :

« سيكون من المثير للسخرية أن يعتمد المدافعون عن المدينة في سعيهم للنصر على أكثر الطرق التي شهدها العالم الحديث وحشية وأقلها مهارة لكسب حرب .

« ويدين الألمان بانتصاراتهم في السنتين الأوليين من الحرب ، لا للقوة المتفوقة فحسب ، بل لحقيقة أنهم أوصلوا فن الحرب إلى مستوى جديد من المهارة . ونحن الآن نعول في سعينا للنصر على نجاح في طريق الانحدار الى مستوى هابط جديد ، كما يتمثل في القصف (الليلي) بلا تمييز والتجويع بلا تمييز .

« سيكون هذا على الأقل استمراراً للحرب السابقة ، حيث كان الألمان هم الذين أظهروا البراعة الوحيدة في فن القيادة التي شوهدت في أوروبا ، ومع ذلك كان الحلفاء هم الذين مزقوهم بالاستنزاف المطلق ـ بواسطة القذائف على ميدان القتال والجوع في الوطن .

« فاذا ثبت أن دكنا للمدن الألمانية ، بواسطة القصف الليلي الشامل هو العامل الحاسم ، فانه يكون من قبيل التفكير الرصين الاعتقاد بأنه لم يكن إلا من قبيل الحماقة من هتلر أن تعرض لروسيا (وبالتالي استخدم قوته من القاذفات هناك ، كذلك فانه حول مصادره أساسا الى أسلحة أخرى) فنحن والألمان نحول مدن كل منا الآخر إلى « كولونيا » ، حيث التحيز هو لجانب ألمانيا في هذه المنافسة المجنونة في التدمير المتبادل .

تلك كان يمكن أن تكون عواقب طريقتنا المختارة في كسب الحرب ـ الطريقة التي كان قطاع كبير من الرأي العام يتلهف الى اطلاقها أثناء الشتاء الأول من الحرب ، وأطلقها بالفعل قبل الأوان في صيف العام ١٩٤٠ ـ حتى أننا لمدة سنة وأكثر ـ الى أن تحول هتلر شرقا ـ « تلقينا العقاب » الذي زاد عن كل حد بالنسبة لما كان بامكاننا أن نفعل » .

واستنكر ليدل هارت حملة القصف بعبارات مماثلة في كتابه هذه الحرب الآخذة في الاتساع (الذي نشر في خريف العام ١٩٤٢) ولكنه ضمنه مقالا صحفيا بتاريخ ٢٤ حزيران (يونيو)

---

(٣٧) ليدل هارت الى الأسقف « بيل » ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٠ . الأسقف « بيل » إلى ليدل هارت ٣١ تشرين الأول ١٩٤٠ . ليدل هارت إلى الأسقف « بيل » ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ .

١٩٤١ ، كان قد دعا فيه الى « التطوير لاقصى حد لهجومنا الجوي الحالي على امكانات ألمانيا الحربية »[٣٨] . ولما كانت قيادة القاذفات في ذلك الوقت عاجزة عن التحديد الدقيق لمواقع الاهداف العسكرية ، فانها كانت في الواقع أمام اختيار قاس بأن تفعل أفضل ما بوسعها في ظروف معاكسة أو أن تتخلى عن الهجوم بالقاذفات تخليا كليا .

في تموز ١٩٤٣ لاحظ الجنرال سير « فريدريك بايل » ـ الملقب « تيم » ـ الذي كان يقود دفاعات بريطانيا المضادة للطائرات طوال فترة الحرب ـ لاحظ وفقا لما قاله ليدل هارت :

« أن « وينستون » [تشرشل] يعلق كل ايمانه الآن بالهجوم بالقاذفات . فالدمار الذي تسببه يلائم مزاجه . وسيصاب بخيبة أمل لو أن الحرب انتهت إلى قدر أقل من الدمار . ويشعر « بايل » ـ الذي رآه عن كثب في مناسبات كثيرة ، وخاصة في معركة بريطانيا ـ أنه « ماسوشي »masochist ـ وأن الخطر والدمار هما بمثابة التنفس الذي يبقي على الحياة بالنسبة إليه » .

أما مزاج ليدل هارت فقد كان مختلفا تماما حقا . كان يعتقد أن من الحماقة الجمع بين القصف الاستراتيجي وسياسة استسلام غير مشروط ، ولكنه قرر ألا يرسل الى « تشرشل » مذكرة في هذا الموضوع « طالما أن لعقله مثل هذا النزوع التدميري الى حد يصعب معه سبر غوره بفكرة مختلفة كهذه » . وقد اتفق مارشال الجو « بيك »Peck مع ليدل هارت في هذه النقطة ؛ فقد كان من رأيه أيضا أن « تشرشل » لم يكن رجل استراتيجية سيكولوجية جيدا »[٣٩] .

ظلت معارضة ليدل هارت للقصف الاستراتيجي دون تغيير جوهري حتى نهاية الحرب . وقد عزز مراسل حربي ـ هو « الكسندر كليفورد »Alexander Clifford ـ في نيسان (ابريل) ١٩٤٤ آراء ليدل هارت النقدية عندما حكى انطباعات ضابط (هو « جورج ميللر »G. Miller) كان قد فر مؤخرا من ألمانيا ، فقد كان من الواضح أن « ميللر » أحس أن القصف كان يقود الألمان إلى الرأي القائل بأننا أكثر وحشية من الروس . كانت المعنويات العسكرية لا تزال عالية ولكن معنويات المدنيين كانت آخذة في التدني . وطبقا لكليفورد ـ فيما كتبه عن جولته الأخيرة في مسرح البحر الأبيض المتوسط ـ فانه سمع أن الأميركيين قصفوا عرضا مدينة « آينزبروك »Innsbruck لا لسبب عسكري ، انما فقط لأنها كانت مكانا ملائما على الخريطة ؛ بينما قيل ان مارشال الجو « كوننغهام »Coningham كان يدعو إلى قصف مدينة البندقية « لنبرهن للايطاليين على أننا نعني ما نقول » . وفي نيسان ١٩٤٥ لاحظ ليدل هارت « ان خطتنا الخاصة بالقصف الاستراتيجي كانت

---

(٣٨) ١٩٤٢/٤٠ « فكرة ناشئة عن غارات كولونيا » ، ٢ حزيران . هذه الحرب الآخذة في الاتساع ص . ص . ٤٣ ، ٧٣ .

(٣٩) انظر A. J. P. Taylor (ed.) off the Record: Political Interviews 1933-1943 W. P. Crozier (1973) P. 211

وكان « تشرتشل » يتحدث الى « كروزير » عن الهجوم على الأسطول الفرنسي في وهران .

اخفاقا . . . وكان نجاحنا الحقيقي في قصف مصافي النفط ومعامل المواد المصنعة . ولو أننا كنا قد ركزنا على هذا لكنا أحسنا صنعا »[٤٠] . وتبرهن الابحاث اللاحقة أنه كان هناك الكثير مما يبرر هذا النقد ، خاصة في الأشهر الثمانية عشر الأخيرة من الحرب ، ولكنها تتجاهل الحجة المعاكسة القائلة بأنه مهما كانت درجة عدم فاعلية المراحل الأولى من القصف الاستراتيجي من الناحية المادية ، فانها أمدتنا بخبرة بنينا عليها نجاحنا في النهاية . ولو أن قيادة القاذفات كانت قادرة على تحديد مواقع الاهداف العسكرية وضربها بدرجة معقولة من الدقة طوال الحرب ، لكان من المفترض أن تختفي اعتراضات ليدل هارت الأخلاقية أيضا .

بحلول بداية العام ١٩٤٣ ، ومع نجاح العمليات الانكليزية ـ الاميركية في شمال افريقيا ، واحكام الروس قبضتهم حول ستالنغراد ، كان من الواضح أن النصر العسكري في أوروبا ـ شرط أن يبقى الحلفاء ثابتين ـ لابد أن يكون مسألة وقت . فوفقا لهذه التطورات أخذت تسمع نغمة جديدة في كتابات ليدل هارت ، تجسدت في مقدمة لفكرة كتبها يوم ١٠ حزيران (يونيو) « لقد كسبنا الحرب ، ولكننا لا نعرف ذلك : اننا نحارب الآن بغباء لنواصل تقديم التضحيات من الحياة والثروة والصحة والاستقلال ـ وباختصار لنفقد السلام » . وقد ظهرت أفكاره بصورة أكثر تفصيلا في بحث بعنوان « المرتقب ـ ربيع ١٩٤٣ » كتب فيه :

« النصر أصبح امكانية ، والمأزق اضحى احتمالا ، وفقدان هدفنا من القتال يكاد يكون أمرا مؤكدا . ان السلام عن طريق النصر خلال سنة أو اثنتين من الزمن يحتمل أن يعني أننا سنفقد ، بكل النواحي ، أكثر مما سنفقد بفعل سلام يتحقق بفعل مأزق هذا العام . ان النصر يمكن أن يأتي هذا العام فقط اذا نجحت روسيا في الفوز به « بوسائلها هي » .

لقد تم اخماد قدرة هتلر على العدوان في هذه اللحظة ـ وربما حتى رغبته في العدوان ـ بطريقة أشد فاعلية من تلك التي جرت للويس الرابع عشر بعد « صلح أوترخت » ـ وهو أفضل صلح أمكن تحقيقه في الأزمنة الحديثة . . . »[٤١] .

وكان مما يتوافق تماما مع نظرة ليدل هارت العامة الى الحرب أن يعتبر اعلان الرئيس « روزفلت » ـ الذي لم يكن يمكنه التفكير به مسبقا ـ لسياسة « الاستسلام غير المشروط » في نهاية مؤتمر « الدار البيضاء » في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ ، بمثابة كارثة كاملة . وقد كتب إلى الاسقف بيل قائلا أنه حتى من زاوية نظر استراتيجية بدا له الاعلان انه « أغبى الخطوات وأسوأها توقيتا ـ وأفضل دعم ممكن لهتلر » . واستنكر الأسقف تطبيقه على ايطاليا ، ووافقه على أنه

---

(٤٠) ١٩٤٤/٢٩ حديث مع « الكسندر كليفورد » ، ٤ نيسان . ١٩٤٥/٤ ملحوظة خطية ، ٧ نيسان . انظر :

Noble Frankland: The Bombing Offensive Against Germany (Faber, 1965).

(٤١) ١٩٤٣/٢ تأملات مختلفة . ١٧ نيسان ، ١٠ حزيران .

سيستغل لأغراض الدعاية من جانب « غوبلز »[٤٢] .

وقد تنبه ليدل هارت لأن يرى ارتباطا أعمق بين القصف الاستراتيجي وسياسة الاستسلام غير المشروط بفعل رسالة من زوج شقيقته باري سوليڤان ـ الذي كان يؤدي الخدمة آنذاك في السلاح الجوي الملكي في مالطة . فقد كان هذا الأخير يحس ـ وقد أصابه اكتئاب نتيجة التدمير بغير تمييز بفعل القصف الاستراتيجي ـ بأن الحكومة « أصبحت فرانكشتاين ، تخضع لسيطرة مخلوقها ـ الوحش المسمى قيادة القاذفات » . ومع ذلك فانه مع اعادة قراءة كتاب الطريقة البريطانية في الحرب بدا له أن القصف الاستراتيجي كان النتيجة الطبيعية للاستراتيجية التاريخية البريطانية ، التي كانت في الماضي أكثر فاعلية وأكثر اقتصاداً في الحياة من الطريقة القارية (الأوروبية) في الحرب . فكيف سيتمكن ليدل هارت من حل هذا التناقض الظاهر ؟ أجاب ليدل هارت بما يلي :

« ان من شأن أي مؤرخ متجرد وطالب لعلوم الحرب أن يعترف بأن استراتيجيتنا التقليدية ، التي كنا ننتهجها خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كانت في لبها أكثر وحشية من استراتيجية التقاليد القارية (الأوروبية) ومن نظرية ـ « كلاوزفيتز » ـ لأنها كانت تهدف إلى ارادة الشعب الخصم ، أكثر مما كانت تهدف إلى قوته المسلحة الأساسية ، وهكذا فانها كانت بمعنى ما تضرب السكان غير المحاربين . وفي الوقت نفسه فانها أثبتت في الممارسة العملية أنها أقل تدميرا وأكثر معقولية .

« ويمكن تفسير هذه المفارقة العملية في معقولية سياستنا فيما يتعلق بالهدف . ففي الماضي كنا عادة مستعدين لقبول أساس لصلح يتم بطريق المفاوضات حينما يكون العدو قد سئم الحرب وأصبح مستعدا للتراجع ـ أي للتخلي عن سياسته المعارضة . لم نكن نواصل القتال إلى نهاية ـ الأمر الذي كان من شأنه أن يؤدي ليس فقط إلى انهاك الحافز العدواني ، بل أيضا إلى الانهاك المتبادل للقدرة على اعادة بناء السلام .

« ان الجمع بين غرض غير محدود وهدف غير محدود للاستراتيجية ـ الجمع بين طلب الاستسلام غير المشروط من جانب الطرف الآخر وبين استراتيجية حصار كامل وقصف جدي شامل من جانبنا ـ هذا الجمع هو الذي يجعل استراتيجيتنا حتما ارتدادا الى « البربرية » ، وبالتالي خطرا واسع الانتشار على الأسس السطحية نسبيا للحياة المتمدنة » .

وبيّن ـ في فكرة لاحقة ـ كيف يمكن لسياسة الاستسلام غير المشروط أن تستبعد الطريقتين الممكنتين التي يمكن بهما أن يحقق القصف الاستراتيجي غايته ، أي استسلام العدو ، إما بفعل تمرد

---

(٤٢) المصدر السابق . « خلفية سياسة الاستسلام غير المشروط » ، ٣١ تموز ، « مذكرة عن الاستسلام غير المشروط » ، ٢١ آب . ليدل هارت الى الأسقف « بيل » ، ١٢ شباط ١٩٤٣ . الأسقف « بيل » إلى ليدل هارت ، ٢٤ شباط ١٩٤٣ .

يسقط الحكومتين في ألمانيا وايطاليا ، أو بضغط شعبي من أجل صلح يضطر الحكم إلى الاستسلام . واستنتج أن :

« الاصرار على « الاستسلام غير المشروط » هكذا يساعد الحكم المعادي في الحفاظ على سيطرته على شعبه ، واقناعه بأنه لا بديل أمامه غير الغرق أو العوم مع الحكم . وتميل النتيجة لأن تكون مثل جمهرة خائفة تدفع دفعا في ممر صوب بوابة مغلقة ـ فهذا أكثر فاعلية في خنق المراتب القيادية من الجمهرة منها في اقتحام البوابة . وفيما وراء ذلك يكمن السؤال عما اذا كان الشعب الذي يشعر انه هو الهدف في هجوم غير محدود ولغرض غير محدود ـ هو الاستسلام غير المشروط الذي لا يكفل أي حماية ضد سوء معاملته حينما يكون الاستسلام قد جعله عديم الحيلة تماما ـ لن يكون ميالا إلى الالتفاف حول الحكومة التي على الرغم من كونها طغيانية ، تنظم الدفاع عنه . وفي مثل هذا المأزق ، قد يؤدي الاخفاق في ايضاح أي حدود للغاية الى تثليم حد سلاح القصف(٤٣) .

وتثير هذه المناقشة لسياسة الحلفاء الخاصة بالاستسلام غير المشروط السؤال الكبير لتفسير ليدل هارت لأهداف هتلر الحربية وعقلانيته في السعي اليها . وهي تثير أيضا المشكلة المتعلقة بها . مشكلة المعارضة المناهضة للنازية داخل ألمانيا وموقفها من شروط الصلح فيما لو أطيح بهتلر وأتباعه . ويمكن القول بوجه عام أن ليدل هارت اتخذ وجهة نظر متفائلة جدا ازاء هتلر ، مصورا اياه كرجل دولة عقلاني ذي أهداف محدودة يستطيع أن يرى حماقة الاصرار على مواصلة الحرب بمجرد أن يتأكد أن تلك الأهداف لا يمكن بلوغها بالقوة . وربما كان بعض من اعجاب « لويد جورج » بالفوهرر قد انعكس عليه . فقد كتب ليدل هارت في المذكرة المذكورة آنفا ـ على سبيل المثال ـ اننا ، وقد ساعدتنا روسيا مساعدة هائلة ، « نجحنا في شل قوة العدوان لدى العدو ، وفي جعله تواقا للسلام بالشروط التي حددناها عندما دخلنا الحرب ، أو أية شروط لا تنطوي على سقوطه الكامل » . فهل كان هناك حتى مسحة من دليل يدعو للاعتقاد بأن هذا يمثل فعلا موقف هتلر في العام ١٩٤٣ أو بعده ؟ لقد أظهر ليدل هارت تجردا ملحوظا في الكتابة عن « الهتلرية » . وقد كتب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ قائلا « أن نلوم هتلر لنشوب الحرب لهو مبالغة في ذنبه وفي أهميته على السواء . فما هتلر والحرب إلا حادثتين عارضيتين في سياق ثورة اقتصادية وسياسية آخذة في التقدم في زمننا . انها فوران فوق الجلد »(٤٤) .

كان أحد افتراضات ليدل هارت الرئيسية ـ التي شارك فيها الأسقف « بيل » ـ أنه يتعين على الحلفاء أن يشجعوا الشعبين الألماني والايطالي على اسقاط طغاتهما . ولهذا أيد ليدل هارت المشروع الذي قدمه الأسقف في مجلس اللوردات يوم ١١ آذار (مارس) ١٩٤٣ والذي دعا الحكومة

---

(٤٣) ١٩٤٣/ ٣٩ ، ٤٠ « فكرة حول الاستراتيجية والسياسية ، والانسانية » ، ٣ تموز . انظر أيضا سير « أ . رونالدز » الى ليدل هارت ، ١١ تموز ١٩٤٣ .

(٤٤) ١٩٤٢/ ٥٩ تأملات في « الهتلرية » ، تشرين الثاني (١٩٤٢) .

البريطانية إلى التمييز بين « الهتلريين » و « غير الهتلريين » عند تحديد سياستها فيما يتعلق بألمانيا ما بعد الحرب . كذلك كان ليدل هارت ميالا الى النظر بعين الشك إلى الشائعات عن معارضة المانيا للنازي . وعلى سبيل المثال ، علم في آب (أغسطس) ١٩٤٢ ، من دافيد أوين David Owen ، المساعد الشخصي لسير « ستافورد كريبس » Stafford Cripps ، أن المناهضين للنازية ، قد أرسلوا موفدين ـ عبر اتصالات جرت في السويد ـ للبحث في شروط الصلح : « ان أحدا لم يعد بأي شيء أفضل من الوضع الذي كان سائدا وقت « ميونخ » ، ولم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل لعدة أشهر » . وقد قيل ان زعماء في الكنيسة وقادة في الجيش كانوا مستعدين لتنفيذ انقلاب اذا استطاعوا الحصول على ضمانة كافية عن موقفنا اللاحق . وقد أحس ليدل هارت أن الاستجابة البريطانية كانت غير مواتية على الاطلاق ، في حين تشكك « أوين » في صحة أصول الموفدين الذين يفترض أنهم جاءوا من قبل زعماء كنسيين ألمان . وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ أبلغ الأسقف « بيل » ليدل هارت باتصالات شخصية أجراها في السويد مع أعضاء المعارضة الألمانية ؛ وقد نقل المعلومات الى كل من « كريبس » و « ايدن » ، لكن الأخير لم يقم بأي تحرك حتى تكون القوى المناهضة للنازية قد أظهرت قدرتها على العمل . وكان الأسقف قد سمع في السويد أن المعارضة الألمانية أزعجها رفض الحلفاء على فرض أي تمييز بين الألمان الطيبين والألمان الأشرار . وفي رسالة مثيرة للاهتمام للغاية بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٣) كتب ليدل هارت الى الأسقف « بيل » أنه سمع ـ عبر اتصالات سويدية ـ أن الألمان حاولوا التفاوض على الصلح مع روسيا . وقيل ان « فون باولوس » Von Paulus (الذي كان يقود الجيش السادس المحاصر في ستالنغراد) قد رقي الى رتبة « فيلد مارشال » لمنحه المكانة اللازمة للتفاوض . وكان الأساس المقترح هو الجلاء عن كل الأراضي الروسية ، وتقديم تعويضات اقليمية معينة لروسيا على حساب فنلندا ورومانيا ، واجراء للتعويض عن الدمار الذي نتج عن الغزو (الألماني)(٤٥) . ومن المؤكد أن هذا كان مصدر اشارات ليدل هارت أثناء الحرب الى ايمانه باستعداد ألمانيا للتفاوض للتوصل الى الصلح في العام ١٩٤٣ .

وبينما لا يمكن توجيه اللوم الى ليدل هارت على تجاهل مدى وقوة النشاط المعادي للنازية داخل ألمانيا في وقت الحرب ، فانه كان مذنبا بالتمني الفكري حينما عول على شائعات مشكوك فيها ظهرت في السويد . لقد كانت جماعات المعارضة الألمانية سيئة التنظيم وغير متحدة ، وكان بعض من أبرز أعضائها ـ مثل « كارل غولدلر » Carl Goerdeler ـ يرغب في الاحتفاظ بقسم ضخم من المناطق التي غزاها النازيون ؟ ولم يكن بامكان أي من مجموعات المعارضة حتى لو استطاعت أن ان تستولى على السلطة قبل ان تلحق الهزيمة الكاملة بألمانيا ، أن تعقد ذلك النوع من التسوية

---

(٤٥) الأسقف « بيل » الى ليدل هارت ، ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ ، و ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٣ . ليدل هارت الى الاسقف « بيل » ، ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٣ .

السلمية المذلة للذات التي كان يتطلع اليها ليدل هارت . ولكن تبقى الحقيقة المهمة وهي أن المعارضة لم توشك ابداً على اسقاط الحكم النازي ، ولا حتى بعد مؤامرة(*) ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٤ . كان على حكومات الحلفاء أن تتعامل مع هتلر ، ووجهة نظرها المشمئزة ازاء هذا الفرد كانت أقرب للواقع من نظرية ليدل هارت . فالأرجح ـ بعيدا تماما عن فكرة ترقية « باولوس » من أجل التفاوض على الصلح ـ أن هتلر كان يتوقع أن تشدد مقاومته وتصميمه على تفادي الوقوع في الأسر . وكان مسلك هتلر كله في ادارته للحرب على الجبهة الشرقية مناهضا للعقل ، وكان كلما ارتفع المد ضده كلما أصبح أكثر لا عقلانية(٤٦) . ولم يكن كثير من هذه المعلومات متاحا لليدل هارت أثناء الحرب ، ولكن حتى مسار الأحداث العسكرية كان لا بد أن يجعله يتساءل عن صحة الافتراض بأن هتلر كان رجل دولة يسعى لتحقيق أهداف معقولة بطريقة معقولة أيضا . وعلى العكس من ذلك يبدو أنه أعطى وزنا أكبر من اللازم لوجهة نظره المزاجية القائلة بأن اللوم يقع على الحلفاء إلى حد كبير لاستفزازهم هتلر للقيام بغزوات لتعاقبه ولجعل الحرب « شاملة » بفعل سياساتهم الخاصة بالحصار والقصف الاستراتيجي والاستسلام غير المشروط .

ان تجرد ليدل هارت الذهني وعدم تدخله في ادارة الحرب قد مكناه من تكوين وجهة نظر غير متحيزة ، وفي الوقت نفسه تنبئوية إلى حدٍ ملحوظ، ازاء عالم اوروبا ما بعد الحرب . فقد رأى بوضوح شديد في مذكرته الجديدة بالاعجاب التي تحمل عنوان « مستقبل التوازن في أوروبا » ـ بتاريخ أول تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ـ أن روسيا ستحل محل المانيا بوصفها الدولة المسيطرة في أوروبا ، وأن هذا قد يصبح في المدى البعيد أخطر حتى من الهيمنة الألمانية . فقد كان من الواضح أن روسيا تعتزم استيعاب دويلات البلطيق وقسم كبير من بولندا على الأقل .

« ربما ستكون العواقب المباشرة للنصر هي احتلال الجيش الأحمر لوسط أوروبا بأسره ولقسم كبير من ألمانيا . فروسيا وحدها ستملك القوة لوضع جيش احتلال فعال في هذه البلدان . وفي الوقت

(*) المؤامرة التي دبرها عدد من القادة العسكريين الألمان الذين نمت في صفوفهم المعارضة لهتلر بعد سلسلة من الهزائم التي لقيتها ألمانيا في العام ١٩٤٤ (وليس قبلها) . وكانت ترمي الى اغتيال هتلر ومعه القادة الذين ظلوا على ولائهم له . وكان من أبرز مؤيدي هذه المؤامرة الماريشال «روميل» ولكنه كان يحبذ القبض على هتلر بدلا من اغتياله . وكانت خطة المؤامرة تقضي باختيار « روميل » رئيسا للدولة في حالة نجاح المؤامرة . وقد انتهت المؤامرة بالفشل ، الأمر الذي عجل بمصير « روميل » ، اذ أجبر على الانتحار بالسم في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤ . « المترجم » .

(٤٦) من الجوهري أن نميز بين الأماني النبيلة وبطولة بعض المتآمرين وبين كفايتهم . لمزيد حول مشكلات الاستجابة البريطانية انظر :

C. Sykes: «The German Resistance in Perspective» في مجلة Encounter ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ . وحول ترقية « فون باولوس » انظر فصل الجنرال زيتلر ص ١٦٣ في كتاب :

W. Richardson and S. Friedin (eds) The Fatal Decisions (1956)

نفسه فان الجيوش الانجلو ـ أميركية قد تحتل بلدان جنوب أوروبا وقسما ما من ألمانيا » .

وتنبأ بعبارات عامة بالوضع المتأزم (الذي نشأ بالفعل في وقت الجسر الجوي الى برلين) الذي سيحدث « اذا وجه ستالين اخطارا برحيل قوات الاحتلال الانجلو ـ أميركية » . وعلى أي حال فان بريطانيا ستجد نفسها في الوضع الصعب لدولة فاصلة بين الدول العظمى ، انما على الجانب الخطأ من الأطلسي . وكانت الدولة الوحيدة التي يمكنها فعلا أن تضيف لقوة الفصل (أي ألمانيا) وهي الدولة التي كنا آنذاك بصدد سحقها» . و« الجانب المثير للسخرية في الوضع هو أن تحقيق هدفنا الخاص بالنصر التام من شأنه أن يحطم الجدار الوحيد الممكن الذي يتصف بأي قوة حقيقية في صد الأمواج »(٤٧) .

كذلك كان الفيلد مارشال « سمطس » Smuts يرى أن هزيمة ألمانيا ستضع عملاقا آخر في مكانها ، إلا أنه أخفق ـ وفقا لملاحظات ليدل هارت ـ في أن يتوصل الى أن جيشا ألمانيا سيكون جوهريا لأي مجموعة أوروبية بعد الحرب ترمي إلى موازنة القوة الروسية(٤٨) .

كان من بين أولئك الذين عقبوا على مذكرة ليدل هارت ، « اوليفر هارفي » Oliver Harvy الذي أجاب صراحة بأنه لا يتفق معه ، اما « جيوفري فابر » Geoffry Faber الذي اعتقد أن ليدل هارت قد يكون محقا ولكن التيار ربما سيكون أقوى كثيرا من احتماله ؛ « لورد جيديس » Geddes اتفق معه في أن سياسة الاستسلام غير المشروط كانت خطأ ؛ و« غلبرت موراي » الذي اعتقد ـ رغم اتفاقه مع ليدل هارت ـ أن سياسة الحكومة كانت أكثر اعتدالا من دعايتها . ومرة أخرى كان رد « جون بروفي » الأكثر اثارة للاهتمام . كان أشد تفاؤلا فيما يتعلق بمستقبل سياسة روسيا لاعتبارين : أولا انه كانت هناك فرصة طيبة لأن تصبح ذات نظرة غربية وليبرالية ؛ ثانيا أنها ستكون منشغلة باعادة البناء إلى حد لا يسمح لها بوقت لخوض مغامرات امبريالية . وقد رد ليدل هارت بأن لديه حدسا قويا بأن روسيا ستكون مثيرة للمتاعب بعد الحرب وأن الخطر الرئيسي سياتي من الشقاق الروسي الأميركي . ولم يكن ذلك واضحا تماما في العام ١٩٤٣ كما يبدو اليوم . وفي آذار (مارس) كان « كريبس » لا يزال يؤكد أنه ليس هناك احتمال صدام بين روسيا وأميركا بعد الحرب(٤٩) .

برهنت هذه المذكرة والمراسلات التي تلتها على مقدرة ليدل هارت على التبصر الواضح في مجال الاستراتيجية الكبرى . وقد رسم في « مستقبل التوازن في أوروبا » ، وفي تأملات حول

(٤٧) ١٩٤٣/ ٦٠ ـ ٦٣ « مستقبل التوازن في أوروبا » أول تشرين الأول .

(٤٨) المصدر السابق ، ٧٦ ـ ٧ كانون الأول (ديسمبر) .

(٤٩) « ج . فابر » الى ليدل هارت ، ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٣ . « ج . موراي » الى ليدل هارت ، ١٧ كانون

« أهداف الحرب و « النصر » التي ـ تلتها ـ الخطوط العريضة لموقف ظل دون تغيير جوهري بقية فترة الحرب(٥٠) .

وفي آذار (مارس) ١٩٤٤ وقعت حادثة غريبة حينما استدعي ليدل هارت فجأة لحضور اجتماع مجلس وزراء الحرب . فهل كانت تلك دعوة متأخرة لوضع خبرته بتصرف الحكومة ؟ كان الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . فلدى وصوله قام سير « هيستنغز ايسماي » HastingIsmay و « ايان جيكوب » Ian Jacob ـ من أمانة مجلس وزراء الحرب ـ باستجوابه بلهجة فظة حول الكيفية التي حصل بها مقدما على معلومات بأن غزو أوروبا سيتم عند « نورماندي » . وقد وجد ليدل هارت صعوبة شديدة في اقناع مستجوبيه بأن ابرارا في « نورماندي » ـ وهو ما كان قد ذكره في مذكرة بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ـ (يناير) ـ كان الاستنباط الواضح الذي يمكن لأي استراتيجي قدير أن يخرج به من الحشود الواسعة لقوات الحلفاء في جنوب غرب انكلترا . وفي النهاية اقنعهما بأنه لم يحدث انتهاك للأمن . وكانت هناك نتيجة مسلية . فما أن أخلي سبيله حتى اقترح على « جيكوب » أن يجري استخدام اسمه في عملية تحويل انتباه للعدو : أن يعلن تعيينه كمستشار للحكومة حتى يستنتج الألمان ـ خطأ ـ أنه يجري التخطيط « هجوم غير مباشر » في « خليج بيسكاي » . وعندما أبلغ « جيكوب » ليدل هارت ـ آسفا ـ برفض مجلس وزراء الحرب اقتراحه ، ذكر « جيكوب » أنه وجد كتابه الذي كان قد نشر لتوه « أفكار في الحرب » Thoughts on War مثيرا للاهتمام جدا ، ولكنه أشار الى أن ليدل هارت كان يتمتع بميزة الكاتب على رجل الفعل : ان آخرين ـ بالاضافة إليه ـ يمكن أن يروا حلا مثاليا ولكنهم يضطرون غالبا إلى الدخول في حل وسط لمواجهة احتياجات الحلفاء أو للتكيف مع ضغوط أخرى(٥١) .

وكانت احدى سمات ليدل هارت البارزة ـ التي حاول هذا الفصل إيضاحها ـ محاولته الاحتفاظ بموقف هادىء وفكر منصف تجاه ألمانيا والألمان ، في وجه الدعايات المحمومة والنزعة الانفعالية التي اجتاحت بريطانيا نتيجة للهجوم الجوي عليها* والأحداث التي تلته . وعندما حاول أن يقضي على المشاعر المعادية للألمان ، ألتي كانت تقترب في بعض الأحيان من الهستيريا ، لدى ابناء وطنه كان هناك خطر من أن يصل ليدل هارت بصفاء ذهنه إلى نقطة خداع النفس . فبينما

الأول ، « ج . بروفي » الى ليدل هارت ، ٨ تشرين الثاني ـ « أوليفر هارفي » الى ليدل هارت ، ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٤ .

(٥٠) ١٩٤٣/٧٥ ب تأملات في « اهداف الحرب » ، ١ كانون الأول ١٩٤٣ و « النصر » ، ١٢ كانون الثاني ١٩٤٤ .

(٥١) ١٩٤٤/١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

* المقصود القصف الجوي الالماني العشوائي لمدينة لندن وغيرها من المدن البريطانية الذي جرى في الفترة ما بين ١٩٤٠/٩/٧ و ١٩٤١/٥/١٠ . المترجم .

كان رفض ليدل هارت أن يكره الشعب الألماني أمرا جديراً بالاعجاب ، فان هناك شكا في أنه إما كان يجهل ، أو كان غير مستعد لأن يصدق ، الطبيعة الوحشية والحيوانية للممارسة النازية داخل ألمانيا وفي جميع أنحاء أوروبا المحتلة .

وربما يمكن اعطاء صورة لهذا الشك من مراسلات رائعة له مع « جون بروفي » في صيف العام ١٩٤٤ بدأت بملاحظة من « بروفي » بأنه ـ إذا أمكن عملياً ـ يجب في نهاية الحرب ان يرى كل الألمان وقد ابيدوا[٥٢] . ولما كان ليدل هارت ينظر الى « بروفي » كشخص معتدل وواسع الأفق في آرائه ، فانه تساءل عما اذا كان هذا الانفجار للحقد ضد الألمان يرجع إلى ارهاق عصبي ناشىء عن القنابل الطائرة . وأشار ـ وهو يلتمس وجهة نظر متسامحة تجاه ألمانيا ـ الى ما كنا نفعله بمدنهم .

وأشار « بروفي » ـ بدوره (وهي فكرة وردت لهذا المؤلف أيضا بصورة مستقلة) ـ الى أنه حين يضع قيودا على مسلك بريطانيا في الحرب انما يفكر بصفة استثنائية تماما في النزاع الانجلو ـ الماني . وكتب « بروفي » متسائلا : « كيف تصرف الألمان في بولندا ، في روسيا ، في فرنسا ، وهلم جرا » :

« ما أشعر به هو أنك مضيت لا شعوريا إلى تطبيق معيارين متباينين على بريطانيا وألمانيا . ان بقعا سوداء قليلة تظهر في سجل بريطانيا ، وبقعا بيضاء قليلة في سجل ألمانيا . ولكن اذا أخذت الأمور في اجمالها فان البريطانيين نظيفون أخلاقيا ، والألمان قذرون . ومعسكرات الاعتقال وحدها كافية لادانة النازيين . انني أتمسك بالنسبة العامة وأرى البريطانيين بكل نواقصهم أكثر أمم العالم تمدنا وبراءة . . . »

تناول رد ليدل هارت نقاط « بروفي » واحدة واحدة ، وعندما وصل الى الاشارة الى معسكرات الاعتقال بدا أنه يستبعد قصة الفظائع التي ارتكبها الألمان باعتبارها دعايات بولندية وروسية[٥٣] . وبينما وافق على أن معسكرات الاعتقال النازية فيما قبل الحرب قدمت أدلة كثيرة لادانتها ، فان عددا من الأصدقاء أبلغه بعد اطلاق سراحهم في العام ١٩٤٠ ، وبعد أن اعتقلوا في بريطانيا كغرباء بأنهم وجدوا المعسكرات أفضل من معسكراتنا . وأشار إلى أن افضل الشهادات في متناولنا هو ما يأتينا من المناطق المحررة ، بما فيها « جزر المانش » ، ويلاحظ في هذه الشهادات « أن سلوك الألمان كان أكثر سلامة وضبطا للنفس مما كنا نتخيل » .

---

(٥٢) ليدل هارت الى « بروفي » ، ٢٥ تموز و ٩ آب . « ج . بروفي » الى ليدل هارت ، ٣٠ تموز و ١٧ آب ١٩٤٤ .

(٥٣) لم أطلع على اشارات في اوراق ليدل هارت في زمن الحرب الى مذبحة « كاتين فورست » Katyn Forest (غابة كاتين) ولكنه من المؤكد أن الألمان اتهموا خطأ فيها بالقتل الجماعي ، وقد ردد الروس هذا الاتهام .

ويمكن أن يعزى ميل ليدل هارت إلى تضخيم أخطاء بريطانيا مع التقليل من اخطاء ألمانيا إلى سببين : فمن الناحية العملية كان عارفا شخصيا بنواقص وطنه ، ومن الناحية النظرية ، كان مستعدا لأن يدفع بعيدا الفكرة القائلة بأن المعتدي المتسلط كان له أهداف محدودة وقواعد دقيقة للسلوك ، بينما كانت الضجة الديمقراطية المحبة للسلام تشن ـ بمجرد أن تدفع إلى العمل ـ حربا غير محدودة سواء من حيث السلوك ومن حيث الأهداف السياسية . واذا كان الجزء الثاني من هذا الافتراض الأخير صحيحا إلى حد كبير فيما يتعلق بالديمقراطيات في الحرب العالمية الثانية ، فانه لا ينشأ عن هذا أن القسم الاول من الفرض كان صحيحا أيضا .

ويمكن تصوير هذا المنحى في الاستدلال على نحو أبعد من ذلك بواسطة تأملات في قواعد السلوك في الحرب دفعته اليها معلومات تفيد بأن البريطانيين قد تلقوا أوامر بتقييد أيدي الأسرى في غارة « دييب »Dieppe :

« بالمثل ـ وعلى صعيد أعلى ـ تنحو وسائلنا في الحرب ،في جزء منها بقوة الظروف ، لأن تكون أكثر لا انسانية من وسائل البلدان القارية (الأوروبية) ذات الذهنية المحاربة . وقد ازدادت حدة هذا الميل في الحرب الراهنة ـ فان الخطة المزدوجة للسعي الى النصر بقصف المدن وتجويع كل أوروبا هي ـ في أساسها ـ أكثر أشكال الحرب التي رآها العالم وحشية » .

أما على الصعيد السياسي فكانت بريطانيا على مستوى أعلى من الفضيلة والانسانية .

« أما في مجال الحرب فتنحو سياستنا لأن تكون أقل انسانية من سياسة الألمان ، ويمكن أن تبدو كذلك في الممارسة ـ فان لا انسانيتهم تتبدى في الدعم السياسي للنتائج العسكرية»[٥٤] .

وحتى نكون منصفين لليدل هارت ربما يكون الحال أنه في محاولته لضرب الوهم القائل بأن العدو الأخير « مختلف » وصل حقا الى اعتقاد بأن ألمانيا النازية لم تكن أكثر شرا من فرنسا لويس الرابع عشر أو نابليون . وانه لمن المثير للفضول حقا ـ بالنظر إلى تماسكه التام في الاحتفاظ بالأدلة ـ أنه لا يبدو أنه تلقى معلومات سواء عن معسكرات الاعتقال أو عن فظائع عسكرية ألمانية معينة ارتكبت أثناء الحرب[٥٥] . وقد أشار في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ إلى الضغينة التي « أطلقها انجيل الحقد النازي » دون أن يشير إلى ممارسات النازية[٥٦] . ويستنتج المرء أيضا أنه كان يشارك سير « هارتلي شوكروس »Hartley Showcross حيرته في أيلول ١٩٤٥ حين علم أن نازيا ذكر أن أربعة ملايين من اليهود قد قتلوا[٥٧] . ويعزز من شك المرء بان ليدل هارت كان حقا على جهل

---

(٥٤) ١٩٤٢/٥٩ « قواعد السلوك في الحرب » ، ٤ أيلول (سبتمبر) ، انظر أيضا « حول المسؤولية عن شرور الحرب » ١٥ تموز (يوليو) .

(٥٥) انظر : لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ ص . ص . ٥١ ـ ٥٣ .

(٥٦) هذه الحرب الآخذة في الاتساع . ص . ١٨٥ .

(٥٧) ١٩٤٥/١٥ ، حديث مع سير « هارتلي شوكروس » ، ٢٨ أيلول .

عميق بطبيعة الحكم النازي استجابته الملحوظة لمقال كتبه « آرثر كوستلر »ArtherKoestler بعنوان « النقل المختلط » في عدد تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤٣ من مجلة الأفق Horizon وكان هذا المقال الكثيب يرمي الى وصف رحلة قامت بها في أوروبا الشرقية ١٧ سيارة شحن للماشية محملة باليهود لنقلهم إلى معسكرات العمل أو الى حيث ينفذ فيهم حكم الموت . ومن الأمور ذات الدلالة أن ليدل هارت وضع لمقاله عنوان « سقوط من الواقع » . ومضى عبر المقال مشيرا - بالتفصيل - إلى « الأمور غير المحتملة وغير المجدية » ، ومنها على سبيل المثال اذا كانت عربات الماشية مكشوفة تماما ، وما اذا كان باستطاعة الركاب - أم لا - أن يشاهدوا الخارج ، وبرهن على موافقته هو أن القصة كانت زائفة . ولسوء الطالع أن « كوستلر » - كما نعرف - كان محقا تماما به بل الحقيقة أنه لم يكشف النقاب الا عن جزء يسير يغطي الفظائع التي ارتكبت في مساحة شاسعة من اوروبا التي كان يحتلها النازي .

لا توجد خيوط جديدة أخرى في تفكير ليدل هارت في السنة الأخيرة من الحرب . ان لهجة مذكراته وتأملاته تصبح أكثر اكتئابا كلما رأى تنبؤاته في « مستقبل التوازن في أوروبا » تتحقق : الحلفاء يصرون على سياستهم الخاصة بالاستسلام غير المشروط ، الأمر الذي كان يؤدي إلى الهبوط ببريطانيا الى مستوى دولة من الدرجة الثانية معتمدة اقتصاديا على الولايات المتحدة ، والى احلال السيطرة الروسية على اوروبا محل السيطرة الألمانية والى بذر بذور أسطورة هتلر . وكانت الانتقادات القاسية التي وجهها إلى النتائج القاحلة للنصر عن طريق الغزو التام لألمانيا صادقة منه بما فيه الكفاية :

إن أمامنا أوروبا مهدمة نتعامل معها إلى جانب كوننا نحن أنفسنا قد أصبحنا منهكين . وقد فقدنا شرفنا بتخلينا عن تعهدنا لبولندا . لقد انقسمت أوروبا إلى قسمين يحتدم التنافس بينهما ، دون وجود أي عازل بينهما - نظرا لتدمير قوة ألمانيا الدفاعية . وليست بولندا وحدها - بل أيضا كل بلدان شرق ووسط أوروبا - أصبحت سجينة المجال الروسي ، حيث تقوم حكومات دمى تحت السيطرة الروسية الحازمة . وعلى الجانب الآخر من التل حيث تلك الكتلة الصماء - حيث يتم تطهير العناصر المنشقة - يقوم المجال الانجلو - أميركي الذي أضعفته بشكل خطير الانشقاقات الداخلية كما أضعفه الدمار . وفي فرنسا وإيطاليا يتم انجراف عنيف نحو « الشيوعية » ، فيما يتفاقم الجوع والاضطراب . وباستطاعة ستالين أن يبتسم ، لأنه يستعد للفوز على الجانبين بفضل هذا الانقسام الأوروبي . وكلما ازداد تطور الفوضى في أوروبا الغربية كلما ازداد ضمان سيطرته على أوروبا الشرقية والوسطى ، بينما الاحتمال الأكبر سيكون لاتساع مجاله غربا دون مجهود . وباختصار فان النصر الذي تحقق ينثر الهزيمة تلقائيا على هدفنا القديم الذي كان يرمي الى أن تكون السيطرة لدولة واحدة على القارة .

لسوء الطالع أن نقده، كان مؤسسا على مقدمة خاطئة تقول بأن الحكومة الألمانية قد سيقت الى محاولة من أجل عقد صلح في العام ١٩٤٣ على أساس الجلاء عن كل الأقاليم التي احتلتها وقبول

أية شروط أمنية يطلبها الحلفاء ، وأن هتلر كان سيستقيل بمجرد أن تقبل شروط هدنة[59] .

وكان من السهل التنبؤ برد فعل ليدل هارت ازاء قيام الحلفاء بالقاء قنبلتين ذريتين على اليابان . فقد كان ذلك بالنسبة اليه علامة على بلوغ فظاظة الحلفاء ذروتها في شن الحرب الشاملة . كان من الخطأ بصورة فادحة أن تستخدمها بريطانيا ، أو على الأقل أن تسرع في تطويرها وأن تترك الأميركيين يستخدمونها . وكتب في ١٠ آب (أغسطس) يقول : « اننا لا نستطيع القول اذا كانت القنبلة الذرية ستنهي الحرب أو ستنهي العالم ، أو ستنهي الاثنين معا ـ ولكنها ينبغي على الاقل ان تسفر عن نهاية التجنيد الاجباري ، لأنها تجعل ذلك النظام العسكري لغوا أجوف » . وفي رسالة إلى أرشيدوق وستمنستر حول « نمو الخروج على القانون في الحرب » لاحظ أن هتلر ـ رغم كل نواقصه ـ كان لديه فهم أكبر من الحكومة البريطانية للعواقب النهائية للتدمير غير المحدود بالنسبة للحضارة الأوروبية . وانتهى الى أنه بينما يمكن ادانة هتلر كعدو للحضارة على الصعيد السياسي ، فان ادارته للحرب كانت أقل عرضة للادانة في هذا الجانب من خصومه . ولم يكن هذا اعترافا رقيقا من رجل انكليزي ، سوى أنه قيل بدافع النزاهة التاريخية . واذا كان الأرشيدوق قد رد عليه فان رسالته ليست محفوظة[60] .

كما بيّن هذا الفصل فان ليدل هارت احتفظ بموقف نقدي متماسك ازاء سياسة بريطانيا والحلفاء طوال الحرب العالمية الثانية . فقد كان يعتقد أن الحلفاء دخلوا الحرب لسبب غير مقنع ، وأنه كان يتعين عليهم أن يكونوا مستعدين للتفاوض من أجل الصلح بمجرد أن أظهروا أنه ليس باستطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب . وفي رأيه أنه حتى انتصارات ألمانيا الدراماتيكية في العام ١٩٤٠ لم تغير أساسا من الوضع ، حيث أن بريطانيا ظلت غير مهزومة بحكم وعد الدعم الأميركي باستمرار بقائها في الحرب . وقد أحس ليدل هارت ـ بمجرد أنه تم وقف تقدم هتلر الأولي في روسيا ـ بأن فكرة التوصل الى صلح يقوم على حل وسط اكتسبت قوة لأنه كان قد أصبح واضحا آنذاك أن ألمانيا ستخسر على الأرجح في المدى الطويل . وبعد منتصف العام ١٩٤٣ اعتقد أن الحرب قد « كسبت » بالمعنى الوحيد الذي كان يهم الحلفاء ؛ أي أن عدوان ألمانيا قد صد بصورة حاسمة ، وانه كلما طالت الحرب بعد ذلك كلما كانت النتيجة أسوأ بالنسبة لبريطانيا من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية .

والواقع أنه من مرحلة مبكرة في الحرب انتهجت حتى حكومة « تشيمبرلين » ـ على الرغم من أن روح التهدئة كانت لا تزال مزدهرة خلف واجهة صارمة ـ سياسة أكثر عدائية مما كان يحبذه ليدل هارت في رفضه ـ مثلا ـ « اقتراحات الصلح » الألماني ـ الروسي في تشرين الأول (أكتوبر)

---

(٥٩) انظر تاريخ الحرب العالمية الثانية (١٩٧٠) ص ٤٨٨ .

(٦٠) ١٩٤٥/١٠ « بعض تأملات حول القنبلة الذرية » ، ١٠ آب ؛ « تأملات في نمو الخروج على القانون في الحرب » ، ٢٠ آب .

١٩٣٩ ، ورد الفعل البارد الذي أبدته ازاء عرض ملكي هولندا وبلجيكا للوساطة في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) . وعندما أصبح « تشرشل » رئيسا للوزراء ـ مجرد أن عبرت أزمة أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٤٠ ـ الزمت بريطانيا نفسها ليس بمجرد البقاء الوطني ، انما باستراتيجية حرب شاملة لغزو دول المحور وتدمير العسكرية الألمانية وتدمير النازية بالمثل . وفي ذلك الوقت اعتقد كثيرون أن مغامرة « تشرتشل » ستفشل ـ وكان بين هؤلاء « لويد جورج » . وكان من العسير أن يروا كيف يمكن لداود أن يقتل غوليات حقا حتى دخل الاتحاد السوفياتي ، ثم الولايات المتحدة بعد ذلك ، الحرب . وبعدها تطلب التحالف الكبير نفسه علامة صريحة على التزام أعضائه الشامل بالنصر ، ووجدوا هذه العلامة في شعار « الاستسلام غير المشروط » . والحقيقة أن كل ما وحد بينهم كان هو التصميم على الحاق الهزيمة بهتلر . وكان القاء القنبلتين الذريتين واحتلال الحلفاء لكل بلدان المحور الذروة المنطقية لهذه السياسة . وقد ظل ليدل هارت معارضا بلا تحفظ لهذا المسعى غير المسؤول نحو « سراب النصر » .

وينبغي أن يقال أولا أن الأمر تطلب قدرا كبيرا من الشجاعة الأخلاقية من ليدل هارت لكي يتمسك بآرائه المهرطقة ولكي ينشرها على أوسع نطاق ممكن في مقالات وكتب ومراسلات خاصة . وكان ـ خاصة في فترة رئاسة « تشرتشل » للحكومة ـ يسبح باستمرار ضد تيار الرأي الشعبي كما كانت تعبر عنه الصحافة ، وتلقى في النهاية عددا من الرسائل البذيئة . كما أنه لم يظهر أي علامة على ادراك بأنه ربما كان مخطئا . وكان موقفه ـ من وجهة نظر أخلاقية ـ جديرا بالاحترام ، حيث أنه بقي على اعتقاده بأن مصلحة بريطانيا تكمن في صد العدوان الألماني والبرهنة لهتلر على أنه لا يستطيع الفوز . لقد كان ذا نزعة تشاؤمية ، ولكنه لم يكن انهزاميا ؛ كان دائما محبذا للمفاوضات ، ولكنه كان يرى أن الشروط ينبغي أن تكون مشرّفة من وجهة نظر بريطانية .

ومع ذلك ـ وفي الممارسة ـ كانت الاختلافات من زاوية نظر « تشرشلية » واضحة . فقد كان « تشرشل » وأولئك الذين أيدوه يعتقدون أنه من المستحيل التعامل مع هتلر والنازي ، وأنه لذلك لا يمكن أن يكون هناك تفكير في مفاوضات إلى أن يكون قد تم تحطيم الحكم الشرير . وكنتيجة طبيعية لذلك لم يكن لديهم ايمان كبير ، اذا كان لديهم اي ايمان على الاطلاق ـ بمناهضي النازية الذين زعم أنهم يؤيدون شروط صلح معتدلة . وكان هذا الاعتقاد بان النازيين وحشيون بصورة فريدة ، ولا يمكن مقارنتهم بمن سيكونون سادة أوروبا ، اعتقادا ذا أهمية أساسية . ان ظهور حرب ذات نطاق عالمي حقا ابتدأ من نهاية العام ١٩٤١ وبعدها جعل عقد صلح عن طريق المفاوضات أقل امكانا من الناحية العملية لأسباب عديدة: كان الالتزام بالنصر التام أمرا ضروريا للحفاظ على التحالف المناهض للمحور ، الأمر الذي كان يعني في الواقع خوض حربين منفصلتين ؛ لم يكن باستطاعة الحلفاء أن يتفاوضوا وهم على حافة كارثة قصوى ؛ كذلك فان القسوة البالغة للحرب على الجبهة الشرقية وفي المحيط الهادي قدمت دليلا قويا على أن قوات المحور لم تكن معنية بالمفاوضات على أية شروط يمكن أن تكون مقبولة لخصم لم تلحق به الهزيمة .

تبدو أفكار ليدل هارت ـ على هذه الخلفية ـ ذات نوايا طيبة ولكنها طوباوية . فعلى النقيض مما كان يعتقده في ذلك الوقت ، ليس هناك دليل على أن هتلر فكر اطلاقا في صلح دون نصر ، بل ان الموقف الياباني كان أقل مرونة . فحتى لو لم تكن المانيا في صدام مباشر مع بريطانيا ، وكان هذا أبعد ما يكون عن البداهة في العام ١٩٤٠ ، فانه كان من الضروري الحاق الهزيمة بألمانيا لمصلحة الحضارة الأوروبية . وكان من المؤسف أنه كان لا بد أن يدمر قدر كبير من تلك الحضارة خلال التطورات ، وأنه لم يكن بالامكان تحرير بعض البلدان ، ولكن من العسير أن نرى أنه كان هناك حل اسهل . كما أنه لا ينتج عن هذا أن النصر ـ بالنسبة لأوروبا الغربية على أي حال ـ كان لا يمكن تمييزه عن الهزيمة . وكما يستنتج « ا . ج . ب . تايلور » ـ الذي لم يكن من أنصار الحرب الشاملة ولا معجبا بصورة غير نقدية باستراتيجية الحلفاء ـ بتبسيط زائد يمكن التماس العذر له :

« قد تناقش أجيال المستقبل الحرب العالمية الثانية بوصفها « مجرد حرب اخرى » . ولكن أولئك الذين كابدوها يعرفون انها كانت حربا لها ما يبررها في أهدافها وفي الانجاز الناجح لها . فرغم كل القتل والتدمير الذي صاحبها كانت الحرب العالمية الثانية ، حربا خيّرة »[٦١] .

---

(٦١) آ . ج . ب . تايلور : الحرب العالمية الثانية (١٩٧٥) ص ٢٣٤ .

الفصل السادس

ثورة في فن الحرب

١٩٤٥ ـ ١٩٥٠

لقد بدا أن التدهور السريع للعلاقات الانجلو ـ أميركية مع روسيا بعد العام ١٩٤٥ ، والانهيار السريع بالقدر نفسه في مكانة بريطانيا كدولة امبريالية عظمى ، يؤ يدان تنبؤ ات ليدل هارت المتشائمة أثناء سنوات الحرب . وقد كتب في العام ١٩٤٨ في تأملات حول الوضع الأوروبي :

« لقد مررنا بسنة أسفرت عن قدر من الشر أكبر بكثير مما أسفرت عنه من خير . وقد أمكن أن نرى من البداية ـ على الرغم من أن زعماءنا العميان الذين يقودون عمياناً لم يروا ـ أن الحرب كان لا بد أن تنتهي الى لا شيء اذا ما انتهت بالنصر ـ كما كنا نرغب ـ لأن اسقاط ألمانيا كان من شأنه أن يؤدي الى سيطرة روسيا في أوروبا ، وبالتالي إلى خطر آخر وأفدح على الغرب . وفي الوقت نفسه فان الطابع الشامل للصراع الطويل كان لا بد أن يعرض للخطر أهدافنا الأعمق ، طالما أننا ضحينا بأكثر مما ينبغي من حريتنا في « القتال من أجل الحرية » ، في حين أن ظروف ما بعد الحرب كان لا بد أن تجعل استعادتها أمراً يحف به الخطر أكثر . . .

« اننا نواجه الآن احتمال حرب شاملة أخرى ضد دولة أكثر استبدادية . ومن المحتمل أن يحمل مثل هذا الصراع ـ وحتى الاستعداد له ـ في طياته شرورا أسوأ ، دون أن يحمل أي وعد طيب في حالة النصر »[1] .

بدأ رصيد ليدل هارت ـ في الدوائر العسكرية ولدى أعداد أكبر من قراء مقالاته الصحافية ـ في الارتفاع ، وان يكن ببطء ، بعد آخر سنوات الحرب حينما كان قد اختار أن ينخرط في دور ناقد « تشرشل » . عندئذ ـ وكما حدث بعد العام ١٩١٨ ـ بدت ثمار النصر أكثر حلاوة مما كان متوقعا . عندئذ أيضا كان المعترف به على نطاق واسع أن أفكاره الاستراتيجية والتكتيكية قد استثمرت . وآلت الى نتائج باهرة ـ من جانب بعض القادة الألمان ، بينما اعترف أيضا بعض القادة البريطانيين

---

(١) ١١/١٩٤٨/٦ « الوضع الاوروبي ـ تيارات أعمق » ، ٧ آذار .

بتأثيره في المراحل المتأخرة من حملة شمال أفريقيا . وفي نهاية الحرب ، وبمصادفة ملحوظة ، كان كثير من القادة الألمان الأسرى ذوي الرتب العالية قد سجنوا قرب بيت ليدل هارت في « ليك دستريكت » ، واستطاع أن يجري أحاديث معهم باستفاضة حول ادارتهم للعمليات وعلاقتهم بهتلر . وقد شكلت اللقاءات أساس دراسة ليدل هارت الرائدة الهامة الجانب الآخر من التل The Other Side of the' Hill (١٩٤٨) .

ومرة أخرى وجد المناخ السياسي في « هوايتهول » Whitehall(*) متقبلا لأفكاره . وكان على صلة وثيقة ـ بعدد من أعضاء البرلمان العماليين ، بينهم « ريتشارد ستوكس » Richard Stokes ، «جون ستراتشي» J. Strachey ، و«ريتشارد كروسمان» R. Crossman و«جورج ويغ» G. Wigg ؛ والأهم من هذا كله أنه كان يستشار في مناسبات عديدة من جانب وزير الدولة للحرب « ايمانويل شينويل » Emanuel Shinwell وكان ذلك غالبا في المشكلة المزمنة الخاصة بكيفية خلق جيش أكثر كفاية بنفقات أقل .

ومن ناحية أخرى فانه أُصيب بخيبة أمل مريرة حينما تم تخطيه في التعيين لمنصب أستاذ تاريخ الحرب في جامعة « اكسفورد » في العام ١٩٤٦ . وقد اعترف ـ في حديث خاص ـ للورد « هانكي » Hankey والأسقف « بيل » ، اللذين أيداه كلاهما في هذا الترشيح أنه كان يضع هذا الكرسي نصب عينه طوال عشرين عاما (أي منذ أن تركه أول شاغل له ، وهو « سبنسر ويلكنسون » ، في العام ١٩٤٥) ، ولكنه كان يخشى أن يكون قد أثار غضب كثيرين من أولئك الذين كانوا يتولون أمر التعيين لهذا الكرسي بفعل المواقف التي اتخذها أثناء الحرب[٢] . على أي حال فان الكرسي كان من نصيب مؤرخ عسكري قدير ، هو الكابتن «سيريل فولس» Cyril Falls ، أحد المؤرخين الرسميين للحرب العالمية الأولى ، والذي كان قد خلف ليدل هارت في صحيفة التايمز ويمكن اعتباره تقليديا وصاحب آراء تكفل « السلامة » ، ولكنه كان يفتقر الى سعة اهتمامات ليدل هارت ، ونشاطه الهرقلي وأصالته . ولا بد أن يأسف المرء لأن ليدل هارت حرم ، في هذه المرحلة من حياته العملية ، من قاعدة أكاديمية آمنة يكتب منها تاريخ الحرب العالمية الثانية ويحقق مواهبه كمعلم .

في ربيع ذلك العام ـ ١٩٤٦ ـ انتقلت أسرة ليدل هارت من « ليك دستريكت » الى منزل جميل على الطراز الجورجي في « تيلفورد » بمنطقة « سوري » ، حيث أمضت سنتين سعيدتين للغاية . وعندما تبين أن تلك الاقامة كانت باهظة التكاليف لناقد عسكري يعمل حرا ، اختارت الأسرة بيتا أصغر في « وولفرتون » Wolverton في شمال « باكنغهامشاير » حيث بقيت لمدة عشر سنوات .

(*) مقر الحكومة البريطانية في لندن . « المترجم » .

(٢) ليدل هارت الى الأسقف « بيل » ، ١٧ آذار و ٣ نيسان ١٩٤٦ . ليدل هارت الى « هانكي » ، ٢٦ حزيران ١٩٤٦ .

وسيتناول هذا الفصل بالدراسة جانبين فقط من جوانب الاهتمامات المتعددة لليدل هارت في السنوات من ١٩٤٥ الى ١٩٥٠ : وأحدهما يسود مقالاته وكتبه ، بينما يغلب الآخر على مراسلاته الخاصة ورسائله الى الصحافة . كان الأول ـ الذي دعا إلى عنوان هذا الفصل ـ هو محاولته لتكييف تفكيره العام بشأن الحرب مع الظاهرة الجديدة ، ظاهرة الأسلحة الذرية . هنا ـ على الرغم من أنه كان قد أصبح في الخمسين من عمره ، وكان قد أصبح معترفا به على نطاق واسع كمعلم لشؤ ون تكتيكات المشاة والحرب المدرعة خلال العشرينات والثلاثينات ـ أظهر ليدل هارت أنه كان لا يزال قابلا للتغير إلى أقصى حد ، وقادرا على التكيف وتقدميا في نظرته . وهو يستطيع حقا أن يزعم أنه واحد من أوائل رواد نظرية العصر الذري لأنه ـ كما لاحظ « مايكل هوارد » عن حق ـ كان يعطي نبوءات منذ العام ١٩٤٦ « قدر لها أن تصبح أمورا شائعة في التفكير الاستراتيجي بعد ذلك بعشرين سنة »[٣] . أما الاهتمام الآخر فينشأ طبيعيا عن تصور ليدل هارت من سياسات الحلفاء الخاصة بالتسليم غير المشروط والقصف الاستراتيجي : فقد عارض محاكمات جرائم الحرب التي أجريت لقادة العدو السياسيين والعسكريين ، معتقدا أنها ظالمة وخرقاء على السواء . وفيما بين العام ١٩٤٦ والعام ١٩٥٢ كرس ليدل هارت قسما كبيرا من وقته وطاقته لمعارضة محاكمات وأحكام خاصة ، وللاحتجاج بشكل أعم على الأحوال التي كان يعيش فيها قادة العدو السابقين في الاعتقال . وعلى خلاف واحد من حلفائه الأساسيين في هذه الحملة ـ لورد « هانكي » ـ لم يبد أي اهتمام ملحوظ « بمجرمي الحرب » اليابانيين الأمر الذي ربما لا يثير الدهشة نظرا لصلاته المهنية والشخصية مع كثير من القادة الألمان الباقين على قيد الحياة مثل « مانشتاين »[*] Manstein ، « روندشتدت » Rundstedt و« بلومنتريت » Blumentritt . ومع ذلك فانه يكون من قبيل سوء الفهم الكبير لشخصية ليدل هارت أن نوحي بأن دوافعه الرئيسية كانت إما مهنية أو شخصية : فان مراسلاته تظهر بوضوح أن احساسه بالانصاف والانسانية تجاه المهزوم والاعتدال السياسي تجاه حلفاء المستقبل كان شيئاً له الغلبة في أفكاره .

وعلى الرغم من أن كتابه ثورة في فن الحرب لم ينشر قبل العام ١٩٤٦ ، إلا أن الجزء الأكبر منه كتب في العام ١٩٤٤ ، وقد أضاف إليه تأملاته حول « القنبلة الذرية » في خريف العام ١٩٤٥ . ومن المثير للدهشة أن هذا الكتاب لا يدرج ضمن أشهر أعمال ليدل هارت ، لأنه يضم ملخصا مثيرا للاعجاب لأفكاره التاريخية الأساسية التي ناقشناها في الفصول السابقة من هذا الكتاب . وكان مراجعو كتبه ـ رغم امتداحهم لوجهات نظره في أهمية الأسلحة الذرية ـ غير

---

(٣) المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية « أبحاث أدلفي » Adelphi Papers ، البحث رقم ٥٤ ، شباط ١٩٦٩ « مشكلات الاستراتيجية الحديثة » ، الجزء الأول ص ٢٠ .

(*) مانشتين (١٨٨٧ ـ ١٩٧٣) ، هو الفيلد ماريشال « ايريك فون ليفينسكي مانشتين » ، قائد الماني شهير في الحرب العالمية الثانية وضع خطة الهجوم على فرنسا ١٩٤٠ عبر « سيدان » وقاد فيلقا مدرعا ثم جيشا ثم مجموعة جيوش في اثناء القتال ضد الاتحاد السوفييتي بكفاءة كبيرة .

مقتنعين عامة بقراءته التي تتسم بدرجة عالية من الفردية لدروس التاريخ . وعلى سبيل المثال فان الأدميرال سير « هربرت ريتشموند » Herbert Richmond ـ على الرغم من أنه كان متعاطفا مع مفهوم ليدل هارت عن « طريقة بريطانية في الحرب » ـ لاحظ في المجلة نصف الشهرية Fortnightly Review أن « آراءه وتأكيداته حول هذه المسائل (التاريخية) لن تجد تأييدا في الجو العام الهادىء للتاريخ ـ وهو ما ينصح قراءه دائما باللجوء الى منبعه طلبا لفهم الحرب»[٤] . ومع ذلك كانت هناك حجج مفحمة في القسمين التاريخيين من الكتابين اللذين يتناولان « التقنية » و « الأسلوب » في فن الحرب .

في القسم الأول توصل ليدل هارت إلى الاستنتاج المقنع بأن القصف الشامل يشكل هجوما على أسس الحياة المتمدنة ويؤذن بفجر « الحرب الأوتوماتيكية » الأجرد ، حيث لن تعود هناك قيمة للخصال التقليدية للمحارب . ان الطائرة التي لا يقودها طيار والصاروخ البعيد المدى « يمزقان حجاب الوهم الذي طالما أحاط بالغموض واقع التغيير في فن الحرب ـ من قتال الى عملية تدمير . . . ان تضاعف القوة التدميرية المتجسدة في القنبلة الذرية قد قرب الينا الدرس » .

« ان ظهور الحرب الأوتوماتيكية سيجعل من السخف بشكل واضح اعتبار الحرب كوسيلة لحسم مطالب الأمم للتفوق . انه يكتسح تماما الأبخرة الرومانتيكية التي كانت تتصاعد حول الفضائل البطولية للحرب ، والتي كان يستغلها القادة المعتدون والطموحون لخلق روح عسكرية بين شعوبهم . انهم لا يعودون يستطيعون الزعم بأن الحرب تشكل اختبارا من أي نوع لصلابة الشعب ، أو حتى لقوته الوطنية . لقد دمر العلم أسس القومية . في الوقت نفسه الذي أصبحت فيه روح القومية في أشد عنفوانها»[٥] .

أما فيما يتعلق بـ « أسلوب » الحرب ، فقد ذهب ليدل هارت الى أن الحدود والضوابط والسلوك المتحضر عموما ، قد تم التخلي عنها تدريجيا باطراد منذ قيام الثورة الفرنسية ، حتى بلغ الأمر أدنى مستواه في الطبيعة الشاملة للحربين العالميتين . ومن الجدير بالاهتمام أن نلاحظ أن بطل ليدل هارت السابق كداعية رائع لاستراتيجية التقرب غير المباشر ـ وهو الجنرال « شيرمان » Sherman ، كان قد أصبح آنذاك ـ ضمنيا ـ شريرا ، لأن العمليات الوحشية التي قام بها داخل المناطق الكونفيدرالية حققت هدف الحرب على حساب هدف السلام : فهي لم تفقر فقط ، بل سممت أيضا ، التربة التي كان يتعين أن يعاد زرع السلام فيها[٦] . وتمثل حالة الجنرال « شيرمان » أصدق تمثيل صعوبة التوفيق بين معتقدي ليدل هارت الأساسيين : استراتيجية التقرب غير المباشر الرامية إلى شل إرادة القتال لدى العدو ، والحاجة إلى الحرب المحدودة بهدف تحقيق

---

(٤) Fortnightly Review ، تموز ١٩٤٦ .

(٥) ثورة في فن الحرب ، ص . ص . ٣٦ ـ ٣٧ من الطبعة الأميركية (١٩٤٧) .

(٦) المصدر السابق ، ص ٧٢ ـ ٧٤ ، ٧٩ .

صلح معتدل . لقد كان يقصد في مؤلفاته المبكرة- مثل باريس - أن يفترض أن التقرب غير المباشر لن يكون بالضرورة هو المؤدي الى نصر سريع ومعتدل ، ولكن بحلول نهاية الحرب العالمية الثانية كان هجوم القاذفات البريطاني قد كشف خطأ افتراضه هذا . والامر الذي يبدو أنه لم يدركه ادراكا كاملا أبدا أنه حتى حينما كان المجهود الحربي لبريطانيا محدودا للغاية ، كانت النتيجة غالبا « شاملة » بالنسبة لخصومها ، كما كان الحال - مثلا - في حملاتها الاستعمارية في القرن التاسع عشر .

وثمة نقطتان أخريان في هذا القسم جديرتان بالذكر . بحلول العام ١٩٤٥ كان ليدل هارت قد أدرك معاملة النازي البربرية للشعوب التي تم غزوها أثناء الحرب العالمية الثانية . وكما وصف هو الأمر : « بلغ هذا حضيضا من اللا انسانية لم يبلغه أحد منذ الحروب الدينية ، وكان أكثر تدميرا للروح المعنوية طوال ممارسته . ان الفظاظة العلمية يمكن أن تكون أكثر بشاعة للمدنية من الوحشية » . ومع ذلك فانه عزا هذا السلوك الحيواني بالتحديد إلى الجانب المدني واتخذ رأيا مؤيدا بصورة ملحوظة لمسلك الجيش (الألماني) .

« وعلى النقيض من ذلك تظهر الأدلة - على الجانب العسكري - أن مستوى السلوك كان أفضل في عدد من الجوانب مما كان في الحرب العالمية الأولى ، وعلى أي حال في الصراع بين ألمانيا وخصومها الغربيين . وهكذا فان الجيوش عموما كانت تراعي الكثير من القواعد المتضمنة في لائحة القواعد القديمة للسلوك في الحرب ؛ سواء فيما بينها وفي التعامل مع السكان المدنيين في المناطق التي تجتاحها . وكانت الادعاءات عن فظائع عسكرية أقل بكثير مما كانت في ١٩١٤ - ١٩١٨ ، كذلك كانت الحالات المحققة . وكانت تلك ظاهرة لها دلالتها ، كما كانت ظاهرة مفعمة بالأمل بالنسبة للمستقبل الذي بزغ من الحرب . ويمكن بأن تتحول إلى حكاية طيبة »[٧] .

هنا يتذكر المرء مفارقة « ا . ج . ب . تايلور » القائلة بأن الفظائع الألمانية في الحرب العالمية الأولى كانت تصدق من الجميع ، ولكنها في الحقيقة كانت نادرة ، بينما قصص الفظائع في الحرب العالمية الثانية كانت تستبعد بشكل عام ، ولكنها في الحقيقة كانت كلها صحيحة . حتى استثناء ليدل هارت للجبهة الشرقية لا يواجه بصورة ملائمة الاعتراض القائل بأن الجيش الألماني كان غالبا يتصرف بوحشية مثيرة للانزعاج . وقد مضى الى تكرار الحجج ، التي ناقشها في الفصل الأخير ، القائلة بان بريطانيا هي التي بدأت قصف المدن بلا تمييز ، بينما كان الألمان هم الذين حاولوا الحفاظ على قواعد السلوك العسكري المقبولة . وبالتالي كان جميع الحلفاء بين هدف غير محدود وأسلوب غير محدود هو - ضمنيا - أكثر بربرية من الممارسة القارية (الأوروبية) .

ومن المثير للدهشة ، على أقل تقدير - أن وجهات النظر المزاجية هذه لم تقابل بتحد أكبر .

---

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

ومع ذلك فقد حاول مراسل مجلة نيويوركر New Yorker البارز أن يقنع ليدل هارت بأن السلاح الجوي الملكي والبريطاني « لم يكن هو البادىء » . وأشار إلى أن « وارسو » قصفت في اليوم الثاني من الحرب ، بينما كان الجيش الألماني لا يزال بعيدا للغاية ؛ وكان هو نفسه شاهد عيان لقصف باريس يوم ٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ؛ كما أن مدينة « بوردو» (الفرنسية) ـ وكانت تزدحم بالنازحين ـ قصفت يوم ١٨ حزيران حينما كان من الواضح أن فرنسا توشك على طلب الصلح . (وكان باستطاعته أن يذكر أيضا تدمير القاذفات الفرنسية لمدينة « غورنيكا » في العام ١٩٣٧) . وقد أكد ليدل هارت في رده ـ وكان مصيبا ـ أنه ليس متعاطفا مع النازيين ، ولكن رده الأساسي على الأمثلة الخاصة التي ذكرت هو أن هتلر كان ملتزما بالقيود التي فرضها هو على نفسه ، والتي اقترحها في العام ١٩٣٥ ، بان تمتد منطقة القتال مسافة ١٠٠ كيلو متر وراء القوات الأرضية المتقدمة . وهكذا فان قصف مدن مثل « وارسو » و« روتردام » و« باريس » يمكن تبريره بوصفه قصفا تكتيكيا لا استراتيجيا[٨] .

لقد تحاشى ليدل هارت ـ بحكمة ـ في تأملاته المبكرة في أهمية القنبلة الذرية اتخاذ موقف متطرف . فمن ناحية كان هناك اتجاه طبيعي للاعتقاد بأن السلاح الجديد علامة على نهاية فن الحرب ، أو على الأقل أنه جعل كل القوة الموجودة بالية . ومن ناحية أخرى كان بعض العسكريين المحافظين يذهبون الى انها مجرد قنبلة أكبر يمكن إيجاد سلاح مضاد لها ـ وان كل شيء يمكن أن يمضي على النحو السابق ، بما في ذلك القوات المسلحة[٩] . ومع ذلك كان ليدل هارت مقتنعا بأن القنبلة قد غيرت فعلا ـ وبصورة أساسية ـ مشكلة الأمن . ولم يكن يرى أي سلاح مضاد فعال في المدى القصير . حتى أنه ستكون هناك فترة خطيرة قد يكون فيها معتد مستعدا للمقامرة . وكتب بلهجة رصينة « سوف يبدو أن باقي أرواح كل الشعوب الأخرى التي تعيش الآن ستزهق تحت ظل التفجر الذري الرهيب دون انذار » . ان فن الحرب الذي خبرناه في السنوات الثلاثين الاخيرة لا يتوافق مع العصر الذري .

« اذا امتلك طرف القوة الذرية ولم يمتلكها الطرف الآخر ، فان المقاومة القتالية ستكون من قبيل اللغو الأجوف . وهذا يعني اختفاء فن الحرب . في مثل هذه الحالات . ولا بد من نقل المقاومة إلى قنوات أكثر دهاء ، من النوع غير العنيف أو من نوع حرب العصابات » .

« انما حيث يمتلك الطرفان القوة الذرية فان « الحرب الشاملة » تكون لغوا . فالحرب الشاملة تعني أن الهدف والمجهود ودرجة العنف تكون كلها غير محدودة . ويجري السعي نحو النصر دون اعتبار للعواقب . وقد شرعنا ندرك ـ في حالة الفوضى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ـ ما يعنيه الافتقار الى أية حدود حصينة في طريقة احباط أهدافنا . ان ذلك الطيش قد تركنا ، ليس فقط في حالة

---

(٨) المصدر السابق ص . ص . ٩٠ ـ ٩٥ .
(٩) ١٠/١٩٤٥/١٧ « القنبلة الذرية ودفاع بريطانيا بعد الحرب » في World Review, December, 1945 PP. 38—41

فقر ، وانما في مواجهة مشكلات أكثر صعوبة من ذي قبل . ان حربا غير محدودة تشن بالقوة الذرية من شأنها أن تنتهي إلى ما هو أسوأ من اللغو الأجوف ؛ ان من شأنها أن تكون انتحارا متبادلا » .

« ولا تعني هذه النتيجة بالضرورة أن فن الحرب سيختفي كلية . ولكن ما لم يكن القادة المحاربون مجانين ، فانه من المرجح أن تكون أي حرب في المستقبل أقل انطلاقا وأكثر خضوعا لقواعد متفق عليها من الطرفين . وفي اطار هذه الحدود قد تتطور أشكال جديدة »[١٠] .

ومضى ليؤكد أن معتديا في المستقبل يهدف إلى تحقيق توسع مربح من المرجح أن يتردد في استخدام القذف الذري ، ولكنه قد يحاول أن يخيف خصما أقل قوة بمجرد التهديد باستخدامه . ولكن الأرجح أن يسعى لتحقيق شلل سريع للغاية للخصم : وهكذا تحت ظل القنبلة الذرية يمكن أن يحدث توسع لقوات متحركة على درجة عالية من التخصص .

وأشار ـ في فقرة على درجة قصوى من سعة الادراك ـ الى أن معتدي المستقبل قد يطورون تقنية التقرب غير المباشر ـ على النحو الذي مارسه به هتلر حتى العام ١٩٣٩ ـ بهدف تفادي مواجهات مباشرة . وتنبأ بـ « حرب مموهة » في المجال الدبلوماسي تعقبها عمليات استراتيجية ضد التوابع أو المستعمرات :

« سيكون « التسلل » الأسلوب الأساسي ، وسيمتد الى أبعد كثيرا مما امتد الى الآن ، وسيستخدم بطرق أكثر دهاء . وكلما كان « التسلل » أكثر عمقا وأوسع انتشارا ، كلما زاد ميله إلى منع استخدام القصف ا لذري كرد سريع . وستزداد الصعوبة في حالة تسلل يتخذ أشكالا مدنية أكثر مما يتخذ شكل عمل عسكري صريح . ويمكن للمعتدي أن يزيد من احتمالات تحصينه اذا استطاع أن يخترع سبلا لاغراء خصومة المحتملين عن طريق اعطائهم « رهائن » من نوع ما ، أو احداث تداخل بين قواعده وقواعدهم حتى يصبح التشابك قيدا على قدرتهم على الرد الانتقامي »[١١] .

وبالاضافة الى هذا تنبأ ـ بصورة صحيحة ـ بأن منافسة في التدمير الذري ستكون انتحارية لجميع الأطراف الى حد أن ضحية الهجوم التقليدي قد يصبح غير مستعد لفقد مثل هذه الوسائل المهلكة لتحويل التيار . وقد يكون هذا التردد قاتلا اذا سمح للتسلل بأن يتقدم بعيدا إلى حد لا يعود معه من الممكن مقاومته .

فهل كان هناك أي حل عملي لخطر الهجوم الذري ؟ ذهب ليدل هارت الى أنه في حالة غياب رقابة دولية على القوة الذرية ، يتعين على الأمم المحبة للسلام أن تركز اهتمامها أساسا على الدفاع المحض ؛ وبدلا من الارتكان إلى الهجمات المعاكسة ـ كما كان الحال في الماضي ـ يتعين عليها أن

---

(١٠) ثورة في فن الحرب ، ص ٩٩ .

(١١) المصدر السابق ، ص . ص . ١٠١ ـ ١٠٢

* أي الهجوم بالأسلحة غير الذرية « المترجم »

تسعى لمنع المعتدي من تحقيق أي نجاح مبدئي خطير . وعندئذ سيكون بمقدرة القوات التقليدية أن تلعب دورا حيويا ؛ وستكون الأولوية للجيوش ، لأنها وحدها التي ستكون قادرة على التصدي للتسلل ، ولكنها لا بد أن تكون جيوشا ذات نمط جديد يتصف بالقدرة على الحركة بالنسبة للامدادات بقدر حركة القوات . أما التجنيد الاجباري ـ وكان قد أصبح بمثابة هاجس ـ فهو مضيعة للوقت في الحقبة الذرية . وسوف يحتاج الجيش البريطاني ـ من أجل القيام « بدور مطفىء للنيران » ـ ليس فقط إلى فرق مدرعة ، انما أيضا إلى فرق محمولة جوا لتحل محل فرق المشاة التقليدية . وكانت تلك نبوءات بعيدة النظر ، ولكن ليدل هارت كان ـ في بعض الجوانب ، وبصورة مفهومة ـ مفرطا في النزعة المستقبلية . وعلى سبيل المثال فانه كتب قبل وقت قصير أن نقل الامدادات المحمولة بواسطة الصواريخ قد يحل محل استخدام طائرات النقل[١٢] .

وقدم ليدل هارت ـ فيما يتعلق بالسياسة المحلية ، باعتبارها تتميز عن النظرية ـ اقتراحه المتطرف بامكان زيادة القوة الفعلية للجيش في حدود الميزانية الراهنة عن طريق التوفير من السلاحين الآخرين . وستصبح قوة قاذفات القنابل الثقيلة عديمة القيمة في العصر الصاروخي والذري ـ وهو تصريح مستقبلي للغاية . أما ما كان يحتاج السلاح الجوي آنذاك فهو المقاتلات للدفاع والقاذفات المقاتلة للتعاون مع الجيش . وذهب عن حق الى أنه يتعين على البحرية الملكية أن تتوقف عن بناء البوارج ولكنه لم يذكر على وجه التحديد الغواصات عندما كان يشير إلى الحاجة إلى « سفينة أخف » .

شبه ليدل هارت في « الاستنتاجات » التي انتهى إليها مشكلة الأمن بوتر ـ الرأس فيه هو منع الحرب ، و « الذنب » هو الحد من الحرب .

« اذا كانت التجربة قد علمتنا شيئا ، فينبغي أن نكون الآن قادرين على ادراك خطر التركيز ـ دون أي شيء آخر ـ على سياسة منع الحرب ذات الطابع الكمالي ، بينما نهمل الضرورة العملية للحد من الحرب ، اذا ما فشلت تلك السياسة ـ حتى لا تدمر احتمالات السلام التالي » .

كان واقعيا بما يكفي لرؤ ية أن فكرة الاتحاد الفيدرالي العالمي كانت هدفا بعيدا ومشكوكا فيه للغاية ، بينما كان تفكك وحدة ما يسمى بالأمم المتحدة قد أصبح ظاهرا . وقد دعا مرة أخرى ـ كاجراء ايجابي لصد العدوان ـ الى تنفيذ مخططه الخاص بنزع السلاح النوعي ـ الذي كان في البداية رمزا لمؤتمر جنيف لنزع السلاح العام ١٩٣٢ ـ وهو مخطط من شأنه أن يحرم المهاجم من أداة نجاحه الرئيسية . وكان واثقا أن مثل هذا المخطط ـ من وجهة نظر تقنية ـ كان ممكنا من الناحية العملية : أما المشكلة الكبرى فهي اذا كان يمكن للأمم المتحدة أن تتفق على قبوله ، مقرونا بنظام الاشراف التقني الضروري .

---

(١٢) المصدر السابق ، ص . ص . ١٠٢ ـ ١٠٥ .

واعتقد ليدل هارت أنه في حالة الاخفاق في التوصل الى اتفاق لحظر أدوات الحرب العدوانية فان أفضل الآمال يكمن في محاولة احياء قائمة بقواعد محدّدة للحرب ، تقوم على أساس نظرة واقعية مؤداها أن الحروب يحتمل أن تنشب مرة أخرى ، وأن الحد من قوتها التدميرية هو في مصلحة الجميع . ويمكن القول الى حد ما أن مسار الحرب الكورية قد أكد توقعات ليدل هارت في هذا المجال . وقد انتهى كتابه بملحوظة معنوية تتعلق بموضوع كان مشغولا به في ذلك الوقت ؛ أعني أن أفضل أمل للحضارة يكمن في احياء قواعد السلوك .

« ذلك أن قواعد السلوك ـ بمعناها الأعمق ـ الخاصة بضبط النفس المتبادل من أجل الأمن المتبادل ـ هي وحدها التي تستطيع أن تسيطر على المخاطر التي تنشأ عن الغضب ازاء مسائل سياسية واجتماعية من شأنها أن تفضي إلى دمار متبادل في العصر الذري » [١٣] .

عندما رسم ليدل هارت خطوطه السريعة الأولى عن الأرض الذرية المجهولة أدخل فيها ـ حتما ـ عددا قليلا من « جزر » لا وجود لها ، بينما حذف ملامح ظلالية أخرى من الأرض . إلا أنه ـ على وجه العموم ـ تبدو « الخريطة » الاستراتيجية التي رسمها دقيقة الى حد مثير للدهشة حينما نستعيدها الآن . لقد كتب قبل أن تعلن « الحرب الباردة » رسميا ـ وكان في هذا الصدد غامضا على نحو يمكن فهم أسبابه ، وان لم يكن كذلك في مذكراته الخاصة ـ عن توازن القوى بين الشرق والغرب . ولم تكن روسيا ـ في ذلك الوقت ـ قد اختبرت بعد قنبلة ذرية ، بينما كان مخزون أميركا صغيرا جدا بعد أن ألقت قنبلتيها الوحيدتين على هيروشيما وناكازاكي . وعلى الرغم من هذا فانه تنبأ بأنه من المرجح أن تقوم حالة ردع متبادل بين الدول الذرية ، دون أن يزيل هذا خطر « التسلل » من جانب واحد منهما ، اذا كان هناك تفاوت كبير في القوات التقليدية . وبالاضافة إلى هذا فانه رأى بوضوح أن الأسلحة الذرية لا يحتمل أن تستبعد ـ بذاتها ـ الحرب التقليدية على صعيد من الحدة أقل من الحروب الشاملة التي شهدها الماضي القريب . وفوق هذا كله ـ ولأنه لم يكن يحدوه أمل كبير في حل سياسي عن طريق اتحاد فيدرالي عالمي أو عن طريق الأمم المتحدة ـ فانه كان يرى ضرورة ملحة للحد من الحرب ، اذا حدثت ، عن طريق ما أصبح يسمى فيما بعد « الرقابة على الأسلحة وتحديدها » ، وعن طريق احياء ضبط النفس المتمدن في ادارتها الفعلية .

قد لا يبدو شيء من هذا الأمر أصيلا بشكل خاص ، ولكن الوضع كان مختلفا تماما في الجو العام من عدم اليقين والعداء المتنامي تجاه الاتحاد السوفياتي في السنوات التي اعقبت نهاية الحرب مباشرة . وكما كان الحال دائما فان ليدل هارت كان يرى في كتاباته مقابلا يحقق توازنا مع الآراء الأكثر تطرفا التي كانت جارية في ذلك الوقت . وعلى حين أنه كان قد حذر في العامين ١٩٣٩

---

(١٣) المصدر السابق ص . ص . ١٠٥ ـ ١١٤ ، ١١٩ ، وانظر أيضا ١١/ ١٩٤٩/ ١٢ ـ ٢٣ آيار ١٩٤٨ « لا تستطيع الانسانية أن تكفل حرية الفكر وحرية السلوك معا . ان الفكر الحر مع قواعد السلوك الرسمية يكفلان تقدما مطردا . ولكن قواعد السلوك ـ اذا كانت أقل مرافقة لحرية الفكر ـ فان الأخيرة تدمر الحضارة » .

و ١٩٤٠ من الخداع القائل بأن باستطاعة بريطانيا أن تهزم ألمانيا ، فانه كذلك في العام ١٩٤٦ بذل أقصى جهده « لخفض بعض أحاديث الحرب التي أصبحت شائعة أكثر مما ينبغي » : وفي وقت لاحق - في العام ١٩٤٨ - وجد الوضع أكثر رصانة بصورة متزايدة ، وكتب الى الأسقف « بيل » يقول :

« ان حالة مزاجية حربية تتصاعد في كل مكان - ولكن فوق كل شيء - في أميركا . ومما أسمعه فان حكومة الولايات المتحدة قد لا تجد صعوبة في ادخال البلد في حرب مع روسيا كما فعلت في حالة الحروب السابقة . وبينما يتعين رسم خط واضح في التعامل مع روسيا ، أشعر أنه من الحيوي أن نتفادى « جوا من الاستفزاز » . ويتعين علينا أن نلح على مشروع الاتحاد الغربي بينما نحاول أن نتفادى التحول بصورة مفرطة التأكيد إلى تابع لأميركا »[١٤] .

وتألف كتاب ليدل هارت الدفاع عن الغرب Defence of the West (١٩٥٠) في جانب كبير منه من مقالات كانت قد نشرت بالفعل في الفترة بين ١٩٤٦ و ١٩٤٩ في صحف يومية ومجلات مثل Sunday Pictorial, John Bull, Picture and Post World Review

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس مرضيا ككتاب - فهو يحتوي على تناقضات وتكرارات ويفتقر إلى وحدة الموضوع - إلا أنه يعطي دليلا مفيدا إلى تفكير ليدل هارت في أواخر الأربعينات . وكما لاحظت صحيفة Manchester Guardian بدقة ، في مقدمة مقال افتتاحي لها ، فان هذا الكتاب يفتقر إلى الروح النقدية اللاذعة والشكل . « إلا أنه تنتشر بين صفحاته ، كالنباتات النادرة في منطقة حدودية قاحلة ، أفكار وانتقادات من شأنها أن تثير انتباه الجميع : أقل عسكريينا ذكاء » . كما حدد المحرر بدقة موضعين لسمتين مثيرتين في ليدل هارت كمؤلف ، أولاهما أنه يتعامل مع خصومه بقدر ضئيل جدا من الاحترام : « انه يفسر قضيته المقنعة ضد التجنيد الاجباري ، وذلك مثلا بأن يسوق الحجج المؤيدة له بطريقة مفرطة الضعف » . ثانيا ، انه في تعامله مع دروس حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ « كانت لديه عادة مثيرة للضجر ، عادة القول « ألم أقل لكم هذا » أو شيء شبيه به . . . ومع ذلك فان هذا التعليق الجديد لا يمكن أن يفعل - بالتأكيد - إلا خيرا . . . وفي كل فصل يطلع علينا الكابتن ليدل هارت بتعليق معقول »[١٥] .

حينما طرح ليدل هارت السؤال « كيف ستبدو حرب جديدة ؟ » رأى ضعف قوات الغرب البرية في أوروبا باعتباره نقطة الخطر الرئيسية . إذ لم يكن يوجد سوى القليل لوقف موجة مد روسية تندفع الى الأمام نحو البحر الأبيض المتوسط أو المحيط الأطلسي ، أو كلاهما معا . بل في

(١٤) ليدل هارت إلى الأسقف « بيل » ، ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٦ و ٢٤ شباط ١٩٤٨ .

(١٥) Manchester Guardian ، ٢٩ أيار ١٩٥٠ . وكان المحرر يرد على مراجعة مدمرة تماما لكتاب ليدل هارت كان قد كتبها سير « جيمس كريغ » .

الواقع ان مصاعب الامدادات قد توقف اندفاعة الجيش الأحمر أكثر مما توقفه مقاومة عسكرية . وقد أبدى ليدل هارت ـ في مذكرة شخصية ـ اهتماما كبيرا بالغازات أو الغبار المشع كوسيلة دفاع بديلة ممكنة . « ان احتمال القاء قنابل ذرية على موسكو ولننغراد قد يكون رادعا لقرار بالحرب ، ولكنه لن يكون حاسما للأمر اذا ما اندلعت الحرب » . وقد تشكك فيما اذا كان باستطاعة القنابل الذرية أن توقف تقدم الجيش . فهي في الوقت الحاضر ليست أسلحة تكتيكية للأمة ضد القوات البرية ـ خاصة قوات شديدة المرونة مثل القوات الروسية . وقد تنبأ بحرب تنحدر الى أن تصبح ورطة يمكن أن تعاني فيها شعوب أوروبا الغربية أكثر بكثير مما عانت في العام ١٩٤٠ . وعندما ناقش مشكلات مدى ودقة الصواريخ الموجهة توقع استخدام الغواصات طراز « بولاريس »Polaris (*) حين لاحظ انه :

« هكذا يمكن أن تجد القوة البحرية مجالا هجوميا جديدا لها من خلال تطوير أنواع جديدة من السفن المصممة كمنصات عائمة للصواريخ الموجهة التي يمكن اطلاقها الى هدفها من نقاط قريبة من ساحل العدو »(١٦)

وكان يخشى اذا كان لأحد الأطراف تفوق ساحق ، أن يتم استخدام أسلحة الدمار الشامل . واذا ـ من ناحية أخرى ـ كان الجانبان يملكان الأسلحة نفسها ـ أو حتى يتخيلان أنهما يملكانها ـ عندئذ قد يتردد كل منهما في اطلاقها من عقالها بفعل الخوف من الرد الانتقامي ، كما كان الحال بالنسبة لعدم استخدام الغازات السامة في الحرب العالمية الثانية .

وحينما ناقش ليدل هارت مسألة « هل نستطيع أن نعيش بعد حرب أخرى ؟ » أعرب عن انزعاجه من النصيحة ، التي اعتقد أن المستشارين العسكريين كانوا يقدمونها ، والتي مؤداها أن حرباً أخرى ستكون من نفس أسلوب الحرب الأخيرة فيما عدا بعض المظاهر الجديدة . « ان مدى عدم الاهتمام الظاهر بالاحتمالات يوحي بافتقار محير الى الرؤية والفهم » . سوف يعاني المتنافسان الكبيران ـ روسيا وأميركا ـ أقل ولكن النتيجة بالنسبة لبريطانيا وأوروبا الغربية لا يمكن إلا أن تكون كارثة . كذلك كان قلقا من الطريقة التي كانت حكومة العمال تقيد بها ـ بعد قيادة تشرشل للبلاد في زمن الحرب ـ السياسة الخارجية لبريطانيا الى عجلة أميركا تقييدا شديدا . وكان يخشى بشكل خاص من أن « جورج مارشال »George Marshall الذي كان في السابق رئيسا للأركان ثم أصبح بعد ذلك وزيرا للخارجية (الأميركية) ذا عقلية هجومية . فاذا ما تحولت

---

* غواصة أميركية نزلت الى الماء لأول مرة في أول رحلة لها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠ . ويحمل هذا الطراز من الغواصات ١٦ قذيفة بالستيكية متوسطة المدى تستخدم الوقود الصلد (غير السائل) ويمكن اطلاق هذه القذائف والغواصة بأكملها تحت الماء . وتستطيع الغواصة من طراز بولاريس القيام بدورية تستمر ٦٠ يوما متصلة دون أي من الموانى . وقد أطلق على أول غواصة من هذا الطراز اسم « جورج واشنطون » .

(١٦) الدفاع عن الغرب ، ص . ٨٨ . « المترجم » .

بريطانيا وأوروبا الغربية الى مجرد قاعدة متقدمة لنصب أسلحة أميركا الذرية والصاروخية فان نصيبهما سيكون الكارثة مهما كانت النتيجة النهائية . لقد وصفت المذكرات الدفاعية الأميركية ـ بصراحة فظة ـ بريطانيا بأنها ستكون درع أميركا الحمقى للصدمات في حرب قادمة . وكان هذا دورا مميتا . ويتعين على بريطانيا أن تركز تماما على وجهي الدفاع ـ الوقاية والحماية . بالنسبة للوقاية يتطلب الأمر جيشا محترفا صغيرا منظما في فرق مدرعة ومحمولة جوا لوقف تسلل رؤوس الحراب الروسية ، وبالنسبة للحماية يتطلب الأمر برنامجا واسعا للدفاع المدني مصمم لوضع الخدمات والصناعات الجوهرية تحت الأرض في حالة قيام حرب[١٧] .

طور ليدل هارت هوايته الأثيرة ـ وهي الحاجة الى قوات برية منتقاة صغيرة نسبيا (٢٠ فرقة) لردع التحرش الروسي بأوروبا الغربية ـ في الفصل الذي أفرده لموضوع « الدفاع عن أوروبا الغربية » ، حيث أكد محقا أن « القوات الموجودة في الساحة التي يمكن أن يحسب لها حساب ، ولا توجد تعزيزات محتملة من وراء البحار ، مهما كانت أصبحت هذه التعزيزات ضخمة » . وهو في هذا تحدى الرأي الذي اعرب عنه أخيرا لورد تمبلوود Templewood ولورد « ترينشارد » Trenchard أثناء مناقشة في مجلس اللوردات ، والقائل بأن قوة جوية متفوقة يمكنها أن توقف بفاعلية أي تقدم روسي وأن توقع الاضطراب فيه . فقد كان يؤمن بأن الافراط في الاعتماد على القوة الجوية يمكن أن تواجهه قوة روسيا الجوية الخاصة الكبيرة ، بينما قد يستحيل وقف الجيش الأحمر بهذه الوسيلة وحدها ، ليس فقط لأنه بارع في التحرك منتشرا ، انما أيضا لأن قواته أقل اعتمادا من الجيوش الأخرى فيما يتعلق بالضرورات من الغذاء والمعدات .

عدل ليدل هارت ـ إلى حد ما ـ وجهات نظره هذه في الأهمية النسبية للقوة الجوية في أعقاب تبادل للرسائل استمر طويلا مع مارشال الجو سير « جون سليسور » John Slessor وكان آنذاك قائدا لكلية الدفاع الامبراطورية ، في العام ١٩٤٨ . وكان « سليسور » يعتقد أن أولئك ـ أمثال « تمبلود » و « ترينشارد » ـ الذين يركزون أساسا على القوة الجوية مصيبون من حيث الجوهر :

« انني على ثقة من أنه ليس من الخير للاتحاد الغربي أن يحاول بناء جيوش قارية على نطاق يوقف الروس ـ فلماذا نواجه العدو بأسلوبه هو حتى اذا كان لديه الرجال الذين لا نملكهم . اننا اذا حاولنا أن نكون أقوياء في كل مكان فاننا لن نكون أقوياء بما فيه الكفاية في أي مكان » .

« وانني على ثقة أنه يتعين علينا أن نملك جيشا معقولا وسلاحا جويا تكتيكيا معقولا على الأرض . ولكنني واثق أيضا من أن رهاننا الأفضل هو في الجو . ولو انني امتلكت قوة على الأسس التي يوصي بها ترينشاند لأصبحت سعيدا جدا لتولي مهمة وقف هذه الحشود » .

---

(١٧) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ٩٠ ـ ٩٨ ؛ وانظر « مايكل هوارد » في « مشكلات الاستراتيجية الحديثة » ، المصدر المذكور ص ٢٠ .

وقد دعم من وجهة نظره ما كان يراه من أن مقدرة الصيانة الجوية الروسية منخفضة جدا . وقد رد ليدل هارت بأنه يتفق الى حد كبير مع حجة « سليسور » : لقد كانت المسألة بالفعل مسألة ايجاد توازن بين القوات الجوية والبرية في أوروبا[١٨] . وهنا مثل جيد على حاجة الصحافي الذي يتمتع بشعبية لأن يتخذ خُطىً أكثر درامية فيما يكتب للصحافة عنه فيما يكتب في مراسلاته الخاصة .

كذلك قدم سير « جون سليسور » حججا قوية ضد اقتراحات أخرى كانت أثيرة لدى ليدل هارت في ذلك الوقت ؛ أعني القول بأنه نظرا لمصاعب بريطانيا الاقتصادية يتعين عليها أن تترك نفقات قوات القصف الاستراتيجي كلية للولايات المتحدة الاميركية ، تاركة لنفسها حرية التركيز على اكتساب قوة مقاتلات قوية . ووجد ليدل هارت مؤيدا لهذا الرأي في مارشال الجو سير « جورج بيري » George Pirie ، الذي كان آنذاك العضو المسؤول عن الامدادات والتنظيم الجوي . فقد أوضح « بيري » أن قوتنا القاذفة كانت غير مجدية للدفاع عن أوروبا . اذ كانت أسرابها العشرين تتألف كلها من طائرات من طرازي « لانكستر » و « لنكولن » ولم يكن باستطاعتنا أن نستبدل إلا « لنكولن » واحدة كل عام . وذهب « سليسور » الى أن مثل هذا التباين الكامل في الأدوار لن يكون مقبولا لحليف ، وذكر مثال ترك فرنسا القصف الاستراتيجي كلية لبريطانيا في العام ١٩٣٩ . وبالاضافة إلى هذا فاننا لو كنا لا نملك قوة قاذفة فلن تكون لنا كلمة في توجيه حملة قصف . وأخيرا ، فان هذا من شأنه أن يعني في الممارسة العملية أنه علينا أن نتخلى عن الأبحاث والتنمية في هذا المجال بأسره ، وهو ما لا يمكن قبوله لا سياسيا ولا استراتيجيا . وكتب ـ باختصار ـ أن نظرية ليدل هارت جذابة على السطح ، ولكنها غير سليمة بصورة خطيرة في الواقع[١٩] .

وقد بدأ الفصل عن « الدفاع الداخلي في حرب جديدة » بتحليل رصين لآثار القاء القنابل الذرية على اليابان ، وانتهى إلى أنه ليست لدى بريطانيا ـ في حالة استعدادها الراهنة ـ فرصة كبيرة للبقاء حتى لو ألقيت عليها قنابل ذرية قليلة . لقد أدت السرعة غير المتوقعة التي أجرت روسيا بها اختبار قنبلتها الذرية ـ وهو ما أعلنه الرئيس ترومان يوم ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ ـ إلى قلب برنامج دفاع الغرب كلية . ولقد كان يقال حتى وقت متأخر أن روسيا لن تنتج قنبلة ذرية حتى العام ١٩٥٢ ، كما كان يقال في الوقت نفسه أنه يمكن بناء دفاعات برية وجوية لأوروبا الغربية تحت حماية الاحتكار الذري الأميركي .

---

(١٨) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ١١٣ ـ ١٢٦ . « سليسور » الى ليدل هارت أول كانون الأول ، وليدل هارت الى « سليسور » ٣ كانون الأول ١٩٤٨ .

(١٩) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ٢٠٢ ـ ٢٠٣ . ١١/ ١٩٤٩/ ١٠ « حديث مع ماريشال الجو سير جورج بيري » ، ١٥ آذار . ليدل هارت إلى « سليسور » ، ١٨ كانون الثاني ، « سليسور » إلى ليدل هارت ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ .

« الآن وقد كسر الاحتكار آفاق الردع قد تناقصت قيمته ، بينما اختفت الحماية . ولا تستطيع شعوب أوروبا الغربية بعد الآن أن تجد راحتها في الاعتقاد بأن أي تقدم للجيوش الروسية يمكن الرد عليه بتدمير المؤن الروسية . فان مدنها هي نفسها معرضة لتدمير مماثل بالوسائل ذاتها »[٢٠] .

انزعج ليدل هارت من بيانات التهديد التي صدرت عما أصبح في أوائل الخمسينات السياسة الرسمية الأميركية الخاصة بـ « الرد الانتقامي الشامل » . وسجل ـ مثلا ـ قول لورد « ترينشارد » أن « علينا أن نستعد لأن نقول الآن أنه اذا ما تحقق هذا التهديد من الشرق فاننا سنضرب في وقت واحد بأقصى ما في حوزتنا من تطور الدول الغربية ـ القنبلة الذرية » . وأشار ليدل هارت ـ محقا ـ إلى الخسائر الهائلة التي تكبدتها روسيا في الحرب الأخيرة دون أن تستسلم . «أن نبدأ باستخدام القنابل الذرية من جانبنا سيكون أرجح السبل لأن يكون حكم التاريخ على حضارتنا الزائلة أنها انتحرت أثناء اصابتها بجنون مؤقت » . وواجه هذه التهديدات الهجومية بنداء من أجل برنامج للدفاع المدني الشامل ينبغي أن تكون له الأولوية على الاسكان . ولنعط فكرة عن مداه :

« تحت المدن الكبرى قد تتولد سلسلة من المدن المكيفة الهواء الشبيهة بخلية النحل من السكك الحديدية الجوفية ، والتي يمكنها أن تخدم غرضها الحالي وهو الاتصالات الداخلية . كذلك يمكن توفير مراكز اقليمية ذات طبقة منخفضة المستوى حيث يمكن للعمل والحياة أن يمضيا . أما المباني فوق السطح ـ بما فيها البيوت ـ فيمكن ربطها بواسطة الممرات الجوفية بالمحطات الجوفية المركزية . ويمكن انتاج الأنابيب على نطاق أوسع ، وبطرق جديدة ، لنقل الامدادات » .

عندما قدم هذا المقال للمرة الأولى لصحيفة Sunday Pictorial انزعج رئيس التحرير من لهجتها المتشائمة وسأل المؤلف عما اذا لم يكن يجد أساسا ما للأمل . وقد لاحظ ليدل هارت في يومياته أن الموقف كان يبدو له أثناء الكتابة داعيا لليأس : « ان النصيحة الوحيدة المعقولة هي ابلاغ الناس إما أن يضعوا رؤوسهم داخل أفران الغاز في بيوتهم ، أو أن يهاجروا » ـ ولكنه أحس في النهاية أن فرص تفادي الدمار الذري كانت أفضل ، شرط أن تتخذ اجراءات مناسبة[٢١] . وربما كان من قبيل السذاجة من جانبه أن يأمل في تنفيذ مثل هذا البرنامج ، ليس فقط بالنظر لمصاعب البلد الاقتصادية ، انما أيضا بسبب الانزعاج الذي يمكن أن يحققه .

كان واحداً من أكثر الآراء تحطيما للأفكار التقليدية التي قدمت في كتاب الدفاع عن الغرب الرأي القائل بأن حربا ذرية لن تكون بالضرورة حربا قصيرة ؛ والحقيقة أن صحيفة يومية وضعت

---

(٢٠) الدفاع عن الغرب ، ص ١٣٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ص . ص . ٩٧ ، ١٣٦ - ١٤٠ ، ٢٢/١٩٤٩/١١ ، مذكرة في اليوميات ، ٢٩ تشرين الثاني .

عنوانا لمقال مماثل « رغم القنابل الذرية والأسلحة الحديثة فان حربا أخرى يحتمل أن تكون أطول من الأخيرة »[٢٢] . وقد أشار ليدل هارت مرارا وتكرارا إلى الأضاليل التاريخية التي تزعم أن الحرب التالية من المحتم أن تكون قصيرة . من شأن القنابل الذرية أن تسرّع معدل التدمير وتجعله أكثر فظاعة، ولكنها لن تؤمّن نهايةسريعة للصراع . حتى اذا كان عدد من المدن قد دُمّر، فان هذا لن يؤدي بالضرورة إلى الاستسلام . ان لدى الكائنات البشرية مقدرة لا متناهية على التكيف مع انحطاط ظروفهم المعيشية . وكلما كان مستوى معيشة شعب ما منخفضا ، كلما كان أيسر عليه الحفاظ على استمراريته . وهكذا فانه في العصر الذري ستكون البلدان الضخمة ذات السكان المبعثرين والمستوى الحضاري المنخفض في وضع مميز اذا قورنت ـ مثلا ـ بالبلدان الكثيفة السكان والصناعية في دول أوروبا الغربية . ولحسن الطالع أن هذه الفكرة لم تختبر بعد في حرب ذرية ، ولكن المقارنة الناجحة لفيتنام الشمالية تصور ملاءمة هذه الفكرة في حالة حرب تقليدية كثيفة .

وتضمن الفصل نفسه عن « ظل الحرب مع روسيا » تبصرا رائعا توقع أوجه تصور مبدأ « دالاس » الخاص بـ « الرد الانتقامي الشامل » ؛ أعني أن امتلاك القوة الذرية لا يمنح بالضرورة تفوقا دبلوماسيا فعالا في مواجهة البلدان غير الذرية :

«من حيث النظرية، يتعين أن تكون أميركا قادرةعلى حسم كل نقاش دولي وفقا لمشيئتها . أما من حيث الممارسةفانها لم تكن قادرةعلى المضي في سبيلهاـ ذلك لأن أولئك الذين يعارضون سياستها يدركون بدهاء أنها لا تستطيع استخدام القنبلة الذرية إلا كملجأ أخير . وهكذا تستطيع البلدان المعارضة لها أن تشعر بأمان الى حد معقول في تحديها لأي مسألة سياسية ليست مسألة حياة أو موت بالنسبة لحائز السلاح الذري . وقد تتمكن هذه البلدان من المضي شوطا بعيدا في السعي الى اهدافها الخاصة ، وحتى الأهداف العدوانية منها ، دون أن تذعن لاحتجاجاتها » .

طور ليدل هارت هذا التنبؤ الدقيق في مقال كتبه في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ بعنوان « هل سيكون العصر الذري عصر طغيان أو مساواة ؟ » حيث كتب يقول :

« إن القدرة التدميرية غير المحدودة لمثل هذا السلاح تشكل حدوده العملية الخاصة . إذ لا يمكن تنظيم أو تكييفـاستخدامه طبقا للظروف كما هو الحال بالنسبة للقوات . انما باستطاعته أن يدمر فحسب ؛ إنه لا يستطيع أن يتسلل ولا أن يحتل . وهذا الشرط يشل امكانيات استخدامه لممارسة ضغط معتدل ، ومراقب بعناية ، في مجال سياسات القوة . ولهذا فان الدول الاخرى تكون في مأمن ـ الى حد معقول ـ حين تعارض مالك القنبلة الذرية في أية مسألة إلا أن تكون حيوية بصورة مطلقة له . ذلك أنه حتى أكثر رجال الدولة تصلبا يمكن أن يشعر بعدم ارتياح بشأن عواقب إطلاق مثل

---

(٢٢) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ١٤٤ ـ ١٤٦ ، قارن ٣٧٦ ـ ٣٧٨ . ١٠/١٩٤٧/٢٣ . انظر مجلة The Outspan ، آذار ١٩٤٧ .

هذا « القاتل الجماعي » من عقاله ، خاصة في فترة سلام اسمي أو حرب « كلامية » . وتصبح الدول الأخرى ـ حين تستغل ميزة هذا التردد الطبيعي ـ قادرة على تجاهل الاحتجاجات والمضي شوطا بعيدا في السعي إلى غاياتها المضادة الخاصة[٢٣] .

ونادرا ما كان برود ليدل هارت واعتداله معروضين بمثل هذا القدر من الحدة كما في خاتمة مقاله عن « ظل الحرب مع روسيا » ، حيث حذر من أصحاب الأمزجة الملتهبة ، الذين يشيع وجودهم في اميركا المنتصرة أكثر منه في بريطانيا القلقة من الحرب ، والذين ـ بسبب اعتقادهم بأن الحرب مع روسيا من المحتم أن تقع ـ يميلون إلى فرض الأمر . ان هذه المدرسة في التفكير :

« تتحدث عن أهمية الاستعداد « لتوجيه الضربة الأولى » ، بغض النظر عن الحقيقة الأساسية التي تقول أن بعد أميركا النسبي يؤدي إلى تأخر استخدامها ثقلها ، وبغض النظر عن مخاطرة اثارة الحرب دون حاجة الى ذلك أثناء المحاولة . إنها تتجاهل احتمال انتصارات روسية مبدئية ، والطريق الطويل للابلال من عواقبها ، والأضرار غير القابلة للاصلاح التي يمكن أن تتكبدها الحضارة خلال هذه العملية . وهي تقلل من قيمة مصاعب كسب ما يسمى بـ « النصر » على روسيا حتى اذا تحول ميزان القوة » .

لقد كان من اليسير للغاية الارهاص بحرب في حالة مزاجية من السخط . ويكمن الخطر الرئيسي في خلق وضع لا يستطيع الجانب الآخر فيه أن يراجع نفسه دون أن يفقد ماء وجهه . فعلينا ـ على الرغم من بيانات روسيا المثيرة وأعمالها المستفزة ـ أن لا نستبعد الرغبة الأكيدة في السلام بين شعب عانى كثيرا جدا من الحرب[٢٤] .

تقصد الفقرات المذكورة أعلاه إلى ايصال فكرة عامة عن تفكير ليدل هارت الواسع الأفق في العام ١٩٥٠ ، حول مشكلات الحرب في العصر الذري . ومثل هذه المعالجة الانتقائية غير مرضية بشكل واضح في بعض جوانبها ، ومن المؤسف أن ليدل هارت لم يغربل ولم يراجع ولم يعد كتابة مقالاته حينما كان يجمعها في كتاب الدفاع عن الغرب . وكما لاحظ مراجع الكتب في مجلة المستمع The Listener عن حق : « إن العبارات أو الفقرات المتكررة التي تأخذ الانتباه وتثير الفكر هي التي تُعطي الكتاب أهميته وقيمته أكثر من تصميم الكل ومن الحجج المستخرجة . وهذه مسألة تسبب قدرا من خيبة الأمل لأن الكابتن ليدل هارت غالبا ما يرى بعيدا وسط ضباب الحرب . . . » ولقد كان هناك تلازم قلق في هذه المجلة بشكل خاص بين ليدل هارت في أدواره المختلفة ،

---

(٢٣) الدفاع عن الغرب ، ص . ١٤٥ ، ١٠/١٠/١٩٤٧ « هل سيكون العصر الذري عصر طغيان أو مساواة ؟ » ، ٣٠ نيسان .

(٢٤) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ١٤٩ ـ ١٥٠ .

كمؤرخ عسكري ومنظر للحرب ومعلق معاصر . كذلك فانه لم يكن واضحا بأي حال أي نوع من الجمهور كان المؤلف يتوجه اليه ؛ ان معظم محتويات الكتاب قد سبق أن ظهر لأول مرة في مجلات شعبية ذات وزن خفيف ، كما لم تكن هناك معلومات تقنية كافية تجذب الخبراء المحترفين . ووصف مراجع الكتب في مجلة الرأي العامPublic Opinion كلا من الكتاب ومؤلفه وصفا موجزا حينما كتب : « انه مليء بأفكار مثيرة للاضطراب ، بعضها حاد وبعضها ساذج قليلا » . . والكتاب في مجموعه خليط مثير للفضول . وهناك شيء واحد على الأقل تعرفه بالتجربة ، ان الرجل (المؤلف) على طريقته يملك لمسة عبقرية »[٢٥] . ولعلّ من المستحسن أن نحيل المزيد من المناقشة لفضائل ليدل هارت ونواقصه كمنظّر للحرب الذرية الى الفصل التالي .

بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأوائل الخمسينات ربما يكون ليدل هارت قد كرس وقتا أطول ومجهودا أكبر لمعارضة محاكمات جرائم الحرب وفي اثارة التساؤلات عن معاملة القادة الألمان المسجونين أكثر مما أنفق في أي من اهتماماته الأخرى العديدة . وكان هذا الالتزام القوي متمشيا تماما مع شخصيته وفلسفته . فقد كان مؤمنا مندفعا بالاعتدال والتعقل في الحياة العامة كما في الحياة الخاصة ، وكان يعتقد أن عدوا مهزوما ينبغي ألا يضحى به أو يهان أبدا . وكما رأينا كان يعتقد أن الجيش الألماني تصرف جيدا بوجه عام ـ ربما أحسن حتى مما تصرف الحلفاء . وقد دعم التقاؤه بعدد من القادة الألمان عندما أصبحوا سجناء حرب اعتقاده بأنهم ـ على وجه العموم ـ كانوا رجالا ذوي كرامة وشرفاء . وأخيرا ـ كما أكدنا من قبل ـ فانه كان ـ بطبيعته المزاجية ـ ميالاً لتأييد الرأي المعارض للرأي السائد في ذلك الوقت حول أي موضوع يشغل اهتمامه . وفي هذه القضية بوجه خاص كان مؤيدوه الرئيسيون ، وفي بعض الأحيان المتواطئين معه ـ لورد « هانكي » ، الأسقف « بيل » ، «ريجنالد باجيت» Rignald Paget (مستشار الملكة وعضو البرلمان عن حزب العمال) « مونتغمري بلجيون » Montgomery Belgion (محام ومؤلف) والبروفيسور « غلبرت موراي » .

أوضح ليدل هارت موقفه ازاء القادة الألمان في مراسلات له مع صديقة يهودية ، هي « فيفيان غاستر » Vivian Gaster التي لم تكن تؤمن ، وهذا أمر لا يثير الدهشة ـ بالرأفة تجاه العدو . وقد أشارت « غاستر » الى أن ليدل هارت كان ينظر اليهم بعين الاحسان ومن زاوية مهنية إلى حد مفرط . فهم كانوا يعرفون جيدا ما يحدث لأولئك الذين كانوا يتركونهم تحت رحمة أصحاب « فرق الحماية » Schutzstaffel وينبغي أن يتحملوا مسؤوليتهم كاملة . وأضافت (مصيبة في رأيي) أن معظم القادة الذين تآمروا متأخرين ضد النظام كانوا مدفوعين بسوء ادارة النازي للحرب أكثر منهم بجرأته ضد الانسانية .

---

(٢٥) The Listener ، ٣ نيسان ١٩٥٠ ، ز . ج . جيسيل R. G. Jessel في مجلة الرأي العام Public Opinion ، ٩ حزيران ١٩٥٠ .

رد ليدل هارت قائلا : « ان موقفي من القادة الألمان ليس موقف احسان ، وانما هو - فيما أمل - موقف تفهم ، تفهم للطبيعة الانسانية وللوضع الذي وضعوا فيه » . وذهب الى أن القادة الألمان في فترة ما بين الحربين « قد تخلفوا كثيرا » بسبب جهودهم للبقاء بعيدا عن السياسة . أما أثناء الحرب فكان يشك في أن القادة العسكريين لأي أمة كان يمكن أن يتصرفوا على نحو أفضل لو كانوا في موقفهم . ولقد أدهشته حقا الدرجة التي احتجوا بها فعلا (وذكر في هذا الصدد مثل الجنرال « بلاسكو فيتز » Blaskowitz في احتجاجاته الشجاعة - غير المجدية رغم ذلك - على نشاطات « فرق الحماية » في بولندا ، وتساءل عما اذا كان يمكن لعسكريي الحلفاء أن يفعلوا بالمثل[٢٦] .

وكتب الى صديق ألماني في العام ١٩٤٩ كان قد شكا من معاملة البريطانيين لمواطنيه في منطقتهم المحتلة ، فرد عليه باعتدال بأنه شخصيا يتعاطف معهم ولكن على المرء أن يتذكر موقف الشعب البريطاني :

« لقد شنت الحربان بطريقة مريرة . وقد تميزت نهاية الحرب الثانية بأقاويل عن معسكرات الاعتقال في ألمانيا ، خلقت موجة هائلة من الغضب هنا . وقد جاء هذا فوق كل الأعمال الأخرى التي كانت قد أثارت غضبا عميقا . ولفترة من الوقت اكتسحت كل الحجج الداعية الى سلام معتدل . . . »

كان الأميركيون أكثر ميلا إلى سلام متصلب ولكن الغضب البريطاني كان آخذا في الانحسار سريعا . وكان ليدل هارت يعي جيدا أن هناك ميلا ألمانيا إلى العطف على الذات ، ولاحظ أن « مانشتاين » كان واحدا من الألمان القليلين الذين قابلهم ولم يظهروا أي أثر لهذا[٢٧] .

وتحتوي أوراق ليدل هارت على اشارات عديدة لتأييد اعتقاده بأن مسلك الجيش الألماني كان بوجه عام طيبا ، في حين أن مسلك الحلفاء كان في الغالب شائنا . وعلى سبيل المثال فقد أبلغ « الكسندر كليفورد » - ليدل هارت - على سبيل المثال بأن استراليا قد تفاخر أمامه وأمام صحفي صديق - هو « ادوارد وارد » Edrward Ward - بأنه ورفاقه قد شووا طيارا ألمانيا في جزيرة « كريت » . وكان « كليفورد » يعتقد أن الاستراليين ارتكبوا أشياء عائلة كثيرة : « كانوا جماعات من الرجال القساة وكانوا يطبقون أحكامهم حيثما ذهبوا » . كذلك انزعج « سيريل راي » Cyril Ray مراسل « مانشستر غارديان » العسكري في ايطاليا من وحشية الحلفاء وخاصة الكنديين . كما سمع ليدل هارت أن قوات « باتون »[*] - وخاصة الفرقة ٤٥ - ارتكبت فظائع في

---

(٢٦) ٩/ ٢٤/ ١٥٥ . « ف . غاستر » الى ليدل هارت ، ٢٨ تموز وليدل هارت الى « ف . غاستر » ، ٣٠ تموز ١٩٤٦ .

(٢٧) ١١/ ١٩٤٩/ ٣ « مقتطفات من رسالة الى صديق ألماني » ، ٢٨ كانون الثاني .

(*) الجنرال « ج . س . باتون » (١٨٨٥ - ١٩٤٥) قائد عسكري أميركي حقق انتصارات كبيرة في الحرب العالمية الثانية واشتهر بأسلوبه الخاص في استخدام الدبابات . وكان معروفا بميله للعنف . (لمعلومات أوفى انظر الموسوعة العسكرية : الجزء الأول - بيروت ١٩٧٧) . « المترجم » .

« صقلية » . وعلى النقيض فقد ذكر أن الجنرال « مارتيل »Martel ـ الذي كان يستجوب السكان في المناطق المحررة من روسيا في العام ١٩٤٢ ـ كان يتصرف جيدا طالما لم تكن هناك اضطرابات ، ولكنه كان يتخذ اجراءات انتقامية جذرية حينما يطلق مدنيون مسلحون الرصاص على جنوده . ولم يكن الروس مع « مارتيل » يحبون أن يسمعوا أي شيء موات يقال عن الألمان(٢٨) . أما « ريجنالد باجيت » فقد كانت له وجهة نظر أكثر سخرية ـ أو واقعية ـ بشأن براءة القادة الألمان . وكتب إلى ليدل هارت يقول : « بصراحة ، أعتقد أنه في حرب شاملة لا تكون هناك الا قلة ضئيلة من القادة في مركز يجعلهم يفندون اتهاما بأنهم كانوا مسؤ ولين عن السماح بعمليات قتل لا يمكن أن تبررها قواعد الحرب »(٢٩) .

أورد ليدل هارت ثماني نقاط في مقاله « القضية ضد محاكمات الحرب » :

« ١ ـ محاكمة من جانب واحد للمهزوم على يد المنتصرين ـ تعني في النهاية ادانتهم لأنهم خسروا الحرب !

٢ ـ نفاق الجلوس في مقاعد القضاة جنبا إلى جنب مع الروس . . .

٣ ـ عناد ادانة الألمان بما وقع في روسيا ـ دون اعتبار لأساليب الروس في الحرب (ومذبحة كاتين هي من أوائل الحالات) .

٥ ـ تجاهل الطريقة التي كان يشكو بها هتلر والنازيون (انظر يوميات غوبلز) باستمرار من معارضة القادة الألمان ومن كونهم انسانيي النزعة بصورة مفرطة .

٦ ـ أسوأ الفظائع الألمانية كانت عمليات القتل الجماعي (على يد النازيين) ـ ولكن كيف يمكن أن يكون هذا أسوأ من سياسة القصف الشامل التي انتهجناها ، ابتداء من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ مستهدفين عمدا السكان المدنيين .

٧ ـ أما عن التنديد بالعمليات الانتقامية ـ فلنقارن العمل الألماني الأشد تطرفا الذي تم باستدعاء القاذفات لابادة أي قرية تطلق منها رصاصة .

٨ ـ نفاق الامساك بأمر الكوماندوس ضد الألمان [أي أنهم ينبغي أن يعدموا] نظرا للطريقة التي كسر بها الكوماندوس قواعد الحرب وقتلوا سجناء لا حول لهم ولا قوة(٣٠) .

---

(٢٨) ٩/ ٢٤/ ١٥٥ ليدل هارت إلى الكسندر كليفورد ، ١٠ آيار ١٩٤٦ . « مذكرات للتاريخ » ، أ . كليفورد ، ٤ نيسان ١٩٤٤ . ١١/ ١٩٤٦/ ٨ « جرائم الحرب ـ القوات الاستراتيجية » ، ٢٣ تموز . ١١/ ١٩٤٧/ ١٧ « حديث مع الجنرال مارتيل » ٢٢ آب .

(٢٩) « ر . ت . باجيت » الى ليدل هارت ، ٥ تشرين الثاني ١٩٤٨ .

(٣٠) ٩/ ٢٤/ ١٥٥ . « قضية ضد محاكمات الحرب » ، مذكرة خطية ، بدون تاريخ ، ولكن ـ تقريبا ـ ١٩٤٨ .

مرت حملات ليدل هارت الصحافية ضد جرائم الحرب ومعاملة اسرى الحرب بخمس مراحل: بدأت الاولى برسالة صحفية إلى التايمز نشرت في ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦ بعنوان « الحكم في نورمبرغ »(*) وقد ركز ليدل هارت فيها الانتباه ـ بعد أن ناقش السوابق الخطيرة التي يخلقها المنتصرون وهم يحاكمون المهزومين ـ على التفاوت بين بعض الاتهامات والأحكام. وقدبدا له أن الحكم على « البرت سبير » (+) Albert Speer بالسجن لمدة ٢٠ عاما حكما قاسيا بصورة لا مبرر لها، ولكن انتقاده الرئيسي كان موجها الى حكم الاعدام الذي صدر ضد « الفرد جودل »(**) Alfred Jodl الذي لم يكن دوره يزيد ـ في رأي ليدل هارت ـ عن « كاتب كبير » يوقع أوامر هتلر. ونشرت صحيفة التايمز رسائل معارضة من اثنين من المحامين البارزين ـ « أ. ل. جودهارت » A. L. Goodhart و « ج. د. روبرتس » G. D. Roberts وكانا من ممثلي الادعاء في محاكمات نورمبرغ. ولكن ليدل هارت تلقى رسائل تأييد خاصة عديدة بينها واحدة من المؤلفة الشهيرة « فيرا بريتين » Vera Brittain، التي أشارت الى أن « نورمبرغ لم تكن ـ بالطبع ـ شيئا إلا انتقاما مموها بشكل دقيق، مما يخلق سابقة رهيبة. لقد كان من الوحشية بشكل خاص أن يعدم « جودل »، وإلى حد أقل « كايتل »(***) Keitel أيضا( )(٣١).

عُنيت المرحلة الثانية من احتجاجات ليدل هارت الصحافية بالظروف التي كان يعيش فيها في الاعتقال في بريطانيا بعض القادة الكبار الألمان الذين لم تقم الدعوى عليهم بعد في جرائم حرب. وقد سمح لليدل هارت بالاتصال بأسرى الحرب الألمان في العام ١٩٤٥، ولكن عندما نقلوا إلى « ساوث ويلز » في أوائل العام ١٩٤٦ ثارت اعتراضات على زياراته لهم من جانب « مبغضي الألمان ». وكانت إحدى الشكايات أنه قدم حشية إلى « رونتشتت »(****) Runstedt الذي

(*) المدينة التي شهدت أكبر محاكمات مجرمي الحرب النازيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية. « المترجم ».

(+) كان على علاقة وثيقة بهتلر منذ العام ١٩٣٣، تولى منصب وزير التسليح في العام ١٩٤٢، وكان يعد الرجل الثاني في المانيا ـ داخليا ـ بعد هتلر. ولكنه في العام ١٩٤٥ تحدى سياسة هتلر وبدأ في التخطيط لاغتياله. وكان الزعيم النازي الوحيد الذي اعترف اثناء محاكمته في « نورمبرغ » بأنه مذنب. وقد كتب مذكراته في سجن « سبانداو » ونشرت في كتاب بعنوان داخل الرايخ الثالث. « المترجم ».

(**) (١٨٩٢ ـ ١٩٤٦) رئيس أركان في عهد هتلر. وقع أمر الاستسلام العسكري عام ١٩٤٥ أعدم شنقاً في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٦

(***) (١٨٩٢ ـ ١٩٤٦) فيلد مارشال ألماني، رأس القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية (الهتلرية) في العام ١٩٣٨. تلا شروط الاستسلام على ممثلي فرنسا في العام (١٩٤٠). وقاد القوات النازية في الهجوم على روسيا (١٩٤١) وقع وثيقة الاستسلام العسكري الالماني (١٩٤٥) أعدم إشنقاً كمجرم حرب (١٩٤٦). « المترجم ».

(****) ١٨٧٥ ـ ١٩٥٣ فيلد مارشال ألماني، كان قائدا لأركان الجيوش الهتلرية في الجبهة الغربية، ووقع في الأسر بواسطة الجيش السابع الأمريكي (١٩٤٥). « المترجم »

(٣١) ٩/ ٢٤/ ١٥٧ رسائل ليدل هارت الى التايمز ١٨ و٢٥ تشرين الأول ١٩٤٦. « فيرا بريتين » إلى ليدل هارت ١٨ تشرين الأول. ليدل هارت الى « ج. د. روبرتس » ٢٤ تشرين الأول.

(٣٢) ليدل هارت الى الأسقف « بيل »، ١٧ آذار ـ ١٩٤٦.

كان مريضاً . وقد منع نشر رسالة من ليدل هارت الى صحيفة التايمز في آيار (مايو) ١٩٤٦ يصف فيها الظروف المحطة التي يتم فيها حبس ستة من كبار الضباط (برتبة جنرال) في غرفة صغيرة واحدة ، الخ ، وقد تأجل نشره انتظارا لنتيجة محاكمات « نورمبرغ » ؛ ولكنه وجد في آب (أغسطس) ١٩٤٨ رئيسا للتحرير أكثر تعاطفا ، هو « أ . ب . وادزورث » A. P. Wadsworth رئيس تحرير صحيفة مانشستر غارديان . فقد نشرت هذه الصحيفة الليبرالية (الناطقة بلسان حزب الأحرار : المترجم) في ٢١ آب نداء ليدل هارت البليغ من أجل ظروف معيشة أفضل ومعاملة أكثر انسانية لبعض الضباط الألمان ، وبصفة خاصة الفيلد مارشال « فون مانشتاين » ، الذين كانوا قد أعيدوا الى ألمانيا كشهود . وقد أشار رئيس التحرير في مقال افتتاحي شديد التأييد لهذه الدعوة إلى أنه :

« لا يستطيع أحد أن يقرأ الرسالة من الفيلد مارشال « فون مانشتاين » - التي نقلها الكابتن ليدل هارت - . . . دون شعور بالحرج . فمهما كان ما يعتقده المرء عن القادة الألمان كفئة ، ومهما قيل ضد هؤلاء القادة على وجه الخصوص كأفراد ، فإنّ معاملتهم يشمئز منها حس العدالة لدينا . فبعد ثلاث سنوات كأسرى حرب في هذا البلد أعيد هؤلاء الرجال المسنون الثلاثة (« بروشيتش » Brauchitsch و « رونتشدت » و « مانشتاين ») الى ألمانيا، لكي تحدد اقامتهم ويوضعوا تحت مراقبة دائمة ولا يسمح لهم برؤية زوجاتهم إلا في حضور ضابط . لماذا ؟ انهم لم يحاكموا . فاذ كانوا مجرمي حرب كان لا بد أن يحاكموا منذ وقت طويل ، وإلا فلا . . . »

وربما نتيجة لنشر هذه المعلومات تحسنت الى حد كبير أحوال السجن بالنسبة لهؤلاء القادة ، ولكن عندما نشر ليدل هارت ما يفيد هذا التحسن في ١٠ ايلول (سبتمبر) كان يسعى إلى كسب التأييد لمنع احتمال محاكمتهم كمجرمي حرب . وطالب بأن تؤخذ في الاعتبار مسائل أوسع أفقا ، مثل قصف الحلفاء المروع والقاء القنبلة الذرية . لقد كان القادة الثلاثة مسنين ومرضى ، والأهم حتى من هذا أن الأدلة ضدهم كانت واهية . وفي صحيفة مانشستر غارديان كان بين مؤيدي ليدل هارت الكثيرين « غلبرت موراي » ، « ت . س . اليوت » ، T. S. Eliot ، « أوزبرت سيتويل » Osbert Sitwell ولورد « تويدزموير » Tweedsmuir [٣٣] ، بينما تبنى حملة مماثلة في صحيفة التايمز « غلبرت موراي » ، « لورد بارمور » Parmoor ، « فيكتور غولانش » Victor Golancz، ومجموعة من الاشتراكيين بينهم « مسايكل فوت » Michael Foot ، « ج . ب . بريستلي » J. B. Priestley ، و « لورد راسل » Russel ، « ريتشارد ستوكس » و « ريجنالد باجيت » . وقد عزا ليدل هارت عدم فعالية تلك المراسلات المؤثرة ، والاحتجاجات التي أثيرت في مجلس البرلمان ، الى كونها قد ضاعت أصواتها وسط ضجيج الانتخابات العامة[٣٤].

كان ليدل هارت معنيا بوجه خاص بمصير « فون مانشتاين » . اذ كان يضعه في مكانة القائد

(٣٣) ٩/ ٢٤/ ١٥٨ ، مواضع متفرقة .

(٣٤) المصدر السابق ، ١٥٩ .

الحربي الألماني الأقدر ، كما كان يضيف الى هذا التقدير المهني اعجابا شخصيا بعد أن أجرى مقابلة معه في الأسر بعد نهاية الحرب . وقد تراسلا بعد ذلك ، على الرغم من أنه كان محظورا على الفيلد مارشال أن يكتب غير رسالة واحدة شهريا ، بما في ذلك الرسائل إلى أسرته . وعندما قدم الى المحاكمة في العام ١٩٤٩ ظل ليدل هارت على اتصال وثيق بقضيته عن طريق صديقه « ريجنالد باجيت»، الذي كان قد تطوع ليكون محامي الدفاع الأول عن «مانشتاين». وفي يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ أبلغ « باجيت » ليدل هارت بأن « محاكمة » « مانشتاين » تسير سيرا حسنا بصورة مدهشة ، «وانني مفعم بالأمل بأنه ستخلى ساحته » . وقد كان في هذا شديد التأثر بما أبداه « مانشتاين » من اتزان طوال محاكمته وكذلك بسرعة بديهته . وقد صدم ليدل هارت و « باجيت » و « هانكي » فيما بعد حينما صدر الحكم على « مانشتاين » بالسجن لمدة ثمانية عشر عاما ، وكان ذلك أساسا لمسؤ وليتة عن أوامر أصدرها هتلر والقيادة العليا ونفذها مرؤ وسوه (أي مرؤ وسي « مانشتاين ») . وعلى ذلك فقد اعتقد « هانكي » أن الرأي العام يتحول لمعارضة هذه السياسة وأن هناك «قدراً كبيراً من عدم الارتياح الحقيقي » .

وطبقا لما قاله ليدل هارت كانت رسالته التي نشرت في صحيفة التايمز يوم ١١ كانون الثاني ١٩٥٠ أطول رسالة نشرتها الصحيفة على الاطلاق . وفيها بيّن أن « مانشتاين » قد وجد مذنبا في اتهامين اثنين فقط من سبعة عشر اتهاما أصليا ، وأن هذين الاتهامين ليسا من الجرائم الكبيرة . والحقيقة أن « غوبلز » كان قد حذر هتلر من أن « مانشتاين » و « كليست »Kleist يعصيان أوامره وأن الاخير أخذ زمام المبادرة في محاولة للتخفيف من الأوامر اللا انسانية . وانتهت الرسالة الى أن « ادانته تبدو مثلا صارخا اما على جهل فاضح أو على نفاق فاضح » . وربما كان لورد « هانكي » أكثر دقة حينما أشار الى أنه لم يكن هناك شرير :

« الحقيقة أن الهيئة كلها ، الرئيس والأعضاء ، ممثلي الادعاء ، ومحامي الدفاع ، وفوق الكل السجين السيء الطالع ، كانوا ضحايا قوانين واجراءات ذات مفعول رجعي جعلت من الدفاع أمرا شبه مستحيل »[٣٥]

لقد بدا أن الرأي العام يشارك ليدل هارت وجهة نظره القائلة بأن ظلما قد تم في قضية « مانشتاين » ، لأنه تلقى نحو عشرين رسالة تأييد مقابل رسالة شتم واحدة . وفي العام ١٩٥٢ أبلغ « باجيت » ليدل هارت ـ بصفة سرية ـ بأن « مانشتاين » و « كيسلرنغ » سيطلق سراحهما ليجريا عمليات جراحية ثم يسمح بخروجهما نهائيا بعد فترة النقاهة . وبعيدا عن صعوبة التعامل مع الروس بشأن مجرمي الحرب في سجن « سباندو » (حيث أبقي الموقف الروسي « ردولف

---

(٣٥) « ر . ن . باجيت » : مانشتاين : حملاته ومحاكمته (١٩٥١) مقدمة بقلم « لورد هانكي » ـ انظر بصفة خاصة الفصل ١٣ . « لورد هانكي » : السياسة والمحاولات والأخطاء (١٩٥٠) .

هيس » سجينا حتى الآن) فان « باجيت » كان يعتقد أن العقبة الكأداء في وجه اطلاق سراح القادة الألمان هو « أنطوني ايدن » ـ لا لأنه كان لا انسانيا بل لأنه كان ينظر الى الأمم المتحدة نظرة مثالية وكان يعتبر محاكمات مجرمي الحرب جزءا من تجربة نبيلة لارساء قانون شامل[٣٦] .

بعد فترة بدا فيها أن كراهية الألمان بعد الحرب مباشرة قد أخذت في الانحسار ، قام بعض الصحف بتشجيع العداء العام مرة أخرى في العام ١٩٥١ ، ربما بسبب المخاوف من خطط لاعادة خلق جيش ألماني غربي كعنصر حيوي في الدفاع الأوروبي . وكتب ليدل هارت إلى « باجيت » أنه حائر في فهم « الملاحظات المعادية للألمان الواسعة الانتشار الآن في صحفنا » والصرخة المنطلقة ضد خفض الأحكام الصادرة ضد مجرمي الحرب وفقا لاقتراح الأميركيين . وأضاف بصوُرة مميزة لتفكيره : « علاوة على هذا لا يبدو أن احدا يرفع صوته على الجانب الآخر ، تأييدا للعدالة والرحمة » .

ولم يكن ليدل هارت يفتقر أبدا الى الشجاعة في مثل هذه الحالات ، فنشر رسالة مطولة في صحيفة مانشستر غارديان يوم ١٢ آذار (مارس) ١٩٥١ انتهت الى أنه :

« يبدو من لهجة مقالاتكم الرئيسية الأخيرة ، وكذلك من كثير من التعليقات الأخرى المماثلة لها ، أننا كأمة لا نعنى كثيرا بعواقب استمرار الدوس على مشاعر الشعب الألماني . ولكن بامكاننا أن نظهر ـ على الأقل ـ اهتماما بسمعة انكلترا كبلد عادل وانساني » .

وعلق رئيس التحرير بأن وجود أخطاء أو تجاوزات في بعض الحالات (مثل محاكمة « مانشتاين » أو محاكمة البلجيكيين للجنرال « فالكنهاوزن » لا يستتبع أن نعارض كل المحاكمات :

«ان كابتن ليدل هارت يتجاهل ـ في المسألة العامة ـ ما يبدو لنا أنه النقطة الأساسية ، وهو أن الانحناء أمام صخب الألمان معناه خدمة أغراض العناصر الأسوأ في القومية الألمانية المنبعثة لرد الاعتبار للروح العسكرية في ألمانيا » .

ورد ليدل هارت بأنه لا يعارض محاكمات جرائم الحرب بصفتها هذه : فلو أن الحلفاء اظهروا عناية بانتقاء حالات واضحة وتجنبوا الأسس المزعومة في سير المحاكمات لما كانت لدينا دواع للشعور بالخجل . « ان من الجوهري أن نبينّ بوضوح أننا نبذل كل جهد لكي نكون عادلين ، لا منتقمين »[٣٧] .

---

(٣٦) « باجيت » إلى ليدل هارت ـ أول آب ١٩٥٢ و ١٣ كانون الثاني ١٩٥٣ . ٩/ ٢٤/ ١٦١ ، مراسلات ليدل هارت مع صحيفة مانشستر غارديان ، آذار ١٩٥١ .

(٣٧) ليدل هارت إلى « باجيت » ٧ آذار و « باجيت » إلى ليدل هارت ، ١٣ آذار ١٩٥١ . انظر أيضا ليدل هارت إلى « هانكي » ، ٢٦ نيسان ١٩٥٠ ، ٧ و ١٣ آذار ١٩٥١ .

بحلول العام ١٩٥١ كان قد دخل اعتبار جديد على اهتمام ليدل هارت بمعاملة قادة العدو السابق : هو الجدال الذي دار حول ما اذا كان ينبغي خلق جيش ألماني غربي كجزء من دفاع الاتحاد الأوروبي . وكما رأينا ، كان ليدل هارت ـ حتى أثناء ا لحرب العالمية الثانية ـ يقدر الحاجة الماسة إلى جيش ألماني اذا كان لا بد من وجود أي دفاع فعال ضد التوسع الروسي في اتجاه الغرب ، ولم يتزعزع لديه هذا الاعتقاد أبدا على الرغم من وجهة النظر المضادة التي اعتنقها قائد هام مثل « دي لاتر دي تاسيني » de Lattre de Tassigny [٣٨] .

بالتالي ، عندما ذكر مقال افتتاحي لصحيفة التايمز يوم ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٥١ أنه ـ باستثناء شمال أفريقيا ـ « اكتسب الجيش الألماني سمعة بشعة » ، استثير ليدل هارت لكتابة رد يفند بقوة ما كان يعتقد أنه اتهام زائف :

« عند زيارة بلدان أوروبا الغربية وسؤال الناس عن تجاربهم تحت الاحتلال الألماني ، يقال للمرء مرة تلو أخرى أن الحكم النازي كان بغيضا ولكن الجيش الألماني كان « على ما يرام غالبا » في سلوكه . والحقيقة أنه من المثير للاضطراب أن نجد الى أي درجة من الشيوع يقارن ـ بصورة غير مواتية ـ السلوك الشخصي لكثير من أفراد جيوش التحرير بسلوك الجنود الألمان من جانب أولئك الذين لهم خبرة مباشرة » .

بعدها وسع نطاق هجومه المعاكس بالتساؤ ل عن طبيعة المحاكمات وأشار الى أن قليلا من الاتهامات ضد القادة الألمان كان يمكن أن يثبت أمام محكمة غير متحيزة . والمعارضة الراهنة لاطلاق سراح القادة الألمان في وقت مبكر ليست الطريقة الواحدة للمضي نحو جعل الألمان « أوروبيين طيبين » . ومما لا يثير الدهشة أن هذه الرسالة أثارت بدورها عددا من المراسلات الخاصة النقدية ، حيث اتهمه بعض الكتاب بالتعصب في تأييد الألمان ، بينما قص بعضهم الآخر عن فظائع خاصة ارتكبها جنود ألمان . وقد جاءت ردود ليدل هارت الودية والمعتدلة (باستثناء الرسائل البذيئة التي كان يتجاهلها) لتضعه في موقف موات للغاية . وكان بين أولئك الذين كتبوا مؤ يدين ـ بقوة ـ وجهة نظره البروفيسور غلبرت موراي [٣٩] .

واصل ليدل هارت إلحاحه على الرأي القائل بأن الانتقام لا بد أن يوقف وأن الألمان لا بد أن يعاملوا بالتساوي اذا أريد لهم أن يلعبوا دورا كاملا في الدفاع الغربي . وقد عززت آراءه هذه مقابلة مع المستشار الألماني الغربي دكتور « أديناور » في حزيران (يونيو) ١٩٥٢ . وطبقا لملاحظات ليدل هارت عن هذا اللقاء ، فان دكتور أديناور ـ الذي لم يكن لديه بالطبع سبب لمحبة أي من النازيين أو القادة العسكريين الألمان ـ أيد فكرة اصدار قانون عفو مبكرا ـ من جانب

---

(٣٨) ١١/ ٧/١٩٥٠ « حديث مع الجنرال دي لاتر ـ غداء في كلاريدجز » ٢ نيسان .

بريطانيا والولايات المتحدة . فقد كان الاحتفاظ بالقادة الألمان في السجن - في رأيه - مضرا باحتمالات توقيع معاهدة أوروبية[40] .

وقد نقلنا كثيراً عن ليدل هارت بشأن جهوده لصالح القادة الألمان والجيش الألماني ، ليس فقط لأنها كانت تأخذ كثيرا من وقته في تلك السنوات ، إنما أيضا لأنها كانت تصور استعداده لتبني قضايا الأقلية التي لم يكن فيها احتمال للحصول على مكافأة مالية أو مادية ، والتي يمكن في الحقيقة أن تضار منها سمعته ومبيعات كتبه . وسواء كان المرء يشاركه بالكامل ، أو لا يشاركه اعتقاده بالمسلك الشريف للجيش الألماني ، فانه من الممكن - يقينا - أن يعجب المرء باعتداله وانسانيته في طرح قضية انتهاج الفضيلة والعدالة ازاء عدو مهزوم . (ومن الجدير بالملاحظة - بصورة عارضة - أنه على الرغم من أنه كان يعارض محاكمات جرائم الحرب من حيث المبدأ ، الا انه لم يتناول الموضوع علنا إلا فيما يتعلق بحالات كان فيها سبب وجيه للشك فيما اذا كانت العدالة قد أخذت مجراها) . ولعله كان يمكن أن يرد على أولئك الذين انتقدوه لتبنيه قضية القادة الألمان بينما أهمل قضايا مهمة أخرى (مثل محنة ضحاياهم) بأنه كان على دراية خبيرة بالسياق العسكري الذي كان أولئك القادة يعملون في اطاره ؛ وبالتالي فانه كان يعرف الكثير منهم شخصيا ؛ وانهم كانوا في موقف لا يسمح لهم بأن يتحدثوا عن أنفسهم اطلاقا على النحو الملائم . وأن باستطاعة أشخاص آخرين أن يتحدثوا مؤ يدين لقضايا هم على دراية بها بالقدر نفسه . (يمكن لأولئك الذين يتعرضون للقدح لدفاعهم عن قضية الحيوانات ، بدلا من الدفاع عن الأطفال الذين تساء معاملتهم ، أن يردوا على هذا على أسس مماثلة) . وباختصار فانه حيث يوجد بوضوح مجال لاختلافات الرأي حول مسألة محاكمات جرائم الحرب ومدى ذنب القادة الألمان ، يبزغ ليدل هارت بفضل كبير له في هذه القضية التعيسة بأكملها . وبصفة خاصة فان الحملات الصحافية التي وضعناها أعلاه ينبغي أن تصد بصورة نهائية الاتهام غير المبرر بأنه « استخدم » القادة الألمان « كي يشق طريقه من جديد » بعد الحرب العالمية الثانية[41] . ومن المؤكد أن معلوماتهم كانت ذات قيمة لا تقدر بالنسبة اليه كمؤرخ ، ومن الواضح بالقدر نفسه أنه استمتع باشارتهم ببعد نظره ونفوذه . ولكنه كان - في حكمي - انسانا أكبر من أن « يستخدم » عامدا القادة الألمان - أو أي شخص آخر - لدعم حياته العملية .

على الرغم من أن هذا الفصل ركز على اثنين من اهتمامات ليدل هارت الرئيسية في السنوات

---

(٤٠) ٨/١٩٥٢/١١ « مذكرة عن حديث مع المستشار الألماني » ، ٩ حزيران . ليدل هارت إلى « هانكي » ١٠ حزيران ١٩٥٢ .

* المقصود هنا - كما يشير التوقيت - توقيع معاهدة حلف شمالي الأطلسي . « المترجم » .

(٤١) انظر تعليق ميجور « كنيث ماكسي » في مقاله : « ليدل هارت : الكابتن الذي علم الجنرالات » . مجلة المستمع The Listener كانون الأول ١٩٧٢ ، ص ٨٩٥ .

التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة ـ وهما تكييف نظرية الحرب مع عصر الأسلحة الذرية ومعاملة القادة الألمان ـ فانه ينبغي التأكيد بأنه واظب على كل اهتماماته المهيمنة القديمة ، وأضاف اهتماما ضخما جديدا اليها قدر له أن يصبح تدريجيا الاهتمام السائد ، أعني جمع المواد لتاريخ عسكري شامل للحرب العالمية الثانية .كذلك فقد احتفظ بصلات منتظمة مع السياسيين العماليين المعنيين بالشؤون الدفاعية . وعلى سبيل المثال فانه حتى وقت متأخر ، حتى ١٥ آيار (مايو) ١٩٥٠ ، سجل انطباعاته عن اجتماع دام ساعة ونصف الساعة بينه وبين « شنويل » حث خلاله الوزير على الغاء التجنيد الاجباري ، وناقش إمكان تخصيص أموال أكثر للسلاح الجوي الملكي على حساب الأسلحة الأخرى[٤٢] . وبالاضافة الى استعادة بعض نفوذه السياسي السابق فانه أحس بشعور مختلط بالرضا اذ عرف أن قيمة نظرياته اصبحت تلقى اعترافا صريحا في الخارج ، وخاصة في ألمانيا ، وبعد ذلك في اسرائيل[٤٣] .

ومع ذلك ، وبناء على أدلة من أوراقه ، فانه مر في بداية الخمسينات بمرحلة اكتئاب شديد . فقد أضيفت إلى اخفاقه في الحصول على كرسي الأستاذية بجامعة اكسفورد خيبة أمل شديدة أخرى . ففي العام ١٩٥١ كان « ايدان كرولي » Aidan Crawlay ولورد « باكنهام » يقومان بتحقيقات حول امكان منحه لقب « سير » ، وقد أبلغ بأن استجابة « آتلي » تثير بعض الأمل ، إلا أن هذا الاحتمال تلاشى عندما هزم العمال في انتخابات الخريف[٤٤] .

وعلى حين أنه لم يصب بمرارة بفعل هذين الاحباطين وغيرهما ، فانه أحس بصورة حادة بأن قدراته لا تقدر حق قدرها من جانب الحكومات البريطانية المتعاقبة ، ولا من جانب المؤسسات العسكرية ، أو الجامعات .

« باختصار فان وطني ـ على مدى السنوات الخمسين الماضية ـ لم يستخدم إلا جانبا صغيرا ـ ربما ٢٠ بالمائة أو أقل ـ من قدرتي على خدمته . كذلك فانه ترك خصومه في الخارج يحققون الفائدة القصوى من مؤلفاتي المنشورة » .

واتسمت ردة فعله بالحدة حينما أشار اللواء « ايريك دورمان ـ سميث » EricDorman - Smith الذي خبت آماله في الجيش في العام ١٩٤٢ ـ الى أن حياة ليدل هارت العملية كانت قصة نجاح طويلة ، بذكر قائمة بكل « ما كان يمكن أن يكون » خلال الفترة بين ١٩٣٠ و ١٩٥١ ومع ذلك فقد زعم أنه لم يشعر بمرارة لأنه كان يتمتع بمباهج حريته الشخصية[٤٥] .

---

(٤٢) في ٢٠ حزيران ١٩٥١ قدم « لورد باكنهام » الى ليدل هارت عضوا عماليا صاعدا في البرلمان هو « الشاب جيمس كالاهان » . [الذي يشغل في الوقت الحاضر منصب رئيس وزراء بريطانيا ـ المترجم] .

(٤٣) نناقش تأثيره على الفكر العسكري الألماني والاسرائيلي في الفصلين الثامن والتاسع من هذا الكتاب .

(٤٤) ١١/ ١٩٥١/٥ . مذكرات يومية ٢٠ و ٢٣ حزيران .

وفي العام ١٩٥٢ أدت مكالمة تليفونية من السفارة الأميركية في لندن تدعوه الى القاء محاضرات في عدد من الكليات العسكرية الأميركية إلى ما كتبه في الفكرة التالية « حول فقدان الاهتمام بموضوع ما » : .

« لقد تلقيت في العام الماضي دعوات مماثلة من أكثر من نصف دزينة من البلدان . والاحتمال لا يحمل كثيرا من الاغراء لي ، واني لأعجب لماذا . وأعتقد أن هذا يرجع الى فقدان أساسي للاهتمام بالأمور العسكرية ، وحتى بالفكر العسكري . وأفترض أن هذا نتيجة طبيعية لانجاز ظاهر ، وكذلك لخمسة وثلاثين عاما من الدراسة المكثفة في هذا الميدان . لقد كان ينبغي أن أقطع صلتي تماما بها بعد العام ١٩٤٥ وأن أدخل ميدانا جديدا كلية ، وهذا ما مكن لدي الحافز لأقوم به .

« انني لا أستطيع أن أتوقع أن أحدث ثورة في فن الحرب مرتين خلال عمري ، وأي شيء أقل من هذا أستطيع تحقيقه سيكون بمثابة هبوط مفاجيء . وبالاضافة الى هذا لم تعد بي رغبة لاحداث ثورة ثانية ، طالما أن الأولى لم تفد هذا الوطن ولا حلفاءه ، انما أفادت خصومه ـ وغيرت مسار العالم نحو الأسوأ . قد يحدث هذا مرة أخرى في حالة أي أفكار ثورية أخرى محبذة للهجوم ، وبالتالي للعدوان .

لكن لا تزال هناك فرصة ـ أيضا ـ لأن تتعزز ـ على جميع الجوانب ـ الأفكار التي طورتها مؤخرا لاحباط العدوان وتعقيم الحرب . ولقد أظهرت الحرب الكورية أعراضا تبعث على الأمل »[٤٦] .

وأخيرا ، عندما بلغ عيد ميلاده الستين يوم ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥ ، كتب تأملا واهن العزم مؤداه انه لم يستطع كمؤرخ أن يتوصل إلى الحقائق عن الحرب العالمية الثانية ، بينما لم تبد الحكومة البريطانية ولا القوات المسلحة البريطانية اهتماما بالحصول على خبرته . وكتب له « ريجنالد باجيت » ـ الذي أرسل اليه نسخة من هذا التأمل ـ يرفع معنوياته ويؤكد له أن تشاؤمه لا محل له . وقال « باجيت » : لا يستطيع انسان أن يكون نبيا في وطنه حتى يكون قد أصبح فوق الستين : « ان انطباعي هو أن انكلترا تقترب أخيرا من طريقتك في التفكير ، وأننا سنملك جيشا أعيد بناؤه من جديد »[٤٧] . وقد قدر لنبوءة « باجيت » أن تؤكد صحتها ، وبمعنى أوسع من مجرد اصلاح الجيش . ذلك أن ليدل هارت تلقى في العقد التالي الكثير من الاعتراف وبعض الامجاد التي حققها بجهده بالتأكيد .

---

(٤٥) ١١/ ١٩٥١/ ١٤ . « تأمل » نوفمبر . انظر أيضا المصدر السابق ١١ و ١٥ . « مذكرة الى دورمان سميث » ، ٢٠ كانون الثاني .

(٤٦) ١١/ ١٩٥٢/ ٢ « فكرة حول فقدان الاهتمام بموضوع ما » ، ١٤ شباط .

(٤٧) ١١/ ١٩٥٥/ ٩ « تأمل في الستين » ٣١ تشرين الأول . « باجيت » إلى ليدل هارت ، ١٦ كانون الاول ١٩٥٥ .

الفصل السابع

ردع أم دفاع ؟

١٩٥٠ ـ ١٩٦٠

أشار الراحل « الاستير بوكانا »* Alastair Buchana ـ وهو يراجع كتاب ليدل هارت ردع أم دفاع؟ (١٩٦٠)ـ إلى النمط المعتاد للتطور الشخصي الذي يميل إليه المفكر الراديكالي أورجل الفعل بعد أن يكون في شبابه من المتحمسين لتحطيم التقاليد ، لأن يصبح في سنوات عمره المتأخرة أكثر ميلا الى النزعة المحافظة . وكان في رأيه أن ليدل هارت قد حقق هذا النمط « انا مع نتيجة سعيدة » :

« ان الراديكالي الكبير بين استراتيجيي سنوات ما بين الحربين ، والمطرقة التي كانت موجهة ضد افتراضات الأركان العامة الفرنسية والبريطانية الشائعة . . . أصبح الآن واحدا من أكثر نقاد الراديكالية الاستراتيجية اقناعا في يومنا الحاضر . لقد أصبح المفكر الجسور للثلاثينات نبي الحس Common Sense في الستينات ، حريصا ومتشككا بشأن الأفكار السهلة القائلة بأن الردع بديل عن الدفاع ، أو أن الأسلحة الذرية جعلت الحرب مستحيلة ، أو انها بديل عن الرجال حاملي السلاح »[(١)] .

وكانت النوعية التي ميزت كتابات ليدل هارت ـ في رأي بوكانا ـ عن كتابات الطابور الطويل من الاقتصاديين والصحافيين والسياسيين والمؤ رخين الذين يتزاحمون الآن في مجال التحليل الاستراتيجي ـ « الفهم العميق لحقائق الحرب ، وفوق كل شيء لحقائق علم التكتيك » .

وجاء المديح للكتاب والمؤلف سريعا من وسط أرفع مكانة (من بوكانا) . لقد وافق السناتور (الذي أصبح رئيسا للجمهورية بعدها بوقت قصير) جون . ف . كينيدي على أن يكتب مراجعة مستفيضة لكتاب ردع أم دفاع ؟ لمجلة السبت Saturday Review ، وقد استخدم

---

* (١٩١٨ ـ ١٩٧٦) من أشهر المعلقين الاستراتيجيين البريطانيين ، وكان مديرا لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولي في لندن (١٩٥٨ ـ ١٩٦٩) . « المترجم »

(١) « الاستير بوكانا » في صحيفة الأوبزيرفر، ٣ تموز ١٩٦٠ . ومن المثير للدهشة أن ليدل هارت قد قبل وصف « بوكانا » . ليدل هارت الى « بوكان » ٤ تموز ١٩٦٠ .

الكتاب في الحقيقة كنص لعرض آرائه الخاصة عن مشكلات الدفاع الغربي الرئيسية . وكتب السناتور كيندي يقول :

«لم يكتسب خبير بالشؤون العسكرية حق الانتباه المبجل بافضل مما اكتسبه « ب . هـ . ليدل هارت» . فطوال جيلين أدخل على مشكلات الحرب والسلام عمق بصيرة وخيال نادرين . وقد أثبتت تنبؤاته وتحذيراته غالبا صحتها »[٢] .

مسألة أساسية أشار كينيدي الى أنه يشارك فيها ليدل هارت حكمه ـ وهي أن الزعماء المسؤولين في الغرب « لن ، وينبغي ألا ، يواجهوا عدوانا محدودا بأسلحة غير محدودة لا يمكن لاستخدامها إلا أن يكون انتحاراً » ، ولكن كينيدي اختلف فيها معه فقط في أنه كان أكثر تفاؤ لا فيا يتعلق بامكانية الاتفاق مع الروس حول الوسائل الفعالة للرقابة على الأسلحة .

وعلى الرغم من أن كتاب ردع أم دفاع ؟ ـ شأنه شأن كتاب الدفاع عن الغرب ـ كان يتألف أساسا من مقالات سبق نشرها في أماكن أخرى ـ بعضها منذ العام ١٩٥٢ ، إلا أنه كان أفضل تنظيما وأقل تكرارية من الكتاب السابق ، ولهذا فانه قدم عرضا أكثر تماسكا لتفكير ليدل هارت حول المسائل الرئيسية للدفاع في العصر الذري . وقد استحق الكتاب المديح الذي كاله له أغلب المراجعين وشكل خاتمة ملائمة لدراسات ليدل هارت في الاستراتيجية المعاصرة[٣] . ولا يحتاج الأمر لذكر العلامات الرئيسية للاستعدادات للدفاع عن اوروبا الغربية ضد توسع الاتحاد السوفياتي ، على سبيل التقديم . كان حلف شمال الأطلسي NATO قد أقيم في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ ردا على محاصرة الاتحاد السوفياتي لبرلين . وكان ثمانية من أعضائه الاثني عشر الاصليين يقعون على البر الأوروبي ـ فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ، لوكسمبورغ ، ايطاليا ، البرتغال ، الدنمرك ، والنرويج ـ أما الباقون فكانوا الولايات المتحدة وبريطانيا وايسلندا وكندا . أما اليونان وتركيا فقد انضمتا إلى الحلف في العام ١٩٥٢ ، وألمانيا الاتحادية (الغربية) في العام ١٩٥٥ . وعندما اندلعت الحرب الكورية في العام ١٩٥٠ كان يخشى على نطاق واسع من أن تكون هذه الحرب مجرد خدعة يقصد بها الاتحاد السوفياتي تشتيت الانتباه عن أوروبا الغربية حيث يمكن أن يشن هجومه الواسع الحقيقي . وفي تلك الظروف بدا الالتزام الأميركي بالنهوض لمساعدة الحلفاء الأطلسيين ، في حالة تعرضهم لهجوم ، غير كاف . وكانت الحاجة هي إلى التزام عسكري أميركي دائم بقوة مندمجة ذات خطوط امداد مشتركة وقيادة دولية . وقد خرجت الأخيرة ـ وهي « القيادة العليا للدول المتحالفة في أوروبا »(SHAPE) ـ الى حيز الوجود في نيسان (ابريل)

---

(٢) Saturday Review ، ٣ ايلول ١٩٦٠ .

(٣) على الرغم من أنه واصل نشر مقالات في الشؤون المعاصرة . إلا أن ردع أم دفاع كان محاولته الأخيرة لصياغة بيان عام عن أفكاره الاستراتيجية في كتاب .

١٩٥١ ، ولكن القوات البرية لم تندمج اندماجا تاما أبدا . وفي أوائل الخمسينات كان لا يزال من المعقول التطلع الى الدفاع عن أوروبا الغربية في ضوء الحرب العالمية الثانية كلية ، لأنه على الرغم من أن الاتحاد السوفياتي كان قد فجر قنبلته الذرية الأولى في العام ١٩٤٩ فان سنوات عديدة مضت قبل أن يمتلك ترسانة ذرية . وبالاضافة الى هذا كان من المشكوك فيه لأقصى حد اذا كان لدى الولايات المتحدة أية قنابل ذرية في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وحتى كان من المحتمل ـ حتى العام ١٩٥٠ ـ أنه لم يكن في حوزتها أكثر من ٢٠ قنبلة . وكان الهدف الهائل أمام مؤتمر حلف الأطلسي الذي عقد في « لشبونة » في شباط (فبراير) ١٩٥٢ تكوين ٩٦ فرقة ، ولكنه سريعا ما تبين بوضوح أن شيئا من قبيل هذا الرقم يستحيل تحقيقه أبدا . ففي المحل الأول كانت الدول الأوروبية الأعضاء في الحلف ـ وكانت واقعة آنذاك في قبضة مشكلات اعادة البناء الاقتصادي ـ عازفة عن توفير القوة البشرية اللازمة . وكان سير « جون سليسور » ـ كرئيس للأركان الجوية ـ واحدا من أوائل من تقدموا إلى اقتراح سياسة « الرد الانتقامي الشامل » من أجل خفض النفقات الدفاعية . ولكن ـ وهذا أهم ـ بينما كانت الولايات المتحدة تزداد التزاما في منتصف الخمسينات بسياسة « الرد الانتقامي الشامل » بالأسلحة الذرية ـ إذ أنها كانت واقعة تحت ضغوط مالية مماثلة ـ فانه كان من الصعب رؤ ية النقطة التي عندها يمكن خلق « درع » فعال من القوات البرية . والحقيقة ان خلق مثل هذا الدرع كان يعني زيادة فرص جعل أوروبا ميدانا لقتال ذري . وقد تراكمت هذه المخاوف بفعل الاشارات الموجهة بأن الاسهام الأميركي في الدفاعات الأرضية على جبهة وسط أوروبا سيتخذ شكل حلقة دائرية ليست مهمتها القيام بدفاع حقيقي عن المنطقة بقدر ما هي زناد لاطلاق هجوم نووي أميركي في مرحلة أي تجاوز سوفياتي تجاه أوروبا الغربية .

وبحلول العام ١٩٥٧ كانت عقيدة « الحلقة الدائرية » هذه قد قتلت بفعل النمو المذهل للقدرة النووية الروسية . فقد فجر الروس قنبلتهم الهيدروجينية الأولى في آب (أغسطس) ١٩٥٣ ، وكان ذلك أسرع كثيرا من المتوقع ، وبعد أربع سنوات بالتحديد أطلقوا صاروخا باليستيكيا عابرا للقارات (ICBM) . وزالت تماما شكوك الغرب بشأن هذا الانجاز باطلاق الروس بنجاح صاروخهم القمري(*) يوم ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩ . وهكذا فانه خلال عقد واحد حدث ما كان « لا يمكن التفكير به » واحتلت روسيا المقدمة في جانب حيوي من العلم العسكري .

أكدت هذه التطورات عدم كفاية قوات وعقيدة حلف الأطلسي . وكان قد تم تحقيق تقدم قليل في منتصف الخمسينات في بناء قوات تقليدية في المنطقة الوسطى . بينما فقد الاعتماد على

* صاروخ اطلقه الاتحاد السوفييتي نحو القمر واصطدم به فعلا في اليوم المذكور ، وكان هذا يعني توفر قدرة فعالة للصواريخ السوفييتية العابرة للقارات . « المترجم » .

التهديد بالرد الانتقامي النووي الأميركي ضد هجوم تقليدي روسي ما كان له من مصداقية ضئيلة قبل أن تصبح روسيا قوة نووية كاملة . وقد كان من الضروري أن تنهي الحرب الكورية الفترة القصيرة من البراءة النووية لأنها كشفت عن عقبات سيكولوجية وأخلاقية في وجه استخدام الأسلحة النووية في حرب تقليدية .

وبالتالي فان حلف الاطلسي تبنى في العام ١٩٥٤ حلا وسطا : انخفض الهدف فيما يتعلق بالفرق إلى ثلاثين فرقة ، ولكن على أن توضع في حالة استعداد عالية وأن تسلح جميعا بأسلحة نووية تكتيكية . وتم التخلي كلية عن مفهوم الحلقة الدائرية لمصلحة توفير عدد محدود من البدائل بين الاستسلام والحرب الشاملة . وأدى ادخال الأسلحة النووية التكتيكية بدوره الى اثارة سلسلة من المشكلات العملية والنظرية التي أثارت المتاعب لمخططي الحلف الأطلسي ونقاده طوال الستينات(٤) .

تلك كانت ـ في خطوط عريضة للغاية ـ خلفية المشكلات الاستراتيجية التي تناولها ليدل هارت في كتابه ردع أم دفاع ؟ وقد واصل في الخمسينات عادته التي لازمته طوال حياته ، عادة الاحتفاظ بمراسلات واسعة النطاق كوسيلة لجمع المعلومات وكذلك لتهذيب أفكاره الخاصة . وخلال تلك الفترة التي نستعرضها كان الأشخاص الذين لعبوا دور أهم « المحكات » له هم مارشال الجو سير « جون سليسور » (رئيس الأركان الجوية خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) ، ونائب الأدميرال سير « انطوني بوزارد » Anthony Buzzard (مدير المخابرات البحرية خلال الفترة ١٩٥١ ـ ١٩٥٤) ، والبروفيسور « ب . م . س . بلاكيت » P. M. S. Blacket (رائد في البحث العملياتي وعضو فريق الباحثين برئاسة سير « هنري تيزارد » Henry Tizard أثناء الحرب العالمية الثانية) ، و« الاستير بوكانا » (أول مدير لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولي ابتداء من العام ١٩٥٨) والبريجادير (فيلد مارشال سير بعد ذلك) مايكل كارفر Michael Carver (مدير الخطط في وزارة الحرب خلال الفترة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) . وكان عضوا مؤسسا في « دائرة المعلقين العسكريين » ذات المكانة العالية ـ التي تأسست في العام ١٩٥٤ ، وكان وثيق الارتباط مع المجموعة التي ضمت « بوزارد » و « بلاكيت » ودينيس هيلي* Denis Healey ، وريتشارد غولد ـ آدامز Richard Goold-Adams التي أسست معهد الدراسات الاستراتيجية بعد ذلك بأربع سنوات .

(٤) « أ . بوكان » ـ « بين السيف والردع » في مجلة Encounter ـ تموز ١٩٥٩ . « ريمون آرون » « تطور الفكر الاستراتيجي الحديث » في سلسلة أبحاث أدلفي Adelphi Papers (رقم ٥٤) شباط ١٩٦٩ . ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٣٩ ـ ٤١ ، ١٣٣ .

* زعيم بارز في حزب العمال البريطاني الآن ويشغل منصب وزير المالية في الحكومة البريطانية الحالية (١٩٧٨) كما شغل قبل ذلك منصب وزير الدفاع في حكومة « هارولد ويلسون » العمالية حتى استقالة الأخير في العام ١٩٧٧ « المترجم »

وهكذا فانه في بريطانيا وحدها أصبح يشارك ليدل هارت في انشغاله بالمجال الدفاعي عدد كبير من الرجال ذوي القدرات البارزة في القوات المسلحة ، والصحافة ، وإلى حد أقل في الجامعات ، حتى أنه كان من العسير البرهنة على أنه كان أصيلا في المسائل العريضة . ومع ذلك فانه ينبغي أن نشير إلى مدح هام جاء من محلل استراتيجي أميركي بارز . ففي العام ١٩٥٧ كتب برنارد برودي ـ وكان آنذاك عضوا كبيرا في مؤسسة « راند » Rand* ـ يقول أنه يسعده أن يذكر ـ في مراجعة للكتاب ـ « حقيقة أنك قدت جميع الآخرين منا في الدعوة لمبدأ الحرب المحدودة . . . لقد أصبحت في الحقيقة من اتباعك في أوائل العام ١٩٥٤ حينما علمت . . . أن السلاح النووي الحراري (أي القنبلة الهيدروجينية) Thermonuclear سيتم اختباره في الخريف التالي وأنه من المرجح أن ينجح »(٥) .

كان أحد افتراضات ليدل هارت الأساسية ـ وقد أكد عليه فعلا في كتابه الدفاع عن الغرب أن روسيا لن تقوم بهجوم على أوروبا الغربية إلا في ظروف مواتية استثنائية . ولم تكن هناك حاجة للتأكيد على التجربة الرهيبة التي خاضتها روسيا بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ ، كما أن سياستها فيما بعد الحرب ـ وان تكن مثيرة للشكوك وعدوانية من نواحيها الدبلوماسية ـ يمكن أن تفسر على نحو معقول بأنها ناشئة عن قلق ملح على أمنها . وعندما تخيل ليدل هارت نفسه في محل رئيس الأركان العامة السوفياتية في العام ١٩٥٢ نصح ستالين بعدم المخاطرة بحرب كبرى ما لم يكن واثقا من ابادة بريطانيا بضربة قاضية وشل أي عمل معاكس من جانب الولايات المتحدة لفترة طويلة . ان الأكثر حكمة أن ينتهج سياسة واستراتيجية حربية مموهة ـ أي ما يسميه أعداؤنا « الحرب الباردة » . . . وانتهى في هذا التحليل الروائي الى القول : « . . . انني كجندي سوفياتي أعي وعيا عميقا الحقيقة الأساسية في قول لينين المأثور . . . أن أسلم استراتيجية في الحرب هي أن تؤجل العمليات إلى أن يؤدي الانحلال المعنوي للعدو الى جعل الضربة القاتلة ممكنة وسهلة على السواء » (٦) .

وقد أشار ـ في وقت لاحق ـ والحقيقة لا تزال بالطبع غير مؤكدة ـ الى ان روسيا ، خلال السنوات التي اعقبت الحرب مباشرة ، وقت أن كانت تملك تفوقا ساحقا في القوات التقليدية ، كانت أقل ارتداعا بقنابل اميركا الذرية القليلة نسبيا ، منها بفعل التفكير في حصول قواتها على معرفة مباشرة بالرخاء المادي والحرية اللذين يتمتع بهما مواطنو أوروبا الغربية . « انهم [أي

---

* احدى أبرز مؤسسات الابحاث الاستراتيجية في الولايات المتحدة التي يطلق عليها وصف مستودعات التفكير Think-Tank ولها علاقة وثيقة بوكالة المخابرات المركزية الأميركية . « المترجم » .

(٥) « ب . برودي » الى ليدل هارت ، ٢٦ نيسان ١٩٥٧ ؛ قارن مايكل هوارد : « الاستراتيجيون الكلاسيكيون » . سلسلة أبحاث أدلفي Adelphi Papers رقم ٥٤ ، ص ٢٠ ـ ٢١ . « المترجم » .

(٦) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ١٤٨ ـ ١٥٠ . ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٥ و ٦،١ .

الروس] يخشون من شعبهم ، ويوحي الدليل بأنهم يبذلون جهدا ضخما لمنع الناس من الاختلاط ورؤية التناقض بين الظروف السائدة في الشرق وفي الغرب » . وقد شارك « فوللر » ليدل هارت اعتقاده بأن « الحرب الباردة » تستخدم عمدا لتجنب « حرب ساخنة » . وكان يعتقد أن هدف روسيا هو ألمانيا الغربية . «بعد ذلك فان الأمر اذا وصل الى حد الحرب الحقيقية . . . فانها ستتحاشى التجارب المنطوية على مخاطرة »[٧] .

في نيسان ١٩٥٤ وجه ليدل هارت نقدا ساحقا لسياسة « النظرة الجديدة » New Outlook الأميركية التي أعلنها وزير الخارجية جون فوستر دالاس في بداية ذلك العام نفسه . وكان أساس تلك السياسة أن « الدفاع المحلي ينبغي أن يدعم بردع آخر من قوة الرد الانتقامي الشامل ؛ ومن ثم يعتمد الغرب مبدئيا « على مقدرة كبرى على الرد الانتقامي بوسائل وفي أماكن يختارها الغرب » . وبالاضافة الى هذا كان ريتشارد نيكسون نائب الرئيس الأميركي (آنذاك) قد صرح في آذار (مارس) ١٩٥٤ : « لقد انتهجنا مبدأ جديدا . فبدلا من أن نترك الشيوعيين يقضموننا تدريجيا حتى الموت في جميع أنحاء العالم في حروب صغيرة ، سنعول في المستقبل على قوى قادرة على الرد الانتقامي المتحرك الشامل » .

كان ليدل هارت يعلم جيدا أن السياسة الجديدة قد تنشأ عن الحاجة ، إلى حد اليأس ، إلى احتواء التوسع الشيوعي بتكلفة منخفضة ، ولكنها في رأيه حاولت التوفيق بين ثلاث أفكار لا يمكن التوفيق بينها :

« مفهوم توجيه ضربة قاضية سريعة بواسطة نقل جوي للقنابل الذري الى قلب روسيا .

مفهوم مواجهة غزو تقوم به قوات روسيا البرية الأضخم كثيرا عن طريق استخدام القنابل الذرية التكتيكية الجديدة في جبهة القتال .

مفهوم الاحتواء Containment دون صراع ـ عن طريق توزيع قوة كافية على الأرض تكفل ردعا فعالا للعدوان » .

ومع ذلك كانت الحجة الاقوى بالنسبة لليدل هارت ضد سياسة « النظرة الجديدة » أنها تستند الى وهم : «هل تجرؤ أي حكومة مسؤولة على استخدام القنبلة الذرية ـ اذا وصل الأمر الى هذا الحد ـ كرد على عدوان محلي ومحدود ؟ ان من شأنه أن يكون عملا جنونيا البدء في اطلاق هذا الخطر من عنانه ، وهو خطر كان يخشى أنه يمكن أن يؤدي الى انتحار عام والى نهاية للحضارة »[٨] .

---

(٧) ليدل هارت « دروس من حركات المقاومة ـ الفدائيون واللا عنف » في كتاب « آدام روبرتس » (محررا) استراتيجية الدفاع المدني (١٩٦٧) .

(٨) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٢١ ـ ٢٣ . انظر أيضا ١١/ ١٩٥٥/٥ « فكرة حول مشكلة الدفاع الراهنة عن الدول الغربية » آب .

كذلك فانه اعتقد أنه « بقدر ما تقلل القنبلة الذرية من احتمال نشوب حرب على نطاق كامل ، فانها تزيد من احتمالات الحرب المحدودة التي يتبعها عدوان محلي واسع الانتشار » :

« قد يكون العدوان ذا ايقاع بطيء ـ عملية تدريجية من التعدي . قد تكون ذات عمق محدود انما ذات ايقاع سريع ـ قضمات صغيرة تتم سريعا ، وبالسرعة نفسها تتلوها عروض بالتفاوض . قد تكون ذات كثافة محدودة ـ تسلل متعدد بواسطة مجموعات من الصغر بحيث تشكل بخارا لا يمكن ادراكه » .

كان مقتنعا بأنه ما دامت روسيا قد امتلكت القنبلة الذرية ووسائل اطلاقها فان الغرب لا يستطيع أن يخاطر بنزع السلاح الذري من جانب واحد . ولكنه ظل يحث على تكوين ردع من أصغر حجم ممكن ـ ان السلاح الجوي الاستراتيجي الضخم الذي كان يعمل في الحرب العالمية الثانية أصبح الآن باليا . « النوعية أكثر أهمية من الكمية وعدد صغير نسبيا من الطائرات ذات الاداء المتفوق من شأنه أن يوفر ضمانا أقوى ببلوغ الهدف ـ اذا ما أصبح ذلك ضروريا » . وما أن يتم قبول هذه الفكرة من جانب الحكومات ، سيصبح الطريق مفتوحا أمام توفير القوات التقليدية التي كانت الحاجة ماسة اليها ، وبمستوى مقبول من النفقات . قد تبدو هذه الملاحظات غير أصيلة ، بل حتى شائعة ، ما لم نتذكر أنه في منتصف الخمسينات كانت لا تزال تسود أفكار يقف لها شعر الرأس داخل « البنتاغون » (وزارة الدفاع الأميركية) وفي القيادة العليا للقوات المتحالفة (SHAPE) وفي القيادة الجوية الاستراتيجية (SAC) ، وهي الأفكار التي مفادها أنه اذا أطلق العنان لقاذفات القيادة الجوية الاستراتيجية الاميركية فان باستطاعتها أن تبيد قوة روسيا الهجومية الذرية في غضون أيام قليلة . وكان لا يزال من الضروري تأكيد اقتناع ليدل هارت بأنه لا يمكن أن يكون هناك « فائز » في حرب نووية ، وأن الامل الوحيد في الحفاظ على أوروبا يكمن في تفادي الحرب ، على الرغم من أنه كان رأيا أبعد ما يكون عن الجدة(٩) .

واذا كان التهديد برد انتقامي شامل قد قصد به أن يكون عقيدة استراتيجية متماسكة فانه كان بالتأكيد مستهدفا لانتقادات ليدل هارت . وعلى ذلك فقد أشار « مايكل هوارد » إلى أن هذه العقيدة يمكن النظر اليها ـ ـ على نحو معقول ـ « بوصفها مهمة سياسية ـ أو حتى اتصالا دبلوماسيا ، هي في حد ذاتها مناورة في استراتيجية ردع عسكرية ـ سياسية . وبهذه المعايير يتعين القول بأن هذه السياسة ليست غير « فعالة » . وعلى الرغم من هذا فان اوجه ضعف تلك العقيدة كانت جلية : فان الاحتكار الأميركي للأسلحة الذرية لم يردع الصراع الكوري ، وفي العام ١٩٥٤ أثبتت القوة الذرية المتفوقة عدم ملاءمتها لنتيجة الحرب في الهند الصينية . ولكن الأمر الذي أدى الى تدمير مصداقية هذه العقيدة بشكل عام حاسم في نهاية الخمسينات كان استهداف

---

(٩) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٢٣ ـ ٢٥ . انظر أيضا ١٤/١١/١٩٥٧ « استراتيجية في بوتقة الانصهار » ١٦ كانون الثاني .

أميركا الجديد لضربة وقائية أو انتقامية بواسطة القاذفات والصواريخ الروسية العابرة للقارات . مع حدوث هذا التطور المزعج ، دخلت عبارة جديدة لغة نظرية الردع ؛ أعني الحاجة الى « مقدرة توجيه الضربة الثانية » . ومن ثم فان عقيدة الردع ستكون معتمدة بصورة حرجة على الحسابات التقنية « التي تمتد بعيدا فيما وراء الحدود التقليدية للتفكير الاستراتيجي » ، والتي كان من الصعب للغاية على المحللين المستقلين أمثال ليدل هارت أن يعلقوا عليها بأي درجة من التمكن[١٠] .

وكان ليدل هارت ـ في محاولته لتصور الكيفية التي يمكن أن يكون عليها صراع أوروبي ينشب بين الدول الذرية ـ قد غير فكره تماما في جانب واحد مهم منذ نشر كتابه الدفاع عن الغرب ، على الرغم من أن هذا التغيير كان مشروعا نظرا لتحول الميزان العسكري بين روسيا وأمـيركا ، ونظرا لتراكم المخزون من الأسلحة الذرية في كلا الجانبين . فعلى حين كان قد انتقد بعنف ـ في الكتاب الأول ـ وجهة النظر السائدة القائلة بأنه من المحتم في حالة نشوب حرب ذرية أن تكون قصيرة، فانه ينحو في كتابه ردع أم دفاع ؟ باللائمة على الاستراتيجيين الغربيين لتأسيسهم مناوراتهم ومبارياتهم الحربية على الفكرة القديمة عن حرب طويلة . « انهم يحاولون ـ بكل اتزان ـ أن يحددوا مسار العمليات من ساعة الصفر + ٣٠ [يوما] ، أو ساعة الصفر + ٦٠ أو ٩٠ يوما . وهذا دليل مثير للدهشة على استمرار النفوذ الملح للعادة ـ ولكن هذا أمر لا معنى له ! » وكان الفيلد مارشال مونتغمري مخطئاً في نظر ليدل هارت لالقائه محاضرة بعنوان « نظرة عبر نافذة الى الحرب العالمية الثالثة » استخدم فيها مرات عديدة اصطلاحات تقليدية مثل « كسب المعركة » و « كسب الحرب » ، وتحدث عن « الوصول بالحرب إلى نهاية ناجحة » . وعلى النقيض ذكر ليدل هارت ـ موافقا ـ أقوال « واحد من أكثر القادة الجويين حدة في العقل » (ربما كان يعني « سليسـور ») استطاع أن يبدد شعور الرضى لدى مجموعة من القادة البحريين والعسكريين بأن أشار الى أنه « لا فائدة من محاولة التخطيط لأي شيء فيما بعد الساعات الست الأولى لحرب أخـرى »[١١] . وعلى خلاف « هيرمان كاهن »* Herman Kahn لم يكن ليدل هارت مستعدا « للتفكير فيما لا يمكن التفكير فيه » : فقد كان أي استخدام للأسلحة الذرية الاستراتيجية يعني تخليا عن العقل .

بحلول العام ١٩٦٠ وقع ليدل هارت ـ شأنه شأن معلقين استراتيجيين غربيين آخرين ـ نهبا للحيرة أمام اعتماد قوات حلف الأطلسي المتزايد على الأسلحة النووية التكتيكية . وقد سلم من حيث المبدأ بأن هناك كثيراً يقال عن سياسة « الردع التدريجي » ، أي ابقاء استخدام القنابل الذرية ملجأ أخيرا مع تطبيق الحد الأدنى الضروري من القوة لصد أي عمل عدواني ، ولابقاء الصراع

---

(١٠) « مايكل هوارد » : « الاستراتيجيون التقليديون » . المصدر المذكور ، ص . ص . ٢٢ ـ ٢٤ .

(١١) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٥٥ ـ ٧٥ . انظر أيضا « بلاكيت » الأسلحة الذرية والعلاقات بين الشرق والغرب (١٩٥٦) ص . ص . ١٦ ـ ١٧ .

* (١٩٢٢ ـ) كبير المستشارين الفنيين في لجنة الطاقة الذرية . من علماء الدراسات المستقبلية البارزين في الولايات المتحدة ، له كتاب بعنوان « التفكير فيما لا يمكن التفكير فيه » . « المترجم » .

على الصعيد التكتيكي بتوجيه الضربات ضد القوات الأرضية وليس الى المدن . ومع ذلك فانه تشكك فيا اذا كان يمكن تفادي التصعيد إلى حرب نووية شاملة ما لم يمكن قصر استخدام الأسلحة النووية التكتيكية على ميدان القتال المباشر . وفي فصل بعنوان « هل الأسلحة الذرية الصغيرة هي الرد ؟ » قدم بعناية مزاياها ومساوئها قبل أن ينتهي إلى أن المخاطر أكبر من الفوائد . ولم يكن مقتنعا بأن الأسلحة الذرية التكتيكية تلائم الدفاع ، ولكن اعتبارا أوسع وأشد مدعاة للاضطراب هو أن السيطرة ستصبح لا مركزية أكثر فأكثر الى أن تمتلك كتائب المشاة هذه الأسلحة . واستنتج من حيث النظرية :

« أن هذه الأسلحة ذات المردود الصغير تقدم فرصة أفضل لقصر العمل النووي على منطقة المعركة ومن ثم تحديد مداها ونطاق تدميريتها ـ لما فيه فائدة البشرية والحفاظ على الحضارة . ولكن ما أن يستخدم أي نوع من السلاح الذري استخداما فعليا ، حتى يصبح من الممكن أن تنتشر بكل سهولة بدرجات سريعة ، وأن تفضي الى حرب نووية شاملة . ان دروس الخبرة فيا يتعلق بالحوافز الانفعالية للرجال في الحرب أقل تهدئة من النظرية ـ النظرية التكتيكية التي أفضت إلى إنتاج هذه الأسلحة »[١٢] .

كان ليدل هارت معارضا للحكمة العسكرية التقليدية ، التي كانت سائدة في أواخر الخمسينات وفي أوائل الستينات . فقد ذهب البريجادير « مايكل كارفر » Michael Carver ـ على سبيل المثال ـ إلى أن الأسلحة الذرية التكتيكية هي قسم جوهري من الردع وتشكل « الحلقة الحقيقية بين الدرع والردع » . وقد رد ليدل هارت بأن هذه الأسلحة هي بمثابة « أفيال بيضاء » طالما أنه لا يمكن استخدامها . ومن المثير للدهشة أنه كان يشاركه هذا الرأي « برنارد برودي » الذي كان قد أبدى شكوكا قوية فيا يتعلق بحكمة السماح لقوات حلف الأطلسي بأن تصبح معتمدة على الأسلحة الذرية التكتيكية ، بينما أشار « توماس شيللنغ » Thomas Schelling الى أن الفاصل بين الأسلحة التقليدية والذرية هو واحد من الفروق « الطبيعية » النادرة التي تجعل المساومة الضمنية ممكنة عند تحديد الحرب . وقد قدر للمجادلات حول دور الأسلحة النووية التكتيكية أن تستمر طوال الستينات ، حيث كان التعارض الواضح بين المخاطر وبين عدم شعبية القوات التقليدية الضخمة ونفقاتها الباهظة . وكما يلاحظ « مايكل هوارد » ساخرا : « ان مجرد انهاك المشتركين (في المجادلات) هو وحده الذي يحول دون استمرارها أكثر من هذا » .[١٣]

تكمن خلف المجادلات حول ادخال الأسلحة النووية التكتيكية مسألة أضخم حتى منها : هل لا تزال حرب محدودة باسلحة تقليدية ممكنة في أوروبا في العصر النووي ؟ كان أولئك الذين

---

(١٢) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٥٨ ـ ٦١ ، ٧٤ ـ ٨١ .

(١٣) « مايكل كارفر » الى ليدل هارت ، ١٠ تشرين الأول ؛ ليدل هارت إلى « م . كارفر » ١٣ تشرين الأول ١٩٥٨ . « م . هوارد » : الاستراتيجيون التقليديون » ص ٢٥ .

يفكرون على طريقة العميد « كارفر » يضعون ثقتهم كلها في الردع ويتشككون في امكانية قيام حرب محدودة ، على حين كان ليدل هارت مقتنعا بأنها يمكن أن تحدث لو أن حلف الأطلسي كان يملك النوع الملائم من القوات التقليدية ولو ظلت الأسلحة النووية التكتيكية خاضعة لرقابة سياسية صارمة . ومن هنا كانت ملاءمة عنوان كتابه ردع أم دفاع ؟ وفي فصل بعنوان « هل يستطيع حلف الأطلسي أن يحمينا اليوم؟» (ولم يكن الموقف قد تغير جذريا في منتصف السبعينات) ، لم يجد صعوبة في اظهار أوجه العجز والعيوب المثيرة للأسى في قوات حلف الأطلسي الأرضية :

« تختلف الفرق الموجودة من حيث الحجم والحركة والمعدات وقوة الأسلحة . ويختلف الوقت اللازم للتعبئة في الجيوش الوطنية المختلفة من ثلاثة أيام إلى خمسة وأربعين يوما . والاختلاف في أنواع السلاح وأنواع المركبات وتنظيم الامدادات يشكل عائقا كبيرا أمام المرونة الاستراتيجية ـ مما يجعل من العسير تحريك الفرق من قطاع الى آخر . ومن الصعب أن نتخيل أن باستطاعة مثل هذه القوة المختلطة أن تحتفظ بمقاومة طويلة ، اذا كانت أيضا أقل عددا بصورة هائلة » .

وكانت الحقيقة الاساسية ـ كما أدركها ادراكا صحيحا ـ أنه منذ أواخر الأربعينات وسلامة « أوروبا الحرة » تعتمد على الأثر الرادع للقيادة الجوية الاستراتيجية ـ على قدرتها على الرد على أي عدوان روسي على الأرض بالانتقام بالقنابل الذرية ضد الوطن الروسي . ولم يسهم الانفاق الضخم على قوات حلف الأطلسي الأرضية وعلى سلاحه الجوي التكتيكي إلا بالقليل ، أو هو لم يسهم اطلاقا ، في الردع[١٤] . ومع ذلك فانه كان في الحقيقة يؤيد عقيدة الرد الانتقامي الشامل . ولكن اسهام ليدل هارت الرئيسي للمشكلة في كتاب ردع أم دفاع ؟ هو وصفه التفصيلي للتنظيم والأسلحة والتكتيكات التي من شأنها أن تجعل قوات حلف الأطلسي قادرة على خوض حرب تقليدية محدودة . وكان جزء مهم من مقولته أنه منذ حروب نابليون والأمر يحتاج باطراد إلى مدافعين أقل عددا للاحتفاظ بطول معين من الجبهة . واستنتاجا من الخبرة الألمانية في الحرب العالمية الثانية ، حينما كان الحلفاء ـ حتى مع سيطرتهم على الجو ـ بحاجة إلى تفوق بنسبة خمسة الى واحد لاختراق الخطوط الألمانية ، ذهب الى أن باستطاعة الغرب أن يكوّن بسهولة الفرق الكافية للدفاع عن جبهة حلف الأطلسي الوسطى ضد أقوى القوات التي يمكن للروس استخدامها .

واقترح ليدل هارت ـ للتصدي للأشكال المحدودة من العدوان ـ مثل « القضمات » الحدودية والانتفاضات الداخلية التي تثار من الخارج ـ خلق قوة دركية gendermerie ضخمة تساندها قوات متحركة ذات كفاءة عالية وفي حالة استعداد دائم ـ مثل فرق الاطفاء . ان جيشا صغيرا نسبيا من المحترفين يكون أنسب كثيرا من جيش من المجندين لفترة خدمة قصيرة مثل دور

---

(١٤) « م . كارفر » الى ليدل هارت ، ٢١ تشرين الأول ١٩٥٨ . ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ١٣٤ ـ ١٣٦

« مكافحة الحريق » هذا . ويمكن أن تلحق به « قوة متفوقة من نوع الميليشيا ، ذات قاعدة محلية » . وقد قبل في هذا الفصل فعلا أن التكتيكات والحركة والتشكيلات والتنظيمات لا بد أن تكون قادرة على التكيف مع امكانية استخدام الأسلحة النووية بصورة فجائية . فقد كان يتطلع إلى « نموذج جديد » لجيش يتألف من نوعين من القوات النشطة :

« يتألف العنصر الضارب من عدد من الفرق المدرعة التي تسهل ادارتها ، والتي تركب جميعها مركبات قادرة على السير فوق مختلف انواع الاراضي ليمكنها أن تتحرك خارج الطرق . وينبغي تدريبها على القيام بعمليات وهي في حالة تفرق محكوم مثل سرب دبابير ، وتشكل هدفا صغيرا بالنسبة لقنبلة ذرية أو قذيفة نووية اذا ما استخدمت مثل هذه الوسائل .

أما النوع الآخر ـ للعمل البوليسي والدفاع المتحرك ـ فيتألف من فرق من « المشاة الخفيفة » . وستكون قادرة أيضا بصورة كاملة على التحرك خارج الطرق ـ ولكن ليس عن طريق المكننة . وإنما ستأتي قدرتها على الحركة المذكورة من خفة تجهيزاتها » .

وكان الأكثر أصالة من هذا فكرته عن تأمين اضافي توفره قواتها من نوع الميليشيا (شكل متفوق من الحرس الوطني) ، منظمة لتقاتل في مواطنها ولتموين ذاتها من المخازن المحلية الموزعة في مخابىء تحت الارض . ومن شأن مثل هذه القوات أن تكون اقتصادية من حيث النقل ، ومن شأنها أيضا أن توفر هدفا أقل حجما من التشكيلات النظامية ؛ ومن شأنها أن تكون أقل عرضة للاعتراض ؛ وأن تصبح فعالة بعد تدريب أقصر بكثير[١٥] .

كانت هذه المقترحات متمشية بصورة ملحوظة مع تصورات ليدل هارت المبكرة عن جيش من « نموذج جديد » (فيما عدا أنه كان قد أصبح اكثر اهتماما بالمشاة منه بالدبابات) ، ومتمشية أيضا مع نظرته العامة في الحرب . انما ساعدت الأسلحة النووية فقط على تدعيم الرأي الذي كان قد تمسك به طوال الحرب العالمية الثانية ، أعني الرأي القائل بأن « التوجه الى كسب الحرب ، وجعل النصر هدفك ، ليس أكثر من حالة جنون » . ليس هناك معنى حتى للتخطيط لمثل هذه الحرب : « فسيكون التدمير والفوضى من الضخامة خلال ساعات قليلة حتى أن الحرب لن تستمر بأي معنى منظم » .

وقد لاحظ « مايكل هوارد » ـ في مراجعة لهذا الكتاب ـ وجود فجوة في تفكير ليدل هارت عند هذه النقطة ، ذلك أنه اذا كان نظام دفاعي تقليدي محض قد نجح فعلا في صد هجوم تقليدي دون أن تشن حرب ذرية ، فان هناك على الأقل احتمالا منطقيا بأن تنشأ حرب طويلة من نمط الحرب الكورية[١٦] . ولما كانت بلدان حلف الأطلسي قد أثبتت آنذاك وطوال الوقت أنها غير مستعدة

(١٥) المصدر السابق ، ص . ص . ٦٢ - ٦٧ ، ٩٤ - ٩٦ .

(١٦) « م . هوارد » في مجلة Survival عدد ايلول ـ تشرين أول ١٩٦٠ .

لتوفير أنواع القوات التقليدية وقوات الاحتياطي التي اقترحها ليدل هارت ، فانه ينبغي علينا أن نكون ممتنين لأن هذه الأفكار لم توضع موضع الاختبار .

وثمة جانب آخر من مسألة الدفاع كان ليدل هارت فيه متمشيا بصورة ملحوظة مع تفكيره العام ، وهو تأييده لاستخدام الغاز ، الذي وصفه في كتاب ردع أم دفاع ؟ بأنه بديل أكثر مدعاة للأمل عن الأسلحة الذرية الأوتوماتيكية كوسيلة فعالة ، ولكن غير انتحارية ، للدفاع . ومن المؤكد أنه كان على صواب في تأكيده أن الاخفاق في الاستفادة كثيرا من الغاز في الحرب منذ العام ١٩١٨ كان راجعا إلى تحفظ مهني ، وبالمثل إلى خوف من الانتقام . ولما كان هو نفسه قد تعرض للاختناق بالغاز في معركة « السوم » في العام ١٩١٦ فقد كان محقا بشكل خاص في آرائه حول هذه المسألة المشحونة بانفعالات حادة ، والتي شكلت مثلا على قناعته بأن لإصابات الغاز فرصة أفضل كثيرا في عيش حياة نشطة والوصول إلى عمر متقدم ، مما هو الحال بالنسبة لأولئك الذين يصابون بجراح نتيجة نيران القنابل ، أو - أسوأ من هذا - نتيجة الأسلحة النووية . وقد وجه الانتباه إلى تطور الغازات غير الفتاكة التي كان باستطاعتها - بحلول نهاية الحرب العالمية الثانية - أن تتغلغل في الدبابات المتقدمة وتصيب أطقمها في غضون ثوان . وعلى حين أن غاز الخردل لم يكن حاسما الى هذا الحد في وقت الهجمات ، فانه كان ذا قدرة هائلة على التعجيز والتأخير :

« ان من العبث خاصة أن نتجاهل الاستخدام الدفاعي لغاز الخردل ، وهو أكثر الأسلحة عرقلة وأن يكن أقلها فتكا ، بينما نتبنى استخدام الأسلحة النووية - التي هي أسلحة للمذابح الشاملة ، وننتهك قواعد الحرب القانونية في مجالات أكثر من تلك التي ينتهكها غاز الخردل الذي هو سلاح ذو نزعة انسانية نسبيا » .

كذلك كان يشير في مرات عديدة - في كتاباته وفي أحاديثه - إلى غاز أعصاب جديد نجح في التجربة في جعل قطة تفزع من فأر[17] . حقا انه السلاح الأكمل لفيلسوف الحرب المحدودة ذي النزعة الانسانية !

لا بد للمرء - حين يفكر في السبب الذي من أجله لم تتبن قوات حلف الأطلسي (وكذلك القوات السوفياتية) الغاز كسلاح تكتيكي - أن يسلم بأن تجربة الأنواع من الغازات التي استخدمت في الحرب العالمية الاولى وخاصة « الكلور » و « الفسجين » (كلوريد الكربونيل) خلفت وراءها تركة من النفور والرعب - وهي مشاعر جددها استخدام الايطاليين الغازات في الحرب الحبشية . وبالاضافة الى الحاجز الانفعالي ، يمكن ادراك حجتين مهمتين ضد الغاز . وتتعلق الحجة الأولى بالامكانية العملية للغاز على الصعيد التكتيكي . فقد كانت هناك مناسبات عديدة في الحرب العالمية الأولى إما كان الغاز فيها غير فعال على الأطلاق ، أو أنه

---

(١٧) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٦٢ ، ٨٢ - ٨٨

هب للخلف فعليا وانتشر بين القوات المهاجمة التي تستخدمه . وكان بروفيسور « بلاكيت » واحدا من منتقدي ليدل هارت في هذا الموضوع ، وقد أشار الى ان الغاز كان شديد الاعتماد على الظروف المناخية ، وأنه ـ بالاضافة الى هذا ـ لما كان المهاجم يمكن أن يختار ظروفا مواتية ، فانه يمكن بالفعل أن يشل حركة المدافع ـ المفترض أنه الاتحاد السوفياتي (المهاجم) والغرب (المدافع) على التوالي . كذلك وجد العميد « كارفر » حجج ليدل هارت غير مقنعة : ان الخبرة التاريخية تشير بالنسبة اليه الى أنه يمكن ايجاد أسلحة مضادة سريعا ، ولم يكن يعتقد بامكان استخدام الغاز لتحقيق مفاجأة على نطاق واسع . ومن الناحية الأخرى ينبغي أن نذكر أن الجنرال « فوللر » تبنى بالكامل أفكار ليدل هارت في هذا الموضوع[١٨] . ومع ذلك فان عقبة أكبر كانت تتمثل ببساطة في حقيقة أن الغاز (والأسلحة الكيماوية بوجه عام) كانت تشكل لغزا مخيفا على غرار الصندوق السحري الذي ما أن يفتح حتى تنطلق منه عناصر رهيبة حقا في آثارها التي تستعصي على السيطرة والتي تدوم طويلا . لم يواجه ليدل هارت مواجهة صريحة مشكلة أن هذا التصعيد كان ممكنا بالنسبة لحرب الغازات والحرب الكيماوية تماماً كما كان ممكنا في حرب نووية .

كما أشار « آلاستير بوكانا» في المراجعة التي أشرنا اليها في بداية هذا الفصل ، فانه بالنسبة للمسائل الاستراتيجية الكبرى في الخمسينات لم يكن يمكن اعتبار ليدل هارت طفلا رهيبا ، حيث أن وجهة نظره النقدية كانت في الجانب الأكبر منها تقوم على الحس السليم ويشارك في الاعتقاد بها كثيرون . وعدم تقليديته أكثر وضوحا في مواقفه من حرب العصابات والمقاومة السلبية . هنا نجد أن نظرته العامة ـ للوهلة الأولى ـ مثيرة للدهشة جدا . فلربما كان من الممكن أن نتوقع منه ـ كأحد معجبي « ت . إ . لورانس » والداعية لاستراتيجية التقرب غير المباشر ـ ان يكون متعاطفا نحو عمليات العصابات ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . وكان قد أجاب فعلا بالسلب القاطع في كتابه الدفاع عن الغرب على السؤال « هل كنا حكماء في دعم حركات المقاومة » ؟ (في الحرب العالمية الثانية) . ولكي يشكك بحكمة سياسة « تشرشل » الخاصة بتشديد نشاط الأنصار في المناطق الاوروبية تحت احتلال النازي ، قال انها سياسة تبدو مفتقرة الى العزم وتكاد تكون غير وطنية . وبينما لم ينكر أن قوات المقاومة المسلحة سببت ارهاقا شديدا للألمان ، تشكك فيما اذا كان المجهود الذي تقوم به المقاومة يستحق أن يبذل إذا نظر إليه على نطاق أوسع . فقد كان يعتقد أن تأثير عمليات العصابات يكون كبيرا جدا في نسبيته حسب المدى الذي يرتبط فيه بعمليات جيش نظامي قوي يشغل جبهة العدو ويجبره على جلب احتياطيه . « انهم (أي العصابات) نادرا ما يصبحون أكثر من عامل مضايقة ما لم يترافقوا مع هجوم قوي حقيقي ـ او تهديد وشيك بهجوم قوي ـ يجتذب الاهتمام الرئيسي للعدو » . (لقد استغل ت . إ . لورانس بالطبع هذه الميزة) . كما كان موقفه مماثلا ـ بصورة ملحوظة ـ لموقف خصمه المتوحش « كلاوزفيتز » في النظر الى النشاط الفدائي

---

(١٨) « بلاكيت » الى ليدل هارت ، ٢٨ أيلول ، وليدل هارت الى « بلاكيت » ، أول تشرين الأول ١٩٥٩ . محادثة شخصية مع جنرال « فوللر » حوالي العام ١٩٦٢ .

أولا وقبل كل شيء من زاوية نظر الضابط النظامي . وكما رأينا في سياقات أخرى كانت عواطف ليدل هارت مع الجيوش النظامية ومع التقاليد المهنية الشريفة التي كانت مزدهرة بين ضباط القارة (الأوروبية) . كانت عواطفه تتجه بوضوح إلى قوات الاحتلال الألماني اكثر مما تتجه نحو الأنصار في الحرب العالمية الثانية . فكان يرى أن نشاط الأنصار ـ وهو لم يكن يميز بين الأنواع المختلفة من الحرب اللانظامية ـ هو في أغلب الأحوال ذو نتائج عكسية من حيث أنه يؤدي كاستفزاز إلى أعمال انتقامية أقسى بكثير من الأضرار التي يلحقها بالعدو : « لقد سببت الأضرار المادية التي أحدثها رجال العصابات مباشرة ! وغير مباشرة من خلال الأعمال الانتقامية التي نشأ عنها ـ معاناة كبيرة بين صفوف شعبها ، وأصبحت في النهاية قيدا على الشفاء بعد التحرير » .

ومع ذلك فقد كان أخطر اعتراضاته يقوم على أسس أخلاقية . فلم تكن المقاومة المسلحة تجذب محبي الحرية وحدها ، انما كانت تجذب أيضا كثيرين من ذوي السمعة السيئة ، الذين تلقوا تصريحا بادخال شرورهم وأحقادهم السلبية تحت ستار حب الوطن .

« الأسوأ من هذا كان تأثيرها اللا أخلاقي الأوسع نطاقا على الجيل الشاب ككل . لقد علمتهم تحدي السلطة وكسر القواعد الخاصة بالأخلاقيات المدنية في الحرب ضد قوات الاحتلال . وترك هذا عدم احترام للقانون والنظام استمر بصورة حتمية بعد أن كان الغزاة قد رحلوا » .

ونقيضا لذلك كان ليدل هارت شديد الاعجاب بالمعلومات التي خرجت من بلدان مثل النرويج والدانمرك وهولندا بعد الحرب العالمية الثانية ومفادها أن المقاومة السلمية (غير العنيفة) كانت أكثر فعالية ، الى جانب خلوها من الآثار المرضية السيئة . لقد عرف النازيون كيف يتصدون للعنف ، ولكنهم أصيبوا بارتباك ازاء أشكال المعارضة الأكثر دهاء[١٩] .

قدم ليدل هارت معالجة متعاطفة في كتاب **ردع أم دفاع ؟** للأفكار الراديكالية حقا التي عبر عنها سير « ستيفن كنغ هول » Stephen King—Hall في كتابه **الدفاع في العصر النووي** Defence in Nuclear Age وكان الأخير قد انتهج بجرأة خط المعارضة للأسلحة النووية حتى النهاية المنطقية لهذه المعارضة : لا يتعين على بريطانيا فقط أن تتخلى بمفردها عن « القوة الرادعة » ، بل يتعين عليها أيضا أن تتوقف عن الارتكان على الغطاء النووي الأميركي . واقترح « كنغ ـ هول » ـ من أجل مواجهة احتمال غزو روسي ـ وهو ما اعترف بأنه أمر بعيد الاحتمال ـ سياسة دفاعية تقوم على المقاومة السلمية . ولم يكن يعني بها أن تكون مقاومة سلبية بالمعنى الحرفي للكلمة ـ على غرار السياسة التي مارسها « غاندي » ضد البريطانيين ـ انما قصد بها أن تشمل الحرب السياسية التي تشن بروح هجومية بقصد نقل صورة عن مزايا طريقة الحياة الغربية إلى شعوب البلدان الشيوعية .

---

(١٩) الدفاع عن الغرب ، ص . ص . ٥٣ ـ ٥٧ .

امتدح ليدل هارت سياسة « كنغ ـ هول » على أسس أخلاقية ولم يستبعد كلية امكانية تطبيقها عملياً. ومع ذلك فانه أشار ـ عن حق ـ الى أن المقاومة السلمية انما كانت تنحو نحو العمل ضد خصوم لهم قواعد سلوك أخلاقية مماثلة في أساسها (ولربما أضاف أنه في حالة البريطانيين في الهند كان هناك قدر من التعاطف مع المقاومة) . ولم يكن « ستالين » مستهدفا لمثل هذه التكتيكات ، بينما هي أثارت لدى هتلر الدافع إلى أن يدوس بقدميه على الضعفاء الجديرين بالاحتقار . ومع ذلك احتفظ ليدل هارت بوجهين جديين من الشك في شأن المقاومة السلمية كسياسة قومية ، بوصفها متميزة عن سياسة تنتهجها حركة دينية أو سياسية متماسكة . أولهما اذا كان يمكن اقناع الأمة ككل ـ أو اقناع أي حكومة محتملة ـ بالشروع في تجربة ثورة كهذه . وثانيهما اذا كان يمكن لمثل هذه السياسة ـ اذا انتهجت ـ أن تنجح ، طالما أن فعالية المقاومة السلمية تتحطم اذا كان قسم ـ حتى ولو كان صغيرا ـ من المجتمع يخدم سياسة العدو ، وذلك من خلال الضعف أو المصلحة الأنانية أو المشاكسة .

« تميل مثل هذه الغرائز لأن تكون أكثر سيطرة في أمة ما منها في حركة طائفية أو روحية . وبالمقارنة فان جيشا ما يكون أكثر اعتمادا على عناصره الأقوى ، بينما تكون قوة غير مسلحة أكثر اعتمادا على عناصرها الأضعف . وجعل المقاومة السلمية شأنا قوميا مهمة بالغة الصعوبة : ربما أهم شيء ينبغي عمله هو تربية الشعب واقناع الناس بأنها سياسة قابلة للتنفيذ »[٢٠]

وفي معالجة موسعة لمقال حرب العصابات والمقاومة السلمية الذي نشره في العام ١٩٦٧ ـ والذي ذكرنا فقرات منه أعلاه ـ قدم ليدل هارت عرضا جيدا لتطور حرب العصابات الحديثة من ت . إ . لورانس وماو الى الحملات المعاصرة في جنوب شرق آسيا والجزائر وقبرص وكوبا . وقد ذهب الى أن أحد العوامل الاساسية هو نسبة المساحة إلى القوات . وأشار إلى أنه في الماضي كانت حرب العصابات سلاح الجانب الضعيف ، وبالتالي فانها كانت دفاعية في الأساس ، ولكنها قد تتطور في العصر الذري بصورة مطردة كشكل من أشكال العدوان يتلاءم مع استغلال وضع ينطوي على جمود نووي . ومن المثير للفضول أنه ـ رغم ذلك ـ عزا الاتساع الهائل للحرب التخريبية في السنوات العشرين الأخيرة الى حد كبير إلى سياسة « تشرشل » الخاصة باثارة واشعال الثورة الشعبية في البلدان التي كان يحتلها النازي ، وبعد ذلك في البلدان التي كان يحتلها اليابانيون . وكان هذا بمثابة تجاهل للتاريخ الطويل لعمليات العصابات ضد الحكم الامبريالي في القرن التاسع عشر ، التي اكتسبت قوة دفع في بلدان كثيرة بعد الحرب العالمية الأولى . لقد كان ليدل هارت يعلم جيدا أن عمليات العصابات الناجحة التي نفذها «ماو تسي تونغ» كانت قد بدأت في أواخر العشرينات . وأن الغزو الياباني لقسم كبير من الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية في الشرق الأقصى ، ومعاملة اليابانيين القاسية للسكان قد فعلا الكثير في تأجيج الحرب

(٢٠) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٢١٨ ـ ٢٢١ . ليدل هارت في استراتيجية الدفاع المدني ، ص ٢٠٦ .

الثورية، أكثر مما فعلته الحكومات الامبريالية المهزومة ، التي أصبحت هي الهدف بعد العام ١٩٤٥ . ولا يستطيع المرء إلا أن يعزو هذا التحريف للتاريخ إلى شعوره بالمرارة في أقصى درجاتها تجاه « تشرشل » .

كانت مناقشة ليدل هارت لحرب العصابات في مجملها ضيقة للغاية ومفرطة في محاولتها تحطيم الأفكار السائدة ، لأنها كانت تأخذ بعين الاعتبار أساسا الدول - الأمم الراسخة التي اجتاحها النازيون في الحرب العالمية الثانية . ان بلدا مثل الدنمرك كان يأمل في التحرير بالنهاية على يد الجيوش النظامية للحلفاء مع بذل الحد الأدنى من الجهد الذاتي في صورة نشاطات عصابات ، ولكن هذا الخيار لم يكن متاحا للشعوب الخاضعة التي كانت تسعى إلى الحكم الذاتي الوطني ليس فقط من الغازي الياباني ، انما أيضا من سادتها الامبرياليين البريطانيين أو الفرنسيين أو الهولنديين . كذلك كان تحليل ليدل هارت للأفكار السائدة في أنه تجاهل الى حد كبير قوة القومية التي كانت تمد حرب العصابات بحركيتها (ديناميتها) الثورية . ربما لم يكن زعماء مثل « هوتشي منه » و « جياب » و « غريفاس » و « كاسترو » معنيين كثيرا بالآثار السيئة الطويلة الأمد التي يمكن أن تنشأ عن حملاتهم ، بالمقارنة بتصميمهم على طرد قوات الاحتلال الاجنبي وتحقيق الاستقلال الوطني(٢١) .

وفي مقاله المنشور في العام ١٩٦٧ ، في مجلد بعنوان استراتيجية الدفاع المدني ، أضاف ليدل هارت قسما جديرا بالاهتمام عن « استراتيجية المقاومة » ، نادى فيه كدأبه بالوسائل غير المباشرة أكثر من العمل الهجومي المباشر والرفض الصريح لتنفيذ أوامر دولة الاحتلال . وهو لم يدع الأصالة فيما يتعلق بالفكرة القائلة بأن عدم التعاون ينبغي اخفاؤه وراء إذعان ظاهري . ومن شأن استراتيجية كهذه أن تصبح أكثر ارباكا اذا مورست بابتسامة توحي بأن الأخطار هي نتيجة سوء فهم أو غباء ؛ بعبارة أخرى الوسائل عكس البطولة التي كان ينتهجها الجندي الأسطوري الطيب « شفايك »* Schweig . وفي رأي ليدل هارت أن هذا النوع الخفي من المقاومة « لا يمكن حقا التصدي له بأسلوب القوة ، بل الحقيقة أنه لا شيء يستطيع التصدي له . وفي الواقع لا يوجد رد على مثل هذه التكتيكات البطيئة الحركة » .

ولخص ليدل هارت الأهداف الأساسية لاستراتيجية الدفاع المدني على النحو التالي :

« كلما أمكن اجبار قوات الاحتلال على الانتشار على نطاق واسع ، كلما كانت مشكلاتها أعقد .

---

(٢١) ليدل هارت ، المصدر السابق ، ص . ص . ١٩٦ - ٢٠٥ .

* شفايك هو بطل قصة الاديب التشيكوسلوفاكي « ياروسلاف هاسيك » ، التي حملت اسم « الجندي الطيب شفايك وما اصابه في الحرب العالمية » . ولقد كان « شفايك الجندي التشيكي الموالي الوحيد في الجيش النمساوي خلال تلك الحرب ، وتم تسريحه من الخدمة في احدى فترات الحرب نظرا لانه اعتبر « معتوها » .

وانني لأقول أن هذا ينبغي أن يكون المبدأ الهادي في التخطيط للدفاع المدني ، وينبغي أن تبذل محاولة لتبني استراتيجيات ووسائل تسبب أقصى حد من الارهاق وبالتالي الافراط في الانتشار . وكما هو الحال في حرب العصابات ، كذلك في الدفاع المدني ، ينطبق المبدأ القائل بأنه على المرء أن يهدف إلى تعدد الأعمال الهجومية ـ الهجومية بالمعنى السيكولوجي ، ويقترن هذا بكثرة الاحتكاك البشري مع قوات الاحتلال » .

ولقد كان يعني ضمنيا في هذه الجملة الأخيرة تصورا كان ماو تسي تونغ قد مارسه بنجاح مع فكرته القائلة بأنه ينبغي تحويل الأسرى إلى الشيوعية بمعاملة تنطوي على الاحترام . فعلى حين تميل الأشكال العنيفة للمقاومة نحو الافتراض بأن كل أعضاء قوات الاحتلال هم أعداء ، ينبغي ان ينظر اليهم الدفاع المدني ككائنات بشرية مثلنا ونشر هذا الشعور الانساني على نطاق واسع ، وبالتالي إضعاف جانب التضامن والسلطة لدى الخصم . واعترف بأن هناك طريقا طويلا أمام أي حكومة قبل ان تستطيع رؤ ية ملاءمة فكرة الدفاع المدني ، على الرغم من أنه وجد قدرا من الوعي بامكانياتها في البلدان الاسكندنافية . « لعله كلما زاد ادراك الحكومات لعجزها عن الدفاع العسكري الفعال ، زاد اتجاهها لأن تبدأ في أخذ الدفاع المدني السلمي مأخذ الجد »[٢٢] .

قدم البروفيسور « توماس ستيللنخ » تعليقين عميقين حينما طرح بعض الأسئلة عن المقالات التي نشرت مجمعة في كتاب استراتيجية الدفاع المدني . فقد أشار ـ أولا ـ الى أنه من السهل نسبيا الاقناع بقضية نجاح المقاومة المدنية السلمية كشكل من أشكال الاحتجاج أو كأسلوب مساومة يفضي إلى تحسين الأوضاع أو الى حل وسط أو اتفاق . ولكن الكتاب لم يكن عن المقاومة المدنية كأسلوب احتجاج ، كوسيلة تحسين الأوضاع ، كوسيلة لحرمان الغازي من بعض ما يريده ووسيلة للاتفاق معه . انما كان الكتاب يسعى لاثبات القضية الأصعب كثيرا ، وهي أن هذه الاستراتيجية يمكن ـ فعلا ـ أن تفوز ، بمعنى أنها يمكن أن تجبر غازيا على الانسحاب أو تثنيه عن الغزو مسبقا . وقد تشكك « ستيللنخ » ـ وربما كان يمكن أن يسلم ليدل هارت معه بهذه النقطة ـ فيما اذا كان الدفاع السلمي يمكن بذاته أن يجبر طاغية على التقهقر أو الانسحاب حقا « على الأقل خلال الفترة الزمنية التي توحي بها كلمة « الدفاع » . »

أما سؤ ال « ستيللنخ » الثاني والأكثر خطورة فكان : « هل هناك أي سبب يدعو للافتراض بأن أساليب المقاومة السلمية أكثر منالا للأشخاص الخيرين منها للأشخاص السيئين ، للقضايا العادلة منها للقضايا الظالمة ، للديمقراطيين منها للديماغوجيين ، للدفاع منها للهجوم ؟ فليدل هارت ـ على سبيل المثال ـ كان ينظر الى « العدو » كقوة احتلال أجنبية ، ولكن ألا يمكن أن تستخدم الأساليب ذاتها ضد حكومة تحاول يائسة أن تصبح ديمقراطية في بلد ذي تراث عسكري أو استبدادي ؟ أي هدف كان أكثر قابلية للسقوط : الحكم النازي أم جمهورية فايمار ؟ الجنوب

---

(٢٢) المصدر السابق ص . ص . ٢٠٦ ـ ٢٠٩ .

(الأمـيركي) الـذي يسـوده التمييز العنصري أم المحكمـة العليا ؟ جامعـة بكين ، ام جامعــة كاليفورنيا ؟ وكتب ستيللنغ : « سيكون من الطريف أن تتعقد الأشياء الخيرة معا ، وأن يقترب اللاعنف (الذي يعطي رنينا أفضل كثيرا من العنف) بالضرورة من الخير والحـق والجمال ـ من اجل الخانعين وجميع أولئك الذين سيرثون الأرض . ربما يكون هذا قد تم فعلا ، ولكننا لم نعرف بعد »[٢٣] . ان قدرا كبيرا من خبرة الحركات الشعبية وكذلك حركات الاحتجـاج السـلمية على اختلاف درجاتها منذ العام ١٩٦٧ توحي بأن نزعة ستيللنغ الشكية كان لها ما يبررها تماما .

وينتهي كتاب ردع أم دفاع ؟ بخاتمة تأملية اعترف فيهـا ليدل هارت ـ على نقيض ما كان الحال عليه في الثلاثينات ـ بأنه يشعر الآن بارتياب شديد بشأن محاولاته القيام بأية تنبؤات فيما يتعلق بطبيعة الحرب العالمية الثالثة ، فيما عدا اليقين الأساسي بأنها ستـؤدي فورا إلى الفـوضى . وبينما رحب بامكانية اتفاق للحد من سباق التسلح النووي كخطوة نحو تخفيف حدة التوتر ، فانه كان يحس بأن أي اتفاق من هذا القبيل سيكون في أعماقه غير مستقر بسبب المعدل السريع للتطـور العلمي . كان هناك شعور واسع الانتشار في الغرب بأنه لا تعايش سلميا أو حلا وسطا ممكن مع حكومتي روسيا والصين الشيوعيتين ، ولكن شيئا لا يمكن أن يكون أكثر اهلاكا من الشعوب بأن « من المحتم أن يتم (هذا الاتفاق) ـ فدعونا نجتازه » . سيكون أكثر حكمة للجميع أن يتكيفوا مع استمرار المصاعب ، ومع المناورات المتوترة ، بدلا من أن يتطلعوا إلى أية تسـوية مؤكدة . بالنسبة إليه كان التاريخ يقدم دليلا مريحا على أنه « ليس هناك وضع عدائي ثابت ونهائي » . لقد كان من المحتم لتوتر على الدرجة من الحدة التي كانت سائدة خلال العقـد الماضي أن يخـف في النهاية اذا ما تأجلت الحرب لفترة طويلة بدرجة كافية . فروسيا لم تكن تريد الحرب ، والغرب استطاع أن يؤكد لها موقفه بتطويره درعا دفاعيا تقليديا لحلف الأطلسي بدلا من قدرته النـووية الهجومية الظاهرة .

وعلى الرغم من أن بعض مراجعي الكتب اعتبروا أن الخاتمة ذات الطابع الأخلاقي التي وضعها ليدل هارت لكتابه خاتمة مبتذلة ، فان نصيحته العملية فيها كانت ذات مغزى . وسواء كان الرئيسي كينيدي قد ذكر ـ أو لم يذكر ـ هذه الفقرة الخاصة في الكتاب ، فمن المؤكد أنه تصرف طبقا لروحها حينما واجه أزمة الصواريخ الكوبية في العام ١٩٦٢ :

« ادرس الحرب وتعلم من تاريخها . ابق قويا اذا أمكن . وفي جميع الأحوال إبق هادئا . ليكن صبرك بلا حدود . لا تضع خصما في مأزق ، وساعده دائما على أن ينقذ ماء وجهه . ضع نفسك محله ـ حتى ترى الأشياء بعينيه . تجنب الاعتقاد بأحقيتك على طول الخط كما يفعل الشيطان ـ فليس هناك شيء يعمي البصيرة الحرة أكثر من هذا . وفر الوقاية لنفسك من وهمين شائعين فتاكين ـ فكرة النصر

---

(٢٣) المصدر السابق ، ص . ص . ٣٠٢ ـ ٣٠٨

وفكرة أن الحرب لا يمكن جعلها محدودة »[٢٤] .

حاول هذا الفصل والفصل السابق البرهنة على أن ليدل هارت يستحق مكانة عالية بين استراتيجيي العصر الذري الأوائل أمثال « سليسور » و« برودي » و« بلاكيت » . فقد كان من أوائل من قدروا حدود الردع النووي في الأربعينات ؛ وفي العقد التالي كان واحدا من أقسى نقاد سياسة الرد الانتقامي الشامل . وطوال تلك الفترة اكد بصورة متماسكة حاجة الغرب لأن يبني قوات تقليدية متحركة لتلحق بالقوة الرادعة النووية ولتخوض حروبا محدودة على السواء . وربما كان الأهم من هذا كله ، انه في مجال الاستراتيجية الكبرى على قادة الغرب أن يكونوا صبورين وحذرين وميالين للمصالحة . ولم تكن مثل هذه الأفكار واضحة وشائعة الى هذا الحد في حقبة الحرب الكورية وعهد مطاردات السناتور « ماكارثي »MacCarthy ، ولكنها تبدو بحلول منتصف السبعينات في العلاقات بين الشرق والغرب (على الأقل في العلاقات الخارجية بين الدولتين العظميين) ماضية في الطريق الذي تنبأ به .

بحلول أواخر الخمسينات ، كان ليدل هارت كصحافي حر يتنافس من مواقع متأخرة إلى حد خطير مع جمع من المحللين الاستراتيجيين المنتمي أصلا إلى فروع متباينة مثل الفيزياء والهندسة والرياضيات والاقتصاد . وكان كثيرون منهم يعملون في مجموعات عمل في معاهد الأبحاث الدفاعية مثل مؤسسة « راند » حيث كانوا يتمتعون بفرصة الوصول للمعلومات السرية . وبالتالي - كما لاحظ « مايكل هوارد » عن حق - « كانوا يحللون المشكلات التقنية للردع بخبرة افتقرت اليها المؤلفات السابقة بطبيعة الحال » . وعندما أصبح « روبرت ماكنامارا » Mac Namara وزيراً للدفاع في أوائل العام ١٩٦١ تم اجتذاب كثيرين من هؤلاء « المفكرين الدفاعيين » الى داخل الحكومة (الاميركية) ، وطبقا لما يقول « ريمون آرون »*Raymon Aron « عاشوا أروع أوقاتهم » قبل أن يصبحوا موضع الشك إلى حد ما بسبب الحرب الفيتنامية[٢٥]

وحتى لو أن ليدل هارت كان أصغر سنا وذا دخل شخصي أكثر تأمينا لمعيشته ، لكان من المشكوك فيه أن يميل الى تكييف أسلوب تفكيره مع الأسلوب الجديد للتحليل الاستراتيجي الذي تبرز من ملامحه الخبرة التقنية ونظرية اللعب وتحليل الصراع والنماذج النظرية . فعلى الرغم من اهتمامه الذي لا ينكر بالأبحاث العملياتية و« التحليل العلمي » فإنه كان في الأساس مفكراً براغماتيا يستمد « دروسه » من الخبرة التاريخية تعززها إتصالات شخصية واسعة النطاق ، وتفوق في ايصال مسائل عسكرية معقدة إلى جمهرة واسعة من القراء . ولقد انحدرت بقسوة قيمة

---

(٢٤) ردع أم دفاع ؟ ص . ص . ٢٤٧ - ٢٥٧ .

(٢٥) « م . هوارد » فيAdelphi Papers رقم ٥٤ ، المصدر المذكور ، ص . ص . ٢٠ ، ٢٦ .

* مفكر يميني فرنسي معاصر بارز . أستاذ علم الاجتماع بجامعة باريس ومدير الدراسات في « الكلية العملية للدراسات العليا » تعده الأوساط الثقافية الغربية عموما المفكر النظري الاجتماعي الأول في فرنسا . « المترجم » .

صحة التناول التاريخي لمشكلات الدفاع المعاصرة خلال أواخر الخمسينات والستينات حينما اكتسب نظريون آخرون مثل « هيرمان كاهن » مكانة أكبر ـ ونفوذا ـ خاصة في الولايات المتحدة. وسواء كان ذلك عن صواب أو عن خطأ، فان اخفاق النظريين في التنبؤ أو في منع الكارثة في فيتنام قد أعطى للمذاهب الأكثر تقليدية فرصة جديدة للحياة. لقد تساءل « ريمون آرون » ـ بطريقة بليغة ـ وهو يلخص وجهة نظره في تطور الفكر الاستراتيجي الحديث في العام ١٩٦٩ :

« هل توصل المبتدعون الى أي شيء أفضل ليقدموه لنا لتأكيد السلام، لكسب الحرب الباردة، أو لوضع نهاية لها، لاتخاذ قرارات عادلة أو لتغيير طبيعة العلاقات بين الدول، شيء أفضل من المقدرة التي يغذيها التاريخ بالقدر نفسه ـ على الأقل ـ الذي تغذيها به التجارب المختبرية عن الآثار السيكولوجية للثقة ؟ هل يعلمنا الادعاء عن واقع وضع ما أو تطور أزمة ما أكثر مما يعلمنا التحليل التاريخي والاجتماعي ؟ »[٢٦].

ولقد كان من شأن تناول « ريمون آرون » والنتيجة التي انتهى اليها (وهي أليس ضمان أن تبقى الحروب محدودة ألا نقبل الحرب الدائمة ؟) أن يلقى تأييد ليدل هارت.

لقد استمر ليدل هارت طوال الستينات في نشر المقالات عن معظم الموضوعات التي غطاها في كتابه ردع أم دفاع ؟ مثل مشكلات حلف الأطلسي ونسبة القوة الى المساحة المكانية. كما علق على أحداث عسكرية كبرى وقعت خلال العقد مثل أزمة الصواريخ الكوبية، وعملية « السويس » و « حرب الأيام الستة » العربية ـ الاسرائيلية. ولكن كتاب ردع أم دفاع ؟ كان في الواقع تحفته الرائعة كمحلل خبير بالشؤون المعاصرة، على نحو ما أوضح في رسالة منه الى « الاستير بوكان » يقدم فيها استقالته من مجلس معهد الدراسات الاستراتيجية :

« وجدت ـ منذ وقت طويل ـ انه من الصعب أن أكرس وقتا للتاريخ بينما أحاول أن أواكب الشؤون الجارية، وأصبحت أدرك أنه من الأفضل أن أركز ما بقي من طاقتي على واحد منهما. وحين أختار يبدو أن التاريخ يتيح اهتماما أكثر ومجالا أوسع، بينما امكانية التأثير الفعال في السياسة الدفاعية هنا طفيفة، وطلب آرائي ونصيحتي في المشكلات الجارية ؟أساساً من بلدان أخرى ـ وليس هذا حافزا كافيا على الاستمرار في بذل الجهد. ولهذا فليس من العسير أن أحسم الاختيار »[٢٧].

---

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٧.

(٢٧) ليدّل هارت إلى « أ. بوكان »، ١٥ آب ١٩٦٠.

الفصل الثامن
ليدل هارت والقادة الألمان

على الرغم من أنه يقال كثيرا « ان القلم أمضى من السيف » ، فانه من الصعب ـ في الممارسة ـ البرهنة على التأثير الدقيق للقلم على الأحداث العسكرية ، وأصعب حتى من ذلك أن نبرهن على تأثير « قلم » معين (أو كاتب) على « السيف » (أوالقائد) . لقد قدم « كلاوزفيتز» أحد التفسيرات في ملاحظاته الحكيمة حول دور النظرية :

«إنها ينبغي أن تثقف عقل قائد المستقبل في الحرب ، أو بالاحرى أن تهديه في توجيهه الذاتي ، لا أن تصحبه الى ميدان القتال ؛ تماما كما يشكل معلم فاهم وينور العقل المتفتح لشاب دون أن يضعه في قيود طوال عمره »[1] .

وبعبارة أخرى فان القادة نادرا ما يخوضون معركة وفي أذهانهم كتاب تعليمي معين ، ولما كانوا يتحملون المسؤولية الرئيسية عن نجاح أوفشل المعركة فانه من المبالغة أن نتوقع منهم أن يعزوا انتصارهم ـ اذا هم أمنوا تحقيقه ـ إلى تأثير عقلي . وبالاضافة الى هذا فان معظم القادة الأذكياء سيكونون قد قرأوا بالفعل على نطاق واسع خلال سنوات التكوين من حياتهم ، واذا افترضنا أحسن النوايا في العالم فانهم قد يجدون من المستحيل عندما تعود بهم الذاكرة الى الوراء أن يعينوا مؤلفا واحدا أثر في نظرتهم العامة تأثيرا حاسما .

ومع ذلك فان عديدا من القادة الألمان البارزين كانوا بالفعل مستعدين ـ بعد العام ١٩٤٥ ـ للاعتراف بليدل هارت بوصفه معلمهم . وهدف هذا الفصل تقديم الأدلة على هذه التأكيدات عن نفوذه ، ووصف السياق الذي وردت فيه . حيث أن هذه الدراسة ترتكز بشدة على محفوظات ليدل هارت ، إلى جانب ذكريات ما بعد الحرب التي كتبها القادة الألمان ، وكذلك ما كتبوه عن تاريخ الحملات الحربية المختلفة ، فانها لا تزعم أنها دراسة جامعة أو نهائية . فهنالك مجال واضح للأبحاث المتخصصة في اليوميات العسكرية الألمانية وفي كتيبات التدريب التي كانت

---

(١) « أ . رابورت » (محررا) « كلاوزفيتش عن الحرب (بنغوين ، ١٩٦٨) ص ١٩١

مستخدمة في الثلاثينات ، لتحديد تأثير المنظرين البريطانيين الآخرين - مثلا - ومنهم على سبيل المثال الجنرال « فوللر » والجنرال « مارتل » اللذين يرد ذكرهما دون تحديد في الذكريات .

والنقطة الأولى التي نريد اثباتها هي أنه لا يوجد هناك شك أيا كان فيما يتعلق بالشعبية الواسعة لكتابات ليدل هارت في الجيش الألماني في العشرينات والثلاثينات . فقد ترجمت كتب عديدة له بواسطة بعض من كبار الضباط الذين كانوا يشغلون مراكز نافذة ؛ وكانت مقالاته تتداول بأعداد ضخمة ، وفي منتصف الثلاثينات تعرض ليدل هارت لطلب ملح بتقديم النصح للجيش الألماني حول المكننة ، ولما لم يقدمه طلب إليه بإلحاح أيضا أن يحضر مناورات ألمانية .وقد رفض الدعوتين بحكمة[٢] .

وينبغي رسم خط حاد فاصل بين تأثير ليدل هارت العام وتأثيره الخاص على جوانب معينة من تطور القوات المدرعة . فقد كان تأثيره العام عائدا إلى مجرد حجم كتاباته ؛ والى حقيقة أنه كان يكتب تقارير عن تطورات مثيرة جديدة في بريطانيا في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ؛ وإلى طرحه أفكارا جديدة . وقد أجرى دكتور « روبرت أونيل »Robert O'Niell - في التحضير لكتابه **الجيش الألماني والحزب النازي** - مقابلات مع عديد من الضباط الألمان الذين كانوا عاملين في فترة ما بين الحربين ، والذين ذكروا ليدل هارت كمصدر عام للحوافز الفكرية وللتعليقات المنبهة . وكانت حقيقة وجود ظاهرة ليدل هارت في ذاتها مشجعا رئيسيا لمريدي « مولتكه »Moltke و « أشليفن »Schlieffen في فترة ما بعد العام ١٩١٩ . كما أن حقيقة كونه قدم اسهاما رئيسيا لمناهجهم التدريبية ، ومناوراتهم ، ومناقشاتهم داخل الاندية العسكرية خلال فترة اعادة تسليح ألمانيا سرا اعطت التطور الفكري لجيل من الضباط الألمان بأكمله دفعة للأمام - وهي دفعة كانت بلا شك صغيرة ولكنها كانت بالتأكيد ملحوظة[٣] .

وقبل أن نقدم عينة من الأدلة على هذا التأثير العام الخفي ، من المهم أن نؤكد استمرارية تقليد العمليات المتحركة ، وخاصة في سهول أوروبا الشرقية المفتوحة . فقد كان الجنرال « هانز فون سيكت »Hans Von Seeckt - رئيس قيادة الجيش من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ - رئيسا للأركان تحت قيادة « ماكينزين »Mackensen خلال الإعداد للاقتحام الكبير عبر « غورليس - تارناو » Gorlice-Tarnow في العام ١٩١٥ . وقد خطط « سيكت » أثناء قيادته للجيش في فترة ما بعد الحرب لتوجيه ضربات صاعقة ضد القوات البولندية الأكثر تفوقا الى حد بعيد ، في حالة نشوب حرب . وهكذا - على الرغم من أن « سيكت » لم يكن من دعاة الحرب الخاطفة بالمعنى التقني -

---

(٢) ٩/ ٢٤/ ٦١ جنرال « ليو غير فون شويبنبرغ »Leo Geyr Von Schweppenberg ، « غير » الى ليدل هارت ، ١٠ آب ١٩٣٥ ، ١٤ شباط ، ١٦ و ٢٧ أيار ١٩٣٦

(٣) « مايكل هوارد » (محررا) النظرية الممارسة في الحرب (١٩٦٦) ص . ص . ١٤٥ - ١٦٥ .

كانت لديه فكرة جزيئة عما كان يسعى الى تحقيقه من حيث الحركة الاستراتيجية[٤] .

وثمة جانب آخر من هذا التقليد المستمر الخاص بالحركة هو استغلال براغماتي للغاية لأي وسيلة كان يُصادف أن تتاح ـ وفي هذه الحالة كانت الوسيلة هي النقل الميكانيكي ـ من أجل اجتياح المساحات المفتوحة من أوروبا الشرقية . وهكذا فانه قبل وقت طويل من استخدام اصطلاح « الحرب الخاطفة » Blitzkrieg ، وحتى قبل أول استخدام مؤثر للدبابات في « كامبراي » Cambrai في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، كانت قوة مشاة ألمانية قد ركبت الشاحنات ونفذت ضربة صاعقة كجزء من هجوم « فون فالكينهاين » Von Falkenhayn الواسع ضد رومانيا في العام ١٩١٦ . وفي العام ١٩٢٠ قامت القوات البولندية باستخدام أشد جسارة حتى من هذا للعربات المدرعة كرأس حربة لغارات استراتيجية بواسطة قوات مجهزة بمحركات . وكانت أول الغارات في « أوكرانيا » في نيسان ١٩٢٠ والثانية في أيلول (سبتمبر) ضد نقطة التقاء السكك الحديدية في « كويل » Kowel الى الخلف من القوات السوفياتية التي كانت تنسحب من « وارسو » . وقد اشتملت العمليتان على استخدام كتيبتي مشاة محمولتين على الشاحنات مع بعض مدافع الميدان التي تجرها شاحنات ؛ وقد شهدت العملية الأخيرة تطويق واجتياح مساحة تبلغ نحو مائة ميل . وفرت هاتان العمليتان وكذلك خطط ما بعد الحرب الموجهة ضد بولندا شروطا مسبقة هامة لأفكار « غوديريان » Guderian وغيره فيما بعد حول العمليات الميكانيكية . وربما يكون قد بولغ في أهمية التنظير ، بالمقارنة بالتكيف البراغماتي والتجريب العملي ، في متابعة تطور القوات المدرعة الألمانية[٥] .

ومن الأمور المثيرة للسخرية أن تحديد الحلفاء للجيش الألماني بـ ١٠٠ ألف جندي من ذوي الخدمة الطويلة الأمد وحرمانه من الدبابات والأسلحة الثقيلة ، أوجد لديه الحوافز للدراسة والتجريب السري . كما ينبغي أن لا نغفل أن « لودندورف » Ludendorff كان أول من استعاد الحرب المتحركة الى الجبهة الغربية باستخدام تكتيكات تسلل « ثورية » لاختراق دفاعات الحلفاء في آذار (مارس) ١٩١٨ . وكان أبرز ما بدا في هذا الاختراق أنه تحقق أساسا بواسطة المشاة وبطاريات المدفعية ، مع عدد قليل فقط من الدبابات لعب دورا ثانويا . وكانت ألمانيا قد تخلفت في تطور قواتها المدرعة : فلم توضع الدبابات في الخدمة الفعلية إلا في العام ١٩١٧ ، وكانت أول سرية من دبابات «A7V» المحلية الصنع جاهزة في كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ . وكانت للدبابة «A7V» مركبة بلا برج دوار ، تزن ٣٠ طنا وتحمل مدفعا عيار ٥٧ ملليمتر وستة مدافع رشاشة ، ويتكون طاقمها من ١٨ رجلا . ولم تكن ألمانيا قد أتمت صنع عدد منها يتجاوز عشرين دبابة

---

(٤) يؤكد هذه النقطة كل من « أوغوركيفيتش » Ogorkiewicz و « أونيل » O'Neill في رسائل متبادلة بينهما وبين المؤلف في ٣١ كانون الثاني و ٦ شباط ١٩٧٦ .

(٥) « أوغوركيفيتش » المدرعات (١٩٦٠) ص . ٢٦٤ .

بحلول نهاية الحرب . وأضافت اليها ثماني وحدات أخرى خلال فترة الهدنة ، وان تكن قد زودت ستا منها بتجهيزات من دبابات بريطانية طراز « مارك ـ ٤ » كانت قد غنمتها . وشاركت الدبابات الألمانية في نحو اثني عشر عملا عسكريا ، بما في ذلك أول قتال للدبابات ضد الدبابات ، وهو الذي جرى في « فيير ـ بريتونني » Villers-Bretonneny في ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩١٨ ، حيث استخدمت ثلاث عشرة دبابة ألمانية كرأس حربة ، وحيثما كانت تظهر هذه الدبابات كان الخط البريطاني ينكسر[٦] .

وهكذا فان الهدنة والقيود التي فرضتها معاهدة فرساي شكلت عائقا مؤقتا فحسب أمام جيش مصمم على الاستفادة من اخطائه بتطوير تكتيكات وأدوات الحركة التي كانت معروفة بالفعل في الفترة الأخيرة من الحرب . وفي النهاية ، لا بد أن يضاف إلى هذه الحوافز القصيرة الأجل التقليد الفكري للأركان العامة . ولربما تكون خطة « شليفن » Schlieffen قد أخفقت في العام ١٩١٤ ، ولكن روح عقيدته ظلت حية . وكما استذكر الفيلد مارشال « فون مانشتاين » بعد الحرب العالمية الثانية :

« درست نظريات « شليفن » على نطاق كبير في الجيش الألماني بين الحربين ، وكان لها تأثير كبير على التفكير الاستراتيجي و التكتيكي . وقد حكمت فكرة الالتفاف حول العدو وتطويقه الاستراتيجية والتكتيك الألمانيين »[٧] .

وكان بين قراء كتابات ليدل هارت وموزعيها المتحمسين اثنان من كبار القادة الألمان المناصرين للنازية ، « بلومبرغ » Blomberg و « رايخناو » Reichenau . وقد التقى ليدل هارت بالأول ـ الذي أصبح بعد وقت قصير وزيرا للحرب في حكومة هتلر ـ في مؤتمر نزع السلاح بجنيف في العام ١٩٣٢ . وكان « بلومبرغ » قد قرأ حديثا سيرة المارشال « فوش » Foch التي كتبها ليدل هارت ، وتأثر بوجه خاص بتأكيدها على قوة الجانب الدفاعي . كما لاحظ « بلومبرغ » انه كان يصحح الفكرة التقليدية المتسلطة عليه والتي تجعله يهتم بالجانب الهجومي وحده في تدريباته . وكان آنذاك قائدا للمنظمة العسكرية الأولى البالغة الأهمية في بروسيا الشرقية . واعترف بان انشغاله هذا بالجانب الهجومي ربما كان نتيجة طبيعية للوضع العسكري الألماني ، ولكن كان أيضا استنباطا من خبرتها الحربية .[٨]

في وقت لاحق من العام ١٩٣٢ قام كولونيل (فيلد مارشال فيما بعد) « رايخناو » ـ الذي كان

---

(٦) المصدر السابق ص . ص . ٢٠٦ ـ ٢٠٧ . ليدل هارت : الدبابات (المجلد الأول ١٩٥٩) ص . ص . ١٦٥ ـ ١٦٨ .

(٧) ٩/ ٢٤/ ١٢٤ « مانشتاين » الى ليدل هارت ، ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٨ .

(٨) ١١/ ١٩٣٢/ ٩ حديث مع الجنرال « بلومبرغ » في جنيف في ٨ آذار ١٩٣٢ . انظر أيضا اشارات فهرسية عديدة إلى « بلومبرغ » و « رايخناو » في الذكريات ، المجلد الأول .

آنذاك رئيس اركان للفرقة الأولى وتولى في العام ١٩٣٩ قيادة الجيش الذي اقتحم « وارسو » ـ قام بابلاغ ليدل هارت في رسالةبانه يترجم كتابه عن فوش ولكنه يجد صعوبةفي العثور على ناشر الماني، وكان اهتمامه الرئيسي في الكتاب هو « قيمته المتأصلة » « هنا أجد مستوى عال من الاجتهاد العقلي ، جديد ، وغير عادي ، لا يحذو حذو النظريات البالية ، انما يضع قواعد جديدة ـ اذا كانت توجد قواعد على الاطلاق . » كذلك كان كلا الضابطين مسؤولين عن ترجمة الطريقة البريطانية في الحرب في العام ١٩٣٢ ، وعن تداول أفكار ليدل هارت حول المكننة في حقول القوات المسلحة الالمانية كلها .[٩]

وفي أوائل الثلاثينات كان ليدل هارت يعلم فعلا من اتصالاته الشخصية ان بعض كتاباته يدرس في المانيا بنهم . وقد كتب ـ في مذكرة من مذكرات سيرته الذاتية ، مدرج تحت العام ١٩٣١ ولكن من الواضح انها كتبت بعدها بسنوات قليلة :

« ترجمت وزارة الحرب الألمانية دراسة عن حرب المستقبل وخطة المكننة التدريجية ، كنت قد كتبتها في العام ١٩٢١ ، وهي تقوم بتوزيعها في كل انحاء الجيش الألماني ، وتجري ترجمتها في جيوش اخرى بعد ذلك »[١٠]

أبلغ « فوللر » ليدل هارت في شباط (فبراير) ١٩٣٥ بأنه رأى ـ أثناء زيارة أخيرة لبرلين نسخا عديدة من كتابه لورانس (بالألمانية) على رفوف المكتبات ، « وقد أخبرني الرجل الثاني في قيادة قوات العاصفة أنه طلب ٥٠٠٠ نسخة مترجمة من [كتاب ليدل هارت] مستقبل المشاة »[١١] . وقبل سنتين كان سير « موريس هانكي » ، أمين لجنة الدفاع الامبراطورية ، قد أبلغ ليدل هارت :

« سمعت من مسؤول عسكري رفيع في برلين منذ أيام أن كتاباتك وكتابات « فوللر » تقرأ على نطاق واسع وينتظرها الكثيرون بشغف في كل القوات المسلحة الالمانية » .

وربما كان الشخص الذي أبلغ « هانكي » بهذا هو الملحق العسكري البريطاني الكولونيل (الجنرال سير فيما بعد) « آندرو ثورن » ، الذي كتب فيما بعد مؤكدا هذه المعلومة :

« كنت (كما لعلك تذكر) ملحقا عسكريا في برلين في الفترة من نيسان (ابريل) ١٩٣٢ إلى أيار (مايو) ١٩٣٥ ، وخلال هذه الفترة التي قضيتها هناك ما كان يمكن إلا أن أتأثر بالمدى الذي كان عليه الاقبال على دراسة كتب ليدل هارت و « فوللر » من جانب الضباط من جميع الرتب والأسلحة في الجيش

---

(٩) ٩/ ٨٧/٢٤ ، « رايخناو » الى ليدل هارت (خطية) ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٢ . جنرال سير « اندرو ثورن » Andrew Thorne الى ليدل هارت ، ١٣ تشرين الأول ١٩٤٢ .

(١٠) ١١/ ١٩٣١/ ٢٨ .

(١١) « فوللر » الى ليدل هارت ٢٨ شباط ١٩٣٥ .

الألماني . ولقد عرفت جيدا كلا من « بلومبرغ » (وزير الحرب) و « رايخناو » (رئيس أركان الدفاع) ، وكان كلاهما مشغولين بترجمة كتب لهذين المؤلفين ليستفيد منها الضباط الألمان الذين لا يتقنون الانكليزية . وكثيرا ما طلبا مساعدتي لايضاح بعض النقاط التي لم تكن واضحة لهما تماما .

« ان لأفكار وحجج ليدل هارت تأثيرا فيها على العقلية العسكرية الألمانية مماثلا لما كان لها من تأثير علينا ، ولست على يقين أنهم لم يستمدوا منها قيمة أكبر حتى مما فعلنا نحن ، لأنهم كانوا بوجه عام أكثر رسوخا في المبادىء مما كنا نحن »[١٢] .

وكمثال أخير على شعبيته الأوروبية كتب ليدل هارت الى الجنرال « ثورن » في العام ١٩٤٢ أن ضابطا تشيكيا لاجئا - يدعى الكولونيل « ميكشي » Miksche - اتصل به مؤخرا وأخبره صراحة بأنه اذا كان أحسن كاتب عسكري بريطاني فان هذا لا يعني شيئا البتة بالنسبة إليه « ولكنه لسنوات طويلة كان يرى كتاباتي باستمرار تناقش في المجلات العسكرية الألمانية وغيرها من مجلات وسط أوروبا ، وان أي كاتب عسكري يكسب « سمعة في وسط أوروبا » لهو ضمان أكيد بمعرفة وثيقة »[١٣]

« تبرهن هذه الفقرات على أن كتابات ليدل هارت - بما فيها الأعمال غير المتخصصة ، مثل فوش و لورانس - قد ترجمت وقرئت على نطاق واسع في ألمانيا . ولكنه ينبغي ألا نغفل أن اسم « فوللر » معروف بالقدر نفسه للقراء الألمان ، بل من المرجح أنه كان أكثر ذكرا في الصحف العسكرية المتخصصة بوصفه خبيرا في الحرب الميكانيكية . على أن « فوللر » كان يفتقر إلى حد ما إلى مهارة ليدل هارت الأسلوبية ؛ ولم تكن منصة الصحافة مفتوحة أمامه لنشر وجهات نظره ، ولم يقم بمحاولة منظمة بعد الحرب العالمية الثانية لجمع المواد الدالة على تأثيره في فترة ما قبل الحرب »[١٤]

ومع ذلك فان ليدل هارت كان أقل اعتمادا على هذه المادة في تأسيس دعواه بأنه أثر على النظرية والممارسة الألمانية للهجوم الخاطف أكثر مما تنطق به الاعترافات المحددة لرجل واحد ، هو الجنرال « هاينز غوديريان » ، الذي عزا اليه جنرال زميل له - رغم عدم مشاركته له ايمانه بالنازية - الفضل في ٦٠٪ مما صارت اليه القوات المدرعة الألمانية . وكتب جنرال آخر : « انني أود أن أقول مرة أخرى انني أقدره تقديرا عاليا للغاية [يقصد « غوديريان »] باعتباره خالق قواتنا المدرعة والمعلم

---

(١٢) سير « موريس هانكي » الى ليدل هارت ، ٢٧ كانون الأول ١٩٢٣ . « ثورن » إلى هانكي (بدون تاريخ) ولكن ربما في ١٩٤٦ . انظر أيضا ليدل هارت الى « ثورن » ، ١٨ آذار (مارس) ١٩٤٦ .

ليدل هارت إلى ثورت ١٨/ ٧/ ١٩٤٢ .

(١٤) رسائل الى المؤلف من « كلاوس غوتيغ » Klaus Gütig ، ٢٤ أيلول ، ودكتور « روبرت أوتيل » ، ١٥ كانون الأول ١٩٧٥ .

الأكيد لها ، مؤكدا بشكل خاص على كلمة « اكبر »[١٥] وقدم « غوديريان » بيانا مفصلا الى حد معقول عن أصل ونمو القوات المدرعة الألمانية قبل العام ١٩٣٩ في ذكرياته الحربية بعنوان قائد المدرعاتPanzer Leader ، وقد عالج الموضوع نفسه بايجاز ، انما بأسلوب دراسي ، « روبرت أونيل » مع اشارة خاصة إلى تأثير ليدل هارت[١٦] . ومن ثم فلا حاجة لتكرار كل التفصيلات هنا ، لمجرد تلخيص حياة « غوديريان » العملية وايضاح النقاط الرئيسية التي كانت كتابات ليدل هارت فيها ذات قيمة كبيرة له .

لقد اهتم كابتن « غوديريان » ـ الذي كان متخصصا في شؤون الاشارة ولم تكن له أي خبرة سابقة بالعربات الميكانيكية ـ أول ما اهتم بمشكلات الحركة في العام ١٩٢٢ حينما عين ضابط أركان لمفتش النقل وعمل في ادارة النقل الميكانيكي . وكانت مهمته الأولى اختراع الوسائل الدفاعية التي تستخدم النقل المزود بالمحركات لاحباط محاولات غاز للتوغل في العمق ، وقد أدرك سريعا أن الدروع ضرورية للحماية . وقد أثار زميل له ـ هو الملازم « فولكهايم »Volckheim اهتمامه باستخدام الدروع في الحرب العظمى ، وفي وقت مبكر للغاية ، في العام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ تعرف على أفكار « فوللر » وليدل هارت و « مارتيل » في المجلة الدورية المتخصصة بالشؤون الدفاعية الخارجية . وقد زرعت كتاباتهم في عقله الأفكار الدقيقة القائلة بأن الدروع يمكن أن تستخدم في الهجوم ، وأنها لا بد أن تنظم كرأس حربة أكثر منها كقوة استطلاع خفيفة أو كسلاح لدعم المشاة . واعترف في وقت لاحق بأهمية هذا المفهوم ـ حتى قبل سنوات عديدة من رؤيته دبابة ـ في العبارات التالية :

« كانت كتب ومقالات الانكليز ـ فوللر وليدل هارت ومارتيل ـ أساسا هي التي أثارت في الاهتمام وأمدتني بغذاء للفكر . لقد كان هؤلاء الجنود الذين يتمتعون بنفاذ بصيرة يحاولون ، حتى في ذلك الوقت ، أن يجعلوا من الدبابة شيئا أكثر من مجرد سلاح لدعم المشاة . كانوا يتطلعون اليها في علاقتها بالطابع الحركي المتزايد لعصرنا . وهكذا أصبحوا روادا لنوع جديد من فن الحرب على نطاق كبير .

« لقد تعلمت منهم حشد الدروع ، على النحو الذي استخدم في معركة « كامبراي » . وعلاوة على هذا كان ليدل هارت هو الذي أكد على استخدام القوات المدرعة لتوجيه ضربات طويلة المدى ، وعمليات ضد خطوط مواصلات الجيش المعادي ، وكذلك اقترح نوعا من الفرقة المدرعة يجمع بين الوحدات المدرعة ووحدات المشاة المدرعة . ولما كنت قد تأثرت تأثرا عميقا بهذه الافكار ، فانني

---

(١٥) ٩/٢٤/١٠٥ « فون غير » الى ليدل هارت ، ٨ آذار ١٩٤٩ . ٩/٢٤/١٢٥ ، « مانتوفل » Manteuffel الى ليدل هارت ، ١٠ آذار ١٩٤٩ .

(١٦) « هـ . غوديريان » قائد المدرعات (١٩٥٢) ص . ص . ١٩ ـ ٤٦ .

حاولت أن أطورها على نحو يجعلها ممكنة عمليا بالنسبة لجيشنا . ومن ثم فانني مدين بكثير من الاقتراحات بشأن تطورنا اللاحق للكابتن ليدل هارت »[١٧] .

بحلول منتصف العشرينات كان « غوديريان » يطور أفكاره عن المكننة في مقالات ومحاضرات ، ولكنه واجه في البداية شكوكا ومعارضة كبيرة . فعندما أشار ـ مثلا ـ إلى أن ناقلات الجنود المذرعة البدائية ، التي كانت مستخدمة آنذاك للامداد ، يمكن تحويلها إلى وحدات مقاتلة ، رد عليه مفتشه بصورة قاطعة : « إلى الجحيم بالوحدات المقاتلة ! انها من المفروض أن تحمل الدقيق ! » . وأصبح الرأي في القيادة العليا أكثر تحبيذا لفكرة الدبابات نتيجة لأول مناورات جرت بعد الحرب (العالمية الأولى) في العامين ١٩٢٥ و ١٩٢٧ ° حيث شهدت هذه المناورات أول استخدام للدبابات المدمرة على نطاق واسع ؛ وقد شجع « سيكت »Seeckt ـ بصورة مشوبة بالحذر ـ الفكرة القائلة بأن الدبابات يمكن أن تكتسب دورا متميزا . وأجبر « غوديريان » على أن يوضح أفكاره بشأن الدبابات في العام ١٩٢٨ حينما اختير محاضرا لجمهور من الضباط واسعي الاطلاع في شعبة النقل الميكانيكي في « شتيتين »Stettin ، وفي العام ١٩٢٩ رأى أولى دباباته « الحية » أثناء زيارة للسويد استغرقت أربعة أسابيع . في ذلك الوقت كان قد كون فريقا من المترجمين خاصا به بهدف محدد هو قراءة وتوزيع الكتب والمقالات وكتيبات التدريب الابتدائية الانكليزية . وقد وفر هذا الجهاز كتب النصوص الأساسية للتدريب الميكانيكي الألماني أثناء العقد التالي . وفي هذه المرحلة كان « غوديريان » واحدا من كثيرين من الضباط المتخصصين في تطوير تكتيكات الدبابات . وخلافا لكثير من زملائه لم تتح له الفرصة لزيارة مركز التدريب الروسي السري في « كازان »Kazan حيث كان يتم تدريب الضباط على تسيير الدبابات ، وكانت نماذج ألمانية مبكرة تختبر ، ومقارنات تعقد مع نماذج أجنبية .

في العام ١٩٢٩ توصل « غوديريان » إلى النتيجة المؤكدة القائلة بأن الدبابات حين تعمل مستقلة بذاتها أو على صلة مع المشاة لا يمكن أن تحقق نتائج حاسمة . وأدرك بالاضافة الى هذا ، أنه لكي تحقق الدبابات تأثيرها التام ، ينبغي رفع مستوى أسلحتها المساندة من حيث السرعة واختراق المناطق . إلا أن كثيرا من كبار الضباط ظلوا على شكهم . وعلى سبيل المثال فان الجنرال « أوتو فون شتولبناغيل »Otto Von Stulpnagel المفتش العام لقوات النقل حذر من الاستخدام النظري للدبابات في وحدات أكبر من فوج«Regiment» واستبعد فكرة الفرق المدرعة باعتبارها حلماً طوباويا . في هذا الوقت بالتحديد ـ ونتيجة لدراسة « شيرمان » ـ كان ليدل هارت يصوغ مفهومه في الاختراق العميق بواسطة تشكيلات مدرعة . وكانت الدبابات آنذاك تستخدم وفقا لمفهوم ليدل هارت السابق عن « السيل المتدفق » لتحقيق الشرط الضروري للحفاظ على قوة الدفع . وكما يصف دكتور « أونيل » الأمر :

---

(١٧) قائد المدرعات ، ص ٢٠ .

« لتحقيق توغل استراتيجي لعدة مئات من الأميال سيكون من غير المفيد حشد عدد قليل من الفـــرق ضد أضعف الخصوم . انما يتطلب الأمر جيوشا بأكملها من الدبابات »[١٨] .

ويمضي ليشير إلى أن « غوديريان » كان في العام ١٩٣١ ـ ١٩٣٤ في المرحلة الصحيحة من التطور لاستيعاب هذه الأفكار وللبدء في تحويلها الى واقع عملي . وقـد أدرك الأخـير أن الحـل الوحيد يكمن في خلق فرق مدرعة تكون فيها رأس الحربة المؤلفة من الدبابات مدعومة دعما قريبا بصورة مثلى بواسطة وحـدات متحـركة على نحـو مماثـل للدبابـات من المشـاة ، والمهندسـين ، والمدفعية ، والاشارة . ويبدو من المرجح أن « غوديريان » كان قد قرأ مقال ليدل هارت « تطوير نمـوذج جديد للجيش » ، الـذي نشر في فصلية الجيش Army Quarterly في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ ـ فان الاقتراح الراديكالي الذي تضمنته هو أن تتكون الفرق النموذجية الجديدة من ثلاثة ألوية مؤلفة من الدبابات ، والمشاة المحمولة في ناقلات مدرعة ومدفعية ذاتية الحركة . وأنه ستكون في كل فرقة ٣٠٠ دبابة ، بما في ذلك كتيبة دبابات متوسطة مصممة للمطاردة . وكان ليدل هارت يتطلع إلى قوات المستقبل البرية على أنها ستكون مؤلفة أساسا من دبابات وطائرات تدعمها قوة صغيرة من مدفعية الحصار لسحق النقاط الدفاعية القوية ومن مشاة محمولة ميكانيكيا لتقوم بدور « مشاة بحرية برية » Land marines ـ تعمل بطريقة هجومية دفـاعية . وكان هذا التأكيد على الحاجة إلى تعاون وثيق بين الدبابات والمشاة هو الذي ميز بوضوح شديد مفهوم ليدل هارت عن آراء « فوللـر » القائلة بقوة مؤلفة من الدبابات كليا «all-tank» ، وهي الآراء التي أخذ بها سلاح الدبابات الملكي البريطاني »[١٩] .

وبينما يبدو من المعقول أن نفترض أن « غوديريان » قد تأثر بليدل هارت في العشرينات فيما يتعلق بالنقطة الحيوية الخاصة بالحاجة الى تعاون وثيق بين الدبابات والمشاة ، فانه يكون من قبيل الدفع بهذا الدليل الى أبعد ما ينبغي للإيحاء بأن الفرق المدرعة الثلاث الأولى التي تم تشكيلها في العام ١٩٣٥ كانت مماثلة الى حد كبير لفرقة « النموذج الجديد » التي ا‍قترحها ليدل هارت قبل عقد من الزمن . وقد كان التماثل شديدا في مكوناتها من الدبابات . والحقيقة ـ كما أوضح « ريتشارد أوغوركيفتش » ـ أن أولى الفرق المدرعـة لم تكن تختلف كثيرا عن بعض التطـورات المعـاصرة الأخرى مثل الفرقة الميكانيكية الخفيفة الفرنسية Devision Légère Mecanique ولواء الدبابات التجريبي البريطاني في العام ١٩٣٤ ، وكان كل منهما مؤسسا على لواء دبابات يسانده لواء مشاة . وقد وفر لواء الدبابات البريطاني بالفعل نموذجا لأول لواء مدرع « بانزر » . وكان هذا الأخير يتألف من فوجي دبابات يتألف كل منهما من كتيبتي دبابات « بانزر ـ ١ » خفيفة . وبذلك اصبح

(١٨) « أونيل » ، المصدر السابق ، ص . ص . ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(١٩) ١١/١٩٤٨/٣٤ « أفكار مبكرة عن نمط الفرقة المدرعـة » . انظـر « فوللـر » : فن الحـرب الآلية Machine Warfare (١٩٤٢) ص ٥٥ .

العدد النظري للواء الدبابات ٥٦١ دبابة » وهو تشكيل دبابات قوي جدا ، وكاف لارضاء أشد انصار الدبابات حماسا :

وقد جاء تشكيل فرق « البانزد »× مختلفا عن تصور « ليدل هارت » فيما يتعلق بوحدات الدعم وخاصة بالنسبة لعنصر المشاة. فقد كان الأخير يتطلع إلى الوحدات المدرعة المؤلفة أساساً من دبابات تساندها المشاة في صورة « مشاة برية » أو « مشاة بحرية للدبابات »Tank marines » ، بينما كانت فرق « البانزر » ـ من حيث المبدأ على أي حال ـ تملك وحدة من رجال المشاة لها نفس حجم ماتملكه من الدبابات . وبعبارة أخرى فانه بينما صور ليدل هارت عددا صغيرا من رجال المشاة مرتبطين بـ « قوة دبابات »Tank force ، فان الالمان جمعوا معا وحدات ضخمة من المشاة والمدفعية والدبابات لخلق نوع جديد من التشكيل لم يتبع من قبل . وهكذا تمكن الألمان تفادي مخاطر كل من نظرية « القوة المؤلفة من الدبابات كليا »«all-tank» ، التي تعمل فيها الدبابات بصورة مستقلة ، وهي النظرية التي كانت سائدة في بريطانيا ، وعقيدة ربط الدبابات بمهمة مساندة المشاة ، التي أصبحت مطبقة عمليا في فرنسا . ويصف « ريتشارد أو غور كيفيتش » الخصائص البارزة لفرق « البانزر » الاصلية على النحو التالي :

« الى جانب اشتمال كل فرقة مدرعة (بانزر) على لواء دبابات ، فانها كانت تشتمل أيضا ـ من البداية الاولى ـ على لواء مشاة محمولة motorised infantery دوره دعم وإكمال الدبابات . وقد تألف لواء المشاة أو لواء البنادق ـ هذا من فوج محمول على شاحنات مؤلف من كتيبتين ومن كتيبة دراجات بخارية واحدة . كذلك كانت كل فرقة لديها فوج مدفعية تقطرها الآليات «motorised artillery» مؤلف من اربعة وعشرين مدفع « هاوتزر » عيار ١٠٥ مم . وكتيبة مدافع متطورة مضادة للدبابات عيار ٣٧ مم ، وسرية هندسة ، ثم توسيعها سريعا إلى كتيبة . كذلك كانت هناك أيضا كتيبة استطلاع من العربات المدرعة والدراجات البخارية ، بالاضافة إلى وحدات اشارة وخدمات الفرقة . وهكذا كانت فرقة « البانزر » بمثابة فريق أسلحة متكامل في ذاته تساند الدبابات فيه بواسطة اسلحة رفعت قدرتها الحركية ، الى اقصى حد ممكن ، الى « مستوى القدرة الحركية للدبابات »[٢٠] .

وقبل صعود هتلر الى السلطة وتحوله السريع الى فكرة « الحرب الخاطفة » ، كان غوديريان ورفاقه من المؤيدين المتحمسين للدبابات يواجهون عراقيل وفتورا وأحيانا عداء صريحا كالذي كانت تواجهه المدرسة البريطانية المؤيدة للمدرعات . فبالاضافة الى مؤيدي « الحصان والقدم »(*)

(×) أي الفرق المدرعة الالمانية ـ المترجم .

(٢٠) « أوغور كيفيتش » ، المدرعات ، ص . ص . ٧٢ ـ ٧٣ ، « أونيل » ص . ص . ١٥٦ ـ ١٥٩ .

(*) كناية عن الخيالة والمشاة الراجلة . « المترجم » .

الذين كانوا يكرهون الدبابات لذاتها ، كانت هناك المعارضة الأكثر دهاء ؛ المعارضة من جانب أولئك الذين كانوا يريدون تحويل الدبابات الى أدوار مساندة للأسلحة الأقدم . كانت الخيالة تريد قوات ميكانيكية خفيفة لدعم أدائها في الاستطلاع والتعقب ، بينما كانت المشاة تريد من الدبابات أن تمهد الطريق أمام حملة البنادق كما كانوا يفعلون هم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك فان « غوديريان » ـ على عكس أقرانه البريطانيين ـ كان حسن الطالع في عثوره على مؤيدين في أعلى المناصب في الجيش الألماني ؛ فقد أيد « بلومبرغ » ورايخناو » و « فريتش » Fritsch بوجه خاص تطوير القوات المسلحة في مواجهة تشكك الضباط الأكثر محافظة من أمثال رئيس الأركان العامة « بيك » Beck . وقد قيل عن الأخير انه استشاط غضبا من إشارات « غوديريان » ، وغيره من مؤيدي الدبابات المتحمسين ، الى ليدل هارت ، الى حد أنه تمنى ـ على سبيل التغيير ـ أن تمر ستة أشهر دون أن يسمع أسم « ليدل هارت »[٢١] .

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣١ عين « غوديريان » رئيسا لأركان مفتش الوحدات المحمولة «Motorized Units» اللواء « لوتز » Lutz ـ وكان من رفاقه المتحمسين للدبابات . في ذلك الوقت كان « غوديريان » قد كون فكرة واضحة عن نوع الدبابات التي يريد لها أن تخترق طريقها عبر الدفاعات ، أو الالتفاف حولها ، وأن يستخدمها بطريقة استراتيجية . وكان يتطلع إلى نموذج خفيف ومتوسط ، كي يجهز برشاشات وبمدفع خارق للدروع وأجهزة لاسلكي : والى أن تكون قادرة على تحقيق سرعة قدرها نحو ٢٥ ميلا في الساعة . وسوف تبدأ هذه النماذج من الدبابات فعلا في الظهور في العام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ باسم « بانزر » « مارك ـ ٣ » و « مارك ـ ٤ » على التوالي . وفي الوقت نفسه كان قد طلب انتاج « بانزر ـ ١ » لأغراض التدريب في العام ١٩٣٢ وبدأت بالظهور في العام ١٩٣٤ . وكانت هذه دبابة صغيرة يتألف طاقمها من رجلين ، وتزن خمسة أطنان ، وقد حذت حذو تصميم دبابات « فيكرز كاردن لويد » البريطانية الخفيفة . ولم تكن مسلحة إلا برشاشات وسرعة انطلاقها القصوى ٢٤ ميلا في الساعة . وكانت أوجه جاذبيتها السرعة والمرونة ورخص تكاليفها ، ولكنها لم تكن تتمتع بقدرة قتالية وكانت استثمارا مشكوكا فيه . وقد انتج نحو ١٥٠٠ دبابة من هذا النوع قبل اندلاع الحرب . وطلب انتاج نوع آخر يشكل تحولا جديدا في هذه الدبابات ـ هو الدبابة « بانزر ـ ٢ » ـ في العام ١٩٣٤ . وكانت تزن نحو تسعة أطنان ، ولها طاقم من ثلاثة رجال ، ومسلحة بمدفع ٢٠ ملليمترا بالاضافة الى رشاش ، وهذا كان تسليحا ضعيفا بصورة مثيرة للدهشة ، حيث ان الدبابات الخفيفة الشبيهة في بلدان أخرى كانت مجهزة بمدفع عيار ٣٧ ملليمترا . والأكثر مدعاة للدهشة من هذا أن هذه النماذج ، الأدنى في قوة مدافعها والأقل حماية من حيث سمك دروعها ، كانت لا تزال تشكل الأغلبية العظمى من

---

(٢١) كان مصدر ملاحظة « بيك » هو « بيتر باريت » Peter Paret ، الذي كان أبوه قد تعرف على صديقي « بيك » البروفيسور « ماينيكه » Meinecke والبروفيسور « ساوربروك » Sauerbruck ؛ انظر « ملحوظة تاريخية » أول تشرين الأول ١٩٥٨ ، ١٣/ ٥ متنوعات .

الدبابات الألمانية في الحملة البولندية في العام ١٩٣٩[٢٢] .

في خريف العام ١٩٣٤ بدأت عملية زيادة الجيش الألماني - التي كان قد طال انتظارها - الى ثلاثة أمثالِ حجمه : فقد شكلت احدى وعشرون فرقة ، واتخذت الخطوات المبدئية الأولى نحو خلق رأس رمح مدرع بتكوين لواء المدرعات « البانزر » الأول . وكان هذا اللواء يتألف من ثلاثة أفواج بكل منها كتيبتان ، جهزت بدبابات « بانزر - ١ » عندما أصبحت متاحة . وعندما رقي « لوتز » إلى قائد قوات « البانزر » في حزيران (يونيو) ١٩٣٤ ذهب « غوديريان » مرة أخرى معه كرئيس لأركانه . ومن المرجح أن الأخير استفاد من كتابات ليدل هارت بدراسة مقالاته التي تصف تجارب « هوبارت » Hobart في الاختراق العميق بواسطة لواء الدبابات البريطاني الأول في العام ١٩٣٤ و ١٩٣٥[٢٣] . وقد أتاحت تدريبات الدبابات البريطانية أفكارا هامة للمناورات الألمانية الأولى التي أجريت بفرقة مدرعات « بانزر » كاملة ، في « منستر لاغر » Munster Lager في تموز (يوليو) ١٩٣٥ . وكان المقصود من هذه المناورات التي حضرها وزير الحرب « بلومبرغ » والقائد العام « فريتش » ، ازالة المعارضة التي كانت لا تزال قوية لفكرة فرق وفيالق « البانزر » . وكما شرح « غوديريان » الأمر :

« لم يكن في نيتنا في تلك المناسبة تعليم مرؤوسينا من قادة الوحدات عند تقدير مشكلاتهم التكتيكية الفردية وفي رد فعلهم ازاءها ، انما بالأحرى أن يبرهنوا ببساطة على أن الحركة والالتزام في العمل من جانب حشود ضخمة من الدبابات جنبا الى جنب مع أسلحة مساندة ، هو في الحقيقة أمر ممكن » ..

كانت تلك التدريبات عملا كبيرا ناجحا ، الى حد انه في نهايتها قال « فريتش » مازحا : « هناك شيء واحد مفقود . كان يتعين أن نكتب على البالون (الذي يشير الى نهاية المناورة التدريبية) مدرعات « غوديريان » **هي الأفضل** »[٢٤] . في ذلك الوقت كان « غوديريان » يتجاوز المرحلة النظرية التي كانت فيها أفكار ليدل هارت مفيدة له ، ومن الآن فصاعدا اصبح يسترشد ، على الارجح ، إلى حد كبير بخبرته العملية في الميدان .

تميز العام ١٩٣٥ بأربعة أحداث هامة تتعلق بتطور القوات المدرعة الألمانية . أولا ، الغاء هتلر معاهدة فرساي ، وبهذا أزال آخر خيط في القيود التي كانت مفروضة على انتاج ألمانيا للدبابات . ثانيا ، جرى ارتجال أول فرقة مدرعات من وحدات قائمة فعلا . وتلا ذلك انشاء

---

(٢٢) « أوغور كيفيتش » ، المدرعات ، ص . ص . ٢١٢ .

(٢٣) حول رأي ليدل هارت بأن تقريره عن تدريبات الدبابات البريطانية تلك قد أثر في « غوديريان » انظر الدبابات - المجلد الاول ، ص ٣١٧ - ٣٢١ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢٤) قائد المدرعات ، ص . ص . ٣٥ - ٣٦ .

القـوات المدرعـة Panzer truppen كســلاح متميز، وأخــيرا ـ في تشرين الاول (اكتوبــر) تم تشكيل أول ثلاث فرق مدرعة دائمة ، وكان « غوديريان » قائدا للفرقة الثانية منها . ومع ذلك ينبغي ألا نتصور أن كل الامور كانت ميسرة بعد هذا . فقد أمكن تحميل قسم ضئيل فقـط من الوحدات المساندة على جرارات غير مدرعة ، ومن ثم فان قدرتها على متابعة الدبابات في اختراق البلد كانت محدودة للغاية . ولم يعالج أبدا هذا الموقف ، الذي كان أبعد ما يكون عن الموقف الامثل ، طوال فترة الحرب . ويقول « أونيل » : « حتى أفضل الفرق تجهيزا لم تصل إلا لمرحلة كان فيها « رماة فوج بانزر »«Panzer grenadier» ، باكملـه (أي نصف اللـواء) ، وبعض المدافع المضادة للطائرات وبعض مدافع الميدان وأقسام من وحدات الاشارة والهندسة المساندة محمولة على عربات نصف مجنزرة » .

بالاضافة إلى هذا ـ وكما يشرح « غوديريان » ـ كانت لا تزال هناك معركة شاقة طويلة ـ لا بد من خوضها قبل أن تتخذ القيادة العليا الألمانية ـ تحت ضغط من هتلر ـ قرارها في النهاية بأن تعهد الى جميع الدبابات بدور الاختراق العميق . ففي العامين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ـ وتحت تأثير رئيس الأركان المحافظ « بيك » ـ الى حد كبير ـ عهد الى ألوية « البانزر » بدور دعم المشاة ، بينما قبل مطلب الخيالة (الفرسان) للحصول على سيطرة أكبر على القوات المحمولة عن طريق خلق ثلاث فرق خفيفة بدلا من الفرق المدرعة الاضافية الثلاث . ومع ذلك فانه في العـام ١٩٣٨ ـ وجزئيا كنتيجة لتدخل هتلر المباشر في السيطـرة على القـوات المسلحـة بعـد عزل « بلومبـرغ » و « فـريتش » ـ كانـت هنـاك صحـوة لعقيدة الحـرب الخاطفـة . وفي شبـاط (فبـراير) عـين « غوديريان » لقيادة الفيلق السادس عشر (الذي كان يضم ثلاث فرق مدرعة) وفي تشرين الثاني (نوفمبر) التالي عين ـ بناء على اقتراح شخصي من هتلر ـ كأول قائد للقوات المتحركة ومنح امتياز حق الاتصال المباشر بالفوهرر حيثما أحس بأنه يواجه عقبة في أمر حيوي .

بحلول أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ كان يجـري تكوين ست فرق مدرعـة (بانـزر) وكان « غوديريان » مسؤ ولا مسؤ ولية رئيسية عن تدريبها على الأساليب الفنية لـ « الحرب الخاطفـة » التي تم بها اجتياح بولندا . وعلى الرغم من أن التفوق العـددي والنوعـي كان تامـا على قوات الدبابات البولندية ، فان أهمية الحملة ينبغي ألا يساء تقديرها . فلقد مثلت جهـدا رئيسيا من جانب الجيش الألماني وكان الاختبار القتالي الاول لفرق المدرعات . وقد أثبتت النتائـج صحـة أفكار « غوديريان » وتوطدت فرق المدرعات بوصفها رأس الحربة المتحرك للقوات البرية القادرة على سحق الدفاعات القوية والقادرة بالمثل على القيام بمناورات التفاف سريعة واختـراق عميق في مناطق مؤخرة العدو[٢٥] .

---

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٧ ؛ « أونيل » ص ١٥٨ ؛ « أوغور كيفيتش » ، المدرعات ، ص . ص . ٧٣ ـ ٧٥ ، ٢١١ .

بعد الحرب العالمية الثانية تعرف ليدل هارت شخصيا على كثير من كبار القادة الألمان ، من أمثال الفيلد مارشال « مانشتاين » و « رونشدت » و « براوخيتش » Brauchitsch الذين كانوا أسرى حرب في انكلترا ، والتقى في وقت لاحق بغيرهم ، مثل « غوديريان » ، الذي كان مسجونا في أوروبا . وقد أشاد كثيرون منهم بتأثيره في فترة ما قبل الحرب وفي اثناء الحرب على الجيش الألماني في مراسلاتهم وذكرياتهم ، وعلى الصور الفوتوغرافية التي أرسلوها اليه ، أحيانا بناء على طلبه ، ويمكن أن نشير ـ دون أن نزعم تحديا لاخلاص أي اشادة خاصة ـ الى أن هدف الاشادات ومجموعها لا بد أن تؤخذ بحذر ، نظرا لأنها أعلنت بعد الأحداث وفي ظروف كانت صعبة من الناحية الموضوعية . وكما ذكرنا في فصل سابق فان ليدل هارت جعل من نفسه المدافع الرئيسي عن القادة الألمان الأسرى خلال السنوات الخمس ، أو نحوها ، التي تلت الحرب العالمية الثانية ، بمعنى أنه شن حملة في الصحافة من أجل تحسين ظروف السجن ، وضد محاكمتهم كمجرمي حرب . وفي سلوكه الخاص كان يتصرف بكرم شديد تجاههم ، يرسل اليهم السجائر والتبغ وطرود الطعام ونسخا من كتبه ومقالاته . وفي حالات شاقة خاصة عرض نفسه لدرجة أشد من المتاعب ، اذ أمد « رونشتدت » المريض بحشية فراش ، وأمن نقل زوجة الفيلد « مانشتين » وابنه الى بيت شقيقته الواقع في المنطقة الفرنسية المحتلة بألمانيا . كل هذه التصرفات كانت تمليها بوضوح وأساساً مشاعر الشفقة نحو عدو مهزوم حارب ـ في رؤية ـ بشرف وبمهارة عالية . ومع ذلك فانه في الوقت نفسه كان معنيا بصورة حادة ـ كمؤرخ وكمشارك في الاحداث على السواء ـ بالتقاط كل قصاصة معلومات ممكنة عن أفكارهم فيما قبل الحرب وادارتهم للعمليات في الحرب العالمية الثانية . ونجاح أبحاثه وتحقيقاته التي لم يصبها الكلل واضح في غرفة مكتبة بأكملها وعلى رفوف مكدسة بالمراسلات وملاحظات اللقاءات ، التي شكلت أساس كتابه الجانب الآخر من التل (١٩٤٨) .

ان أحدا عرف ليدل هارت لم يستطع أبدا أن ينكر أنه كان ضعيفا الى حد يقرب من السذاجة ازاء المديح ، أما اذا كان أحد من القادة الألمان قد استغل نقطة الضعف هذه فيه عن عمد ، فهذه نقطة جانبية : انما الأمر الذي يهم هو أن علاقتهم معه كانت مشربة بمشاعر العرفان الدافقة ، وفي بعض الأحيان كانت مشوبة بالاعجاب المتبادل . وقد عبر « روبرت أونيل » عن هذه النقطة جيدا في مقاله التأبيني :

« انما كانوا (القادة الألمان) يدركون جيدا عدم وجود اصدقاء لهم نسبيا في جو الهزيمة وقد جدوا في السعي لتنمية علاقتهم الشخصية بليدل هارت . وبطبيعة الحال فانه كان ممتنا لمقابلة ومحادثة قادة عسكريين اثبتوا نجاح أفكاره الخاصة . وكانوا هم أنفسهم يمثلون مصدرا تاريخيا قيما »[٢٦] .

---

(٢٦) « أونيل » : « سير بازيل ليدل هارت : تقييم » في صحيفة الجيش Army Journal (الاسترالية) نيسان ١٩٧٠ ، ص . ص . ٢٩ ـ ٣٩ .

ويصبح المعنى الضمني الكامن في الجملة الثانية التي أوردناها أعلاه أوضح حينما نتذكر - كما أوضحنا قبلا في هذا الكتاب - أن سمعة ليدل هارت كانت في حالة خسوف أثناء الحرب العالمية الثانية ، وانه - في أواخر الأربعينات - كان لا يزال يشعر بمرارة بالغة فيما يتعلق بتجاهله من جانب المؤسستين العسكرية والسياسية البريطانيين . ولا يعني هذا أي نية معيبة من جانب ليدل هارت في انه يحاول عامدا تعزيز سمعته ؛ انما المسألة ببساطة أنه كان يشعر بالعرفان بالجميل لتلقيه تأكيدا بان أفكاره العسكرية النبوئية كانت تقدر تقديرا كاملا على « الجانب الآخر من التل » .

وعلى الرغم من أنه أعلن في وقت لاحق - حينما جاءته الاشادات الاسرائيلية انه لم يشعر أبدا بارتياح كلي ازاء امتداح الألمان له ، فان عدم الارتياح هذا لم يكن ظاهرا في الأربعينات . بل على العكس فانه كان فخورا للغاية بالاشادات الألمانية وشديد الحساسية ازاء أي اشارة ضمنية بأن تأثيره في هذا المجال كان محلا للشك . فانه عندما استخدم العقيد (الذي أصبح فيلد مارشال سير) « مايكل كارفر » - بغير ما حذر - عبارة « حاول أن يثبت » (تأثيره على القادة الألمان) في مراجعته لكتاب أوراق روميل The Rommel Papers ، كشف ليدل هارت عن شعوره الشديد بالتضرر وأقنع الكولونيل « كارفر » بأن يعدل الجملة بما يتفق مع سطور اقترحها ليدل هارت في رسالة إلى رئيس تحرير « صحيفة سلاح الدبابات الملكي البريطاني »(٢٧) .

وقد كتب ليدل هارت إلى الكولونيل « كارفر » :

« لقد اكدت من ناحيتي مرارا أن تطوير مثل هذه القوات وتقنياتها لم يكن جهدا منفردا ، وانما جهدا مشتركا - وأن الاشادة بدور « غوديريان » ينبغي أن يشارك فيها كل جماعة المؤيدين ممن هم في « سلاح الدبابات الملكي » أو على علاقة به »(٢٧) .

لم يكن ليدل هارت قد تبادل الرسائل مع « غوديريان » حتى أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨ ، عندما أرسل نسخة من كتابه الجانب الآخر من التل ، ولم يتقابلا حتى زار ليدل هارت المانيا في العام ١٩٥٠ . وقد علم ليدل هارت ، من خلال اجتماعاته مع الجنرال « فون توما » Von Thoma ، الذي كان قائدا لوحدات الدبابات الألمانية في أسبانيا أثناء الحرب الأهلية الاسبانية ، ووقع في الأسر بينما كان في القيادة المتوقفة في « العلمين » ، أن « غوديريان » كان من القراء الشغوفين بدراسة كتاباته . وبعد مقابلة مع « فون توما » في معسكر لاسرى الحرب « غريزداله » Grizedale في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ . كتب ليدل هارت :

« لقد درس ضباط الدبابات الألمان باهتمام بالغ الكتابات العسكرية البريطانية عن حرب المدرعات ، وخاصة كتاباتي . كما أنهم تابعوا باهتمام شديد النشاطات الرائدة للواء الدبابات الأصلي في

---

(٢٧) كولونيل « كارفر » الى ليدل هارت ، ٨ و ٢٤ كانون الأول ، وليدل هارت إلى « كارفر » ، ١٥ كانون الثاني ١٩٥٣ .

الجيش البريطاني . . . الذي شكل في العام ١٩٣٤ تحت قيادة هوبارت » Hobart .

وعندما سأل « ليدل هارت » غوديريان » في العام ١٩٤٩ متى بدأ قراءته للمرة الأولى ، عاد « غوديريان » بذاكرته واجاب « أعتقد أنني قرأت أول مقالاتك حوالى العام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ . ولقد قرأت كتب « عندما تدخل بريطانيا الحرب » و « مستقبل المشاة » و « اعادة تشكيل الجيوش الحديثة » . » .

كذلك كان « فون توما » هو الذي ساعد ليدل هارت على تأكيد الحقيقة ، التي أكدناها قبلا ، وهي أن « غوديريان » استخدم تقارير مناورات الدبابات البريطانية في العامين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ كمخطط لتدريب فرقة « البانزر » التي كان يقودها . وفي تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤١ تلقى ليدل هارت رسالة من السيدة « زينا هوغو » Zina Hugo زوجة أحد ضباط سلاح الدبابات البريطاني . وكانت السيدة « هوغو » قد أقامت في آب (أغسطس) ١٩٣٩ في نادي الضباط البلغاريين في « بليڤن » Pleven حيث التقت بضابط ـ يدعى الكولونيل « خانديف » Khandyeff ـ أعرب عن اهتمام شديد بكتابات ليدل هارت عن تكتيكات الدبابات ، واهتمامه أيضا بمناورات الدبابات بقيادة العقيد « هوبارت » . وقصت السيدة « هوغو » خبرة العقيد « خانديف » عن الارتباط بفرقة مدرعة ألمانية قبل سنوات قليلة ، على النحو التالي :

« كان قائد الفرقة مجنونا جنونا مطلقا بالامكانات المستغلة وغير المستغلة للدبابات . وكان ايمانه بالتشكيلات المدرعة الى حد أنه تحمل آلاما هائلة لزرع الحماس نفسه في الأشخاص العاملين تحت قيادته .

« لقد أنفق ماله الخاص على توفير نسخ من كتب ودوريات أجنبية ، وكذلك على خدمات معلم محلي للترجمات التقريبية . كان ألمانية هما الجنرال « فوللر » والكابتن ليدل هارت . وكان يعتبر ليدل هارت أفضل دماغ تحليلي في العالم ، وكانت مقالاته تترجم وتُقرأ وتُدرس ، ثم تناقش قبل وقت طويل من فحصها وارسالها من برلين .

« بينما كنت معه ، كانت تقارير ليدل هارت عن المناورات قد بدأت تنشر في « التايمز » فكانت كل حركة من حركات المناورات تنسخ وتوضع موضع التنفيذ العملي . كان ذلك مثل « بروفة » مسرحية . وكان الجنرال أسعد الرجال وأكثرهم انشغالا ، وكان يقول أن « هوبارت » أعطاه اجابة عن كثير من التساؤلات ـ ومصدر الهام له . وعندما تحدث خبير زائر مناهض للدبابات عن أوجه قصورها ، مستشهدا بآراء عديدة ، بينها آراء لأناس معروفين جيدا في انكلترا ، صرفه الجنرال بحنق قائلا : « تلك هي المدرسة القديمة ، وقد أصبحت بالفعل تاريخا قديما . انني أؤمن بـ « هوبارت » ، بالانسان الجديد »[٢٨] .

---

(٢٨) ٩/ ٢٤/ ١٤٤ حديث « فون توما » ، اول تشرين الثاني ١٩٤٥ . « زينا هيغو » الى ليدل هارت ، ٢٨ تشرين الأول ١٩٤١ (نسخة) ملف المتنوعات .

ومن الأمور المثيرة للدهشة نظرا للتفاصيل الظرفية ، أنه اما أن الكولونيل « خانديف » اغفل اسم الجنرال الألماني أو أن السيدة « هوغو » لم تذكره ؛ ويبدو أن الأرجح هو الاحتمال الأخير ، حيث أن اسم « غوديريان » لم يكن ليعني شيئا بالنسبة لسيدة انكليزية في آب (أغسطس) ١٩٣٩ . ومع ذلك فقد ذكر « فون توما » أنه يذكر زيارة « خانديف » جيدا وأنه يعتقد أن الجنرال المشار اليه ربما يكون « غوديريان » . وقد أرسل ليدل هارت - في العام ١٩٤٨ - الى « غوديريان » نسخة من قصة « خانديف » كما روتها مسز « هوغو » وطلب تعليقه عليها . ورد « غوديريان » قائلا :

« لا أذكر حضوره في مناورات فرقتي المدرعة . ولكن لما كان « توما » قد ذكر التقاءه به وكنت أنا قائد فرقة « توما » في ذلك الوقت فإنني أعتقد أن « خانديف » كان يتحدث عني في رسالته » .

قبل أشهر قليلة من ذلك كان « غوديريان » قد كتب الى الجنرال « ديتمار »Dittmar (الذي كان ليدل هارت على اتصال به) بأنه لا يستطيع أن يؤكد أن فرقته هي الفرقة التي أشار اليها « خانديف » :

« مع ذلك فمن المؤكد أنني قرأت مقالات كثيرة لليدل هارت وأنها كانت جميعا مثيرة للاهتمام الشديدة بالنسبة إليّ ، وأنني تعلمت منها الكثير »[٢٩] .

لم يلتق ليدل هارت أبدا مع الفيلد مارشال « روميل » ، ولم يتبادل معه الرسائل (ولعلنا نذكر أن « روميل » أجبر على الانتحار في خريف العام ١٩٤٤ نتيجة اشتراكه في مؤامرة ٢٠ تموز لاغتيال « هتلر ») . ولذلك فان الدليل على أنه كان من « مريدي » ليدل هارت هو بالضرورة أكثر ضعفا ، كما كان هذا الدليل مشتقا بصفة مبدئية من الجنرال « فريتز بايرلاين »Bayerlein Fritz مدير عمليات مجموعة « البانزر » التي كانت بقيادة « غوديريان » في العام ١٩٤٠ ، والذي كان رئيسا لأركان « روميل » أثناء قسم من حملة شمال أفريقيا . وعندما أجرى ليدل هارت في العام ١٩٥٠ اتصالا مع « بايرلاين » - عن طريق « مانفريد »Manfred ابن روميل - ابلغه بأنه :

« أثناء الحرب ، وفي مؤتمرات وأحاديث شخصية عديدة مع الراحل الفيلد مارشال روميل كنا نناقش مؤلفاتك التي نالت اعجابنا . وقد اعترفنا بك باعتبارك مؤلفا عسكريا ترك أعمق الأثر في الفيلد مارشال وأثر تأثيرا كبيرا على تصوراته التكتيكية والاستراتيجية . وأستطيع أن أقرر بصفتي رئيس الأركان السابق لروميل ليس فقط الجنرال « غوديريان » ، انما « روميل » أيضا كان تلميذا لك في نواح عديدة . لقد اكتسبت كتبك : مستقبل المشاة ، والدفاع الديناميكي وعندما تدخل بريطانيا الحرب وأوروبا تحمل السلاح تقديرنا خاصة وانه حتى ذلك الحين كان مؤلفك الاساسي « استراتيجية التقرب غير المباشر غير معروف لنا بعد » .

---

(٢٩) ٩/ ٢٤/ ٦٢ ليدل هارت إلى « غوديريان » ، ٢٠ و ٢٨ أيلول ١٩٤٨ . « غوديريان » إلى ليدل هارت ، ٧ تشرين الأول ١٩٤٨ . مقتطف من رسالة من « غوديريان » إلى « ديتمار » في ٢٩ آب ١٩٤٨ .

وأضاف « بايرلاين » ملحوظة مماثلة في أوراق روميل (١٩٥٣) مساعد ليدل هارت على أن يكتبها . فالمرة الوحيدة التي ذكر فيها « روميل » اسم ليدل هارت تشير الى مقالة كتبها في زمن الحرب وقرأها « روميل » في العام ١٩٤٢ . وقد ذكر « ألفريد روميل » :

« كان أبي يكن اعجابا شديدا بك ، وأذكر أنه قرأ واحدا أو أكثر من كتبك حينما عين قائدا لفرقة المدرعات السابعة في فرنسا (في العام ١٩٤٠) . وفي شمال أفريقيا درس المقالات التي كنت قد كتبتها أثناء الحرب . لقد كنت أصغر سنا وأكثر انشغالا بالأمور العادية بما لا يسمح لي بأن أحتفظ في ذاكرتي بملاحظات أبي على كتبك » .

ويبدو هذا الدليل مؤكدا بصورة معقولة للقول بأن روميل ـ على خلاف « غوديريان » ـ لم يكن من أتباع ليدل هارت ومدرسة الحرب الميكانيكية قبل العام ١٩٣٩ (وقد ذهب « فون توما » بعيدا الى حد وصفه بأنه كان « خصما » لتلك المفاهيم وأضاف أنه لم يفهم إلا التكتيكات الخاصة بالدبابات فقط ولم يفهم تقنياتها) ولكنه استفاد من نشر تلك المفاهيم في العام ١٩٤٠ وبعده[٣٠] .

وعلى الرغم من أن ليدل هارت لم يدرج الفيلدمارشال « ايريخ فون مانشتاين » في عداد مريديه ، فانه حاول ان يؤكد زعما خاصا لا تدعمه أوراقه . وينطبق هذا على فكرة « مانشتاين » البالغة الأهمية ـ في خريف العام ١٩٣٩ ـ القائلة بأن « الآردين » Ardennes لم تكن مستحيلة العبور بالنسبة لقوات ميكانيكية ضخمة وأنه يمكن تحقيق نتائج حاسمة ضد فرنسا باستخدام ذلك الطريق لتحقيق المفاجأة .

ويمكن تلخيص رواية ليدل هارت عن تنبؤه فيما يتعلق بامكان عبور « الآردين » على النحو التالي . بعد جولة في المنطقة في العام ١٩٢٨ توصل الى النتيجة القائلة بأن الحلفاء اخطأوا في الحرب العالمية الأولى عندما اعتقدوا أن « الآردين » منطقة غير ملائمة كلية لهجوم مضاد . وقد أشار إلى هذا الاستنتاج في كتبه الحروب الحاسمة في التاريخ و الحرب الحقيقية و « فوش » . ففي الكتاب الأول بين هذه الكتب الثلاثة المذكورة ـ على سبيل المثال ـ أشار إلى خطة الحلفاء لشهر أيلول (سبتمبر) ١٩١٨ التي كانت تهدف إلى عزل قسم كبير من الجيوش الألمانية في فرنسا عن طريق حركة كماشة واسعة ، وأضاف أن هذا الأمل :

« كان مبنيا على أساس الفكرة القائلة بأن « الآردين » تشكل حائطا يكاد يستحيل عبوره وليست له إلا مخارج ضيقة عند أطرافه . ويمكن للمرء أن يضيف ـ بصورة عريضة ـ أن هذه الفكرة

---

(٣٠) « بايرلاين » الى ليدل هارت ، ١٥ شباط ١٩٥٠ . ٩/٢٤/٢٤ « مانفريد روميل » الى ليدل هارت ٢٨ كانون الأول ١٩٤٩ . ٩/٢٤/١٤٤ حديث مع « فون توما » ، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥ . ليدل هارت (محررا) أوراق روميل ١٩٥٣ ص . ص . ٢٠٣ ، ٢٩٩ ، ٥٢٠ .

عن « الآردين » لا بد قد نشأت عن نقص في المعرفة بتلك المنطقة ، لأنها جيدة الطرق ، ومعظمها نواح مستوية أكثر مما هي جبلية » .

وفي منتصف الثلاثينات كان لا يزال يفكر في ضوء امكان شن هجوم فرنسي ، واعتبر أن الخطة الألمانية كان من الأرجح أن تكون خطة اغراء للفرنسيين لايقاعهم في فخ أكثر من أن تكون خطة بدء بالهجوم . وأشار ـ في مناقشة خاصة مع العميد سير « رونالد آدم » والعقيد « برنارد باجيت » يوم ١٢ أيار (مايو) ١٩٣٦ ـ الى أن الألمان قد يشنون هجوما عبر « الآردين » اذا تقدم الفرنسيون عبر بلجيكا ، ولكن هذا الأمر لم يكن معروفا ـ بالطبع ـ بالنسبة لـ « مانشتاين » . وأخيرا قدم اشارات مبهمة ـ في كتابه الدفاع عن بريطانيا (١٩٣٩) الى الوسائل التي يمكن للبلجيكيين والفرنسيين أن يسدوا بها الممرات الضيقة عبر الجبال باسقاط الأشجار والقيام بعمليات نسف . وكتب قائلا :

« ان معظم منطقة « الآردين » شبيه بالمناطق المحيطة بسهل « سالزبوري » ، وان تكن أكثر كثافة في الغابات ، ولكن الأنهار تشق أخاديد أعمق كثيرا ، وعند نقاط كثيرة حيث تعبرها الطرق يمكن لحفنة من الرشاشات أن توقف تقدم فيلق بأكمله » .

أكد ليدل هارت في هذا المسح للحدود الفرنسية والبلجيكية مزايا المدافعين ، وقد لاحظ أن « الآردين » قد تبرهن على أنها فخ استراتيجي لمن يغزوها اذا أخفق في عبور نهر « الموز »Meuse كما لاحظ أن بلجيكا مستهدفة كثيرا لهجوم مفاجىء على جناحها الهولندي ، ولو أن التقدم الألماني الرئيسي في العام ١٩٤٠ كان قد تم عبر هولندا لأمكن لليدل هارت أن يذكر هذه الفقرة باعتبارها تنبؤ ا دقيقا[٣١] .

ومن الممكن تماما أن يكون الألمان قد قرأوا هذه الاشارات وفسروها من وجهة نظرهم هم ، إلا أنه لا دليل هناك يوحي بأنهم فعلوا ذلك . ومع ذلك فان كثيرين منهم ، بما فيهم « غوديريان » ، كانوا يعرفون المنطقة معرفة شخصية منذ الحرب العالمية الأولى وكان باستطاعتهم أن يخرجوا باستنتاجاتهم الخاصة . وربما يكون من الأمور التي لها دلالتها أن « مانشتاين » قص على ليدل هارت ـ في العام ١٩٤٨ ـ بقدر من التفصيل كيف كان يتصور الخطة وكيف حصل على قبول « هتلر » لها دون أن يذكر اشارات ليدل هارت الى « الآردين » . وتوجد في نهاية ملف « مانشتاين » مذكرة تشير الى كتاب « ريجنالد باجيت » (لورد ريجنالد الآن) « مانشتاين : حملاته ومحاكمته » الذي يقول فيه ليدل هارت ضمنيا أن « مانشتاين » أقر بتأثيره على فكرة طريق « الآردين » اثناء حوار له مع « باجيت » ولكنه عاد في وقت لاحق فسحب هذا الاعتراف :

---

(٣١) ١١/ ١٩٤٨/ ٢٨ « الآردين كطريق ممكن للقوات الميكانيكية » . ١١/ ١٩٣٤/ ١ . ملاحظات يومية ، ١٣ نيسان . الحروب الحاسمة في التاريخ ، ص ٢٢٥ . الدفاع عن بريطانيا ص . ص . ٢١٦ ـ ٢١٩ .

« أبلغني « باجيت » بعد ذلك بأن « مانشتاين » أثار اعتراضا على تصريح محدد كهذا بما كان قد قاله لـ « باجيت » في جلسة خاصة ، وهكذا فان العبارة في صيغتها المنشورة عدلت بحيث تقرأ : قال أن الكابتن ليدل هارت أشار ـ في مقال له قبل الحرب ـ الى أن اجتياحا مدرعا عبر « الآردين » كان أمرا ممكنا من الناحية التقنية »[٣٢] .

ويمكن أن نذكر اشارتين اخريين كنموذج للمديح الذي كان يلقاه ليدل هارت من القادة الألمان السابقين في أواخر الأربعينات وفي الخمسينات . فقد نقل عن الجنرال « ف . و . فون ميلينثين » F. W. von Mellenthin وهو رئيس أركان سابق آخر لروميل ومؤلف كتاب معارك المدرعات (١٩٥٥) ـ في صحيفة ايفننغ ستاندارد Evening Standard ـ حول حديث ألقاه في « نادي السفاري » Safari Club في العام ١٩٥٩ ـ قوله :

« ربما يهمكم أن تعرفوا (هكذا قال الجنرال وعلى شفتيه مجرد صدى ابتسامة) أننا درسنا معظم كتب خبراء الدبابات الانكليز مثل الكابتن ليدل هارت . لقد كانت انجازات الدبابات الألمانية في السنة الأولى من الحرب ترجع اساسا الى حقيقة أننا تبنينا النظريات التي علمنا اياها الكابتن ليدل هارت ، بينما كان العدو لا يزال ـ في أفكاره ـ يعيش في الحرب العالمية الأولى »[٣٣] .

كذلك فان الجنرال « بلومنتريت » Blumentritt ـ نائب رئيس الأركان العامة في العام ١٩٤٢ ورئيس الأركان في الغرب في الفترة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ لخص على النحو التالي تأثير المدرسة الانكليزية لمنظري المدرعات في ألمانيا في فترة ما قبل الحرب ، في مقال نشر في العام ١٩٤٩ :

« كان ليدل هارت و « فوللر » بالنسبة الينا نحن الضباط الشبان ـ بعد العام ١٩٢٠ « المؤلفين العسكريين المحدثين » . فقد كانا يُدرسان بعناية وتُقرأ كل مقالاتهما بشكل خاص في الجيش الألماني . في تلك الأيام كنا ملازمين ونقباء تتراوح أعمارنا بين ٢٨ و٣٥ عاما وكنا نجد متعة في الروح الحديثة لهذين الكاتبين . وفي الوقت نفسه كنا نشعر بحنق شديد ازاء الموقف السلبي لقادتنا الكبار ، الذين كانت تتحلق ذهنيتهم وطريقة تفكيرهم حول التقاليد القديمة للخيالة . كانوا ينظرون بازدراء إلى الجوانب التقنية على أنها مهارات حرفية غير عسكرية . ولكننا كنا نعرف ـ حتى في ذلك الوقت ـ أن الأوساط المسؤولة في انكلترا كانت هي أيضا ضد المفاهيم الحديثة . ولهذا عرفنا اختلافات الرأي . وفي معسكرنا كان « غوديريان » و « فون رايخناو » وحدهما يناضلان من أجل مكننة الحرب . أما القادة الكبار الآخرون ، ومعظم ضباط الأركان العامة ـ قبل العام ١٩٣٩ ـ فكانوا يواجهون هذه التطورات الثورية بروح الشك ، بمن فيهم رئيس الأركان آنذاك ، « بيك » . كان ذلك صراعا بين

---

(٣٢) ١١/ ١٩٤٨/ ٣٢ « هجوم ودفاع » بدون تاريخ . انظر ايضا كتاب « باجيت » : مانشتاين (١٩٥١) ص ٢٢ .

(٣٣) ٩/ ٢٤/ ٧٣ ، قصاصة من ايفننغ ستاندارد ، ٢٧ آب ١٩٥٩ . انظر أيضا « ف . و . فون ميلينثين » : معارك المدرعات (١٩٥٥) .

جندي القرن التاسع عشر المتحجر وجندي عصرنا التقني الشاب »[٣٤] .

لقد بالغ ليدل هارت ـ على نحو يمكن فهم أسبابه ـ في وقت كان يشعر فيه بالاحباط بوجه خاص بعد الحرب العالمية الثانية ـ في تقدير التناقض بين اهمال أفكاره من جانب القادة البريطانيين ، والاستقبال الحماسي لها من جانب الألمان . والحقيقة أنه كان له مؤ يدوه في الجيش البريطاني ، بينما كان نفوذه في ألمانيا عائدا الى حد كبير الى ثلاثة من القادة الموالين للنازية : « بلومبرغ » و « رايخناو » و « غوديريان » ، الذين كانوا جميعا في الثلاثينات في مراكز تؤ هلهم لنشر أفكاره .

تبرز في هذا الفصل ثلاث نقاط ذات أهمية خاصة : الأولى أن « فوللر » يستحق القدر نفسه ـ على الأقل ـ من الاعتراف الذي يناله ليدل هارت عن نشر عقيدة المكننة في ألمانيا في العشرينات وأوائل الثلاثينات . لقد ارتبط اسم « فوللر » بصفة خاصة بالدبابات ، على حين كان ينظر الى ليدل هارت نظرة تقدير عال كمؤ رخ ومعلق عسكري على المسائل الدفاعية بوجه عام . والثانية أن أقيم مساهمات « ليدل هارت » وأكثرها تميزا بالنسبة للفكر العسكري الألماني ربما كانت قد تمت قبل خلق فرق المدرعات (البانزر) الأولى وبصفة محددة في مفاهيمه عن الاختراق الاستراتيجي العميق بواسطة قوات مدرعة ضخمة ، واصراره على الحاجة الى عنصر المشاة وأسلحة ميكانيكية مساندة للتميز عن الفرق التي تعتمد على الدبابات وحدها . وأخيرا فان مزاعم ليدل هارت في فترة ما بعد الحرب بأنه مارس تأثيرا هاما على الجيش الألماني انما كانت ترجع في الأساس الى اعتراف الرجل الذي أُلهم أساسا بخلق قوات « البانزر » (المدرعات) في الثلاثينات ، والذي لعب بعد ذلك دورا قياديا في حملتها الرائعة في فرنسا في أيار (مايو) ١٩٤٠ وهو الجنرال « هاينز غوديريان » . ومن الملائم أن نختتم باشادة « غوديريان » الكريمة بليدل هارت في موسوعة Der Grosse Brockhaus : « خالق نظرية ادارة الحرب الميكانيكية »[٣٥] .

---

(٣٤) ٣٨/١٩٤٨/١١ . انظر أيضا « س . ويستفال » : الجيش الألماني في الغرب (١٩٥١) ص ٣٧ .

(٣٥) ذكرها « أونيل » (وترجمته) ص ١٦٤ . قارن الترجمة الحرفية في ٣٨/١٩٤٨/١١ « كاتب عسكري بريطاني ، وصفه « غوديريان » بأنه المصدر النظري لفن الحرب الميكانيكية » .

الفصل التاسع

تأثير ليدل هارت

على النظرية والممارسة العسكرية الاسرائيلية

لا يمكن أن يقوم شك في أن اسم ليدل هارت والأفكار العسكرية الرئيسية التي ارتبطت به لا تزال مألوفة لعدد كبير من الاسرائيليين . فالحقيقة أنه ، بالمقارنة إلى سمعة المعلمين العسكريين الأجانب في بريطانيا ، مشهور الى حد يبعث على الدهشة ، الأمر الذي استطاع المؤلف أن يتحقق منه بنفسه في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥ . ولكن ينبغي أن نتذكر أن الأغلبية الساحقة من الاسرائيليين البالغين يؤدون الخدمة - أو أدوا الخدمة - في القوات المسلحة ، وأن الحرب والسياسة يناقشان هناك ، لأسباب واضحة - بالاهتمام نفسه الذي تناقش به كرة القدم ولعبة « الكريكيت » في بلدان معينة أكثر أمنا . كذلك يجد المرء - بفحص عن كثب أكثر - أن المعرفة بليدل هارت في معظم الحالات تكتسب في معظم الأحوال كمعرفة غير مباشرة من الصحف اليومية والجرائد الأخرى ؛ وبصفة خاصة فان زيارته الرسمية (لاسرائيل) في العام ١٩٦٠ وتعليقاته على حرب العام ١٩٦٧ تمتعتا بشهرة كبيرة . وقد ترجم كتابان فقط له - هما سبيون الأفريقي و الاستراتيجية : التقرب غير المباشر ، كما ترجمت له حفنة من المقالات الى اللغة العبرية[١] . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه التحفظات ، هناك أسس سليمة للاعتقاد بأن أفكار ليدل هارت - بصورة عامة - قد أثرت تأثيرا مهما في اسرائيل - وأهم دليل على ذلك هو اشادات عديد من العسكريين والدارسين البارزين به . ومع ذلك فان الأمر الذي يحتاج إلى فحص دقيق هو مصادر هذا التأثير ومداه وطبيعته . فانه لا يكفي ببساطة - كما فعل بعض المراجعين والصحافيين المتحمسين الذين لا يتمتعون بخلفية تاريخية خصبة - أن تعزى كل النجاحات الاسرائيلية إلى استخدامهم البارع للتقرب غير المباشر كما غرسها ليدل هارت .

واذا كان الاسرائيليون حقا « أفضل تلاميذ » ليدل هارت ، فان هذا قد قررته مسبقا الى حد

---

(١) يقال أن زيارته لاسرائيل لقيت تغطية صحافية فاقت أي زيارة أخرى منذ زيارة مارلين مونرو لها . وطبقا لقائمة أمدني بها الجنرال « لاسكوف » ، فان أيا من مقالات ليدل هارت التي نشرت بالعبرية في صحيفة ماعراشوت Ma'arachot العسكرية لم يكن يتعلق بالدبابات أو المسائل التقنية : انما كانت كلها حول السياسة والاستراتيجية

كبير ظروفهم الفريدة ـ لقد ولدت دولة اسرائيل بالمعنى الحرفي في حرب ، وعاشت منذ ذلك الوقت على نحو محفوف بالخطر ، محاطة بأعداء يودون أن يروها وقد دمرت . وقد ساعدت على رفع الروح المعنوية كثيرا معرفتهم بأن هزيمة كبيرة واحدة من شأنها أن تجلب معها بالتأكيد زوالهم القومي . كذلك فقد تأثرت الاستراتيجية الاسرائيلية تأثرا حاسما بالجغرافيا ؛ فالى وقت انتصاراتها في العام ١٩٦٧ كانت حدودها لغوا من الناحية العسكرية ، ومن المؤكد أنها كانت لا تتيح اختياراً للدفاع من حيث العمق ومن حيث الاعتماد على هجوم واسع معاكس . وبوجه خاص ومع وجود « خصر » يضيق إلى حد لا يكاد يبلغ فيه عشرة أميال إلى الشمال من تل أبيب ـ كان القسم الرئيسي من المراكز السكانية في مدى الرمي المدفعي للعدو ، وكان البلد يواجه خطر التقسيم إلى نصفين بواسطة هجوم مفاجىء من الشرق . وحتى مع الأراضي التي كسبتها إسرائيل في العام ١٩٦٧ لا تزال المدن الاسرائيلية في مدى الطيران القريب من مطارات العدو . وقبل حرب العام ١٩٦٧ ـ على سبيل المثال ـ كانت تل أبيب على بعد حوالي ١٢ دقيقة طيران من العريش ، وهي لا تزال على مسافة نصف ساعة طيران فقط من القاهرة . وبالاضافة إلى هذا فان اقتصاد اسرائيل هش للغاية . وعلى الرغم من المحاولات المصممة لخلق قاعدة صناعية ذات مقدرة على صنع الأسلحة ، فإنها لا تزال تعتمد اعتماداً حرجاً على الواردات في المجال الدفاعي ، وخاصة بالنسبة للطائرات والدبابات . وباختصار لا يمكن لاسرائيل أن تفكر إلا بحروب قصيرة للغاية (كانت حرب الاستقلال ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩(*) حرباً متقطعة وذات درجة منخفضة من الحدة) ؛ وحتى الانتصار في حرب تدوم أكثر من أسابيع قليلة من شأنه أن يكون كارثة من الناحية الاقتصادية . وكنتيجة طبيعية للنقطة الأخيرة تعين على المخططين الاستراتيجيين الاسرائيليين أن يفترضوا أن الدول الكبرى لن تدع حرب استنزاف تستمر فترة طويلة . وهذا من شأنه ـ من الناحية النظرية ـ أن ينقذ اسرائيل من الابادة ، وان كان ـ من ناحية الممارسة ـ قد منعها حتى الآن من فرض انتصارها داخلياً . ولكن المعنى كان دائماً واضحاً ، ان من الحيوي أن تكسب امتيازات عسكرية خلال الأيام القليلة الأولى بينما تواجه المساومات الدبلوماسية .

واخيرا ـ وربما أهم من كل شيء ـ ان الاسرائيليين لا يستطيعون احتمال إلا القليل من الاصابات . ولعل موقفهم اللا عسكري تماما في هذا الصدد مركب من ثلاثة عوامل : تاريخ الاضطهاد اليهودي ، والحجم السكاني الضئيل ، والبنية الاجتماعية المتماسكة للغاية للأسرة الواسعة . فحتى بعد قرابة ثلاثين عاما من الاستعداد المستمر للحرب ، لا يزال رئيس الوزراء يحاط علما على الفور بكل إصابة ، وتنشر صور كل جندي قتيل مع نبذة قصيرة عن حياته في الصفحات الأولى من الصحف . والحقيقة أن هذا الموقف الانساني الجدير بالاعجاب(*) قد نفذ

(*) المقصود هنا الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى ، ويلاحظ أن المؤلف يستخدم الاصطلاح نفسه الذي يستخدم في اسرائيل اشارة اليها . « المترجم » .

(*) من الواضح أن اعجاب المؤلف (بريان بوند) بالاسرائيليين يصل به إلى حد قلب المعايير الانسانية . لأنه ينسى أن

حتى الآن الى حد أنه يمكن أن يشكل عيبا عسكريا . فقد يمنع مجلس الوزراء والأركان العامة من اختيار القيام بعملية عسكرية جريئة حيثما وجدت مخاطرة بوقوع اصابات كثيرة . ومن المؤكد أن هناك أمثلة متعددة على انتقادات صحفية حادة حتى بشأن غارات حققت درجة عالية من النجاح لأن الاصابات الاسرائيلية فيها اعتبرت زائدة[٢] . وعلى الرغم من أن نتيجة عمليات العام ١٩٧٣ كانت انتصارا من الناحية العسكرية فان الخسائر العالية نسبيا ـ بالمقاييس الاسرائيلية ـ اذ بلغت نحو ٣٠٠٠ قتيل و ٨٠٠٠ جريح ـ سببت نقدا واتهامات مريرة . ومن ناحية أخرى فان معرفة الاسرائيليين بأن كل حياة فردية تعتبر ثمينة من جانب القادة العسكريين وأن كل عناية ستبذل للتقليل قدر الامكان من الاصابات وانقاذ الجرحى تعطي دفعة قوية للروح المعنوية . وقد علق ليدل هارت على هذه المفارقة بعد حرب العام ١٩٦٧ بأنه على الرغم من أن شعب اسرائيل كان غير مستعد للسماح بدرجة عالية من الاصابات فان استعداد جنودها الأكبر للموت من أجل قضيتهم أعطاهم ميزة هائلة على خصومهم[٣]* .

ومن الواضح أن هذه العوامل المتنوعة مارست ـ مجتمعة ـ تأثيرا حاسما على صانعي الاستراتيجية الاسرائيلية . وبعبارة بسيطة فان على القوات الاسرائيلية أن تعمل من أجل أسلوب سريع وحاسم في العمليات بينما تمارس اقتصادا فظا في القوى البشرية والمادية . لقد أجبرت الظروف الإسرائيليين على الاعتماد أساسا على « النوعية » أكثر من « الكمية » ، وخاصة فيما يتعلق بالأفراد . وهكذا كان التأكيد في العامين ١٩٥٦ و ١٩٦٧ (وكذلك كانت توصية المستشارين العسكريين في العام ١٩٧٣) على ضربة اولى مفاجئة غير متوقعة بهدف ايقاع الاختلال بالعدو وتحقيق امتياز حاسم عليه في الساعات الأولى للصراع . ويمكن بالتأكيد أن نذكر كتابات ليدل هارت في تأييد عنصر المفاجأة في هذه العقيدة ، ولكنه كان يميل بوجه عام الى القول بأن الضربة الأولى نادرا ما تكسب الحرب ، وأن الاستراتيجية المثالية هي الهجوم المضاد بعد أن تكون قوة دفع المهاجم قد توقفت ، على نحو ما حدث في الرد الخاطف الذي قام به « جوفر » Joffre(**) على « المارن » Marne في العام ١٩١٤ . وقد نفّذ الاسرائيليون هذه الاستراتيجية بنجاح كبير في العام

اسرائيل التي تحرص كل هذا الحرص على التقليل من اصاباتها في القتال للأسباب الموضوعية التي شرحها) تتصف بالمقابل بوحشية من أعلى درجة في تجاهل كل القوانين والأعراف الانسانية فيما يتعلق بخصومها ، ولا تفرق في هذا بين عسكريين ومدنيين . « المترجم »

(٢) « ادوارد لوتواك » و « دان هوروفيتش » : الجيش الاسرائيلي (لندن ١٩٧٥) ص . ص . ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٣) ليدل هارت : « مركز اسرائيل الاستراتيجي » في صحيفة The Jewish Standard ٢٩ نيسان ١٩٤٩ .

* يحق للمرء أن يتساءل : من أين تصور ليدل هارت بأن العرب ـ خصوم اسرائيل ـ كانوا أقل استعدادا للموت من أجل قضيتهم ؟ « المترجم » .

(**) جوزيف جاك سيزير جوفر (١٨٥٢ ـ ١٩٣١) عسكري فرنسي بارز كان في بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) قائدا عاما للجيوش الفرنسية وأصبح بعد ذلك قائدا عاما لقوات الحلفاء في فرنسا . اشتهر بأنه بطل معركة « المارن » (ايلول ١٩١٤) التي أوقفت تقدم الألمان إلى باريس . أصبح مارشالا في العام ١٩١٧ . « المترجم » .

١٩٧٣ ، ولكن لم يكن ذلك باختيارهم .

وهناك اعتبار آخر ينبغي ذكره قبل تفحص تأثير ليدل هارت تفصيلا . فان المستوطنين اليهود في فلسطين ، الذين ينحدرون من أصول غير واحدة من الناحية العسكرية ، ومثلهم المهاجرون الذين جاءوا بعد ذلك من أوروبا وشمال أفريقيا ، قد أظهروا تدريجيا مهارات عسكرية ذات مستوى عال[٤] وكانت اسرائيل - بعد اقامة الدولة - قد أوجدت بنية دائمة وقانونية ، و زغ جيش كان في الواقع مثاليا من حيث المعايير التي كان ينادي بها ليدل هارت في السياق الأوروبي الأقل تأييدا منذ العشرينات . وبإيجاز كانت هنا دولة ديمقراطية صغيرة لا يعرقلها ثقل تقاليد عسكرية منتظمة ، ولها مواطنون على درجة أعلى من المتوسط في مثاليتهم وتعليمهم وفي القيمة التي يعزونها للذكاء ، وتملك روحا عسكرية ملتهبة ، وان تكن غير عسكرية بدرجة ملحوظة بالمعنى المنحط لكلمة عسكري ،وعلى درجة من التصميم على التشبث بالحياة حتى انها كانت مستعدة لأن تكون ناقدة لذاتها باستمرار حتى في انتصاراتها[٥] .

لقد برهن الافتقار إلى تراث عسكري يهودي منذ العهد التوراتي - على الرغم مما أظهره يهود عديدون من شجاعة في القوات المسلحة للدول الأخرى - على أنه كان في الحقيقة ميزة في اسرائيل ، من حيث أنه أتاح المجال لوسائل أصيلة وأفكار جديدة . ففي الجو العام الاجتماعي القائم على المساواة الذي يسود خاصة في « الكيبوتز » ، يندر أن تفرض الأوامر من جانب سلطة الرتبة العسكرية فحسب ، وقد اعتبر النقاش المفتوح أمرا طبيعيا . وبالمثل فان الأصول المتباينة للقوات المحاربة اليهودية قبل العام ١٩٤٨ خلقت اتجاها صلبا ضد فرض نظام موحد للقيادة . وتم الاحتفاظ بنظام قيادة لا مركزية في قوات الدفاع الدائمة بعد العام ١٩٤٨ ، الأمر الذي أتاح مجالا للمرونة والفردية ولا يقل عن هذا أهمية أن قسما كبيرا من تقاليد « البالماخ »[٦]* قد ظل قائما ؛ وعلى الرغم من كسر فردية المدنيين من أجل تحويلهم إلى جنود ، كان تدريب « البالماخ » يشجع على المبادرة على النحو الذي يمثله شعار « الوحدة الأصغر هي الرجل الواحد حاملا بندقيته » . كذلك أكد هذا التقليد أن على الضباط أن يقودوا بالقدوة الشخصية من الجبهة بدلا من أن يقودوا بواسطة الأوامر التفصيلية ؛ ومن هنا كانت العبارة الأخاذة « اتبعني » التي لا تزال لها شعبية كبيرة .

أما فيما يتعلق بالخدمة العسكرية فليس هناك بلد يطلب من مواطنيه أكثر مما تطلب

---

(٤) انظر - مثلا - كتاب ييغال آلون : « خلق الجيش الاسرائيلي The Making of Israel's Army (١٩٧٠) .

(٥) حتى لا تظهر هذه الفقرة مفرطة في المديح ينبغي أن نذكر أن اليهود الصهاينة قد تركوا انطباعاً عميقاً حتى لدى بعض المتعاطفين معهم بوصفهم مفرطي النزعة القانونية ، ميالين للشكوى ومثيرين للشقاق - انظر كتاب كريستوفر سايكس : أورد وينغيت Orde Wingate (١٩٥٩) ص . ص . ١٥٤ - ١٥٥ .

(٦) كانت « البالماخ » قوة ضاربة متحركة تعمل متفرغة تابعة لـ « الهاغاناه » أسست في العام ١٩٤١

(*) لتعريف أشمل بالبالماخ انظر الموسوعة العسكرية* باشراف المقدم الهيثم الايوبي - بيروت ١٩٧٧ . الجزء الأول .

اسرائيل . فالتجنيد الاجباري ـ الذي يتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ، تليها فترات متفاوتة من التدريب الاحتياطي وبرامج التجديد ـ ضروري لأن رجال الاحتياط لا بد أن يعدوا لأداء الخدمة في تشكيلات خطوط الجبهة خلال ساعات قليلة من استدعائهم . وبالمثل ، فان على ضباط الاحتياط أن يكتسبوا مهارات الضباط المحترفين المتفرغين في الجيوش الأخرى . فأين ـ إلا في قوات الدفاع الاسرائيلية ـ يمكنك أن تجد قائد فرقة مختار من الاحتياط مباشرة ؟[٧] ويقال أن « ييغال يادين » ، رئيس الأركان خلال الفترة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢ ، والذي أصبح فيما بعد عالم آثار ذي شهرة دولية ، هو الذي صاغ العبارة القائلة : « كل مواطن جندي في اجازة سنوية مدتها احد عشر شهرا »[٨] .

حققت قوات الدفاع الاسرائيلية درجة عالية من الاستعداد والكفاية مع حد أدنى من الطابع العسكري أو التمييز بين الضباط ، وضباط الصف والرتب الأخرى . والأزياء الرسمية للضباط لا تختلف اختلافا ملحوظا عن أزياء الجنود ، وفكرة نوادي الضباط لم تجد من يتمسك بها . « لقد ظل الجو العام في تشكيلات الاحتياطي جوا مدنيا وسط كل زخارف الحياة العسكرية . . . والحالات التي فيها يخدم أساتذة جامعات تحت قيادة طلابهم ، أو كتبة محررون يحملون رتبا أرفع من رؤسائهم ، هي أمور شائعة ، ومن ثم فانها لا تلفت انتباه أحد . وضباط الاحتياط فخورون بمستوى رتبهم أمام عائلاتهم وأصدقائهم ، أما بين أقرانهم من رجال الاحتياط فانها لا تمنحهم إلا امتيازا ضئيلا ، أو لا تمنحهم أي امتياز على الاطلاق »[٩] .

لقد اعترف ليدل هارت ـ على الرغم من أنه كان من خصوم التجنيد الاجباري الالداء ـ بأن تأثير التجنيد في اسرائيل كان « تمدين العسكريين » . فهناك « جيش انساني » احتفظ فيه المواطنون بقيمهم المدنية بينما يبلغون درجة عالية من المهارة المهنية . وقد نقل ـ بعد حرب العام ١٩٦٧ ـ فقرات مطولة من رسالة تلقاها من مراسل اسرائيلي لاحظ أنه بينما يعتقد كثيرون من اصدقائه في أميركا أن الجيش هو « ملجأ لأولئك الذين هم أشد غباء من أن يتفادوه ، ففي اسرائيل أحيانا ما يغادر البلاد الأشخاص الذين يرفضهم الجيش ـ فالخزي عندئذ يكون شديدا »[١٠] .

لم يدع ليدل هارت عدم الانحياز حيثما كان الأمر متعلقا بالشؤون العسكرية الاسرائيلية ؛

---

(٧) لقد استدعي « لاسكوف » مثلا من جامعة أكسفورد حيث كان يدرس ليصبح نائبا لرئيس الأركان في العام ١٩٥٥ . كذلك قاد « يوفي »Yoffe ـ وكان ضابطا احتياطيا ـ لواء في العام ١٩٥٦ وفرقة في العام ١٩٦٧ .

(٨) الجيش الاسرائيلي ، المصدر المذكور ، ص ٧٩ . وقد طبق التجنيد الاجباري على النساء من البداية ، وان يكن لفترة أقصر من تجنيد الرجال ، ومع اعفاءات مختلفة .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(١٠) مقابلة مع « آلون » في ١٩ ايلول ١٩٧٥ . ليدل هارت في مجلة Encounter عدد شباط ١٩٦٨ . على الرغم من أن العرب الذين كانوا يعيشون في اسرائيل في حدود ما قبل ١٩٦٧ (ويبلغ عددهم نحو ٤٠٠ ألف نسمة) هم بالتأكيد مواطنون اسرائيليون ، فانهم بوجه عام لم يجندوا للخدمة العسكرية .

فالحقيقة أن موقفه كان أكثر شبها بموقف ناظر مدرسة فخور يمتدح أجيال التلاميذ المتلاحقة التي لم تنل الجوائز فحسب ، بل حسنت تعاليمه . وقد بذل كل ما بوسعه ليؤكد أن عواطفه المؤيدة للصهيونية سابقة تاريخيا على تأسيس دولة اسرائيل(*) . اذ كان قد استشير في العامين ١٩٣٧ و ١٩٣٨ في لندن من جانب عدد من الزعماء الصهاينة حول الجوانب الاستراتيجية لوضع الشرق الأوسط . وكان بينهم « حاييم وايزمان » ، الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لجمهورية اسرائيل ، و « دافيد بن غوريون » ، و « يسرائيل غاليلي » و « موشي شاريت » (الذي أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ثم رئيسا لوزرائها) . وقد سجل ليدل هارت في كتابه الذكريات أنه « منذ الوقت الذي التقيت فيه لأول مرة بزعماء اسرائيل الناشئين وجدت لديهم ادراكا للمشكلات العسكرية وأفكارا عسكرية جديدة شبيهة بأفكار الألمان ، وتتجاوز أفكار الألمان في بعض الجوانب » . وقبل هذا بعامين أو ثلاثة أعوام كان الجنرالان « ديل » Dill و « وافيل » Wavell وكانا قائدين عامين [للقوات البريطانية ـ المترجم] في فلسطين على التوالي ـ قد نقلا الى ليدل هارت آراءهم التي تنطوي على تقدير عال جدا للقدرات القتالية لليهود في فلسطين . وقرب نهاية العام ١٩٣٨ كان ليدل هارت قد عقد اجتماعين مع الكابتن « أورد وينغيت » لمناقشة تكتيكات وتدريب وحدات مكافحة حرب العصابات (« الفصائل الليلية الخاصة » الشهيرة) ، التي كان قد نظمها في ذلك العام في فلسطين من متطوعين يهود ونظاميين بريطانيين لمواجهة الجماعات العربية المسلحة التي كانت تسبب متاعب جمة للحامية البريطانية منذ العام ١٩٣٦ . ووفقا لما تقوله ذكريات ليدل هارت ، كان « وينغيت » يستخدم مؤلفاته الأولى عن تدريب المشاة وكذلك كتيّبه الأحدث مستقبل المشاة(١١) . وهكذا ـ في هذا الجانب المهم ـ لا يبدو أن ليدل هارت قد اجتاحته العواطف الموالية للعرب التي كانت لدى بطله ت . إ . لورانس ، الذي كان « وينغيت » يفخر ـ عرضا ـ بأنه يمت اليه بصلة قرابة بعيدة(١٢) . ولا يملك المرء إلا أن يستنتج أن ليدل هارت ـ في هذا الصدد ، كما في مسائل أخرى كثيرة ـ كان يرد على النظرة التقليدية العامة للمؤسسة العسكرية البريطانية ، على نحو ما فعل « وينغيت » بالتأكيد في اعتناقه المتعصب للقضية الصهيونية .

ولقد اعتمدت أولا وقبل كل شيء ـ في محاولة مني لأن أكون على أدق درجة ممكنة في تقويم تأثير ليدل هارت على الاسرائيليين ـ على ملفات أولئك الذين تبادل الرسائل معهم ، ودققت

(*) يتعين قراءة هذا الفصل من الكتاب بأكمله وفي كل تفصيلاته في ضوء حقيقة انحياز ليدل هارت المعترف به للعسكرية الاسرائيلية وتأييده القديم للصهيونية . « المترجم » .

(١١) الذكريات ، المجلد الثاني ، ص . ص . ١٨١ ـ ١٨٣ . أوراق ليدل هارت ٨/١٣ . من أجل اشارة الى اجتماع ليدل هارت مع « بن غوريون » في العام ١٩٣٦ انظر المقابلة المنشورة مع « دافيد كيسلر » في صحيفة The Jewish Chronicle ، ٢٢ تموز ١٩٦٠ .

(١٢) يذهب « سي . سايكس » ـ من ناحية أخرى ـ الى أن « وينغيت » لم يكن يحب ان يذكّره أحد بقرابته للورانس أو شبهه به . انظر « أورد وينغيت » المصدر المذكور ، ص ١٣٣ .

المعلومات التي استخرجتها من هذا المصدر عن طريق مقابلات شخصية . ولما كان جميع المراسلين المهمين ـ عدا أثنين هما «ياكوف (يعقوب) دوري »و «يسرائيل بير» ـ لا يزالون على قيد الحياة، كانت تلك فرصة نادرة لتأمين معرفة مباشرة عن نوع التأثير الذي يمكن أن يمارسه التعلم على السيف . وربما ينبغي التأكيد على أن ما يلي ليس بأي معنى محاولة لرسم الخطوط الدقيقة للتاريخ العسكري أو الاجتماعي لقوات الدفاع الاسرائيلية . فانه ينبغي افتراض معرفة كافية بهذين التاريخين حتى يكون حد أدنى من المعلومات كافيا لتوفير اطار يمكن أن تناقش داخله أفكار ليدل هارت .

وعلى الرغم من التعاون الضمني ـ والكاره في كثير من الأوساط ـ بين قوة الدفاع اليهودية (« الهاغاناه ») والبريطانيين في صورة « الفصائل الليلية الخاصة » وشرطة المستوطنات (اليهودية) ، فانه ظل جيشا سريا غير شرعي وان يكن مسموحا له . ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت « الهاغاناه » قد اكتسبت تنظيما مبدئيا من ضباط الأركان الذين يتقاضون رواتب ورئيس أركان في شخص « يعقوب دوري » . ولكنها كانت لا تزال تفتقر الى المكونات الحيوية لجيش نظامي ، مثل الامدادات الكافية من الأسلحة ، والرجال المدربين على العمل الشاق وطاقم الضباط ذوي الخبرة . ولم يكن بالامكان تنفيذ التدريب إلا من جانب مجموعة صغيرة من رجال العصابات الذين يتخذون قواعدهم في « الكيبوتز » . وقد رفضت بريطانيا ـ التي كانت تدعو في أيار (مايو) ١٩٣٩ إلى سياسة من شأنها اعطاء العرب ميزة حاسمة في دولة عربية ـ يهودية تنشأ في النهاية ـ رفضت الاقتراح الصهيوني بتكوين جيش يهودي ، أو حتى فرقة يهودية ، ولكن عددا وصل إلى ٢٧ ألف يهودي تطوعوا للخدمة في القوات البريطانية وقوات الحلفاء ، وفي لواء يهودي كان يشكل قسما من الجيش الثامن البريطاني في ايطاليا في ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ . وعندما وصل هجوم روميل إلى أبواب مصر في العام ١٩٤١ قرر زعماء « الهاغاناه الجدد تكوين قوة متحركة من الجنود المتفرغين للدفاع عن المناطق اليهودية» . هي القوة المعروفة باسم «البالماخ» . أصبحت هذه القوة من النخبة ـ تحت قيادة «اسحق صاده» وهو من المحاربين القدماء ـ أساس التدريب لكثير من قادة الجيش الاسرائيلي في المستقبل ، وبينهم « ييغال آلون » و « موشي دايان » . وعلى الرغم من أن هذه القوة كانت موضوعة تحت القيادة المباشرة للهاغاناه فان أول فصيلتين منها اشتركتا في الغزو البريطاني لسوريا ولبنان في آب (أغسطس) ١٩٤١ ، ولكن هذا الاشتراك كان في الحقيقة آخر مثل للتعاون اليهودي الانكليزي في الشرق الأوسط . كانت « البالماخ » قوة « مختارة » وذات اتجاه يساري صريح من الناحية الايديولوجية ؛ كانت في الأساس قوة شابة من مشاة حرب العصابات الذين حققوا مستوى عاليا في المهارة الفردية في استخدام الأسلحة وفي رفع المعنويات الجماعية . وللفترة الباقية من الحرب كانت القيادة السياسية اليهودية التي تسيطر على « الهاغاناه » في وضع يكتنفه الغموض ـ على خلاف متزايد مع البريطانيين في تصميمها على اقامة وطن قومي يهودي قادر على الحياة ، ولكنها مستعدة في المدى القصير للتعاون من أجل الحاق الهزيمة بالمحور . ومع ذلك

فانها لم تستطع أن تسيطر على جماعات صغيرة من المتطرفين اليهود مثل جماعة (ليحي) (« لوحاميل حيروت اسرائيل » - وهي بالعربية تعني « المقاتلون الاسرائيليون من أجل الحرية » ؛ المعروفة لمن يحطون من قدرها باسم « عصابة شتيرن ») أو جماعة I. Z. L. (« ايرغون زفاي ليومي » - وتعني العربية « التنظيم العسكري القومي ») وكانتا تنظيمين ارهابيين سافرين[١٣] .

في تلك الفترة المشوبة بالغموض التي سبقت تأسيس دولة إسرائيل بذرت بذور تأثير ليدل هارت . بذرها واحد من ألمع جنود اسرائيل وواحد من قلة ضئيلة للغاية كانت - قبل العام ١٩٤٨ - تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة - هو « ييغال يادين »[*] . كان عضوا في النخبة السياسية (الـ « ييشوف ») ، وقد ولد في العام ١٩١٧ لأب كان استاذا بارزا في الآثار . وفي أواخر الثلاثينات اكتسب خبرة عملية في قيادة منطقة القدس لقوة « الفوش » أو القوة اليهودية شبه العسكرية التي تكونت لمساعدة الشرطة البريطانية . وفي حرب الاستقلال كان اسميا رئيس العمليات في فرع الأركان العامة ، ولكنه من جميع النواحي العملية كان رئيس الأركان الفعلي ، وهو منصب شغله رسميا بعد ذلك خلال الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢ حينما ترك الجيش ليحذو حذو أبيه ويحقق شهرة عالمية بوصفه مكتشف آثار « المسادا » .

بعيدا عن الأفكار التكتيكية التي كان يدرسها « وينغيت » ، كان « يادين » هو الذي لعب الدور الحاسم في تقديم ليدل هارت الى كثيرين من قادة اسرائيل العسكريين في المستقبل[١٤] . فمن حوالى العام ١٩٤٠ الى ١٩٤٣ كان كابتن « يادين » مسؤولا عن شعبة التخطيط في مدرسة ضباط « الهاغاناه » السرية التي كانت تقع في « كيبوتز » بالقرب من جبل « الكرمل » . وكان بين أولئك الذين تلقوا منهاج التدريب ذا الشهرين كثيرون من الشبان الذين حققوا فيما بعد امتيازا في قوات الدفاع الاسرائيلية ، بمن فيهم على الأقل رئيسا الأركان « زفي تزور » و « اسحق رابين » .

لقد درس « يادين » - الذي كان يقرأ اللغتين الفرنسية والألمانية بالاضافة إلى الانكليزية - بنهم ليجد المعلومات الملائمة لمناهجه ، وفي مسعاه هذا أصبح على معرفة بكثير من كتب ليدل هارت . ولما لم يكن هناك جيش نظامي ، ولم يكن أي من المعلمين أو التلاميذ على خبرة بوحدات أكبر من فصيلة ، كان هناك ميل طبيعي للتركيز على تدريب مفرط الضيق على الصعيد التكتيكي . ووجد « يادين » كتاب روميل هجوم المشاة مناسبا الى حد مثالي للتعليم الميداني ، ولكنه أدرك

---

(١٣) الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ١٧ - ٢٢ .

(*) يتزعم « يادين » في الوقت الحاضر حزب « الحركة الديمقراطية من أجل التغيير » المتحالف مع حكومة « ليكود » المتطرفة برئاسة « مناحيم بيغن » . و « يادين » من أشد المعارضين لقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة . ويركز حزبه اهتمامه على شؤون اسرائيل الداخلية ولا يعنى كثيراً بحل « مشكلة الشرق الأوسط » (المترجم) .

(١٤) حديث مع البروفيسور « يادين » في لندن ، ٢٧ تشرين الأول ١٩٧٥ . حديث مع البروفيسور ج . ل . والاش J. L. Wallach ١٧ أيلول ١٩٧٥ .

الحاجة إلى تفكير مثير للحوافز بشأن الحرب والاستراتيجية بهدف توسيع النظرة العامة لقادة المستقبل لجيش وطني يهودي . ولهذا الغرض وجد ليدل هارت نموذجيا . لم يكن هذا ليدل هارت المؤ رخ أو نصير المدرعات (فقد كان يعتبر أن « فوللر » أيضا منظر شديد التخصص في شؤ ون الدبابات) ، بقدر ما كان ليدل هارت المنظر التكتيكي العام ، وفوق كل شيء داعية استراتيجية التقرب غير المباشر . وقد أكد البروفيسور « يادين » في حوار معه أن تلك الكتب كانت بالغة الأهمية في تلك السنوات المبكرة ، وقد تولى هو نفسه ترجمة فصول عديدة من كتاب ليدل هارت الاستراتيجية ؛ التقرب غير المباشر الى اللغة العبرية ليستفيد منها تلاميذه . وقد شعر بأن قيمة ليدل هارت بالنسبة للاسرائيليين تكمن اساسا في المجال الاستراتيجي ، وذكر مثالا على ذلك الفكرة القائلة بأنه كلما أمكن قطع خط مواصلات العدو في مكان أبعد ما يكون عن الجبهة كلما كانت النتائج أبعد مدى . وبالاضافة الى هذا ـ وهي نقطة رددها قادة اسرائيليون آخرون ـ وجد « يادين » أن كتب ليدل هارت مفيدة كثيرا في اطلاق أفكاره هو الخاصة حول تنظيم القوات الاسرائيلية وعقيدتها في المستقبل . وفي رأيه أنه كان هناك ـ في وقت لاحق ـ اتجاه نحو تأويل آراء ليدل هارت تأويلا حرفيا وتكتيكيا . وقد قدر لفرصته الخاصة لتنفيذ استراتيجية التقرب غير المباشر أن تأتي في حرب الاستقلال ، ولكنه بحلول ذلك الوقت كان قد نشر أفكارا عن أهمية هذه الفلسفة في الحرب بين عشرات من قادة « الهاغاناه » الشبان الذين لم يكن باستطاعتهم قراءة ليدل هارت بالانكليزية .

دعمت مقابلات أخرى ـ وفي معظم الأحيان ثبتت ـ هذه الصورة التي رسمها « يادين » عن تأثير ليدل هارت على « الهاغاناه » قبل العام ١٩٤٨ . وقد فضل رئيس الوزراء السابق « رابين » أن يؤ كد أن عقيدة ليدل هارت الخاصة بالتقرب غير المباشر قد تواءمت الى حد كبير مع اختيار اسرائيل لوسائل ترمي الى التغلب على نقصها في الأسلحة والأعداد واستهداف شعبها وأرضها . ومع ذلك فانه يعتقد أن ليدل هارت قد ساعد على امداد الاسرائيليين بتبرير نظري وايضاح لاستراتيجيتهم . أما « ييغال آلون » ـ الذي كان وزيرا للخارجية وقت التقائي به ـ فقد أكد أنه عندما التقى للمرة الأولى بليدل هارت في العام ١٩٤٩ ، لم يكن يجيد قراءة الانكليزية أو الحديث بها واستخدم الكاتب « جون كيمشي » كمترجم له . وكان « آلون » قد علم بأفكاره قبل حرب الاستقلال من المترجمات ومن أحاديث مع زعيم « الهاغاناه » المخضرم « اسحق صاره » ، الذي كان يتفق مع ليدل هارت في معظم المسائل .

والجنرال « حاييم لاسكوف » عسكري بارز آخر أعرب عن اعجابه الشديد بليدل هارت ، الذي قرأ العديد من كتبه قبل العام ١٩٤٨ . وقد ولد في العام ١٩١٩ وأدى الخدمة العسكرية كضابط نظامي مع الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية . وقد أظهر في قوات الدفاع الاسرائيلية مهارات متعددة وأصالة كبيرة . كان قائدا للسلاح الجوي الاسرائيلي بين العام ١٩٥١ والعام ١٩٥٣ وقاد سلاح المدرعات في حملة السويس . ثم أصبح رئيسا للأركان خلال الفترة من

١٩٥٨ الى ١٩٦٠ ، وعندما ترك الجيش أصبح رئيسا لهيئة الموانىء. وقد عاد مؤخرا إلى الخدمة العسكرية كمفتش عام عسكري مهمته البحث في شكاوى العسكريين . وكان الجنرال لاسكوف معجبا بشكل خاص بمقدرة ليدل هارت على التعبير عن الأفكار التكتيكية بلغة بسيطة تتناسب مع تعليم القوات . وضرب مثلا بتشبيه « الرجل في الظلام » وقلد بقوة تصرفات الملاكم الذي يتفادى اللكمات بيد ويسدد الضربات بالأخرى . كذلك فانه كان يعتقد أن ليدل هارت عبر أفضل من أي نظري آخر عن أهمية الحركة المستمرة في المعركة ، باعتبارها أسلوبا يتميز عن أسلوب التقدم على مراحل منفصلة . وقد استخدم العبارة نفسها التي استخدمها البروفيسور « يادين » اذ لاحظ أنه وجد كتب ليدل هارت مفيدة للغاية في « اطلاق » أفكاره .

هناك واحد يعتبر عامةأنه مارس تأثيرا أكثر مباشرة وانتشارا من تأثيرليدل هارت على النظرية والممارسة العسكرية الاسرائيلية ـ هو الكابتن « أورد وينغيت » . لقد خدم « وينغيت » في فلسطين خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ بمجرد انفصاله عن الجيش البريطاني ، وجعلته صهيونيته المحمومة وشخصيته القيادية البارزة يترك أثرا الى حد أنه لا يزال يشار إليه على أنه « الصديق » (« هاييرد » ـ بالعبرية)[١٥] . وكان انجاز وينغيت العملي البارز تنظيم الفصائل الخاصة في العام ١٩٣٨ . وكانت تلك وحدات صغيرة مختلطة (تسعة أفراد في كل) من الجنود البريطانيين ورجال « الهاغاناه » ، وكانت هذه الوحدات تعمل في شمال فلسطين بالتعاون مع مجموعات أكبر مؤلفة ـ بأكملها من رجال « الهاغاناه » . وتحت قيادة « وينغيت » أصبحت « الفصائل الليلية الخاصة » بارعة في شن الغارات ونصب الكمائن على طريقة الكوماندوز ، وخاصة في حماية خط أنابيب النفط العراقي الى « حيفا » . أما أهم تركة عسكرية له فكانت إلهامه « الهاغاناه » بانتهاج نظرة أكثر هجومية ، على النقيض من الذهنية الدفاعية التي كانت قد نشأت بصورة طبيعية عن الحاجة الى حماية المستوطنات اليهودية . وهو من الناحية السياسية لم يخفِ نظرته الى « الفصائل الليلية الخاصة » باعتبارها الخطوة الأولى نحو جيش وطني يهودي ، وهو ما كان يأمل أن يقوده يوما ما .

وقد قال « ييغال آلون » للمؤلف أنه على الرغم من أنه لم يكن عضوا في « الفصائل الليلية الخاصة » فانه قاد وحدة من شرطة المستوطنات اليهودية شاركت في ثلاث عمليات في منطقة الجليل تحت توجيه « وينغيت » . وبعد وقت طويل من ذلك التصريح ، وفي مؤتمر سنوي لمعهد الدراسات الاستراتيجية عقد في جامعة اكسفورد ، ذكر السيد « آلون » أسماء ثلاثة أشخاص تركوا أكبر الأثر على قوات الدفاع الاسرائيلية هم أولا « وينغيت » ، وثانيا ليدل هارت ، وأما الثالث فهو « صاره » . وبنظره استرجاعية فان اسهام « وينغيت » يبدو الأكثر أهمية لكونه ـ كضابط نظامي في الجيش البريطاني وكشخص غير يهودي ـ قد كرس نفسه ، وعلى حساب مستقبله

---

(١٥) استخدم اسم « الصديق » كنية عن وينغيت ، لأول مرة على سبيل السخرية : الظن أورد وينغيت ، ص ١١٤ .
. ١١٤

في الجيش ـ للقضية الصهيونية في مرحلة حرجة في النضال من أجل السيادة القومية . كذلك أعطى اللواء « افراهام يوفي » ـ الذي ولد في العام ١٩١٤ ، وان كان قد أصبح فيما بعد قارئا شغوفا وصديقا حميما لليدل هارت ، أولوية لوينغيت باعتباره صاحب الأثر الأكبر على نظرته العسكرية . وكان قد أدى الخدمة تحت قيادة « وينغيت » في « الفصائل الليلية الخاصة » وجرح بالفعل في أكبر معركة جرت في طبرية بالقرب من الناصرة[١٦] . وينتمي الجنرال (ارييل شارون) الى جيل لاحق لجيل « يوفي » و « آلون » ، فقد ولد في العام ١٩٢٨ ، ولا يحمل إلا ذكريات صبي عن الثورة العربية ابتداء من العام ١٩٣٦ وما بعده . ومع ذلك فإن وينغيت كان بطل تلك الأيام بالنسبة إليه ، وقد قرأ في وقت لاحق بشغف عن مآثره في كل من « الحبشة » و « بورما » . وبعد أن خدم في صفوف القوات اليهودية سنوات عدة حضر منهاجا للضباط في العام ١٩٥٠ كان معلمه الأول فيه هو « رابين » . ولم يكن عندئذ قد قرأ أي شيء لليدل هارت ، انما كان قد سمع عنه فحسب حيثما كان رؤساؤه « آلون » و « يادين » و « رابين » يتناقشون حوله . أما رأي السيد « رابين » الصريح فهو أن تأثير « وينغيت » كان أكبر أهمية من تأثير ليدل هارت في النظرية وفي الممارسة على السواء .

كان من دواعي سرور ليدل هارت ـ في سنوات لاحقة ـ أن يتذكر أنه ، على الرغم من الخلافات الشديدة الظاهرة مع الاسرائيليين ، تنبأ بنجاح اسرائيلي منذ البداية الأولى لحرب الاستقلال . وقد تنبأ بذلك في حديث أجراه معه « دافيد كيسلر » (رئيس تحرير صحيفة Jewish Chronicle) الذي بدا وقتها قلقا من تفوق العرب في العدد والعدة الحديثة :

« قلت له إنني لا أعتقد أن الخطر سيكون في الواقع بالجسامة التي كان يبدو عليها على الورق ، وأن اليهود سيكونون قادرين على صد الغزو ، حتى على الرغم من أنه كان آتيا من عدة اتجاهات ـ (١) لأن العرب لا يجيدون الترابط ؛ فالأرجح أن تعمل كل من الدول المختلفة لذاتها وبالتالي أن تشتت جهودها ؛ (٢) لأن العرب يسيئون التنظيم الاداري ، ومن شأنهم أن يعجزوا عن الابقاء على قوات كبيرة لهم على مسافة بعيدة من قواعدهم في ظل مواصلات ضعيفة ؛ (٣) لأن العربي كان أكثر اهتماما بالمحافظة على حياته من اليهودي ـ « فالعربي لا يحب أن يقتل ، واليهودي لا يعنيه ذلك » تلك كانت نقطة الضعف الأساسية التي من شأنها احباط فرص العرب وافشال تفوقهم العددي »[*] .

---

(١٦) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(*) لا تكاد هذه الفقرة تحتاج إلى تعليق يكشف مدى غياب المعايير الموضوعية والنظرة العلمية فيها عن عقل ليدل هارت . انه يطلق أحكاماً عامة متسرعة تقوم على نظرة شبه عنصرية تميز بين « العربي » و « اليهودي » بلا سند من الحقيقة التاريخية ولا الواقعية ، وعلى أي حال فهذا شأن معظم كتاب الغرب الذين تربوا وتطوروا في اطار النظرة الاستعمارية التي سادت طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . « المترجم » .

ومع ذلك فان ليدل هارت لم يشر ـ لا في هذه الملحوظة ولا في مقابلة معه نشرت بعد حرب الاستقلال ـ الى أن أفضل حل استراتيجي لاسرائيل يمكن أن يكمن في القيام بضربة وقائية ؛ فانه بدلا من هذا تحدث في اطار دفاع متحرك لوقف المهاجمين(١٧) .

في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ أعلن تأسيس دولة اسرائيل ، وعلى الفور غزت البلد جيوش مصر والعراق وسوريا ولبنان والفيلق العربي التابع لشرق الأردن . وقد دامت العمليات التي كانت مقسمة بدرجة لا تصدق من التشوش إلى وقت فرض الهدنة من جانب الامم المتحدة في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ . وكانت الحرب تشن بصورة متفرقة في سلسلة من الهجمات والحملات القصيرة المنفصلة التي كانت تتوقف في مناسبات عديدة هدنات يفرضها مجلس الأمن الدولي .

ومما يتجاوز نطاق هذه الدراسة أن نحاول وصف تلك العمليات(١٨) . انما النقطة الرئيسية هي أن « الهاغاناه » كانت في بدايتها ليست أكثر من مجرد قوة مشاة صغيرة غير نظامية مجهزة بأسلحة خفيفة وتفتقر كلية إلى المدفعية والدبابات والطائرات . وعندما شكلت « كتيبة » دبابات كانت اثنتان فقط من سراياها الست تملكان دبابات : فكانت احداهما مجهزة بعشر دبابات خفيفة فرنسية الصنع ، والأخرى مجهزة بدبابتين من طراز « كروموبل » وواحدة من طراز « شيرمان » . وفي السنوات الأولى لقوات الدفاع الاسرائيلية كانت الوحدات المدرعة والميكانيكية تشتمل عادة على عدد أكبر من العربات نصف المجنزرة وعربات أخرى متنوعة مع نسبة صغيرة فقط من الدبابات . وبحلول شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨ كان عدد الرجال والنساء في الجيش النظامي قد تجاوز ثمانية آلاف (أي ضعف رقم شهرأيار)(مايو) وكانت السيطرة المركزية قد أصبحت موطدة بدرجة أو بأخرى بواسطة الأركان العامة . وقد أثبتت « البالماخ » ـ تحت قيادة « ييغال آلون » الذي لم يكن عمره يتجاوز الثلاثين عاما ـ قدرتها على خوض اعمال قتالية مستمرة ضد قوات نظامية ، وكانت تمد الكتائب والألوية المرتجلة بالقادة ـ ولم تكن قد تكونت فرق حتى ذلك الوقت . ويمثل هذا التاريخ أيضا انتقالا من الأعمال السريعة الجزئية المتفرقة إلى حشد قوات مهام كبيرة (مجموعات عمليات) تضم عدة ألوية للقيام بالهجوم على جبهة واحدة في وقت واحد . وقد بذلت أولى المحاولات لتنسيق ضربات جوية مع هجمات برية ، بل لقد بدأت قوة بحرية صغيرة تمارس العمليات . وبحلول نهاية العام كان رجال حرب العصابات والحرس الوطني التابعون لتنظيم « الهاغاناه » قد أصبحوا ألوية منتظمة لجيش وطني تحت توجيه وزير دفاع ورئيس أركان(١٩) .

---

(١٧) ١١/١٩٤٨/١١ مذكرة يومية في ٢٢ أيار ١٩٤٨ ؛ ١٨/١٣ عن اللقاءين المنشورين في الصحيفة Jewish Standard في ٢٩ نيسان و١٤ أيار ١٩٤٩ .

(١٨) انظر « نبتانيل لورك Netanel Lorck « حد السيف Edge of the Sword (١٩٦١) .

(١٩) الجيش الاسرائيلي ، ص ص ٣٦ ، ٤٥ ـ ٤٨ ، ٥٤ ـ ٥٥ ، ٦٣ ـ ٦٤ .

لقد ربط المشاركون البارزون ومعلقون محدثون بين اسم ليدل هارت والتناول الفكري الاسرائيلي لحرب الاستقلال . فقد أقر « يبغال يادين » ـ رئيس الاركان الحقيقي في تلك الحرب ـ صراحة بانه حاول توجيه العمليات طبقاً لمبادىء ليدل هارت :

« لا شك ان استراتيجية التقرب غير المباشر هي الاستراتيجية الوحيدة السليمة ؛ ولكن تكوين التقرب غير المباشر في الاستراتيجية ـ كما حدده وشرحه واوضحه بطريقة رائعة الكابتن ليدل هارت ـ هو اوسع بكثير وأشد تعقيداً مما في المجال التكتيكي . ان استغلال مبادىء الحرب لتحقيق أغراضنا وتأسيس موقفنا على التقرب غير المباشر الاستراتيجي بهدف تحديد موضوع القتال حتى قبل أن يبدأ القتال ، من الضروري تحقيق الاهداف الثلاثة التالية :

(أ) قطع خطوط مواصلات العدو ، الامر الذي يشل قوامه المادي ،

(ب) قطعه عن خطوط تراجعه ، الامر الذي يحطم ارادة العدو ويدمر معنوياته ،

(ج) ضرب مراكزه الادارية وقطع اتصالاته ، الامر الذي يقطع الرابط بين دماغه وأطرافه »[٢٠] .

ومن الخطأ ـ بطبيعة الحال ـ ان نذهب الى أن كل القادة الاسرائيليين اختاروا استراتيجية وتكتيكات التقرب غير المباشر . فالحقيقة انه كانت هناك امثلة عديدة على هجمات جبهوية على نقاط قوية للعدو كانت لها نتائج ماحقة . فقد شنت على سبيل المثال ـ خمس هجمات جبهوية على القلعة الاردنية الحصينة في « اللطرون » ، واخفقت جميعها وأكثر من هذا أنها اسفرت عن سبعمائة قتيل .

ومع ذلك فان عملية ممتازة واحدة تستحق انتباها خاصاً كصورة كاملة لنظرة ليدل هارت على الصعيد الاستراتيجي . تلك كانت « عملية حوريف » (أو « عين ») التي نفذت خلال الفترة بين ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ و ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ، وكانت ترمي إلى طرد المصريين من « النقب » الجنوبي . وكان منفذوها الرئيسيون الثلاثة مدينين بصورة مباشرة او غير مباشرة لأفكار ليدل هارت : أعني « يادين » و « آلون » ـ القائد العسكري البارز للحرب والذي كان قد أصبح في ذلك الوقت قائداً للجبهة الجنوبية ـ ورئيس أركانه « رابين » . كذلك كانت تلك العملية الانجاز الوحيد الجدير بالذكر لوحدة المدرعات الاسرائيلية ، التي كان أداؤها عدا ذلك سيئاً[٢١] .

كان جوهر المشكلة الاسرائيلية أن المصريين كانوا يسيطرون على كل الطرق الهامة وكانوا

---

(٢٠) « يبغال يادين » في كتاب ليدل هارت : الاستراتيجية : التقرب غير المباشر (١٩٥٤) ص ٣٨٧ .
(٢١) الجيش الاسرائيلي ، ص ص ٦٨ ـ ٦٩ .

مستعدين لمواجهة هجوم تقليدي . كانوا يسيطرون على الطريق الساحلي من « العريش » الى « غزة » ، وعلى طريق « العوجة » ـ « الخليل » حتى « بئر عسلوج » ، وعلى الطريقين الآخرين « رفح » ـ العوجة » و « العريش » ـ « أبو عجيلة » (انظر الخريطة) . وقد تصادف أن لاحظ « يادين » على خريطة خاصة بالآثار أثر طريق روماني كان يبدو بوضوح أنه يربط بخط مستقيم بين « بئر السبع » و « العوجة » . ولهذا بعث برسالة الى « رابين » لكي يتعرف على الطريق ليعرف إذا كان قابلاً للاستعمال ، وأبرق إليه هذا مجيباً فيما بعد بأن الطريق « صعب ولكنه سالك » . وأدخلت تحسينات هندسية اصبح الطريق بعدها سالكاً ليس فقط لعبور العربات نصف المجنزرة بل حتى للدبابات المتوسطة . ونتيجة لذلك تحققت مفاجأة استراتيجية كاملة :

« بينما كانت النقاط الامامية المصرية في « بئر عسلوج » ترقب بشغف طريق « بئر السبع » متوقعة هجوماً من ذلك الاتجاه ، بزغت القوات الاسرائيلية الخفيفة من الصحراء ، واستولت على سلسلة من النقاط الحصينة إلى الجنوب ، وسدت طريق « العوجة ـ رفح » في موضعين . وعندما هوجمت العوجة في فجر يوم ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) كانت قد قطعت بالفعل من نقاطها الامامية الشمالية وقواعدها الى الغرب . ولقد بذلت حامية ذلك الموقع أقصى ما بوسعها ، ولكن بعد أن ردت التعزيزات كلها على أعقابها من جانب القوات التي كانت تسد الطريق الى رفح تراجعت إلى داخل الصحراء في الساعات الأولى من يوم ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) . وبعد ساعات قليلة كان قد تم احتلال « بئر عسلوج » التي كانت قد أصبحت معزولة تماماً ، وفتح طريق « بئر السبع ـ العوجة » أمام حركتنا ، وبهذا اكتملت المرحلة الاولى من خطتنا »[٢٢] .

بعد فترة وجيزة للاستراحة ولجلب الامدادات ضغط الاسرائيليون للاستيلاء على القاعدة المصرية في « أبي عجيلة » ليلة ٢٨ ـ ٢٩ كانون الاولى (ديسمبر) واندفع رتل مدرع شمالا على طول الطريق الجانبي إلى العريش . ولكن عندما كان هذا الرتل ، قد أصبح على مسافة قصيرة للغاية من الطريق الساحلي هددت بريطانيا بالتدخل واضطر الاسرائيليون للانسحاب وكان رتل آخر يكمن على مشارف «رفح» حينما حصل المصريون على هدنة يوم ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ . وعلى الرغم من هذه العقبات السياسية حققت العملية نجاحاً رائعاً : فقد طرد المصريون من فلسطين كلها عدا قطاع غزة بفضل قوة مهاجمة تتفوق قليلاً في العدد لكنها في العدة .

لقد سأل المؤلف السيد « آلون » عن هذه العملية فأجاب بروح قول « كلاوزفيتز » المأثور الذي ذكرناه في الفصل السابق : لم يكن في ذهنه كتاب تعليمي معين ، ولكنه نفذ تحركاته في ضوء معرفته بقوات العدو وأرضه .

---

(٢٢) مقابلة مع البروفيسور « يادين » ؛ واسهامه في كتاب الاستراتيجية : التقرب غير المباشر ص .ص ٣٦٩ ـ ٣٩٧ .

قال « آلون » (ربما مرددا عبارة « جوردان » أحد أبطال « موليير ») أنه كان مثل الكاتب الذي دهش حينما قيل له أنه يكتب « ادباً » ، إذ كان يتصرف ـ بدرجة أو بأخرى ـ بصورة غريزية ثم اكتشف انه كان ينفذ تقرباً غير مباشر بطريقة ممتازة ! وقد أبلغه ليدل هارت أن عملياته في « النقب » قدمت أمثلة تقرب من الكمال على التقرب غير المباشر على نطاق صغير ونطاق كبير . وأضاف أن القتال الليلي ـ حتى بالتشكيلات الضخمة ، مثل الألوية ، كان في رأيه أحد مكونات التقرب غير المباشر ، وكان يرجع بأصول هذه المهارة إلى « وينغيت » أكثر مما يرجع بها إلى ليدل هارت . وعلى النقيض من ذلك ، كان البروفيسور « يادين » مستعداً تماماً للاقرار بأنه تأثر بتفكير ليدل هارت العام في ادارته للعمليات خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ . وقد اعرب عن اعتقاده ـ دون أن تحدوه رغبة في لفت الانتباه بعيداً عن انجازات « آلون » البارزة كقائد ميداني ـ بأن عقل « رابين » التحليلي الممتاز كان مسؤولاً في الاساس عن التخطيط لعملية « حوريف » وعمليات اخرى على الجبهة الجنوبية . ولم يكن « رابين » قد قرأ الكثير لليدل هارت ، انما سمع عنه بطريقة غير مباشرة من خلال تعليمات « يادين » إليه .

خلال أشهر قليلة من نهاية الحرب في العام ١٩٤٩ كان جيش الاستقلال قد اختفى . بل إن سلك الضباط عانى بصورة أقسى من الرتب الاخرى ويعود ذلك جزئيا لأن قليلين اعتبروا أنفسهم محترفين في الحياة العملية ، ولكن أيضا بسبب الضغط السياسي . فقد شن رئيس الوزراء بن غوريون (من حزب الماباي) حملة سياسية لا هوادة فيها ضد « البالماخ » ، التي كان كثيرون من ضباطها ينتمون إلى حزب « المابام » اليساري . ولم يكن العسكريون الاسرائيليون ـ على العكس من العسكريين البريطانيين ـ يزعمون أنهم فوق السياسات الحزبية ؛ والحقيقة أن تدريبات « البالماخ » قد غرست الايديولوجية الجماعية للصهيونية العمالية اليسارية . لهذا فان بن غوريون كان لديه بعض الأسباب للنظر إلى أبطال « البالماخ » العسكريين ـ مثل « ييغال آلون » ـ على أنهم منافسون سياسيون . وفي النهاية تم حل « البالماخ » وفقد الجيش اثنين من بين أربعة من قادة الجبهة (بينهم « آلون ») وستة من بين ١٢ من قادة الألوية ، وكثيرون غيرهم من الضباط ذوي الخبرة[٢٣] .

كان « ييغال يادين » ـ الذي خلف « يعقوب دوري » بسبب مرضه كرئيس للأركان في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ ضابطا غير سياسي نال الاحترام ليس فقط من جانب بن غوريون ، انما أيضا من جانب « البالماخ » و« الهاغاناه » والضباط ذوي التدريب البريطاني . وقد واجه يادين مهمة شاقة للغاية . فقد صدر اليه توجيه سياسي بالجمع بين سياسة تقشف اقتصادي قاس واستعداد فوري للحرب . وكانت مشكلته التنظيمية تشكيل الوية نظامية بينما لم يكن لديه قادة كبار ذوو خبرة يعتمد عليهم . ومن الناحية الاجتماعية كان عليه أن يخلق مغريات كافية لجذب

(٢٣) مقابلة مع « يادين » . الجيش الاسرائيلي : ص . ص . ٧٠ ـ ٧٤ .

قواد من الضباط النظاميين من الطبقة الأولى دون أن يكون لديه المال اللازم للتنافس مع مجال الأعمال والتجارة . لكل هذه الاسباب حاول أن يدخل بعض سمات الجيش النظامي ـ مثل الجيش البريطاني ـ كاقامة أندية للضباط والتمييز على نحو واضح بين الضباط والرتب الأخرى . كذلك حاول جاهدا تحقيق امتزاج بين القلة الباقية على قيد الحياة من ضباط « البالماخ » السابقين ـ مثل رابين ـ والضباط السابقين في الجيش البريطاني مثل « بن آرتزي » (رئيس شعبة الامدادات والتموين خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) و « لاسكوف » (رئيس شعبة التوجيه خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥١) . وعندما ثبت أن القيود المالية تمثل مشكلة بالغة الضخامة تقاعد « يادين » ليتفرغ للحياة الأكاديمية ، كانت عودة إلى جو المساواة السهل الذي كان يميز « البالماخ » ولكن دون طابعه السياسي الحاد . ومع ذلك فقد كان انجازه الباقي أنه خلق نظام الاحتياطي الذي دام في أساسه دون تغيير حتى وقتنا الحاضر .

وكرئيس لشعبة التوجيه أثناء الفترة الحرجة التي كان « يادين » فيها يضع أسس قوات الدفاع الاسرائيلية ، وبعد ذلك ، في العام ١٩٥٦ ، كقائد لفيلق المدرعات ، لعب « حاييم لاسكوف » دورا حيويا في ادخال افكار ليدل هارت . فقد كان يشارك كلا من « يادين » و « آلون » ايمانهما الثابت بقيمة التقرب غير المباشر كمرشد للفكر الاستراتيجي ، ولكنه ـ على خلافهما ـ كان أيضا تلميذا شغوفا لليدل هارت كنصير للدبابات . وهكذا فانه على الرغم من أداء الدبابات الاسرائيلية السيء في العام ١٩٤٨ ، وعلى الرغم من حقيقة ـ أنه لم يكن هناك في العام ١٩٥٠ إلا عشرات قليلة من الدبابات ـ معظمها ـ طراز « شيرمان م ـ ٤ » ـ فان « لاسكوف » ومجموعة التخطيط التابعة له قد عهدوا الى المدرعات بالدور الرئيسي في القتال البري . وحينما كانوا يشيرون الى أن من الأفضل استخدام الدبابات بأسلوب ليدل هارت ـ أي بصورة مستقلة مع مشاة ميكانيكية للاختراق العميق في مناطق مؤخرة العدو ـ فانهم كانوا في ذلك متقدمين كثيرا بالنسبة لجيش كان لا يزال في أساسه جيشا من المشاة . أما « موشي دايان » ـ الذي كان رئيسا للأركان من ١٩٥٣ الى ١٩٥٨ ـ فقد كان في البداية عديم الثقة بالدبابات ، مفضلا كتائب المشاة السريعة الحركة التي تحملها عربات « الجيب » والعربات نصف المجنزرة والعربات المدرعة . وفي بداية عمليات سيناء في العام ١٩٥٦ عهد للمدرعات ـ تبعا لذلك ـ بدور مساند للمشاة . (في الحقيقة كانت الدبابات تتبع القوات محمولة فوق شاحنات نقل الدبابات وكانت أطعمتها تنقل بواسطة « الباصات ») . وكان ذلك لأنه يعادل بين قدرة الحركة في الميدان مباشرة وبين سرعة العربات . ولكن « تال »(*) ورفاقه أعادوا تحديد هذه المعادلة لتكون القدرة على الحركة في وجه نيران عدوة ، بحيث اصبحت دبابة القتال في النهاية السلاح السائد في نظرهم .

وعلى الرغم من أن الجنرال « دايان » لم يكن أبدا من مريدي ليدل هارت فان استراتيجيته

---

* انظر الموسوعة « العسكرية » ـ المصدر المذكور ـ . « المترجم »

في حملة سيناء في العام ١٩٥٦ كانت تتفق كثيرا مع روح عقيدة ليدل هارت . فقد اعتقد « دايان » أنه بدلا من شن هجوم مباشر على النطاقات الدفاعية الخارجية المصرية الحصينة بهدف تدمير الجيش المصري ، فان القوات العدوة ستتفكك اذا استطاع الاسرائيليون الاختراق بعمق في سيناء وقطع مواصلاتها . وكانت نيته المعلنة « ارباك تنظيم القوات المصرية في سيناء والتعجيل بانهيارها » .

وقد بدأ الاسرائيليون الحرب باسقاط قوة مظليين صغيرة في العمق خلف خطوط الجبهة المصرية بالقرب من المدخل الشرقي لممر « متلا » ،للايحاء بأن القصد هو شن هجوم على القناة * ، وفي الوقت نفسه ايجاد ذريعة للتدخل الانجلو- فرنسي . وبالاضافة الى هذا فان الاسرائيليين - بدلا من أن يهاجموا أولا أقرب هدف الى الجبهة - وهو قطاع « غزة » - تركوا هذا الهدف ليكون الأخير ، وأمنوا أولا احتلال مفترق طرق « أبو عجيلة - أم قطف » الذي يسيطر على الطرق المتجهة غربا صوب القناة . وفي الوقت نفسه - والى الاكثر جنوبا - كان على اللواء ٢٠٢ (المظلي) بقيادة « شارون » التقدم على « الخط الأقل توقعا » بأن اتجه نحو الجنوب الغربي داخل الصحراء لتعزيز المظليين الذين كانوا يسيطرون على مدخل ممر « متلا » . ولقد اقدم «دايان» على تحمل مخاطر جسيمة بالتضحية بالاستعدادات المناسبة لكي يحقق مفاجأة ؛ فقد دخل بعض رجال الاحتياطي القتال بعد ساعات قليلة فقط من وصولهم إلى مراكز التجمع .

ومع ذلك فان الفضل يرجع الى قائد سلاح المدرعات - « حاييم لاسكوف » - في قيام الدبابات بدور حيوي في العمليات على هدي الأسس ذاتها التي كان ينادي بها ليدل هارت . وكان « دايان » - في فترة التخطيط التي سبقت الحرب قد عهد إلى اللواء السابع بقيادة « بن آري » (وكان اللواء المدرع الوحيد في الجيش) بدور تضليلي بحت على الجبهة الأردنية ، وحينما احتج « لاسكوف » ، رضخ دايان فقط الى حد اعطاء اللواء دورا مساندا للمشاة في الهجوم الرئيسي على مفترق طرق « أبو عجيلة - أم قطف » . وكان « لاسكوف » - كمؤيد مفوه لليدل هارت - يريد أن تحشد الدبابات في وحدات قليلة كلها من المدرعات بحيث تكون على درجة كافية من القوة لاختراق منطقة دفاع العدو ، والاندفاع الى عمق مناطق مؤخرته ، ثم الانتشار مروحيا لتهديد أهداف عدة .

ازاء هذه الحالة قرر قائد الجبهة الجنوبية « عساف سمحوني » تجاهل أمر « دايان » وسمح للواء السابع بالدخول في العمليات قبل الموعد المقرر له بأربع وعشرين ساعة . وقد أدى هذا الى اختلال كلي في خطة الخداع التي وضعتها القيادة العامة ، والتي كانت تقضي بأن يستمر لواء شارون يومين في بدء الهجوم الرئيسي ، ومع ذلك فقد أدى هذا الى انتصار باهر . فبينما كانت المشاة قد تعرقلت عند قطاع « أم قطف » في النطاق الدفاعي الخارجي تسللت دبابات « بن آري » داخل

---

* قناة السويس . « المترجم »

مؤخرة المصريين عند « أبو عجيلة » ، ثم ـ دون أن تتوقف تقريبا ـ تقدمت غربا بأسلوب « الحرب الخاطفة » الذي يعيد إلى الأذهان اندفاع « غوديريان » عبر فرنسا في أيار (مايو) ١٩٤٠ ، لتسيطر على معظم سيناء بحلول نهاية اليوم التالي (٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر) . ويلخص « لوتواك » و « هوروفيتش » الموقف بقولهما « ان النجاح البارز الذي تحقق في العام ١٩٥٦ كان نتيجة هجوم مدرعات تقليدي ـ على النقيض مباشرة من أوامر « دايان » ومن كل خطط القيادة العامة » . [٢٤]

وحدث عصيان مماثل في سفوره لأوامر القيادة العامة عند ممر « متلا » حيث تكبد لواء « شارون » خسائر جسيمة نتيجة لاندفاعه داخل الممر يوم ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ، وكان ذلك مرة أخرى بتشجيع ضمني من قائد الجبهة ، « سمحوني » . وقد غض « دايان » الطرف ـ ربما بالمعنى الحرفي للكلمة وربما خفية ـ عندما وصفه هو نفسه بأنه « عدم انضباط ايجابي » ، أو عدم انضباط ناشىء عن افراط في الدافع وحب القتال ؛ ولكنه أصبح من الواضح ـ في « الفحص اللاحق للحادث (أي التحليل اللاحق للحرب) ، أن القيادة العليا الاسرائيلية قد جازفت بمخاطر بتجاهلها التام لمشكلات التنسيق والسيطرة[٢٥] .

ولا بد من أن نذكر مأثرة رائعة أخرى في حملة العام ١٩٥٦ حيث أن قائدها كان العقيد « افراهام يوفي » ـ الذي تراسل فيما بعد مع ليدل هارت . كانت تلك المأثرة هي التقدم عبر الاراضي الوعرة الذي قام به لواء المشاة التاسع الى « شرم الشيخ » ، وقد اكتسب هذا التقدم اهميته بالنظر الى أن « يوفي » ورجاله كانوا من قوات الاحتياطي التي تمت تعبئتها في اليوم الثاني للحرب . وفي مقابلة مع « يوفي » ـ وهو شخص ضخم ومرح لا تزال اجادته للغة الانكليزية غير تامة ـ لاحظ أن أحدا لم يتوقع أن يحاول لواء بأكمله ، مصحوباً بقافلة تضم أكثر من ٢٠٠ مركبة أن يشق طريقا لا يصلح إلا للجمال . ولم تكن هناك غير واحة واحدة على طول الطريق . وكان المصريون قد افترضوا أن سريته الاستطلاعية تشكل كل قوته ولهذا فانهم فوجئوا مفاجأة تامة . وكان لواء « شارون » يتقدم في الوقت ذاته نحو الضفة الشرقية للقناة واستطاعت القوتان الاستيلاء على هدفهما دون مقاومة تذكر . وقد قال أحد الصحفيين ان لواء « يوفي » قد « حقق المستحيل بعبور ما يستحيل عبوره » . ولم تكن كل ألوية الاحتياط على مثل هذا المستوى من الاداء الحسن[٢٦] .

---

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٤٣ ـ ١٥٣ . « موشي دايان » : يوميات حملة سيناء (١٩٦٦) ص . ٢١ . وقد تحول « دايان » الى نصير للدبابات نتيجة لحملة العام ١٩٥٦

(٢٥) الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ١٥٨ ـ ١٦٠ . ولكن الجنرال شارون ـ عندما أجريت مقابلة معه في أيلول ١٩٧٥ قال للمؤلف إنه بعد أن أجرى « لاسكوف » تحقيقا في انتهاكه للأوامر كان بن غوريون ـ وليس « دايان » ـ هو الذي عفا عنه .

(٢٦) الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ١٥٦ ـ ١٥٧ . مقابلة مع « افراهام يوفي » في ١٨ أيلول ١٩٧٥ . انظر

وفي أقل من ثمانية أيام من القتال كان الاسرائيليون قد قضوا على ما يعادل فرقتين مصريتين وغزوا مساحة تعادل نحو ثلاثة امثال مساحة بلدهم ، وكل ذلك مقابل أقل من ٢٠٠ قتيل . ومع ذلك ، ونتيجة لوقف اطلاق النار الذي فرضته الأمم المتحدة لم يتحسن أمنهم على الاطلاق . وبالتالي بقيت عقيدتهم الاستراتيجية دون تغيير في أسسها . اذ كان المفترض أن الحرب التالية ستكون قصيرة وأن اسرائيل لا تملك ترك أعدائها يأخذون المبادأة . واصبح النصر على الارجح من نصيب الجانب الذي يشن ضربة وقائية شاملة . وقد اكتسب هذا الافتراض أهمية اضافية بفعل التراكم الضخم للأسلحة على كلا الجانبين في السنوات التي تلت العام ١٩٥٦ ، حيث كانت مصر تزود بالأسلحة من الاتحاد السوفياتي اساسا ، بينما كانت اسرائيل تمد بالأسلحة من فرنسا وألمانيا وبريطانيا . كان قد أصبح من الواضح حقا بحلول نهاية الخمسينات أن سباق التسلح سيحول طبيعة الصراع في الشرق الأوسط . وكان هذا اكثر صحة بالنسبة للجو ، حيث أن كلا الجانبين كان يشتري آخر أنواع المقاتلات والقاذفات ، مثل المقاتلات الفرنسية التي تتجاوز سرعة الصوت من طراز « سوبر-ميستير» التي حصلت عليها اسرائيل في الفترة ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، والمقاتلات السوفياتية « ميغ - ٢١ » والقاذفات« تي . يو - ١٦ » التي زودت بها مصر . وقد كشف الزمن أن تفوق الاسرائيليين التقني والتعليمي كان لا يزال يعطيهم تفوقا في استيعاب أسلحة أكثر تطورا . ومن المهم بالقدر نفسه أن الاسرائيليين كانوا يجيدون « التبضع » ، فيشترون الأسلحة بانتقاء سليم ويصرون على ادخال تعديلات لتلائم وضعهم الخاص وعقيدتهم ، على حين بدا أن المصريين يقبلون أي أسلحة يختار الاتحاد السوفياتي تزويدهم بها ، كما أنهم تبنوا التكتيكات السوفياتية جنبا الى جنب مع المعدات السوفييتية .

لم يكن الوضع التكنولوجي وحده هو الذي تحول خلال العقد الذي أعقب حملة سيناء ، بل ان الاسرائيليين ثابروا أيضا على نظامهم الخاص بالتقاعد السريع للغاية لكبار الضباط ، بغض النظر عن مدى نجاحهم . ويستحق دايان معظم الفضل لهذا النظام غير التقليدي الذي بمقتضاه يحصل ضباط أكفاء على مراكز مسؤولية وهم بعد في عمر أصغر كثيرا مما في البلدان الأخرى ، ويتقاعدون ليختاروا حياة عملية أخرى . ولا يعني هذا بالضرورة أن لدى الرجال الأصغر سنا أفكارا أفضل ، إنما هو يؤمن - بالاضافة إلى السلامة البدنية والعقلية - أن تكون العقائد الاستراتيجية والتكتيكية موضوع فحص نقدي مستمر[٢٧] .

في العام ١٩٥٦ كان النصيران البارزان لعقيدة ليدل هارت الخاصة بالتقرب غير المباشر من

« روبرت هنريك »Robert Henrique: مائة ساعة إلى السويس100 Hours to Suez (١٩٥٧) ص . ص . ١١٤ - ١٣٥ .

(٢٧) لعل قوات الدفاع الاسرائيلية قد راكمت منذ حرب العام ١٩٧٣ عددا مثيرا للحرج من كبار الضباط « في مواقع جانبية » ولكنهم جاهزون للخدمة العاملة . وبينهم الجنرالات « شارون » و « تال » و « غونين » و « لاسكوف » .

ايام حرب الاستقلال ـ وهما « يادين » و « آلــون » ـ قد تركا الجيش ، الأول إلى حياة أكاديمية والثاني إلى السياسة . أما القائدان اللذان أصبحا أكثر ارتباطا به في الحرب الاخيرة فهما الجنرالان « شارون » و « لاسكوف » .

وقد التقى ليدل هارت بـ « شارون » لأول مرة في مسكنه ، الذي كان يقع آنذاك في « ولفرتون » في « باكنغهامشاير » ، في آب (أغسطس) ١٩٥٨ حينما كان الأخير يتلقى منهاجا في « كلية الأركان » في « كامبرلي » . وفي الخريف التالي كتب « شارون » عدة مرات يطلب تعليقات ليدل هارت واقتراحاته للقراءة حول الموضوع الذي كان قد اختاره هدفا رئيسيا لدراسته ؛ وهو اتخاذ القرار في الجيشين البريطاني والألماني أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان « شارون » يريد أن يعرف بوجه خاص ما اذا كان ليدل هارت قد وافق على أسلوب « روميل » في القيادة من خطوط الجبهة الذي يتميز بدرجة عالية من الفردية ، والذي ربما كان يصلح كنموذج لمنهجه الخاص . وقد حاول ليدل هارت في البداية اقناعه باجابة موجزة « مشغولة الى حد مرعب » ، ولكن « شارون » ألح حتى حصل على بيان مفصل عن مواقف القادة أثناء حملة شمال أفريقيا . وكتب « شارون » في رسالة شكر الى ليدل هارت في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٨ :

« لقد ربيت في الجيش الاسرائيلي الذي تأثر ـ بغير شك ـ تأثرا كبيرا باتجاهك الفكري غير التقليدي ، وبطبيعة الحال فانني أحبذ أفكارك بقوة » .

ثم زار شارون « ستيتس هاوس »(*) ، «مدمنهام» في كانون الثاني « يناير » ١٩٦٣ وتأثر بالمخزون الضخم لدى ضيفه من المعرفة العسكرية حول كل موضوع تقريبا . ثم التقيا للمرة الأخيرة في تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، حينما أهدى « شارون » الى ليدل هارت صورة شخصية موقعة منه ليضعها في « سجل المجرمين » . وعلى الرغم من الاعجاب المتبادل بين الاثنين ، فانه من قبيل الافتئات على الحقيقة ادراج « شارون » على قائمة « مريدي » ليدل هارت ، إلا بأضعف المعايير . فقد اثبت « شارون » أنه قائد عدواني فقط شيطاني الجرأة ، ذو ميل غريزي الى التكتيك منذ أوائل الخمسينات ، حينما كان يقود الكتيبة ١٠١ من نخبة المظليين . وهو لا يعد ـ بالمقارنة إلى « آلون » أو « لاسكوف » ، فضلا عن « يادين » ـ عسكريا دارسا بالطبيعة ، ولكنه كان في الأساس قائدا ميدانيا ممتازا يتمتع بشخصية مهيمنة ، وقد أظهر في حملة العام ١٩٦٧ بصفة خاصة مواهب عملياتية من درجة عالية جدا . ولا شك أن مراسلاته مع ليدل هارت حينما كان في « كامبرلي » قد أفادت في تأكيد ولعه الخاص بالقيادة من خط الجبهة ، ولكن ما أن يلتقي المرء به حتى يدرك سريعا أنه عسكري على درجة قصوى من الثقة بذاته ، يمضي في طريقه بغض النظر عن العواقب . ومن المستحيل التفكير فيه على أنه « مريد » لأي شخص(٢٨) .

(*) حيث كان يقيم ليدل هارت في تلك الفترة كما عرفنا في الفصل الاول من هذا الكتاب . « المترجم » .

(٢٨) الجيش الاسرائيلي، ص ١١٦ (الهامش). لقاء مع الجنرال «شارون» في ١٨ ايلول ١٩٧٥ ، «شارون» الى =

أما « حاييم لاسكوف » ـ من الناحية الأخرى ـ فانه وان لم يكن يفتقر بأي حال إلى قوة الشخصية ، فهو مستعد تماما لأن يشهد بتأثير ليدل هارت على تفكيره . ولعله العسكري الاسرائيلي البارز الوحيد الذي اعتمد كثيرا على أفكار ليدل هارت عن حرب المدرعات أكثر مما اعتمد على نظريته العامة في التقرب غير المباشر[٢٩] . لقد تراسلا لأول مرة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦ حينما كتب اليه ليدل هارت ليهنئه على انجازه الرائع في قيادة سلاح المدرعات في الحرب . وفي العام ١٩٥٩ ، حينما كان « لاسكوف » رئيسا للأركان ، بعث ليدل هارت اليه بنسخة من كتابه الدبابات وعليه اهداء مجامل . وقد رد « لاسكوف » بأن الكتاب يشكل « الهاما لأي طالب من دارسي الحرب والأسلحة » . وتتعلق مراسلاتهما التالية الى حد كبير بامكانات الدبابات ومشكلات الحرب الميكانيكية .

كذلك كان من حسن طالع ليدل هارت أن كان مثل هذا القائد العميق التفكير والواسع الأفق ذهنيا رئيسا للأركان في الوقت الذي قام فيه بزيارته الوحيدة لاسرائيل في العام ١٩٦٠ . ولعل « لاسكوف » ـ كقائد سابق للسلاح الجوي وقائد سابق للقوات المدرعة ـ كان الخليفة المثالي لـ « دايان » كرئيس للأركان في كونه قد سعى إلى اعادة تشكيل قوات الدفاع الاسرائيلية للستينات على أساس القوات المدرعة السريعة الحركة التي يساندها سلاح جوي قوي . ووفقا لما يقوله « لوتواك » و « هوروفيتش » فان كتاباته (التي نشرت أساسا في الصحف العسكرية العبرية المتخصصة) « تشكل أشمل بيان للعقيدة العسكرية الاسرائيلية » . فانه وخلفاؤه « أدركوا الآثار الأعمق للقدرة على الحركة ، وشرعوا في تشكيل تنظيم الجيش وعقائده ووسائله في القيادة حول متطلبات الحرب المتحركة »[٣٠] . وعلى الرغم من ان الأدلة غير مباشرة فانه يبدو من المعقول أن نربط اسم ليدل هارت بعقيدة « لاسكوف » ؛ ولقد كان من المؤكد أن يتلقى الأول اشارات لا لبس فيها بعد أن نفذت النظرية أروع تنفيذ في العام ١٩٦٧ .

كانت زيارة ليدل هارت لاسرائيل من ٢٠ آذار (مارس) إلى ٥ نيسان (ابريل) ١٩٦٠ كضيف على الحكومة بمثابة جولة لمنتصر . فقد أشادت به الصحافة بوصفه « أعظم خبير عسكري في زماننا » و « كلاوزفيتز القرن العشرين » و « أبو النظرية » ، بينما سارع هو بدوره إلى امتداح مضيفيه بوصفهم أحسن مريديه وأذكى العسكريين في العالم . وأجرى لقاءات مع جميع كبار

= ليدل هارت ١٦ أيلول ، ٢٩ أيلول ، ١٥ تشرين الأول ، ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٨ . ليدل هارت إلى شارون ، ١٠ و١٣ تشرين الأول ١٩٥٨ .

(٢٩) في رسالة الى «لاسكوف» بتاريخ ٢ ايار ١٩٦٩ كتب ليدل هارت أنه كان قد قرأ أخيرا ما مفاده أن «بن غوريون» قد أعلن أن « لاسكوف » بالتحديد هو الذي تبنى وطبق نظريته في استخدام القوات المدرعة . ويبدو أن رد « لاسكوف » (في ١١ ايار ١٩٦٩) يؤكد تصريح « بن غوريون » .

(٣٠) الجيش الاسرائيلي ، ص ١٧٢ . مقابلة مع الجنرال « لاسكوف » ، ١٧ أيلول ١٩٧٥ .

الجنرالات ، بما في ذلك مناقشات حول خريطة مع « لاسكوف » ونائبه « رابين » ومع رئيس الوزراء « بن غوريون » . كما ألقى خمس محاضرات عامة وجد بعض الأشخاص صعوبة في تتبعها بسبب طريقته غير الواضحة في الالقاء[٣١] . وقد أصاب مظهره الصحافيين بالحيرة ، فقد كان مظهره لا يتفق اطلاقا مع الصورة التي تخيلوها لضابط بريطاني عريض المنكبين ، أحمر الوجه ، مكتنز الجسم . وقد ذكر أحد الذين أجروا مقابلات معه :

« كان ليدل هارت ـ في مظهره وفي طريقته في الحديث ـ مختلفا تماما عما كنا قد تخيلناه عنه باعتباره أعظم خبير في عصرنا . فقد بدا أقرب إلى سيد انكليزي كل ما قام به من عمل حربي في حياته اصطياد أسد مرة واحدة في شبابه ، ومن وقتها اعتاد أن يردد الحكايات عن هذه التجربة في ناديه الخاص » .

ووصف صحافي آخر ـ بطريقة مرحة للغاية ـ طريقته غير المتسقة نوعا في الحديث :

« انه أيضا رجل جذاب جدا . فعلى الرغم من سنوات عمره الخمس والستين ، لا يزال يقف منتصبا ، مظهرا طوله بأكمله ، وأي طول ـ نحو مترين . . . وتزين سلسلة ساعة جيب ذهبية صديريته ، وغليون لا يفارق فمه أبدا وهو يتكلم ـ ولكن هذه قصة جديرة بالذكر في حد ذاتها ، فهو يبتلع كل الكلمات ويرمي نصف جملة وأخيرا يكرر نفسه . ذلك هو أسلوب « كيمبردج » الشهير في الحديث ، أثر من العصر الذهبي للامبراطورية البريطانية . فاذا لم تكن انكليزيا ، فليس من المهم حقا اذا كنت تفهمني اولا . ويقال أن أحدهم اقترح على وزير دفاع في احدى الدول الغربية أن يدعو ليدل هارت كمستشار عسكري . فأجاب وزير الدفاع قائلا : في العصر الذري ، هذا مستحيل ، فخلال الوقت الذي سأستغرقه في فهم ما يشير علي به ، نكون قد خسرنا الحرب فعلا »[٣٢] .

ويساور المرء الشك في أن الاسرائيليين استفادوا ـ خلال تلك الزيارة القصيرة ، لكن المرهقة ، من تصريحات ليدل هارت العلنية أقل مما كسبوا من عبقريته في اثارة الأفراد وحفزهم إلى الخروج بأفكار جديدة . وبالتأكيد كان ذلك انطباع واحد من ألمع مريديه ـ دكتور « يسرائيل بير » ـ وهو مؤرخ ومعلق عسكري كبير أدين في العام ١٩٦١ بتهمة التجسس لحساب الاتحاد السوفياتي . فقد كتب « بير » ـ الذي أشرف على واحدة من محاضرات ليدل هارت ـ بعد أيام قليلة من رحيله :

أعتقد أن زيارتك ومحاضراتك قد فعلت خيرا كثيرا لضباطنا وأن النتائج ستحس في جيشنا إن عاجلا أو آجلا . لقد اجبرت كثيرين من الناس على أن يعودوا إلى استخدام أدمغتهم ، أناس كانوا قد أصبحوا كسالى ومدللين ومتغطرسين بفعل انتصارات حققوها ، أناس أسبابهم الحقيقية أنهم لا يفهمون جيدا . لقد حاولت ـ بالعمل الدؤوب الذي قمت به طوال حياتك ـ أن تحقن « الجيوش الكهلة »

---

(٣١) مقابلة مع « اسحق رابين » ، ١٨ أيلول ١٩٧٥ .

(٣٢) ١٣/ ٨٠ نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة من المقابلة ، ص . ص . ٨ ، ٢١ .

بالدينامية وبطريقة مرنة في التفكير . صدقني ، ان « جيشا شابا » كجيشنا يحتاج حتى إلى مزيد مما لديك من عطاء ، مثل الاستدلال السليم والتحليل العميق ، وفوق كل ذلك مكانتك الأخلاقية »[٣٣] .

لعل حرب الأيام الستة في العام ١٩٦٧ هي التي قدمت أروع الأمثلة على التقرب غير المباشر طوال حياة ليدل هارت . واذا كانت كل الجبهات تتساوى بالنسبة لمؤ رخ القوات الاسرائيلية من حيث الأهمية ، فان سيناء هي بالنسبة لدارس أفكار ليدل هارت هي - مرة أخرى - مسرح العمليات الحاسمة .

على تلك الجبهة كان هدف وزير الدفاع المعين حديثا - « موشي دايان » - تدمير الجيش المصري -وهو هدف كان من شأن ليدل هارت في بداية حياته العملية أن ينتقده معتبرا اياه ذا نزعة « كلاوزفيتيه »[٣٤] وقد اكتسب الاسرائيليون ميزة حاسمة بضربة جوية وقائية ، دمروا خلالها أكثر من مائتي طائرة في اليوم الأول ، مقابل خسارة كلية من طائراتهم كانت أقل من خمسين طوال الحرب . وعلى الأرض امرت ثلاث مجموعات مهمات بحجم فرقة بأن تفتح الدفاعات الخارجية المصرية المنيعة قبل أن تشق طريقها عبر سيناء . في الشمال كانت مهمة فرقة « تال » اختراق دفاعات « رفح » والتقدم الى « العريش » . وفي الوسط كانت مهمة فرقة « يوفه » الأصغر - المؤلفة فقط من لواءين مدرعين احتياطيين - التقدم عبر الاراضي الصحراوية الوعرة وقطع الطرق المؤدية الى العريش ، وذلك لحماية مجنبة « تال » . وربما كانت أشق مهمة هي تطويق الدفاعات المصرية العميقة حول مفترقات الطرق عند « أبو عجيلة » و « أم قطف » ، وقد وقعت على عاتق فرقة « شارون » .

لم يمض هجوم « تال » وفقا للخطة ، ولكنه نجح بصورة فاقت كل توقع معقول من خلال الارتجال بواسطة قادة وحداته وبمجرد القتال الشاق . فعندما أمنت دبابات كتيبته الامامية خرقا شقت طريقها لعدة أميال وسط مدافعين مصريين أخذتهم المفاجأة دون انتظار لدعم من المشاة . وتم الاستيلاء على العريش في وقت أكثر قليلا من نصف الوقت المخصص لذلك . وبينما كانت قوات « تال » تتقدم على طول طريق « رفح - العريش » وكانت قوات « شارون » تستعد لهجوم ليلي على مفترقات الطرق الوسطى ، كان أحد ألوية « يوفه » يشق طريقه بمشقه عبر الكثبان الرملية بينهما . كان هذا بمثابة نموذج مصور لمفهوم ليدل هارت في التقرب غير المباشر حيث أن يوفه كان - في اتخاذه « الخط الأقل توقعا » - يسعى لتحقيق مفاجأة عن طريق التغلب على الطبيعة لا على المقاومة البشرية . وبعبارة أخرى فضل « يوفه » أن يخوض « صراع يوم بطوله عبر الرمال

---

(٣٣) المصدر السابق . « يسرائيل بير » إلى ليدل هارت ، ١٥ نيسان ١٩٦٠ .

(٣٤) في حديث مع «ييغال آلون» قال للمؤلف انه مارس - جنبا الى جنب مع «يادين» و«دايان» تأثيرا غير مباشر على استراتيجية حرب العام ١٩٦٧ كمستشار لرئيس الحكومة « اشكول » . انظر أيضا رسالة « آلون » الى ليدل هارت ، ١١ تشرين الأول ١٩٦٧ .

الناعمة » ، على المخاطرة بهجوم جبهوي . وكانت العملية شبيهـة للغـاية باستخـدام « يادين » الطريق الروماني المنسي في المسرح نفسه في العام ١٩٤٨ . وقد صرح « يوفه » للمؤلف بان أهم على قراره كان لخبرته بالرحلات الشاقة المماثلة عندما كان يخدم في الجيش الثامن خلال الحـرب العالمية الثانية . كان يعرف معرفة جيدة وقد استوضح الخطة مع قائد الجبهة الجنوبية ، الجنرال « غافيش » Gavish ، ورئيس الأركان « رابين » . وخلال مسيرة حوالى عشرين ميلا واجه لواءه سرية مصرية واحدة . وقد اوصله طريقه الى ما وراء دفاعات العدو الرئيسية ، مما مكنه من قطع تعزيزاته الى الجبهة ، حيث كانت وحدات « تال » من المشاة مشتبكة في قتال شديد وفشلت في الاندفاع عبر الثغرة التي فتحها بواسطة وحداته المدرعة الامامية .

ومع ذلك لم يكن انجاز « يوفه » البارز قد تحقق بعد . ففي اليوم الثالث صدر الأمر إلى اللواء الذي كان يعاني مشقة عبور الكثبان الرملية (لواء الكولونيل « شادمي ») بالتقدم أكثر من مائة ميل عبر أراضي العدو لسد المدخل الشرقي لممر « متلا » . وقد انجز هذه المهمة دون أن تتبقى له في نهايتها إلا تسع دبابات ـ بسبب نقص الوقود ـ وبقليل من المشاة ومساندة « الهاون » صمد لمدة ثماني عشرة ساعة ضد هجمات مصرية مستميتة . وأصبح مدخل الممر ساحة قتل أبيدت فيها الدبابات والمشاة المصرية[٣٥] .

وربما كان انتصار « شارون » عند مفترق طرق « أبو عجيلة ـ أم قطف » أروع الانتصارات كلها فقد اختار العمل ليلا ضد دفاعات مصرية جيدة التنظيم في العمق تتألف من حقول ألغام وخنادق تدعمها دبابات ومدفعية تفوق دبابات ومدفعية المهاجمين . وعلى حين أن نجاح « تال » في القطاع الشمالي قد تحقق بالارتجال ، فان نجاح « شارون » كان نموذجا للتخطيط المنسق بدقة ، قاد فيه المظليون الطريق لتطهير ممر عبر حقول الألغام تدعمهم ستارة نيران هائلة دقيقـة التصـويب بواسطة مدفعية ذاتية الحركة وهاونات ، وتبعتهم قوتان من الدبابات تلاقتا ـ بعد التسلل داخل الدفاعات ـ من الشرق والغرب . ولقد كان من شأن أصغر خطأ في التـوقيت أن يشـل العملية باسرها ، وربما أدى الى اطلاق الاسرائيليين النار على بعضهم بعضا . وقد برهن « شارون » بهذه العملية على أنه أستاذ في التخطيط التكتيكي الجزئي ، وعلى أنه بالمثل قائد ديناميكي في المعركة . وكانت الدروس التي استقاها من هذه التجربة أن كل ضابط أركان لا بد أن يلتزم بنجاح الخطة وأن على القائد أن يبقى في المقدمة وأن يتدخل في المعركة على النحو الذي يعتبره ملائما . وفي رأيه ـ كما برهن مرة أخرى في العام ١٩٧٣ ـ أن الأعمال المنسقة على نطاق واسع لا يمكن السيطرة عليها من مقر قيادة في المؤخرة »[٣٦] .

---

(٣٥) لقاء مع « افراهام يوفي » . الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ٢٣٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ .

(٣٦) لقاء مع « اريئيل شارون » في إصراره على ضرورة تدخل قائد فان الجبهة في معركة تكتيكية كلما اعتبر ذلك ضرورياً ، يبدو أنه كان غير مبال بالاشارة إلى أن هذا التدخل قد يسبب مصاعب لرئيس الأركان أو الحكومة . انظر = أيضاً : الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

بهـذه الأعمـال لم يمزق الاسرائيليـون دفاعـات المصريين في الجبهـة فحسـب ، بل انهم ايضاً حطمـوا خطـة الهجـوم المضـاد التي اعدوهـا اعـداداً جيدا ، والتـي كانـت تقضي بشـل حركة المهاجمين بواسطة « درع » مختلط من المشاة والمدفعية والدبابات ثم تدميرهم بواسطة « سيف » يتألف مما يعادل فرقتي مدرعات . ولكن انجاز الاسرائيليين المتفوق يكمن في الطريقة التي استغلوا بها نجاحهم المبدئي بشق طريقهم عبر مناطق مؤخرة المصريين لسد كل المخارج عبر ممري « متلا » و « الجدي » وعبر القناة . وقد وصف ليدل هارت ـ في مقال اشتهر كثيرا في مجلة Encounter ـ بطريقة مغرقة في المبالغة ـ هذه المرحلة الثانية بأنها أذكى وأفعل تطبيق للتقرب غير المباشر في سجل الحرب الحديثة . كانت الاستراتيجية الاسرائيلية ـ التي يسهل وصفها ويصعب للغاية تنفيذها ـ هي شق طريقهم وسط المصريين المتراجعين ـ وفي بعض الحالات على الطـريق ذاتها ـ ثم اقامة حواجز يتعين على العدو الذي تفكك تنظيمه أن يهاجمها ويتغلب عليها لكي يفر . وبحلول ليلة ٨ حزيران (يونيو) ـ اليوم السابق على اعلان قرار الأمم المتحدة بوقف اطلاق النار ـ كان الاسرائيليون قد حققوا التدمير التام للجيش المصري في سيناء ، الذي كان قوة أضخم بكثير من القوة التي كان يقودها « روميل » في معركة « العلمين »[٣٧] .

ولقد سارع عديد من العسكريين والأكاديميين الاسرائيليين إلى الاشادة بفضل ليدل هارت على أنه مصدر الالهام الفكري الرئيسي وراء استراتيجية وتكتيكات حرب الأيام الستة . فكتب دكتور (بروفيسور الآن) « ج . ل . والاش » من جامعـة تل أبيب (وهـو أيضـا « عقيد » في الاحتياط) أن الاسرائيليين كانوا مريدين لعقيدة « التقرب غير المباشر » للمرة الثالثة :

« وهذا ـ فوق كل شيء ـ ليس بالمفهوم التقني وحده ، انما أساسا في المجال العقلي والفكري ، بالاختيار الـذكي للوقـت ، والاتجـاه ، والمنهـج ، والقـوة لتحركاتنـا ، وخاصـة على الصـعيد الاستراتيجي »[٣٨] .

أما « حاييم لاسكوف » فعلق قائلا :

« في حدود ما أعرف ، وضعت أفكارك عن المدرعات في أكثر أدوارها انطلاقا موضع الاختبار من جانب فرقة « تال » في قطاع « رفح ـ العريش » . . . ولم تكن الارض وعـرة فحسـب ، بل ان المقاومة كانت على أشدها . ولدي شعور بأنك تجلس مضجعا وتضحك في سرك وتتساءل عجبا أي قدر

= أيضا : الجيش الاسرائيلي ، ص . ص . ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص . ص . ٢٥٠ ـ ٢٥٩ . وEncounter ، المصدر المذكور .

(٣٨) دكتور « ج . ل . والاش » الى ليدل هارت ، ٢٧ حزيران ١٩٦٧ . انظر أيضا مقال « والاش » : « القوات المدرعة الاسرائيلية في حرب الأيام الستة » في مجلة المدرعات، عدد أيار- حزيران ١٩٦٨ ، ص . ص . ٣٤ ـ ٤٣ .

وما الذي فعله الاسرائيليون ليحققوا تعاليم وتبشيرات استغرقت عمرا بأكمله » .

ولاحظ ليدل هارت - في رده على الجنرال « لاسكوف » - أنه كانت تساوره دائما مشاعر مختلطة فيما يتعلق باشادات القادة الألمان بتأثيره على جيشهم : إلا أنه لم تكن هناك أبدا مشاعر مختلطة كهذه ، انما سرور فحسب ، وأنا أرى كيف طبق قادة اسرائيل تلك الأفكار ، حتى على نحو أفضل »[٣٩] .

وفي مقاله بمجلة Encounter أكد ليدل هارت أنه على الرغم من أن « غوديريان » و « روميل » كانا كريمين للغاية في الاقرار بتأثيره ، إلا أنهما لم يدركا الجانب الاكثر حذقا في التقرب غير المباشر بمثل الجودة التي أدركه بها الاسرائيليون . فالحقيقة أن الاسرائيليين أوجدوا مثالا نادرا على خبرة التاريخ القائلة بأن الجيوش تتعلم من الهزيمة وحدها ، لا من النصر . وقد برهنوا في الحملة الأخيرة على أنهم حسنوا من أدائهم الذي قاموا به في ١٩٥٦ بواسطة الجمع البارع - في سيناء - بين الهجوم الاستراتيجي والدفاع التكتيكي . وكتب إلى « لاسكوف » : « انك وابناء بلدك بالتأكيد أفضل مريدي » .

ولعل أكثر الاشادات اعترافا بالجميل جاء من البروفيسور « ييغال يادين » في تعقيب له على مراجعة ليدل هارت لكتاب تشرشل « الحفيد » عن حرب الأيام الستة :

« أستطيع أن أرى من ملاحظاتك كيف أن المؤلفين قد فاتهما تماما المبدأ الاستراتيجي الأساسي لخطة « رابين » (وكانت خطته ، التي عدلت تعديلا طفيفا من جانب رؤسائه السياسيين) ، أي لم يدركا المأثرة الحاذقة والرائعة للاستراتيجية الحقة للتقرب غير المباشر . لقد تعلمنا جميعا - كما تعرف - وليس رابين وحده - لسنوات طويلة من كتبك . وكان نجاح معارك الأيام الستة مع نحو ما شهادة بسلامة تعاليمك التي - لحسن طالعنا نحن - لم يتعلمها العرب ، بما فيهم الفيلق العربي (الجيش الاردني) الذي خلقه البريطانيون . لقد وقع هذا الفيلق مجبرا في الفخ على الرغم من أن الحملة ضده كانت بأسرها سلسلة رائعة من الأعمال التكتيكية المرتجلة ، المبنية جميعا على العقيدة الأساسية للتقرب غير المباشر »[٤٠] .

ان أمة لها سجل لم ينقطع من الانتصارات ولها مثل هذا المستوى العسكري العالي كالاسرائيليين كان يمكن أن تنظر الى نتيجة حرب العام ١٩٧٣ على أنها - بأي معنى - هزيمة عسكرية . وعلى الرغم من العملية اللاذعة اللاحقة التي أجروها منذ ذلك الوقت ، فانه ليس من

---

(٣٩) « لاسكوف » الى ليدل هارت في ٢٢ آب ١٩٦٧ . ليدل هارت الى « لاسكوف » في ١٢ و ٢٥ أيلول ١٩٦٧ .

(٤٠) يادين الى ليدل هارت ، ٢٩ آب ١٩٦٧ . وقد لاحظ « يادين » للمؤلف أن اشارته الى « رابين » على أنه تعلم من كتب ليدل هارت ينبغي أن تفسر بمعنى غير مباشر .

الواضح بأي حال لمراقب خارجي متجرد أنهم لا يزالو ن يتمتعون باختيار توجيه ضربة وقائية[41] . لقد قوت المكاسب الاستراتيجية الهائلة التي حققها الأسرائيليون من حرب الايام الستة مركزهم العسكري ، ولكنها حطمت مكانتهم الدبلوماسية وتميزهم الأخلاقي . وباختصار فانه لم يعد ينظر اليهم بوجه عام على أنهم من ضحايا الاضطهاد ، وأصبحوا يعدون الآن من جانب بعض المتعاطفين السابقين معهم بمثابة معتدين . وبالاضافة الى هذا ، وبينما كانوا يستمرون في كثير من النواحي في تعلم الدروس حتى من انتصاراتهم الساحقة في العام ١٩٦٧ ، كان من الواضح أن هناك قدرا معينا من الرضى الذاتي بل وحتى الغرور[42] .

وبطبيعة الحال لم يكن ليدل هارت بعد على قيد الحياة لكي يعقب على نتيجة حرب يوم الغفران ، ولكنه يبدو من المعقول أن نفترض أنه كان سينتقد العنصر الدفاعي الثابت ـ الذي تمثل رمزيا في انشاء خط « بارليف » ـ الذي تم تبنيه على الرغم من نصيحة الجنرال « شارون » الأكثر هجومية وصاحب الذهنية المؤيدة للحركة . كذلك من المأمون الافتراض بأن ليدل هارت ـ نظرا لأنه كان يؤكد منذ العشرينات على ضرورة أن تعمل المشاة الميكانيكية في تعاون وثيق مع المدرعات ـ كان سينتقد اعادة التنظيم التي جرت بعد العام ١٩٦٧ ، والتي ارتبطت باسم الجنرال « تال » ، والتي بموجبها حرمت كتائب الدبابات في كل لواء من مشاتها الميكانيكية ومن هاوناتها الى حد كبير . وبينما يعد من قبيل الافراط في التبسيط أن نتحدث عن « تشكيلات من الدبابات وحدها » ، فان المعارك الأولى في سيناء في العام ١٩٧٣ قد برهنت بوضوح على ان الوحدات المدرعة الاسرائيلية كانت غير مساندة بصورة كافية الى حد بعيد في مواجهة الدفاعات المصرية ، التي كانت آنذاك مجهزة على نطاق ساحق بأحدث أنواع الأسلحة المضادة للدبابات .

والحقيقة أن المصريين هم الذين حققوا ـ على وجه التقريب ـ روح تعاليم ليدل هارت في المرحلة الأولى من القتال بالجمع بين هجومهم الاستراتيجي عبر القناة ودفاع تكتيكي صارم . وقد شكلت المشاة أساس درعهم الدفاعي ، مسلحة بصواريخ « ساغر » Sagger المضادة للدبابات والموجهة سلكيا ، وهي ذات فاعلية لمسافات منعت الدبابات الاسرائيلية من الاشتباك في القتال . وقد ابقيت الكتلة الرئيسية من المدرعات المصرية في الخلف على الضفة الغربية للقناة انتظارا لتدمير الوحدات المدرعة الاستراتيجية . وكان كل شيء على ما يرام حتى ذلك الوقت ، ولكن المصريين اظهروا بصورة محزنة أنهم عديمي الكفاءة في تصورات ليدل هارت الأخرى للحركة والمرونة الهجوميتين . فبعد أن كسب المصريون الجولة الأولى أثبتوا عجزهم عن استغلال نجاحهم بالتقدم ، وبهذا أتاحوا الوقت للاسرائيليين للاستفاقة مرة اخرى واستعادة المبادأة .

---

(٤١) على الرغم أنه لا يمكن أن ينازع أحد في أن الاسرائيليين أخذوا على حين بغتة ، يذهب « لوتواك » و « هوروفيتش » (الجيش الاسرائيلي ، ص ٣٤٢) الى أن اعتبارات سياسية منعتهم من توجيه الضربة الأولى .

(٤٢) بروفيسور « والاش » ، في حديث يوم ١٧ ايلول ١٩٧٥ ، أشار الى انه ثبت أن ليدل هارت كان مصيبا في تحذير الاسرائيليين من أن يصبحوا مفرطين في الثقة بأنفسهم .

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب ـ التي قطعها قرار وقت اطلاق النار الـذي فرضـه مجلس الأمن الدولي ـ أظهر الاسرائيليون ، وبصفة خاصة الجنرال « شارون » أنهم لا يزالون أساتـذة الهجوم المعاكس المتحرك . إذ كانت استراتيجية شارون بعد العبور إلى الضفة الغربية من القناة وفقا لأجرأ تقاليد « غوديريان » و « روميل » . فلقد تمكن بواسطة طليعة مكونة من نحو ثلاثين دبابة فقط وألفين من جنود المشاة من الاستهزاء بالحل السهل (والذي كانـت تقضي به الاوامـر الصادرة اليه) بأن يبقى على الموقف الدفاعي إلى أن يتم تأمين رؤوس جسور العبـور على كلا جانبي القناة ، وعن طريق الانتشار المروحي لهجومه أشاع الارتباك في جميع مناطق مؤخرة الجيش الثاني المصري[٤٣] . وحقا فإنه نادرا ما يوجد مثـال يعد أكثـر كمالا لأفـكار ليدل هارت ، عن الاختراق العميق وشل قيادة العدو بقطع مواصلاته ، وتهديد أهداف بديلة ونشر الذعر ، عن هذا المثال . ولكن بفضل التدخل الروسي ما كان يمكن الشك في أن المصريين سيصابون ـ بعد بداية مبشرة بالنجاح ـ بهزيمة لا تقل فداحة عن هزيمتهم في حرب الأيام الستـة . ولا يكاد يكون من الممكن تفسير كثير من القتال في هذه الحرب ـ كذلك الذي حدث مثلا على مرتفعات « الجولان » ، على أساس التقرب غير المباشر . فمع نمو قوة العرب الدفاعية وثقتهم بأنفسهم ، يبدو من غـير المرجح أن تواتي الاسرائيليين فرصة لتنفيذ التقرب غير المباشر الاستراتيجي . على أساس يمكن مقارنته بنجاحاتهم في العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٣ .

أما عن احتمال تسوية سلمية في النهاية ، فان أفكار ليدل هارت المتسمة بوجه عام بالتشاؤم والحذر الشديد بعد حرب العام ١٩٦٧ ، لم تفند في أساسها حتى الآن . لقد كان يشعر أن تاريخ نصف القرن الماضي في الشرق الأوسط قد أظهر أنه ليس هناك كثير يمكن توقعه من المفاوضات ؛ ويكمن الأمل الوحيد في مرور الزمن والاستقرار . وقد أشار ـ قبل حدوث أزمة النفـط ـ أنـه سيكون من الحماقة أن تحاول الدول الغربية تعجل تسوية ، سواء بدافع الايثار أو بدافع القلق الأناني على مصالحها الخاصة القصيرة الأجل . فان الخبرة بالساسة العرب لا تعطي أساسا لأمل في مصالحة . ويتعين على اسرائيل أن تحتفظ بكل ، أو تقريبا بكل ، الأراضي التي غزتها . وذهب الى أبعد من هذا عندما أشار في حديث صحافي إلى أنه كان يستحسن أن يواصل الاسرائيليون التقدم داخل سوريا لاقامة دولة درزية مستقلة تقوم بدور المنطقة العازلة بين الأردن وسوريا[٤٤] . وهكذا فانه ، ان لم يكن قد تجاهل بأي حال التعقيدات السياسية للوضع في الشرق الأوسط ، كان أولا وقبل كل شيء معلقا ، استراتيجيا لا يملك بصيرة خاصة في المسألة الأهم من كل ما عداها ، وهي كيفية ترجمة الانتصارات العسكرية الى تسوية دائمة .

---

(٤٣) الجيش الاسرائيلي ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٨ . وهنا يتخذ المؤلفان ـ في رأيي ـ موقفا مفرطا في النقد من « شارون » : وربما كان قراره بعبور القناة والاستمرار في التقدم قرارا غير مألوف ومجازف ولكن من المؤكد أنه أتى ثماره .

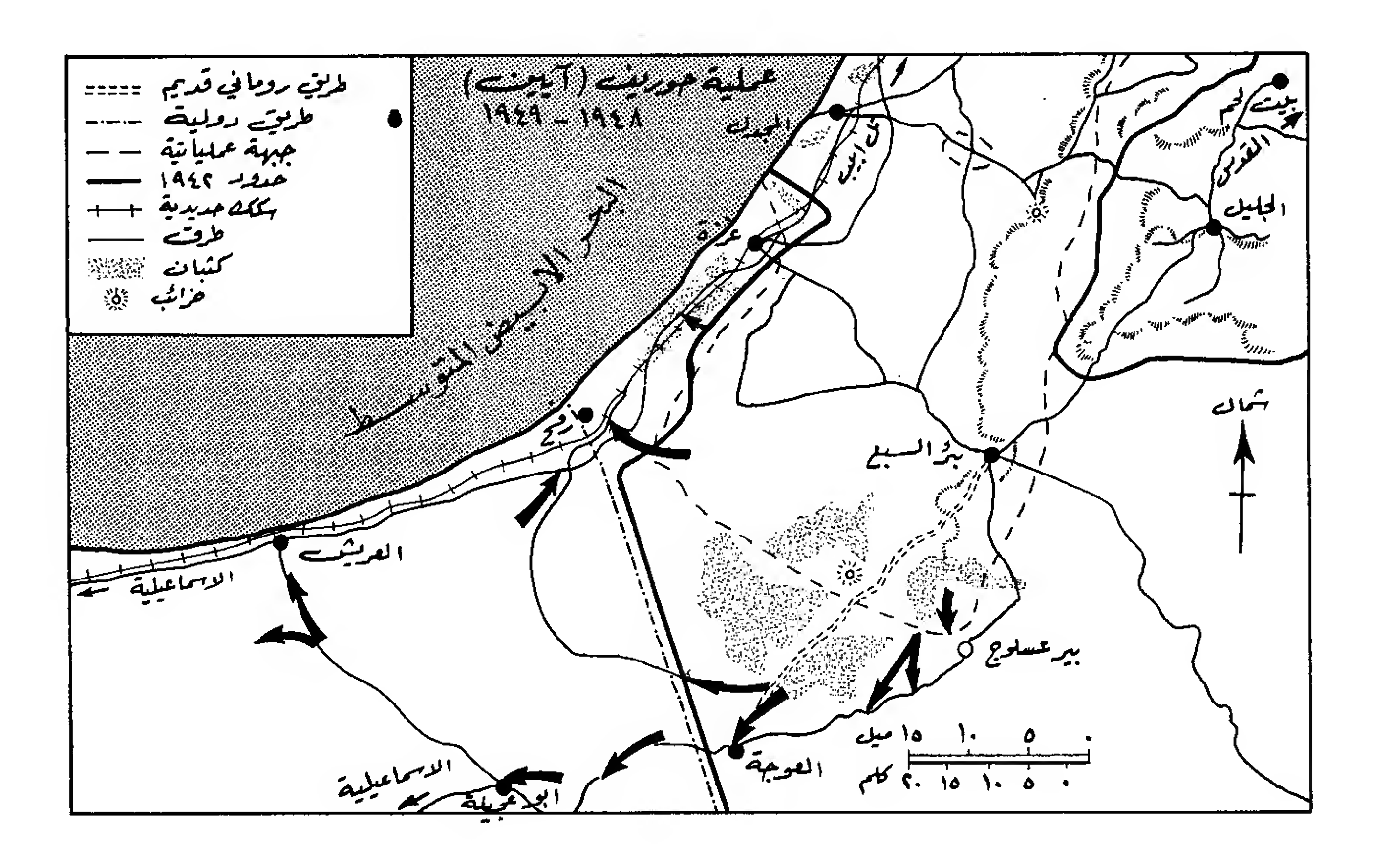
(٤٤) ١٣/ ١٨٠ مقابلة ليدل هارت مع « دافيد كيسلـر » المنشـورة في Jewish Chronicle يوم ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٧ ؛ و Encounter المصدر المذكور . أعرب عضو بارز في الحكومة الاسرائيلية (١٩٧٥) عـن تأييده التام لخلق دولة درزية ، في رسالة الى ليدل هارت في تشرين الأول ١٩٦٧ .

في محاولتنا للاجابة عن السؤال البالغ الصعوبة عن مدى التأثير الذي مارسه ليدل هارت على النظرية والممارسة العسكرية الاسرائيلية ، أشار هذا الفصل إلى أنه بينما يكون من قبيل الحماقة أن نأخذ المزاعم المبسطة لبعض الصحافيين بحرفيتها ، فانه يكون من قبيل الظلم أن نرفض الأدلة الدامغة المؤيدة له . وباختصار فان ليدل هارت تلقى من الاعتراف والثناء على ما حققه الجيش الاسرائيلي في الأعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كمنظر ، وخاصة كمنظّر أجنبي قدرا له الحق فيه في حياته . ومما لا شك فيه أنه لو كان على قيد الحياة في العام ١٩٧٣ لتلقى مزيدا من الاشادة وربما تلقى صورة موقعة أخرى ، أو اثنتين ، لتضم إلى صور « يادين » و « آلون » و « شارون » في غرفة مكتبته . ويبدو أن النقطة الرئيسية هي أن تأثيره قد غرس في معظم الأحيان بطريقة غير مباشرة ، أي بواسطة كتبه ومقالاته ، وقد كان بامكان معظم الضباط أن يجدوها مترجمة أو بصورة غير مباشرة في المحاضرات . ولقد كان « يادين » في الأربعينات هو الوسيط الحاسم الذي نقل أفكار ليدل هارت الواسعة عن الحرب إلى مجموعة صغيرة ، ولكنها على درجة عالية من الأهمية ، من الضباط الذين وصل عديدون منهم ـ مثل « رابين » ـ إلى المراكز القيادية ـ وفي الستينات كان جيل لاحق من الضباط قد تأثر بأهمية استراتيجية التقرب غير المباشر في المناهج الجامعية ، وخاصة منهم أولئك الذين درسوا على واحد من أتباع ليدل هارت المخلصين في تل أبيب ، وهو البروفيسور « ج . ل . والاش » . أما فيما يتعلق بحرب المدرعات فان أفكار ليدل هارت قد نادى بها أساسا الجنرال « حاييم لاسكوف » في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات .

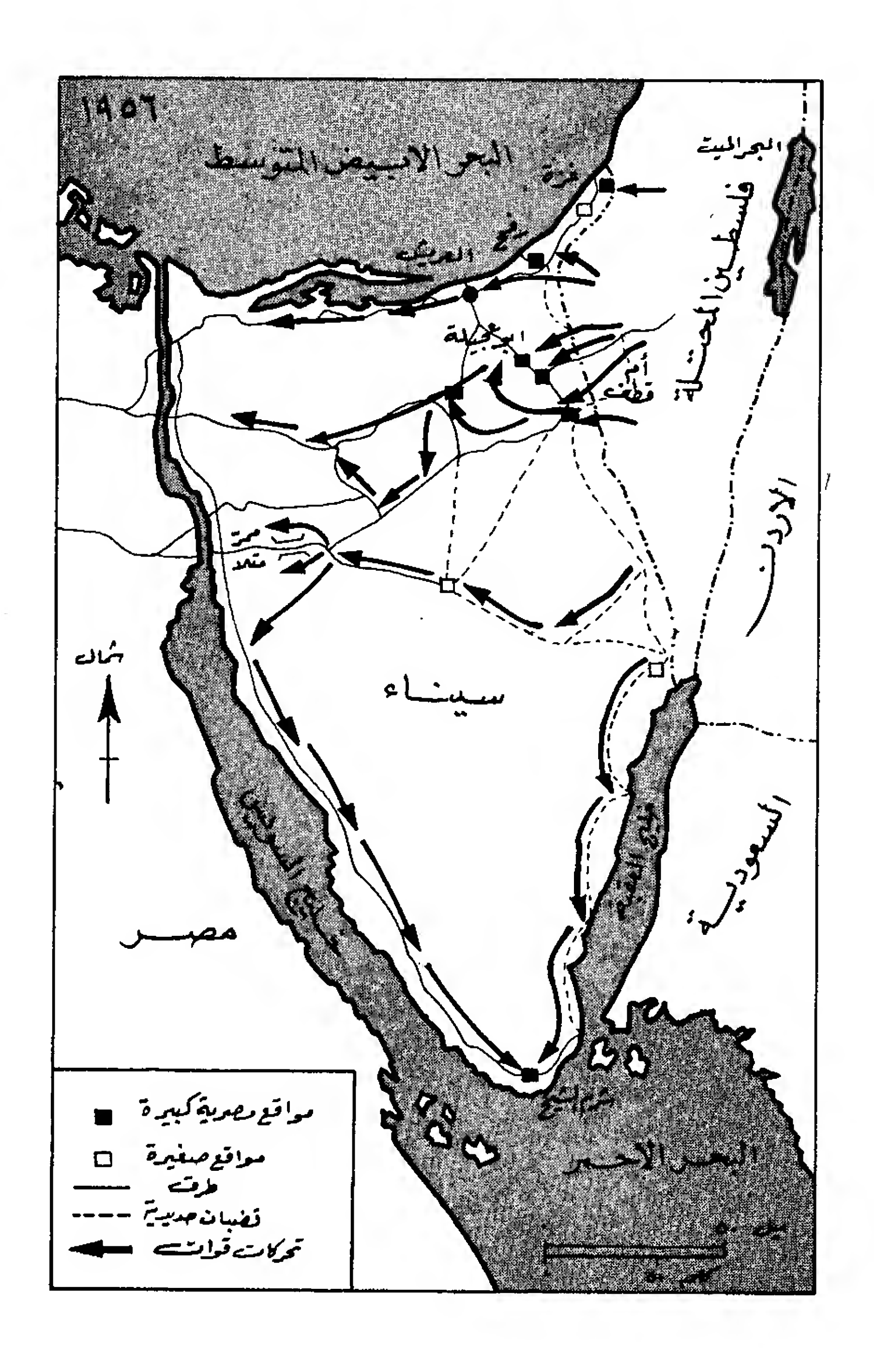
وفي النهاية يمكننا القول بأن كل الانجازات المادية كالانتصارات العسكرية يحددها الفكر ، ولكن هناك عملية تنشئة طويلة ومعقدة بين غرس الكلمة المكتوبة أو المنطوقة والقرار التنفيذي الناجح . كذلك ينبغي أن نتذكر ونحن نحاول مقارنة تأثير القلم والسيف أن ليدل هارت نفسه اعترف أن القادة الاسرائيليين لم ينجزوا مبادئه فحسب ، بل انهم أدخلوا تحسينات عليها . وفي النهاية فان القائد العسكري ـ على خلاف الكاتب ـ يمكن أن يُفصل أو حتى يُلحق به العار في بعض الأحيان اذا ما فشل ؛ ومن ثم فان من المناسب فقط أن ينال نصيب الأسد من الاشادة اذا ما نجح .

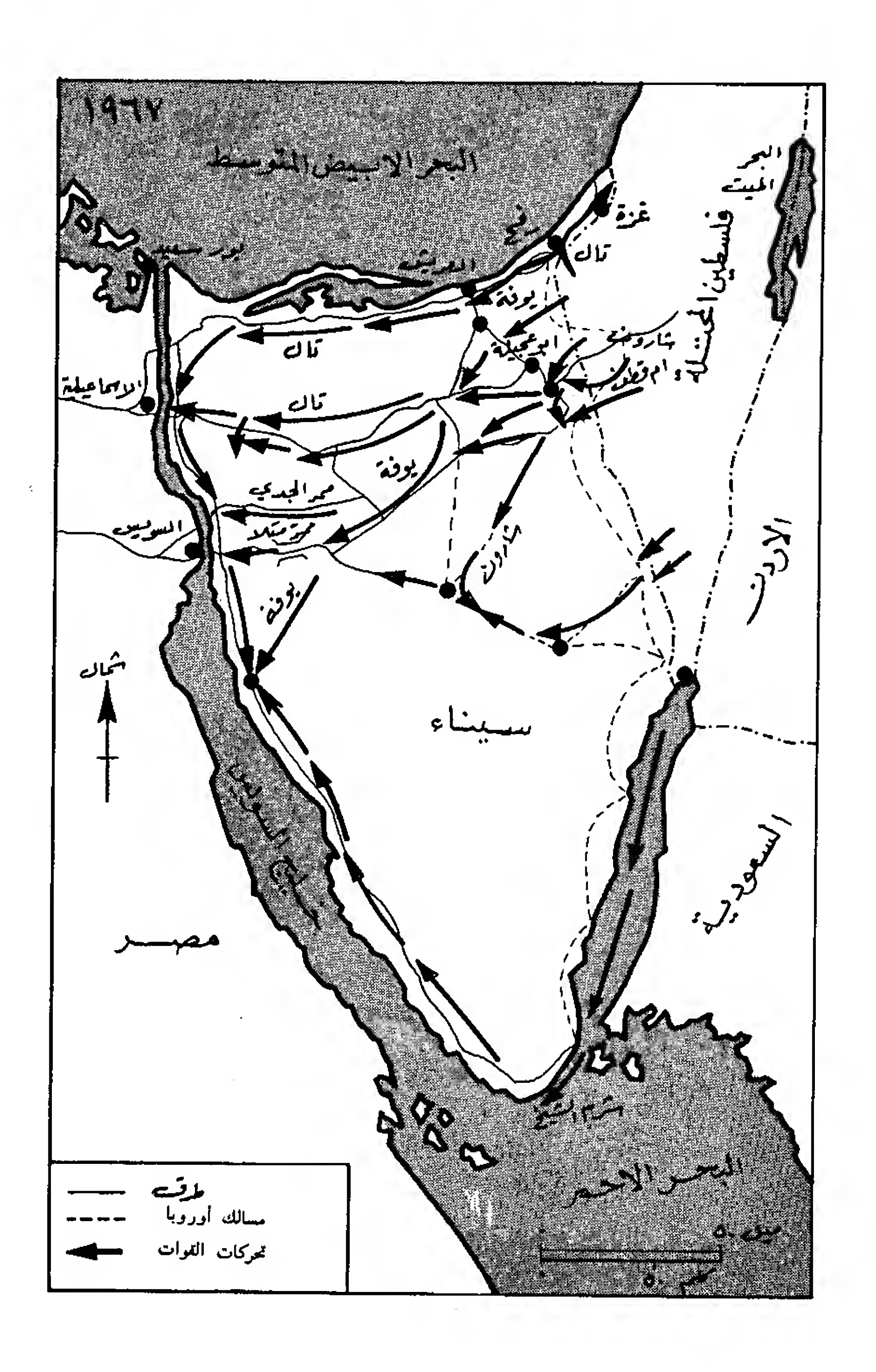
***

الخرائط



عملية حوريف (آيين)
١٩٤٨ - ١٩٤٩
طريق روماني قديم
طريق دولية
جبهة عملياتية
حدود ١٩٤٢
سكك حديدية
طرق
كثبان
خرائب
البحر الابيض المتوسط
المجدل
غزة
رفح
العريش
الاسماعيلية
الاسماعيلية
ابو عجيلة
العوجة
بير عسلوج
بئر السبع
الخليل
القدس
بيت لحم
شمال
١٥ ميل ١٠ ٥ ٠
٢٠ كلم ١٥ ١٠ ٥ ٠


١٩٥٦
البحر الابيض المتوسط
غزة
شيخ
العريش
أبو عجيلة
أم قطف
فلسطين المحتلة
الأردن
سيناء
شمال
مصر
السعودية
شرم الشيخ
البحر الأحمر
مواقع مصرية كبيرة
مواقع صغيرة
طرق
قضبان حديدية
تحركات قوات



١٩٦٧
البحر الابيض المتوسط
بور سعيد
العريش
رفح
غزة
تال
يوفة
ابو عجيلة
شارون
ام قطف
البحر الميت
فلسطين المحتلة
الاسماعيلية
تال
تال
يوفة
ممر الجدي
ممر متلا
السويس
شارون
يوفة
الاردن
شمال
سيناء
السعودية
مصر
شرم الشيخ
البحر الاحمر
طرق
مسالك أوروبا
تحركات القوات

الخـــاتمة

كرس ليدل هارت ـ شأنه شأن صديقه « (بوني) فوللر » السنوات الأخيرة من حياته أساسا للتاريخ العسكري ، ونشر كتابه الذكريات في مجلدين في العام ١٩٦٥ ، وأكمل عمله الضخم تاريخ الحرب العالمية الثانية قبل وفاته مباشرة في كانـون الثانـي (ينـاير) ١٩٧٠ . خلال هذه السنوات تلقى اعترافا متأخرا وتشريفا واشادات متأخرة انصبت عليه . عسكريون كبار ، بينهم الفيلد مارشال « مونتغمري » وصفه بأنه مفكر بريطانيا العسكري البارز ؛ وأقـر القـادة الألمان والاسرائيليون بأنه معلمهم ؛ أما بالنسبة لجمهرة من صغار الضباط والدارسين فقد كانوا يطلبون مشورته ويعجبون به باعتباره حكيما .

في العام ١٩٦٣ تلقى ليدل هارت و « فوللر » معا « وسام تشيزنـي Chesney التذكاري » ، الذي يمنح عادة عن الاسهامات المتميزة في التاريخ العسكري ، من معهد القوات المسلحة المتحدة الملكي ـ وهو شرف كانا كلاهما قد اكتسباه قبل ثلاثين عاما . وأثناء منحهما الوسام أشار الجنرال « سير جون هاكيت John Hackett » عن حق الى « أن أسميهما أسهان لهما فعل السحر في بلدان أخرى ، ومع مضي السنوات فقط وصلا الى تلقي اعتراف حقيقي بفضلهما في بلدهما » .

أن العرف الاجتماعي البريطاني يقضي بغفران كل شيء للخوارج والمتمردين ومنتقدي النظام حينما يصلون الى سن السبعين . واحتفالا ببلوغ ليدل هارت سن السبعين في العام ١٩٦٥ أشرف «مايكل هوارد» على تحرير كتاب تكريمي بعنوان النظرية والممارسة في الحرب avel Practice of War The Theory ، اشتملت قائمة الكتاب الذين شاركوا فيه على الجنرالين « بوفـر » و « بـايل » ، والعميد « ييغـال آلون » و « هنري كيسنجر » و « آلاستير بوكان » . وفي العـام ذاتـه عـين ليدل هارت استاذا زائرا بارزا في جامعة كاليفـورنيا ؛ وفي قائمة الشرف الملكية للسنة الجديدة في العام ١٩٦٦ منح لقب فارس . وأتلو الاعتراف الأكاديمي أيضا في صورة درجة دكتوراه شرفية في الآداب من جامعة « أكسفورد » . وكان من التشريفات التي أدخلت السرور على نفسه ، أكثر من كل ما عداها ، خاصة وأنه لم يكن قد نال حتى درجة البكالوريوس ـ أنه اختير زميلا شرفيا في كليته القديمة في جامعة كيمبردج .

أن ضخامة جهود ليدل هارت ، حتى في الميدان العسكري ، تتضح تماما حينما يحاول المرء أن يجد لقبا وصفيا دقيقاً: صحافي ، معلق ، ناقد ، مستشار لشؤ ون الدفاع ، مصلح لشؤ ون

الجيش ، رجل تكتيك ،منظّر استراتيجي ، وفيلسوف بالمعنى الشائع لا الفني للكلمة ؛ ذلك أنه لعب كل هذه الأدوار في اوقات مختلفة ، وأحيانا كان يمارسها معا في الوقت نفسه . ومن الظلم أن نصفه بأنه « صاحب السبع صنائع » على حد القول السائد ، ذلك أن مساعيه المتعددة الجوانب كان يغذي كل منها الآخر ، ولكنه كان من الممكن أن يجيد في بعضها ، كمؤرخ مثلا ، لو أنه لم ينشر اهتماماته على مثل هذا الاتساع .

ومع ذلك فمن الواضح أنه لم يكن من طبيعة ليدل هارت أن يقتصر على تخصص في مجال محدود . بل انه ـ بالأحرى ـ وبوصف مايكل هوارد الحاذق ـ واحـد من آخر مجموعة من الحكماء البارزين الذين كان مثلهم الأعلى « فولتير » الهادم للقيم القديمة ، والذي كان من بـين أسلافـه الانكليزي « ويب »Webb و « ويلز »Wells و « شو »Shaw و « راسل »Russell . ويكمن تفرد ليدل هارت في حقيقة أن شاغله الرئيسي كان هو فن الحرب ، ولكن وصف « المفكر العسكري » غير كاف بصورة واضحة :

« الحكيم ملك ، وليس عضوا في جمهورية . فالحكيم وفوق كل شيء ، ومهما كانت جذوره غائرة في عمق التجارب في موضوع واحد ـ ينطلق كالموج خارجها بصورة لا يمكن السيطرة عليها . ولم يكن ليدل هارت مجرد مفكر عسكري بأكثر مما كان « شو » مجرد كاتب مسرحي أو « راسل » مجرد فيلسوف . فهومثلهما كان الاهتمام الحميم الذي كرس له دراسته قد أسلمه الى اهتمام محموم بكل شيء عداه أيضا »[1] .

شارك ليدل هارت أيضا في صفة المثل الأعلى المتمثل في الملك الفيلسوف ، الذي غزا الحافز الى الطموح الشخصي وجعل نفسه مستقلا عن جميع التفريعات السياسية والدينية والقطاعية ، والذي يمكنه أن يقدم النصيحة الحكيمة لرجل الدولة أو للقائد العسكري في المواقف الحرجة . وعلى الرغم من بعض النواقص الواضحة فانه نجح في لعب هذا الدور إلى درجة ملحوظة . وبعيدا عن ارتباطه الذي لم يدم إلا لفترة قصيرة بـ « هور ـ بيليشا » ، فانه ظل في منأى عن السياسات الحزبية ، وبعد أن ترك العمل بصحيفة التايمز في العام ١٩٣٩ لم يكن له بعد ذلك أبدا صاحب عمل منتظم . وكان احتفاظه بمثل هذا الوجود المحفوف بالخطر انجازا مثيرا للدهشة بمقاييس النشاط والدأب والتماسك الأخلاقي ، أخذا في الاعتبار أنه كان معتمدا في الأساس على قلمه ليكسب عيشه . وبعبارة أخرى فان ليدل هارت كان مثاليا على طريقته التي تتسم بالتمحور على الذات وبدرجة عالية من الفردية . وكان هذا واضحا لكل من عرفه معرفة جيدة ، كما يتضح بقوة من أوراقه ، وخاصة في الثلاثينات . لكن الطبيعة الدقيقة لمثاليته لم تتطور ـ لسوء الطالع ـ تطورا كاملا وظلت ضمنية في كتبه الى حد كبير . لقد دفع ثمنا غاليا من احتمالات حياته العملية ومن الثروة والجاه لكي يبقي على حريته في السعي وراء الحقيقة ونشرها كما كان يدركها ، ولكن هذا الجهد نفسه جلب إليه اشباعاته الخاصة . كذلك فان هذه المثالية ذات النزعة الانسانية الكامنة ـ

مهما كان نقص تحققها الفعلي - هي واحدة من الصفات التي ينبغي أن تؤمن له مكانة بين أولئك الذين كرسوا حياتهم لدراسة الحرب بطريقة منزهة عن الأهواء .

فما هي الأوجه التي يرجح أن تكون الأكثر أهمية والأطول دواما من أعمال ليدل هارت ؟ يبدو لي أنه كان في أسلم أحواله وأكثرها فائدة للمهنة العسكرية كمنظّر تكتيكي ، حيث كان أقرب إلى خبرته العملية الخاصة . وعلى الطرف الآخر من المشهد فان فلسفته في الحياة ، التي تضم مدركاته عن الاستعداد لقبول الحلول الوسط ، ولقصر الجهود على الحجم اللازم لبلوغ الهدف ، وممارسة ضبط النفس والاعتدال والتسامح ، تعطي كلها فكرة انسانية جديرة بالاعجاب مهيمنة على الجزء الرئيسي لمؤلفاته . ولا يعني هذا انه لم تكن لديه أفكار ذات قيمة كبيرة يسهم بها في مضمار الاستراتيجية .والسياسة ، انما انجازه هنا هو أكثر مدعاة للجدال .

ولكن أهمية ليدل هارت في مجال الفكر العسكري تتجاوز بالتأكيد النظريات أو العقائد الاستراتيجية المعنية التي نوقشت في هذا الكتاب . ويمكنه أن نسوق سببين تربطهما صلة فيما يتعلق بهذا الزعم : المثال القوي على حياة عملية كرست لدفع التفكير البناء حول طبيعة الحرب ؛ والتأثير غير المباشر الذي لا يحصى الذي مارسه من خلال مساعدته للآخرين والهامه لهم . وباختصار فان انجازه البارز ـ الذي تحقق بفعل عمق وكثافة جهود استغرق عمرا بأكمله ، يمكن أن يكون تحويله طبيعة الفكر العسكري ذاته .

***

ملحق (أ)

كتابات ليدل هارت الرئيسية

١ ـ مناهج جديدة في تدريب المشاة (١٩١٨)
New Methods in Infantry Training C. U. P. Cambridge 1918.
٢ ـ إطار لعلم تكتيكات المشاة . (١٩٢١)
علم تكتيكات المشاة . طبعات منقحة (١٩٢٣) ، (١٩٢٦)

The Framework of a Science of Infantry Tactics Hugh Rees, London 1921;
revised eds : **A Science of Infantry Tactics** Clowes, London, 1923, 1926.
٣ ـ باريس ، أو مستقبل الحرب . (١٩٢٥) .

٤ ـ أعظم من نابليون : سيبيون الأفريقي . (١٩٢٦) ، (١٩٢٧)
A Greater than Napoleon; Scipio Africanus Blackwood, Edinburgh ı London 1926: Little, Brown, Boston 1927.
٥ ـ إعادة تشكيل الجيوش الحديثة . (١٩٢٧)
The Remaking of Modern Armies Murray, London: Little, Brown, Boston 1927.
٦ ـ كشف النقاب عن القادة الكبار . (١٩٢٧) ، (١٩٢٨)
Great Captains Unveiled Blackwood, Edinburgh ı London 1926: Little, Brown, Boston 1928.
٧ ـ أصحاب السمعة : بعد عشرة أعوام . (١٩٢٨)
Reputations: Ten Years After Murray, London: Little, Brown, Boston 1928.
٨ ـ شيرمان : جنديا ، وواقعيا ، وأميركيا . (١٩٢٩)
شيرمان : عبقري الحرب الأهلية . (١٩٣٠) ، (١٩٣٣)
Sherman: Soldier, Realist, American Dodd, Mead, N.Y. 1929; **Sherman: the Genius of the Civil War** Benn, London 1930: Eyre and Spottiswoode, London 1933.
٩ ـ الحروب الحاسمة في التاريخ . (١٩٢٩)
الاستراتيجية : التقرب غير المباشر . طبعة منقحة مزيدة (١٩٢٧)
The Decisive Wars of History Bell, London: Little, Brown, Boston 1929; latest ed., with additions: **Strategy: the Indierct Apporoach** Faber, London: Praeger, N. Y. 1967.
١٠ ـ الحرب الحقيقية (١٩٣٠)
تاريخ الحرب العالمية ، ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . (١٩٣٤)
تاريخ الحرب العالمية الأولى . (١٩٧٠) ، (١٩٧١)
The Real War Faber, London: Little, Brown, Boston 1930; enlarged ed.: **A History of the World War, 1941-1981** Faber 1934: Little, Brown 1935; reissued as History of the First World War Cassell, London 1970: Putnam, N. Y. 1971.

١١ ـ فوخ : رجل أورلينز . (١٩٣١) ، (١٩٣٢) ، (١٩٣٧)
Foch: the Man of Orleans Eyre and Spottiswoode, London 1931: Little, Brown, Boston 1932; Penguin, Harmondsworth 1937.

١٢ ـ الطريقة البريطانية في الحرب . (١٩٣٢) ، (١٩٣٣)
عندما تدخل بريطانية الحرب . (١٩٣٥) . ظهرت طبعة ثالثة بفصول جديدة مع العنوان الأصلي* (١٩٤٢) .
The Britsh Way in Warfare Faber, London 1932: Macmillan, N. Y. 1933; enlarged ed: **When Britain Goes to War** Faber 1935; with additional chapters and original title: Penguin, Harmondsworth 1942.

١٣ ـ مستقبل المشاة . (١٩٣٣) ، (١٩٣٦)
The Future of Infantry Faber, London 1933: Military Service Publishing Co., Harrisburg, Pa. 1936.

١٤ ـ شبح نابليون . (١٩٣٣) ، (١٩٣٤)
The Ghost of Napoleon Faber, London 1933: Yale U. P., New Haven 1934.

١٥ ـ ت . إ . لورانس . (١٩٣٤)
كولونيل لورانس . (١٩٣٤) كولونيل لورانس ، الرجل وراء الأسطورة ـ نيويورك (١٩٣٤)
'T. E. Lawrence' in Arabia and After Cape, London 1934:**Colonel Lqwrence: the Man Behind the Legend** Dodd, Mead, N. Y. 1943.

١٦ ـ الحرب في خطوط عريضة . (١٩١٤) ، (١٩١٨) ، (١٩٣٦)
The War in Outline, 1941-1981 Faber, London Random House, N. Y. 1936.

١٧ ـ أوربا تحمل السلاح . (١٩٣٧)
Europe in Arms Faber, London: Random House, N. Y. 1937.

١٨ ـ من خلال ضباب الحرب . (١٩٣٨)
Through the Fog of War Faber, London: Random House, N. Y. 1938.

١٩ ـ الدفاع عن بريطانيا . (١٩٣٩)
The Defence of Britain Faber, London: Random House, N. Y. 1939.

٢٠ ـ الدفاع الديناميكي . (١٩٤٠)
Dynamic Defence Faberer, London 1940.

٢١ ـ تيار الحرب . (١٩٤١)
The Current of War Hutchinson, London 1941.

٢٢ ـ الحرب الآخذة بالاتساع . (١٩٤٢)
This Expanding War Faber, London 1942.

٢٣ ـ أفكار حول الحرب . (١٩٤٤)
Thoughts on War Faber, London 1944.

٢٤ ـ لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟ (١٩٤٤) ، (١٩٧٢)
Why Don't We Learn from Hestory? Allen and Unwin, London 1944; Hawthorn Books, N. Y. 1962.

٢٥ ـ الثورة في فن الحرب . (١٩٤٦) ، (١٩٤٧)

The Revolution in Warfare Faber, London 1948: Yale U. P., New Haven 1947.

٢٦ ـ الجانب الآخر للتل . (١٩٤٨)

القادة الألمان يتحدثون . (١٩٤٨) ، (١٩٥١) ، (١٩٥٦)

The Other Side of the Hill Cassell, London 1948: **The German Generals Talk** Morrow, N. Y. 1948; enlarged ed. Cassell 1951; Panther, London 1956.

٢٧ ـ الدفاع عن الغرب . (١٩٥٠)

Defence of the West Cassell, London: Morrow, N. Y. 1950.

٢٨ ـ الدبابات ، في مجلدين . (١٩٥٩)

The Tanks 2 vols, Cassell, London: Praeger, N. Y. 1959.

٢٩ ـ ردع أم دفاع ؟ (١٩٦٠)

Deterrent or Defence Stevens, London 1960: **Deterrent or Defense** Praeger, N. Y. 1960.

٣٠ ـ الذكريات في مجلدين : (١٩٦٥) ، (١٩٦٦)

Memoirs 2 vols, Cassell, London 1965: Putnam, N. Y. 1965-66.

٣١ ـ تاريخ الحرب العالمية الثانية . (١٩٧٠)

History of the Second World War Cassell, London: Putnam, N. Y. 1970.

EDITED BY LIDDELL HART — كتب بإشراف ليدل هارت

١ ـ من ت . أ . لورانس الى كاتب سيرته ليدل هارت . (١٩٣٨) ، (١٩٣٩) طبعة ثانية (مع روبرت جريفز) من ت . أ . لورانس إلى كاتبي سيرته روبرت جريفز وليدل هارت . (١٩٦٣)

T. E. Lawrence to His Boigrapher Liddell Hart Doubleday, N.Y. 1938: Faber, London 1939; 2nd ed. (with Robert Graves) **T. E. Lawrence to His Biographers Robert Graves and Liddell Hart** Doubleday: Cassell, London 1963.

٢ ـ رسائل سائق خاص : ١٨٠٩ ، ١٨٢٨ (١٩٥١)

The Letters of Private Wheeler, 1809-1828 Michael Joseph, London: Houghton Mifflin, Boston 1951.

٣ ـ أوراق روميل . (١٩٥٣)

The Rommel Papers Collins, London: Harcourt Brace, N Y. 1953.

٤ ـ الجيش السوفياتي . (١٩٥٦)

الجيش الأحمر . نيويورك (١٩٥٦)

The Soviet Army Weidenfeld and Nicolson, London 1956: **The Red Army** Harcourt Brace, N. Y. 1956.

ملحق (ب)

كتابات عن ليدل هارت

دليل تمهيدي

الدراسة الوحيدة المنشورة المعتمدة على توثيق كامل من محفوظات (أرشيف) ليدل هارت هي الفصل الممتاز في كتاب (جاي لوفاس » :

The Education of an Army (U. of Chicago 1964: Cassel 1965)

والذي نقح بالتفصيل في موضوعه . ولا بد من استخدام بحذر مقال « اريفنخ م . جيبسون » :

«Maginot and Liddle Hart»

الذي نشر في كتاب إ . م . ايرل (محررا) :

Makers of Modern Strategy: Military Thought fron Machiavelli to Hiler; (Princeton U. P. 1941: O. V. P. 1944)

فهذا الكتاب ، كما يعلن عليه « لوفاس » : « يكشف الكثير عن المزاج وخطأ الاعتقاد في ذلك الوقت بقدر ما يكشف عن ليدل هارت ، الذي ينظر اليه هنا من خلال عيون نقاده » .

ويحتوي الكتاب التكريمي بعنوان :

The Theory and Practice of War

والذي حرره «مايكل هوارد » وأهدي الى ليدل هارت في عيد ميلاده السبعين في العام ١٩٦٥ (نشر : Cassell 1965: Praeger 1965) على مقالات تمس جوانب عديدة من حياته العملية ، بما فيها تأثيره على الجيش الألماني فيا قبل العام ١٩٣٩ . ويكرس « روبين هايهام» Robin Higham قسما كبيرا لأفكار ليدل هارت في كتابه **The Military Intellectuals in Britain, 1918 -1939** (Rutgers U. P., N. J. 1966).

وبعبد ر . هـ . س . كروسمان R. H S. Crossman طبع مراجعة كتاب جيدة بعنوان «The Strange Case of Liddle Hart»

في كتاب : The Charm of Politics (Hamish Hamilton: Harper 1958(

ومن أجل نظرة نقدية إلى علاقة ليدل هارت بصحيفة التايمز انظر سيرة « بانغتون وارد » Barrington Ward التي كتبها « دونالد ماكليلان» Donald Maclachlan في الفصل الخامس عشر من كتاب : **The Chair**, (Weidenfeld 1971) ومن التقويمات الكثيرة التي صدرت بمناسبة وفاة ليدل هارت في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ـ تعد أهمها حتى الآن مقالة « مايكل هوارد » الممتازة في مجلة Encounter (عدد نيسان ـ ابريل ١٩٧٠) . كذلك ينبغي ملاحظة مراجعته النقدية لذكريات ليدل هارت في مجلة R. U. S. I. (عدد شباط ـ فبراير ١٩٦٦) : وكذلك مقالة

« باري باورز » Barry Powers Journal of Modern History
(كانون الأول) - ديسمبر ١٩٦٨) . ويمكن التوصية بقوة بمقالتين تأبينيتين أخـريين : دراسـة « رونالد لوين » Ronald Lewin في مجلة International Affairs (كانون الثاني - يناير ١٩٧١) ؛ و « روبرت أونيل » في مجلة Army Journal الاسترالية (عدد نيسان - ابريل ١٩٧٠) . كذلك فقد كتب « رونالد لوين » مادة ليدل هارت لموسوعة :

Dictionary of National Biography 1961-1970.(O. U. P.)

التي ستنشر في وقت لاحق . ويبين مقال « بريان بوند » Brian Bond [مؤلف هذا الكتاب] :

«Some Nuclear- Age Theories of Sin Basil Liddle Hart»

التي نشرت في مجلة Military Review (عدد آب - أغسطس ١٩٧٠) إن موضوعها قدم اسهامات مهمة للفكر العسكري بعد العـام ١٩٤٥ كما لعصر « الحـرب الخاطفـة » . والمحاولـة الشاملـة الوحيدة لتقديم وجهة نظر متوازنة حول حياة ليدل هارت العملية وانجازاته - عن طريق الجمع بين التعقيبات المتباينة للغاية من اصدقائه ومريديه ونقاده كانت محاولـة « روبـرت بوكوك » Robrt Pocock في برنامجه الاذاعي :

Liddle Hart: The Captain Who Taught Generals

والذي نشر في صورة مكثفة في مجلة Listener (عدد ٢٨ كانون الأول - ديسمبر ١٩٧٢) .

وأسهم « ستيفن بروكس » Stephen Brooks - الذي نظم وفهرس المحفوظات بعـد وفـاة ليدل هارت - بمقال واسع الادراك عن : Liddle Hart and His Papers»

نشر في كتاب « بريان بوند » و « ايان روي » (محرران) :

War and Society Yearbook II)Croom Helin Holmes and Meier 1977) PP. 129-40

***

محتويات الكتاب

الطبعة الأولى
ايار (مايو) ١٩٧٩

الفكر العسكري
عند
ليدل هارت

إن ليدل هارت هو المعترف به عالمياً للحرب الميكانيكية أو **الحرب الخاطفة** وبطل استراتيجية التقرب غير المباشر ؛ وحرب الحركة ، وهو أحد أعظم الكتّاب العسكريين في القرن العشرين على الإطلاق ، وأغزرهم إنتاجاً وأعمقهم فكراً . وقد رافق تطور الأسلحة الحديثة ، وشهد نتائج استخدامها ووقف محللاً لأحداثها ، متوقعاً تطوراتها ، لا في المجال التكتيكي والعملياتي فقط وإنما تجاوزها إلى أفق الاستراتيجية الرحب .

وتشكل الدراسة الحالية المحاولة الأولى لوضع فكر ليدل هارت العسكري في المنظور الملائم عن طريق تقصي أصول وتطور أفكاره الأساسية طوال حياته العملية كلها . وثمة هدف هام آخر لهذه الدراسة هو البرهنة على أن إسهام ليدل هارت في فهم مشكلات الحرب والسّلام المعاصرة لم يتوقف بصورة مباغتة في العام ١٩٤٠ أو العام ١٩٤٥ . ذلك لأنه على النقيض ـ كان من بين أكثر المحللين الأوائل للطبيعة المحتملة للحرب والصراع في العصر النووي قدرة على التنبؤ .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن : ١٥ ل . ل
أو ما يعادلها